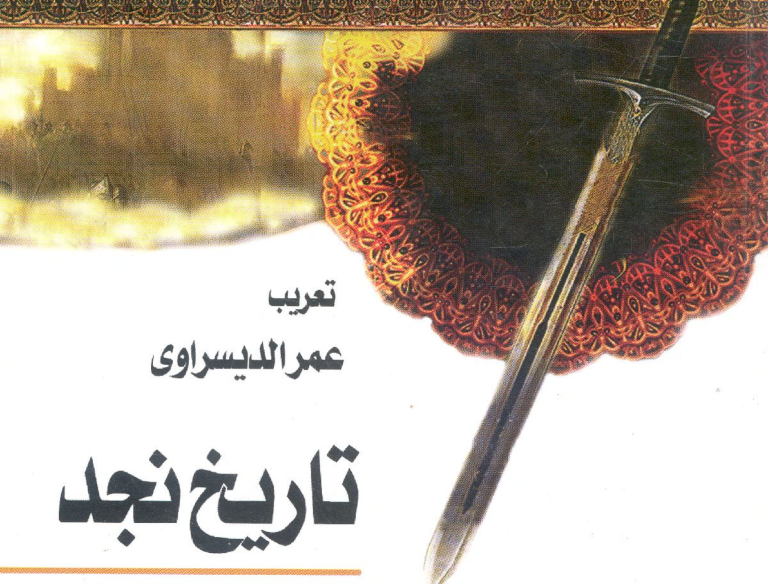


تعريب

عمر الديسراوى

تاريخ نجد

ودعوة محمد بن عبد الوهاب

السلفية

تأليف

سنت جون فيلبى

m.lotfy

مكتبة مدبولى

تاريخ نجد

ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

اسم الكتاب : **تـــاريـــخ نـــجـــد**
ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (السلفية)
اسم المـؤلف : سنت جون فيلبى
تـعريـب: عمر الديسراوى
الطـبـعة : الأولى / ٢٠٠٩
رقم الإيـداع : ١٩٤٩٦ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى : 7 - 770 - 208 - 977
النـاشـر : مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة
ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ ف : ٢٥٧٥٢٨٥٤
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com

الآراء الواردة فى هـذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر

تحذير : حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف ، لا يجوز بأي حال من الأحوال إقتباس جزء من هذا الكتاب أو نسخه – تصويره – على شكل ملزمة، أو إعادة طبعه بأي صورة كانت دون موافقة كتابية مسبقة من المؤلف ، وذلك لتفادي التعرض للعقوبة

تاريخ نجد

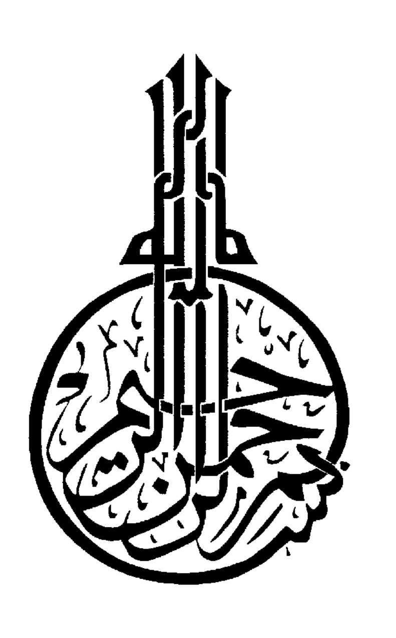
ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(السلفية)

تأليف
سنت جون فيلبى

تعريب
عمر الديسراوى

الناشر
مكتبة مدبولى
2009


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة دار النشر

لاشك أن القارئ والمتأمل للتاريخ الإسلامى يستدعى انتباهه الأحداث التى مرت بشبه جزيرة العرب قلب العالم الاسلامى ، ولذا اضطلع كثير من الباحثين والمؤرخين بالاهتمام بتاريخ هذه المنطقة سواء منهم العرب وغير العرب .

ونحن بدورنا كدار نشر نقدم لقرائنا الأعزاء أجلَّ ما كُتب عن تاريخ شبه الجزيرة ، حتى يستجلى القارئ العبر التاريخية والسياسية من جراء معرفته للأحداث التى تمر بها الأمم، والدول الصغرى منها ، والكبرى - فى أيام خلقها الله فى الزمان وجعلها جزءًا منه ، وجعل هذا الزمان فى المكان ، وفى ذلك يقول تبارَك وتعالى فى محكم آياته : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠-١٤١] .

فالغاية من التاريخ والأحداث السياسية هو استخلاص واستنتاج العبر السياسية ، والأخلاقية التى تحيا عليها الأمم ، فتتعلم من الماضى ، وتوظف أحداثه لحاضرها ومستقبلها، وهذا ما نتعلمه من ذلك السِّفر الجليل الذى بين أيدينا للعلامة (سنت جون فيلبى) .

ولكن عند قراءتنا لهذا الكتاب وجدنا ملاحظتين الأولى : أنه تنقصه الخرائط الخاصة ببعض المعارك الحربية الهامة التى ذكرت فى هذا الكتاب ، ولذا قامت دار النشر بتزويده بتلك الخرائط نظرًا لأهميتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ومَن يَطَّلع على هذا الكتاب فسوف يجد صدق ما نقول من جهة هذه الأهمية بالذات ، ولاسيما فى منطقة الشرق الاسلامى كله .

أما الملاحظة الثانية :

فهى عدم ذكر المراجع والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف ، ولذا عملت دار النشر على ترتيب هذه المراجع والمصادر فى مؤخرة الكتاب تيسيرًا على القارئ العزيز فى الرجوع إليها .

وأخيرًا ، ونحن إذ نقدم إلى القراء هذه المنشورات الجليلة بغية نشر الثقافة والوعى الفكرى فى العالم الاسلامى ، لانرجو من وراء ذلك إلا التوفيق والأجر من الله تبارك وتعالى ، والله من وراء القصد ، وهو يهدى إلى سواء السبيل .

مع تحيات

مكتبة مدبولى

الفصل الأول

إمارة الدرعية

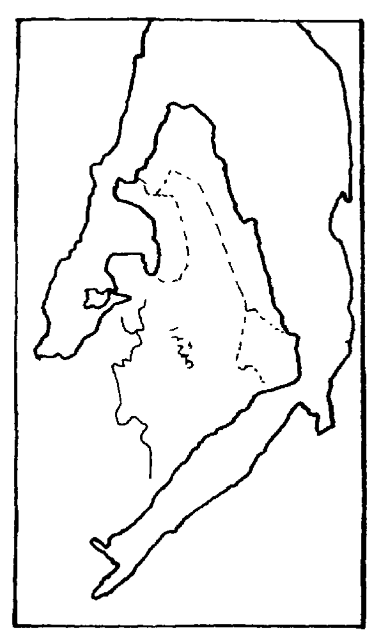
لم يكن قد مضى على وفاة تيمور لنك إلا أقل من نصف قرن، وكان لا يزال مقدرا للعرب أن يبقوا فى أسبانيا نصف قرن آخر ، وقبل أن يكتشف كولومبس أميركا بنصف قرن أيضًا حين توجه سنة ١٤٤٦ مواطن من عامة أهل القطيف ، ومن ضاحية هناك تسمى الدرعية ليزور ابن عمه ، ابن الدروع الذى كان قد استقر منذ زمن بعيد فى منفوحة . وهى قرية بقرب الرياض فى أواسط الجزيرة العربية .

وكان ابن عمه هذا زعيم عشيرة الدروع الذين كانوا يقطنون فى القرى المهجورة من جزع وهدر اليمامة فى الوقت الحاضر . وكان رجلا موسرًا ذا ممتلكات واسعة تحتاج إلى عناية وتطوير. فأقطع ضيفه قطعتين من الأرض تبعدان اثنى عشر ميلا فى أعالى الوادى عن أراضيه ، إحداهما تدعى " الغصيبة " والثانية " المليبد " . وعلى هذه الصورة البسيطة بدأت هجرة الدروع إلى ذلك الوادى واستقرارهم فيه .

ثم تقادم العهد حتى صارت تعرف باسم الدرعية تخليدًا لذكرى القرية الأم التى نشأ فيها أجداد سكانها ، قرب الخليج الفارسى " العربى " .

ولا يمكن الجزم ، بشخصية من أُغدقت عليه هذه الأملاك ، أهو مانع المريدى نفسه ، وهو الذى ابتدر بالاتصال مع ذلك الغريب على التحقيق ، أم أنه أبوه ربيعة . وعلى كل حال

فقد كان ربيعة هو الذى وضع أساسات تنمية رقعة ذلك المهجر وتوسيعه العدوانى على حساب جيرانه ، الا أن الفضل يعود إلى مانع وابنه ربيعة فى كونها أسبق الأسلاف المعروفين للبيت السعودى . وهو البيت الذى سيطر على مسرح السياسة فى الجزيرة العربية طوال المائتى سنة الأخيرة .



استقرار الدروع فى منطقة الغصيبة فى قلب شبه الجزيرة العربية

وما سعود الذى منح اسمه للبيت السعودى بعد أن أسسه ، الا الحفيد الخامس فى سلسلة أحفاده . أما ملك المملكة العربية السعودية الحالى فهو سليله من الصلب للجيل الخامس عشر . هذا فى حين أن البيت الذى انشأه ذلك الرجل يبدو مضمون البقاء إلى الأبد ، فمجرد بلوغه الجيل السابع عشر ناسلاً مثل هذا العدد الكبير من الأفراد يضمن له دوام الحياة إلى عصور لا نحلم برؤيتها .

ولا يذكر تاريخ شبه جزيرة العرب سببًا معينًا جعل وادى حنيفة يجذب اهتمامًا عظيمًا من اكثر من ناحية فى أواسط القرن الخامس عشر .

ففى أواسط ذلك القرن حظى وادى حنيفة بالاهتمام العظيم فى تاريخ الجزيرة . وكان سكان ذلك الوادى فى تلك الأثناء ، يملكون واديهم كاملا من ممر الحيسية حتى الخروج ، وهم فرع من قبائل آل يزيد الحنيفيين . ومن المفروض أنهم تنازلوا عن أملاكهم إلى ابن درع الآنف الذكر قبل زيارة مانع بمدة قصيرة ، كما أنهم فى عام ١٤٤٦ ذاته باعوا أراضى العُيينة الواسعة إلى حسن بن طوق من بنى ملحم وهو جد آل معمر ، أمراء تلك الناحية الذين ظل نجمهم فى صعود فى أواسط الجزيرة العربية حين غاب عن العيون حين طلع بدر السعوديين فانتشر نوره .

كان ما تبقى الآن لآل يزيد من ممتلكاتهم فى وادى حنيفة عبارة عن جزء من الوادى يمتد من شمالى الغصيبة حتى أرض " جبيلة " والقرية المعروفة بذلك الاسم فيشملها . وكانت مناطق سكانهم الرئيسية قريتى الوصيل والنعمية ، إلا أنه لم يقدر لهم أن يبقوا فيها طويلاً ، فقد طمع ربيعة بكرومهم فابتدأهم بالعدوان .

ثم جاء بعده ابنه موسى فأخضعهم . وكان هذا قد عزل والده واغتصب منه الزعامة ، ثم حاول قتله فلم ينجح فى ذلك . وحينئذ فر الوالد المثخن بالجراح إلى العيينة ، حيث استقبله حمد بن حسن بن طوق استقبالا رائعًا وأكرم وفادته . أما عشيرة آل يزيد فقد ولت

الأدبار أمام هجوم موسى ، مخلّفة وراءها ثمانين قتيلاً . ومنذ ذلك الزمن لم يرد لهم ذكر فى تاريخ وادى حنيفة الا أن عائلة دغيثر التى تقطن الدرعية تدعى أنها انحدرت منهم .

وهكذا لم ينقض جيلان ، حتى غدا النازحون الذين جاءوا من القطيف سادة فى هذه المنطقة التى آوتهم . وكانوا يمتازون بمواهب بنّاءة ، اذا آثرنا أن نستعمل كلمة ميول عدوانية، بالنظر إلى أن الأساليب العنيفة الصارمة التى كانوا يستعملونها كانت شيئًا عاديًا مألوفًا فى الجزيرة آنذاك .

وفى بداية القرن السادس عشر ، أى عندما خلف إبراهيم أباه موسى ، كانت قد تمت سيادة هذه الأسرة على الوادى إلى الجنوب من جبيلة ، وكانت جبيلة وجميع الأراضى الواقعة شمالها بما فى ذلك هضبة طويق ، تدخل ضمن حدود إمارة بنى حسن بن طوق وأميرهم فى ذلك الوقت معمر بن حمد مؤسس أسرة عيينة . نقول هذا وإن كان أنحاء الجزء المتعلق بهذه الناحية من مخطوط تاريخ ابن بشر المعروف ، يجعلنا على غير يقين من ذلك ، وكانت هذه "الدويلات " الاكبر قليلا من الإمارات المحلية ، تمتد موازية للإمارة الخاضعة لأجود بن زامل الجبرى ، على طول ساحل الخليج الفارسى فى مقاطعة الإحساء ، وفيما عدا الامارات السالفة يبدو أنه لم يكن هناك كيانات سياسية منظمة بالمعنى الصحيح فى الصحراء العربية ، بالرغم من وجود عدد من الممالك المدينية المستقلة أستقلالاً كاملا إلى جانب هذه التجمعات الكبيرة الطموح . ومن هذا القبيل كانت حرمة والمجمعة اللتان يرجع تاريخ انشائهما إلى سنة ١٣٦٨م و ١٤٢٦م على التوالى . هذا بينما كانت الرياض ومنفوحة واليمامة تشكل عنصرًا هاما فى كيان الجزيرة السياسى فى تلك الحقبة من التاريخ وكذلك كانت جاليات السُدير والقصيم وجبل شمر . ونحن وإن كنا لا نعرفُ الكثير عن تاريخها فى الفترة التى ندرسها الا أنا نجد تاريخ ملحمة الدرعية يأتى على ذكرها بشكل عابر على نحو ما جاء فى ملحمة هوميروس .

و اذا ما عدنا إلى ما يهمنا من مجرى التاريخ ، طالعنا ابراهيم بن موسى يوطد حكمه فى إماراته الصغيرة ثم يأخذ فى التطلع إلى التوسع فيها وراء حدودها العتيقة .

لقد كان مطمئنا إلى قدَّم وجود قوة خارجية تهدده ، وهكذا رحل ابنه عبد الرحمن إلى ضُرمه ، حيث أسس هناك بلدًا قدَّر لها أن تلعب دورًا هاما فى تاريخ البلاد فيها بعد . وذلك لما اشتهر به أبناؤها من شجاعة وحب شديد فى الاستقلال . فقد كان توجد عشيرة " آل ابو يحيى " التى استوطنت موقع " ابا الكباش " إلى شمال الدرعية . وهو اليوم عبارة عن خرائب تتألف من جدران وأبراج متداعية كانت لحصن قديم .

أما عبد الله ، الابن الثالث لإبراهيم فقد كان جد " آل واطب " وحامولات أخرى ليست ذات شأن فى هذه الأيام . ويبقى مرخان الابن الرابع لإبراهيم وهو يستحق الذكر والصدارة . ولم لا وهو مؤسس البيت السعودى المعاصر ، عن طريق حفيده محمد بن مقرن والد سعود الأول .

ويبدوا أن هجرة عبد الرحمن ، أكبر أبناء إبراهيم الأربعة إلى ضُرمه كانت مشروطة بتنازله عن حقوقه فى الدرعية . وكذلك كانت هجرة سيف إلى ابى الكباش مع أن الاخيرة لا تبعد عن العاصمة كثيرًا من الجبل الثالث ، بعد سيف وعبد الرحمن .

فقد قتل أحفاد سيف ابن عمومتهم ابراهيم حفيد عبد الرحمن ، فاختاروا النزوح تفاديًا للانتقام منهم . ونحن لا نعرف عن عبد الله اكثر من أن سلالته لا زالت مغمورة حتى الآن . إذ تقلد مرخان مشيخة العائلة بعد وفاة والدهم . ثم خلفه بكرهُ ربيعة الذى أشير إليه باسم أمير الدرعية ، عندما ورد حجه مع أخيه "مقرن" إلى مكة سنة ١٦٣٠م . وقد صدف انه حدث طوفان فى مكة المكرمة فى الثانى عشر من نيسان من ذلك العام فدمر الكعبة ، مما اضطر الناس إلى هدم ما تبقى منها ثم إعادة بنائها . وقد استغرق العمل فيها زهاء السبع سنوات فتم

الاحتفال بإنجاز بنائها فى أيار سنة ١٦٣٦م . وكان ذلك الطوفان أيام ولاية الشريف سعود ابن ادريس بن ابى نعمى .

وما دمنا سنتطرق إلى بحث الترخص الدينى والارتداد إلى ممارسة العادات الذميمة فى الجاهلية اللذين كانا يسودان الجزيرة العربية أيام مطلع الوهابية فى أواسط القرن الثامن عشر، فإنه يجدر بنا أن نتذكر شدة تمسك سكان الجزيرة العربية بالطقوس والمراسم الدينية خلال القرون التى سبقت ، ففى سنة ١٥٠٦م مثلاً ، قامت قافلة يقدر عددها بثلاثين ألفا من الحجاج من الإحساء . وقبل ذلك بمائتى عام تقريبًا ، أى فى سنة ١٣٣٧ ، كان قد توفى " ابن تيمية " باعث الدعوة الأكبر إلى التوحيد لقد مات الرجل ، إلا أن تعاليمه ومبادئه ظلت حية فى الجزيرة العربية .

ويورد ابن بشر فى تاريخه قائمة بأسماء كبار الأئمة الذين عاصروا أجود بن زامل حين يتحدث عن وفاة الشيخ أحمد بن يحيى بن زيد وتشييع جنازته فى جبيلة سنة ١٥٤١م . وكان هذا الشيخ قد تلقى علومه الفقهية فى حلقات معظم أولئك الفقهاء فى المساجد . ويضيف بن بشر إلى ذلك بشئ من الموافقة والتحيذ عند تعيين السلطان سليم الأول لقاضى حنبلى كرئيس لقضاة مصر سنة ١٥١٧م . كما يذكر أن هذا القاضى ، واسمه الشيخ أحمد بن النجار ، كان آخر قاضى قضاة من أصل عربى . فقد كان أنصاريا من بنى النجار فى المدينة المنورة . ومما يستدعى النظر فى ذلك الحين أن العثمانيين ، وهم الذين احتلوا مصر و اغتصبوا الخلافة الإسلامية لم يأبهوا بالجزيرة العربية وإن كانوا قريبًا سيفعلون ذلك ففى العقد الأخير من القرن السادس عشر غزوا مقاطعة الإحساء واحتلوها . وقد عينوا فاتح باشا أول وال عليها بعد إخضاع عائلة أجود بن زامل الجبرى العقلى القيسى . ويبدو أنه لم يتوفر بين أيدينا تاريخ معروف لآخر أمير من آل زامل ، أو لأسلافه الذين سبقوا أجود : ولا مدة حكمهم فى الإحساء . وكان ذلك سنة ١٥٩١م . اما قافلة الحج التالية التى خرجت من الاحساء فقد تم

خروجها بعد ذلك بأربعين عامًا . وكانت تحت إمرة بكر بن علي باشا ، ابن الحاكم الذى خلف فاتح باشا مباشرة.

وعلى باشا هذا هو الذى استقبل الشريف محسن بن حسين بن حسن شريف مكة ، وأبناء عمه ضارى عبد المطلب استقبالا منقطع النظير سنة ١٦٢٢م ، أثناء الزيارة التى قاموا بها للهفوف من جملة واسعة فى الجزيرة . وفى هذه الأيام كان الحجاز مستقرًا تحت إمرة الأشراف الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة . وكانوا يقومون بالإغارة على تلك المناطق بغية تأديب أهلها حينًا ، ولملئ خزائنهم بالمال أحيانًا . والى هذه الغارات كما يذكر ابن بشر تلك التى وقعت سنة ١٥٧٨م عندما وصل الشريف حسن أبو نعمى إلى الرياض بجيش عدته خمسون ألفًا من الجنود ورابط هناك طويلا يقتل وينهب . وحين هم الشريف بمغادرة البلاد ، عين من ولدنه رجلا اسمه محمد بن فضل أميرًا عليها وارتهن عددًا من الزعماء سجنهم عامًا ، ولكنه عاد فأطلق سراحهم بعد ذلك شريطة أن يدفعوا له جزية سنوية معينة وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجدًا . وقد وجه اهتمامه هذه المرة إلى مقاطعة الخرج فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية فى المرتفعات المحيطة بها . ثم عاد إلى بلاده تاركًا من ينوبون عنه فى إدارة شؤون المقاطعة . وما كاد يغادرها حتى جاءته أخبار غارة أعدها بنو خالد للوثوب عليه والإستيلاء على دوابه وحوامله . وقد فعل البدو ذلك غير أن الغزاة منهم وجدوا الشريف مستعدًا لملاقاتهم ، فهزمهم شر هزيمة وكبدهم عددًا كبيرًا من القتلى ، كما استولى على جميع رواحلهم . ولم يمض على تلك الواقعة إلا فترة قصيرة حتى خضع بنو خالد للحكم التركى ، كما انتهى حكم الشريف حسن بن نعمى يوم وفاته فى مكة .

وقد خلفه فى إمارة مكة ابنه إدريس الذى غزا شقيقهُ أبو طالب نجدًا نيابةً عنه سنة ١٦٠٢م وكان إدريس هذا قد أشرك معه فى الحكم حين توليه ، أخاه فهيدًا وابن أخيه محسن

بن حسين ، و جعلهما نديّن له أما فهيد فأعفى فيما بعد . وأما محسن فقد ظل مخلصًا لعمه وشريكًا له فى الحكم حتى وافت المنيةُ عمه فى يطب من قرى جبل شمر ، يومها انضم إلى شقيقه ابى طالب فى الحملة التى ذكرناها آنفا . وحينئذ قام محسن باغتصاب الإمارة من أبناء عمه ، إذ كان أقوى رجل فى العائلة . وقد غزا نجدا بنفسه سنة ١٦٠٦م وكان هدفه قرية قصب فى شعيب العتك ، فاحتلها وأعمل السيف فى رقاب أهلها بوحشية وفى ذلك الزمن كانت المناطق الواقعة فى أواسط الجزيرة العربية تعانى القلقلة وعدم الاستقرار . فأخذت تكون لنفسها تجمعات متنقلة على الطراز الذى سنشهده سائدًا فى تلك المناطف أيام الوهابيين بعد ذلك بمدة طويلة . فقام محمد وعبد الله الحنيحن بالاستيلاء على أراضى عشيرة العرينات فى قرية البير بمنطقة السدير ، وأخذوا يحسنون مزارعها حتى آلت اخيرًا إلى حوزة حمد بن محمد الذى كان أحفاده لا يزالون يستثمرونها فى أواسط القرن التاسع عشر . وفى نفس سنة ١٦٠٦م أنشأت عشيرة آل التميم قرى الحصن قرب واحة " جنوبية " فى السدير وفى جنوب الوادى عند حسن قارة ، وفى سنة ١٦٣٠م احتل الحزازنة واحتى حارق ونعيم جنوبى مقاطعة الخرج . وهم لا يزالون هناك حتى هذا اليوم . هذا فى الحين الذى انتقل فيه ذلك الجزء من واحة الرياض المعروفة بالمقرن من يد إلى أخرى منذ اغتيال أبناء مفرج بن ناصر وساداته وشيوخ الأسرة المسيطرة فيه ، بمكيدة من أبناء عشيرة المديربس التى اغتصبت زعامة المنطقة بعد ذلك.

وفى غضون هذه المدة كان الشريف محسن قد توفى بعد زيارته للاحساء بفترة وجيزة ، فخلفه فى الإمارة ابن عمه سعود بن إدريس سنة ١٦٢٢م . ولكن أمر سعود هذا لم يدم طويلاً إذ سرعان ما خلفه زيد بن محسن (الشريف المتوفى سابقًا) فى الإمارة سنة ١٦٣١م ، ولكن زيدًا استعاد الإمارة منه بعد مائة يوم فقط واحتفظ بها إلى يوم وفاته سنة ١٦٦٥م .

كانت نجد الآن تتمتع نسبيًا بفترة راحة فلم يعد شرفاء مكة يتدخلون بشؤون أهلها . وتحول الاهتمام بأمور نجد إلى أحمد بن عبد الله بن معمر أمير العيينة الذى كان يطمح إلى توسيع إمارته، فغزا مقاطعة السدير سنة ١٦٤٢م . ولكنه لم يصب نجاحًا كبيرًا فى الاستيلاء على قرية أم عمار فى الطرف الأقصى من واحة الحوطة وقد انتهت مطامعه سريعًا ، حيث توفى فى موقع المغاسل ، محطة السيل الكبير اليوم ، وهو يقوم بفريضة الحج . وقد خلفه ابنه ناصر سنة ١٧٤٧م ، لكنه قتل على يد ابن أخيه دواس بن محمد الذى اغتصب إمارة العيينة حينذاك.

وكان فى هذه الأثناء ، أن جدد الشريف زيد بن محسن نشاطه فى داخل الجزيرة ، حيث انطلق الشريف محمد لحراث بعد أن جهزه زيد سنة ١٦٤٦م فى زيارته إلى ثرمدة . وهناك قابله الفقيه المشهور الشيخ محمد بن اسماعيل فطرد من نفسه كل ما كان يضمره من نوايا شريرة للبلدة بعد أن رقاه بتعويذه مباركة . وفى السنة التالية قام الشريف زيد بنفسه بحملة واسعة على نجد وهاجم روضة السدير ، فقتل زعيمها محمد بن ماضى بن محمد بن ثارى واقترف جنوده أعمالا تقشعر لها الأبدان . ثم تقدم زيد جنوبًا إلى بنبان مكتسحا مشارف الرياض . وفى أثناء عودته إلى بلاده مر بالعيينة واستحوذ من أهلها على مبلغ من المال وحمولة ثلاثمائة جمل من القمح .

وكان ذلك شؤما على العيينة وعارًا لها . ففى السنة التالية قتل محمد بن حمد بن عبد الله ابن عمه دواس ، الذى كان قد اغتصب الإمارة منذ أقل من تسعة أشهر ، كما طرد منها شقيق دواس، وبقية أفراد عائلته . ولم يدم حكم محمد طويلاً، إذ توفى سنة ١٦٦١م فخلفه ابن عمه، عبد الله بن أحمد . غير أن هذا سرعان ما اختلف مع سكان قرية البير فى السدير بسبب سوقه إبلهم فى إحدى غاراته العادية . ولذلك انتقموا منه بأن نهبوا قافلة من قوافل العيينة وسلبوا البضائع التى كانت تحملها من الساحل . وحينئذ أعد عبد الله حملة تأديبية يهدف بها إلى تلقين

القرويين درسا لن ينسوه ، وكان يرافقه قاضي العيينة ، وكان من حسن حظ أهل البلدة أن انهار جدران من سور القرية حالما تجمع المهاجمون تحته استعداد للهجوم . وكانت الإصابات الكبيرة التى لحققت بهم هى التى حولت الهجوم العدوانى إلى مفاوضات سلمية للصلح بين الطرفين . وقد لعب القاضي دورًا مهمًا فى إيجاد تسوية سلمية بين الأمير والقرويين واشترط إعادة المنهوبات من الجانبين .

ليس لدينا شئ عن التطورات التى حدثت فى الدرعية فى الفترة التى تلت حج أميرها ربيعة سنة ١٦٣٠م . وكل ما يورده ابن بشر عن الوضع هناك أنه فى سنة ١٦٤٥م قام وطبان ابن ربيعة ، وخليفته ، بقتل ابن عمه مرخان بن مقرن واغتصب إمارة الغصيبة . ووقائع هذه الفترة معقدة للغاية . ومن الممكن أن نصيب الحقيقة إذا رتبنا أحداثها التاريخية على هذه الصورة : لقد خلف وطبان والده فى زمن ما بين سنتى ١٦٤٠ ، ١٦٥٤م ولكن ابن عمه مرخان ثار عليه وعزله غير أن وطبان استطاع أن يقتله ويستعيد مركزه كأمير للدرعية سنة ١٦٥٤م .

وهناك رواية أخرى مفادها أنه هرب ليتجنب ما يترتب على فعلته من تراث ثم استقر فى الزبير ، حيث أصبح حفيده إبراهيم بن ثاقب أميرها مع الزمن . أما أشهر أبنائه محمد الذى خلفه فى الإمارة فقد توصل إلى مركز سياسى مرموق ، الأمر الذى أثار حفيظة الحاكم التركى فى زمنه ، وفى سنة ١٨٣٦م أستدرجه الحاكم إلى سراى الحكومة فى مدينة البصرة واغتاله مع جمع من أقاربه وأتباعه . ومهما يكن من أمر ، فهناك من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأن خلف مرخان بن مقرن فى " إمارة الدرعية" لم يكن ابنه الذى بقى كما يبدو فى العاصمة ، بل شقيق مرخان محمد بن مقرن والد سعود . ومحمد هذا هو أول من تولى الملك من أسلاف الملك الحالى . وبعد أن آلت إليه الإمارة سنة ١٦٥٤م أى منذ ثلاثة قرون قبل دفع هذا الكتاب إلى المطبعة على التحقيق خلفه ابنه البكر ناصر ، شقيق سعود والذى اشتهر بلقب أمير

الدرعية سنة ١٦٧٣م ، عندما ذبح هو وابن عمه بن وطبان أخذًا بالثأر من والد الأخير . وربما تم ذلك بمساعدة محمد بن مقرن .

وهناك ما يشير إلى أن القاتل كان مرخان بن وطبان الذى اغتصب الإمارة . الا أنه قتل بدوره سنة ١٦٩٠م على يد أخيه إبراهيم . وقد ظل إبراهيم فى الحكم حتى سنة ١٦٩٤م حين اغتاله شخص يدعى يحيى بن سلامة . لا نعرف عنه شيئًا ، إلا إذا كان ابن سلامة بن سويط أمير عشيرة الظافر .

وحتى هذه المرحلة نجد قصة أمراء الدرعية المتشابكة تغدو أكثر تعقيدًا وغموضًا عن ذى قبل . وذلك لأن محمد ابن مقرن الذى تولى الحكم سنة ١٦٥٤م لم يمت إلا سنة ١٦٩٤م. ولربما أنه تنازل عن حقوقه فى الإمارة أو عزل من منصبه ليخلفه ابنه ناصر قبل سنة ١٦٧٣م، وبعد ذلك ظل مواطنًا عاديًا خلال الخمسة والعشرين عامًا التى تلت . ويجوز أنه ظل هو الحاكم الأسمى خلال فترة الأربعين عامًا هذه بينما أخذ أعضاء العائلة الباقون يتنازعون الأمر بينهم فى سبيل الحكم الفعلى . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن ابنه سعودًا كان يبلغ الثلاثين ربيعًا من العمر عند ظهوره لأول مرة على مسرح التاريخ العربى سنة ١٦٨٥م .

وفى تلك السنة قاد حملة على مدينة حريملة يرافقه عبد الله بن معمر أشهر أمراء العيينة واشترك فى القتال . وتعرف هذه المعركة فى تاريخ نجد " بيوم الكمين الأول " ، وقد فقد المدافعون فيها ثلاثين قتيلاً . ومن غير المعقول أن يكون عمره أقل من العشرين فى ذلك الحين، وهذا ما يرجح لدينا أن سعودًا ولد سنة ١٦٦٥م ، وكانت هذه السنة أول سنى الجفاف والجوع فى الجزيرة العربية . وإذا رجعنا القهقرى فى تاريخ الجزيرة مائة عام من هذه النقطة التى وصلنا إليها ، أبصرنا الأتراك قد احتلوا بغداد واستقروا فيها فى أوائل القرن السابع عشر .

ولكن شاه فارس ، عباس الأول ، هاجم بغداد بجيش لجب فاضطر الأتراك لمواجهة تحديه . وكان بكر باشا الوالى التركى فى بغداد قد أسخط السلطان فأمر بطرده من منصبه ولكنه كان قوى الشكيمة ، فتحدى الباب العالى وظل يمارس سلطاته بحزم . وهذا ما جعل أحمد باشا حافظ الذى عينه السلطان ليتسلم ولاية بغداد يرى من الحكمة أن يقفل راجعًا من منتصف الطريق . وهنا سنحت الفرصة للشاه عباس ، فأغرى بكرًا على فتح أبواب المدينة أمام جيشه واعدًا بأن يثبته فى منصبه عندما يحتل المدينة . وحين تم ذلك كان الوالى المتمرد أول ضحايا هجوم جيش الشاه ، الذين طفقوا ينهبون المدينة ويقتلون أهلها دون شفقة ولا رحمة . ولما كان الشاه إسماعيل الصفوى شيعيًا فقد صب نقمته على أهل السنة من المسلمين ، مختصًا العلماء منهم بالقسط الأوفى من التعذيب ثم أخذ جنوده يدمرون الجوامع ويحرقون دور الكتب فى المدينة . وقد طال البلاء ... وأخيرًا عين الشاه حاكمًا فارسيًا مكان بكر . ولقد باءت جميع جهود الأتراك لاسترجاع المدينة بالفشل ، وظل الصفويون يحتلون بغداد حتى سنة ١٦٣٨م حينما هاجمت جيوش السلطان مراد ، ولاية بغداد واستعادت المدينة .

وكما أسلفنا سابقًا كان قد مضى قرن على سيطرة الأتراك على مقاطعة الإحساء . وما كادت تنقضى عقود على ذلك أى حوالى ١٦٦٧م حتى أحكم العثمانيون الطوق على أطراف الجزيرة العربية ، يوم احتل مصطفى باشا مدينة البصرى نيابة عن السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد ومع هذا ظل الحاجز بمنأى عن تطلع الأستانة إليه ، بالرغم من الوصاية الاسمية للخليفة السلطان على الأماكن المقدسة .

وفى سنة ١٦٦٥م مات الشريف زيد بن محسن بعد حكم دام قرابة الأربعين سنة ، فخلفه فى الإمارة ابنه سعد بعد صراع بينه وبين الشريف حمود بن عبد الله الذى كان زيد قد اختاره ليخلفه فى الإمارة ، وعلى هذا الأساس زوجه من ابنته ومنحه سلطات واسعة فى الإمارة ، حتى لم يبق شك فى نفوس الناس بأنه أميرهم المرتقب بعد وفاة صهره زيد . ولكن

يبدو أن حمودًا هذا كان ضعيف الشخصية قليل الطموح ، إذ سرعان ما رضخ لمطالب سعد بعد نزاع قصير .

وفى سنة ١٦٦٩م عُهدت إلى الشريف حمود قيادة حملة عامة على نجد ، فأخضع قبائل متعددة منها قبيلة عنزة ومطيروبنى حسين " حرب " ، وبنى هتيم موالى العوازم آخر من بقى فى الكويت . ولكن هدفه الرئيسى كان قبيلة الظافر النازلة فى العراق ، إذ كانت هذه القبيلة قد نهبت عددًا كبيرًا من إبل عشائر سمدة احدى بطون قبيلة الظافر . وقد أنضم هؤلاء إلى جيش حمود وتبعهم سلامة ابن سويط زعيم الظافر . ولما رفض المتعددون إعادة الأسلاب وفقًا لتقاليد البدو حث سلامة حمودًا على أن يلقى القبض عليهم ويسجنهم ، ولكن حمودًا رفض الأخذ بنصيحته ، فعاد سلامة إلى قبيلته وأخذ يستعد للقتال . وكانت فعلة قبيلة سمدة هذه سببًا فى نشوب المعركة . وفيها تعرض بنو عدوان وعناصر أخرى من جيش حمود لهجوم بنى ظافر الشديد الذى أودى بحياة خلق كُثُر ، كان منهم شقيق حمود وأبناء أخيه .. كانت المعركة فى مصلحة رجال القبائل ولكن الشريف غالب بن زامل ألحق بهم خسائر فادحة فى هجوم معاكس قام به بعد ذلك بفترة وجيزة . وقد طال العداء بينهم حتى جاء الشريف حمود بن زيد فعقد الصلح بين الفريقين .

وانقضى على ذلك بضعة أعوام . ثم قام الشريف بركات بهجوم عام على قبيلة حرب وشيخها أحمد بن رحمة بن مضيان ، الذى لاقى حتفه مع عدد من شيوخ قبيلته رغمًا عن الخنادق التى حفروها ليعرقلوا تقدم خيالة الشريف . ولكن الخنادق لم تُجْدِهم نفعًا فى القتال فأتخذوها مقابر لقتلاهم وعلى أثر ذلك أمر حمود ببلادهم فنُهبت . وتذكر الروايات أن شريفًا مشهورًا آخر يدعى عبد الرحمن ابن حمد بن محمود بن عبد الرحمن توفى فى السنة التالية أى سنة ١٦٧٤م .

وفى نفس السنة التى شهدت وفاة الشريف حمود بطل معركة الظافر ، ووفاة الشريف أحمد بن محمد بن الحارث الفيلسوف المشهور الذى كان يستشيره الشرفاء المعاصرون فى كل

الأمور . فقد توفى لدى تعيينه أميرًا على مكة من قبل وال تركى اسمه حسن باشا ، حينما اختلف سعد وحمود بعد وفاة زيد . وقد أدرك المتخاصمون ما يرمى إليه حسن باشا وأسرعوا إلى إنهاء خلافاتهم واختاروا سعدًا كيما يتخلصوا من مرشح الأتراك . وهذه أول مرة يُشار فيها إلى تدخل الأتراك فى الحجاز .

كان حسن باشا واليًا على المنطقة للسلطان ، غير أنه فى الواقع لم يكن أكثر من مجرد قائد للحملة العسكرية التركية . ومما زاد فى أوضاع الشرفاء المعقدة فى مكة ضغثًا على أبالة أن الولاية فى مكة سنة ١٦٦٧م كانت فى عائلة آل يزيد ، التى كانت صنوًا لعائلة " أبو نعمى " حيث كان سعد هو الشريف الحاكم فى ذلك الزمن ، وفى خدمته أحمد آل حُراث أميرًا على نجد .

هذه أول مطالب شرفاء مكة فى السيادة على داخل الجزيرة ، أما الغارات على نجد فهى شاهد لنا على رأيهم بهذا الصدد .

وفى سنة ١٦٧٦م غزا الشريف محمد آل حراث نجدًا ليهاجم قبيلة الفضول فقتل زعيمها . وفى نفس السنة شن شريف آخر أسمه حارث هجومًا على قبيلة الظافر فى ضُلفعة فى القصيم قرب البكيرية وهى المكان الذى وقعت فيه المعركة الشهيرة بين العرب والأتراك سنة ١٩٠٤م فأنهزمت قبيلة الظافر وتعهدت بدفع الجزية السنوية إلى مكة ثمنًا للسلام . ومن المحتمل أن يكون الشخص الذى يشار إليه باسم أحمد آل حراث " وحراث جمع حارث " هو نفسه آل حراث ، ابن محمد بن الحارث ، فيكون ابن محمد بن الحارث هذا فى تاريخ ١٦٨٠م كشريف لمكة ، وبمناسبة الحج الذى قام به فى نهاية كانون الثانى من ذلك العام عدد من زعماء نجد - ومنهم محمد بن ربيعة بن وطبان من الدرعية - وزراء فى قصره أثناء ذلك الحج .

وحدث فى نفس السنة طوفان فى مكة ارتفعت فيه المياه حتى بلغت قفل باب الكعبة على ارتفاع عشرة أقدام على الأقل ، ودمرت عددًا من البيوت والممتلكات فى المدينة بالإضافة إلى

إغراق مائة شخص . وقد شهد هذا الفيضان مؤرخ الحجاز عبد الملك بن حسين المكى الشافعى آل أسامة المتوفى فى كانون الأول سنة ١٦٩٦م .

ولابد لنا من القول بأن سعدًا بن زيد احتفظ بالإمارة منذ آلت إليه سنة ١٦٦٥م حتى ما قبل ١٦٨٠م ، يوم تولى هذا المنصب أحمد الحارث الذى ألمحنا إليه من قبل . أما فى سنة ١٦٨٤م أو بعدها بعام فيبدو أن أحمد بن زيد كان هو الأمير على مكة . وفى هذا الوقت هاجم عنزة فى القصيم واشتهر بأعماله الفظيعة التى ارتكبها ضد أهلها . غير أنه لم يحتفظ بمنصبه طويلاً إذ عزل من منصبه فخلفه الشريف أحمد بن غالب بن زامل ، وهو من عائلة منافسة لعائلته . غير أنه سرعان ما تم عزل الشريف أحمد بن غالب فاختار النفى إلى اليمن . وكان ذلك العزل على يدى الشريف محسن بن حسين بن زيد بن محسن من عائلة أبى نعمى . ولكن هذا توفى بعد توليه الحكم بوقت قصير حوالى سنة ١٦٨٨م .

ولابد لنا من أن نذكر غموضًا آخر فى قضية توالى أشراف مكة على الحكم . ففى سنة ١٦٩١م يورد ابن بشر ذكر الإمارات للمرة الثانية للشريف سعيد بن سعد بن زيد فى حياة والده الذى عزل ابنه بعد أن تولى المنصب فترة لا تقل عن الستة أشهر . ثم استعادة الإمارة وظل فيها حتى عام ١٧٠٣م . وعندها تنازل برضاه واختياره وقد أحدثت إمارة سعيد هذه توقفًا قصير الأمد فى تولى الشريف محسن ابن حسين الحكم .

ويظهر أن مكة شهدت طوال ربع القرن الذى تلا موت الشريف زيد قلقًا سياسيًا مزعجًا . غير أن ابنه سعدًا خلفه طوال الأربعين سنة التالية فيما عدا فترة لا تتجاوز الاثنتى عشرة سنة بين فترتى حكمه الأولى والثانية . ولابد أن سعدًا كان مسنًا يوم تولى الإمارة للمرة الثانية . ولكنه ظل صحيح الجسم نشيطًا . وها هو بعد حملة على نجد فى أوائل سنة ١٦٩٤م ، ولكنه لم ينجح فى أكثر من الوصول إلى سهل حمادة فى الطرف الغربى من هضبة الطويق . وها هو فى أثناء الحج من هذا العام يسىء إلى الحجاج فتنشب بينهم معارك شديدة تملأ شوارع

مكة حتى الحرم وقد كانت الاضطرابات خطيرة لدرجة إن الشريف يد الله بن هاشم ، وهو من فرع آخر من العائلة ، اضطر لأن يتخذ إجراءًا حاسمًا لتهدئة الحالة . فعزل سعدًا وتولى حكم المدينة مؤقتًا . وكان هذا بمساندة الشريف أحمد بن غالب الذى سبق له أن عاد من منفاه فى اليمن ليستقر فى أراضيه فى وادى فاطمة .

وفى نهاية السنة تمكن سعد من استعادة الحكم فى مكة ونفى عبد الله بن هاشم وأعوانه . وقد غزا نجدًا فى السنة التالية ، فأغار على قرية عشيقير ، وحاصرها حتى ضيق على أهلها إلى درجة دفعت قاضيها الشيخ أحمد بن محمد القصير لأن يصدر فتوى يجيز فيها إفطار رمضان من ذلك العام كى يتسنى للمزارعين حصاد مزروعاتهم وخزنها .

أما سعد فقد أخفق فى إرهاب رجال الوشم الأقوياء وإخضاعهم . فانتزع عقد مفاوضات للصلح مشترطًا أن مفاوضى القرية هما قاضيها وصاحبها الشيخ حسن بن عبد الله أبو حسين . وقد قبل القرويون ذلك غير أن سعدًا ألقى القبض على الشيخين لحظة دخولهما خيمته ، وأودعهما السجن .

وفى نفس السنة تمكن إدريس بن وطبان أن يتسلم الإمارة فى الدرعية ، بعد أن قتل أخاه إبراهيم سنة ١٦٩٤م . ولكنه بدوره قتل على يد سلطان بن محمد القيسى المجهول النسب ، وإن كان يعتقد بأنه من عائلة بنى خالد فى الأحساء . وقد اغتصب سلطان حكم الإمارة وتمتع به حتى سنة ١٧٠٨م ، حيث لم ينجح هو الآخر من خنجر الاغتيال . وحينئذ خلفه أخوه عبد الله ، ولكن هذا أيضًا أغتيل فى شهر أزار من سنة ١٧٠٩م. وبموته انتهت فترة الحكم الأجنبى الذى دام خمسة عشر عامًا فى الدرعية وعادت الإمارة إلى موسى بن ربيعة بن وطبان من أصحابها الشرعيين . وليس لدينا معلومات موثقة عن أعمال هذه العائلة فى العشر سنوات الأولى . وجُلّ ما نعرفه هو أن الإمارة فى الدرعية أنتقلت سنة ١٧٢٠م من موسى إلى

سعود بن محمد بن مقرن ، بعد خلع الأول ونفيه . وكان سعود هذا هو مؤسس العائلة التي أحتفظت بسيطرتها على الجزيرة العربية منذ الحين حتى حكم عبد العزيز بن سعود الاخير .

كان في سنة ١٧٢١م أيام إمارة سعود هذا أن ولد له في الدرعية حفيد أسماه عبد العزيز ، هو سمى عبد العزيز والد الملك الحالي في الرياض . أما سعود نفسه فلم يقدر له أن يشهد أزدهار حكم وريثه . ولم يعرف بوجود فقيه شاب في العشرين من عمره يقطن العيينة المجاورة . ذلك الفقيه الذي غدا المرشد والفيلسوف والصديق لأبنه ولحفيده اللذين سترفعهما أكتافه الشديدة إلى قمة المجد والشهرة فيما بعد . فقد ولد محمد بن عبد الوهاب في العيينة سنة ١٧٠٣م ليصدق عليه القول المأثور " لا كرامة لنبي في وطنه " .

التحق سعود بآبائه في جبانة الدرعية في الثاني عشر من حزايران سنة ١٧٢٥م ليلة عيد الفطر . فخلفه في الإمارة ابن عمه زيد بن مرخان بن وطبان ، أكبر أعضاء العائلة ، لا ولده محمد وكان هذا هو التقليد المتبع في نظام وراثة الحكم في الجزيرة العربية . ويبدو أن الأمير الجديد لم يلق مقاومة ولا كراهية بين عشيرته لتوليه الحكم . ومع أن مقرن " أخا سعود " هو الوارث الشرعي للإمارة الا أنه أعرب عن ولائه للأمير الجديد بشكل رسمي ، وإن ظل في قرارة نفسه يطمح إلى الحكم .

وقد دعا زيدًا لزيارته ليثبت له ولاءه بصورة قاطعة . ولكن زيدًا ارتاب في نوايا مقرن فلم يلب الدعوة ، مالم يضمن محمد بن سعود ومقرن بن عبد الله ابن مقرن سلامته . الأمر الذي دل على ذكاء وحكمة . وفعلاً تم الاجتماع بعد أن تعهدا له بما طلب . حتى إذا ما أوجس الكفيلان الغدر من مضيفهما هاجماه بغية قتله ، ولكنه نجا من ذلك بأن هرب من النافذة واختبأ في حجرة صغيرة ثم قتل فيها بعد ذلك .

وهكذا ظل زيد سيد الموقف خلال المآسي التي واجهت العائلة التي قدر لها أن تصبح عظيمة . ولكن زيدًا لم يعمر طويلاً بعد هذه الحادثة . وكان وباء الكوليرا قد أنتشر في مدينة

العيينة قبل ذلك بسنة فأفنى أهلها . وكان أميرها محمد بن معمر أول ضحايا الوباء . فخلفه فى الإمارة حفيده محمد بن حمد الملقب بخرفش التأثاء . فما كان من زيد الا أن هاجم العيينة ، أكبر مدينة مزدهرة فى داخل الجزيرة العربية آنذاك ، بعدد كبير من قطاع الطرق واللصوص ، جميعهم من عشائر " كاثر " و " سبيع " غير أن خرفش أرسل له فى عقربة رسالة لطيفة ، يعرض عليه بأن يقدم له كل ما يطلبه دون أن يكلف نفسه مشقة نهب بدو المنطقة وسكانها الفقراء ، ويقترح عقد إجتماع خاص بينهما لبحث هذا الموضوع .

حينئذ أنطلق زيد فى أربعين رجلاً من أتباعه معهم محمد بن سعود الذى يثق فيه كثيرًا . ولكن خدم خرفش الذين كانوا مختبئين لغاية فى نفس سيدهم أطلقوا على زيد النار وقتلوه حالما أتخذ مقعده فى غرفة الاستقبال . أما محمد وبقية جماعته فلجأوا إلى حجرة مجاورة جُعلوا يقاومون منها . وقد رفضوا دعوة خرفش إليهم بالخروج ما لم تضمن سلامتهم (الست جوهرة) ابنة الأمير عبد الله بن معمر المشهورة ، وخالة خرفش . ولما تم هذا عاد محمد بن سعود إلى الدرعية حيث تولى هناك دون منازع حتى وافته المنية سنة ١٧٦٥م .

وبعد بداية تميزت بالاضطراب وعدم الاستقرار توطد حكم آل سعود ، فلم ترعجه الترات التى كلفت البلاد غالبًا فى الأجيال السابقة . لقد أزيح آخر مطالب بالعرش نهائيًا بعد واقعة العيينة وفى أثنائها أصيب بن ربيعة بطلق نارى من جرائه بعد ذلك . وكان موسى هذا منفيًا فى ديار ابن معمر قد نفاه سعود .

والآن بعد أن بلغنا النقطة التى تبدأ فيها قصة المملكة العربية السعودية نرى لزامًا علينا أن نعود القهقرى فنستقصى تاريخ الذين نافسوهم فى الحكم ، ومن المناسب نبدأ بالحجاز حيث تولى الشريف سعد بن زيد الإمارة فى مطلع القرن الثامن عشر ، فأعد ابن أخيه ، الشريف سرور حملة شاملة على نجد سنة ١٦٩٧م ليؤدب مقاطعة السدير ، المعروفة باضطراباتها واستقلال أهلها وشدة بأسهم وهناك اقترف المهاجمون كثيرًا من الفظائع فى قرية

الروضة وواحتها . ومن ثم انعطف سرور فهاجم جلاجل وتمكن من أسر أمير الروضة اللاجئ فيها ماضي بن جاسر ونفى ثلاث أو أربع عائلات بارزة فى الروضة إلى عشيقر ، ولكن عائلتين منها رجعتا بعد سنتين واستعادتا قوتها . وكان ماضي بن جاسر يتزعم عائلة " أبو راجع " احدى هاتين العائلتين . فاستعادت هذه العائلة ما يخصها من الواحة وطردت العائلة الرابعة أى عائلة " أبو هلال " بعد قتال نشب فى مدينة الدخيلة بين ممثليها وبين فوزان بن زامل زعيم آل تميم الذى آزره ماضي ، وفى نفس الزمن تقريبًا قرر عدد من عائلات حوطه السدير ممن كانت منفية إلى العيينة أن تعود إلى الوطن .

فقد رأت أن الأحوال أصبحت مواتية لذلك . فهاجمهم السكان لدى وصولهم وذبحوا عددًا كبيرًا منهم .

وتاريخ السدير ملئ بمثل هذه الحادثة .

ومن الغريب أ ن لدينا عن السدير تفاصيل تاريخية واسعة : لأن معظم المؤرخين والفقهاء فى تاريخ السعودية كانوا من السدير نفسها ، أو من البلاد المجاورة لها .

ونعود الآن إلى الشريف سعد . لقد كان مهمتنا كل الأهتمام بتوطيد السيادة له عبر الصحراء . ففى سنة ١٦٩٩م فتح مكة وألقى بمائة من زعماء قبيلة عنزة فى غياهب السجون . وفى العامين التاليين أعد حملات عدة لتأديب قبيلة الظافر وعناصر أخرى من بنى حسين "حرب" أما فى سنة ١٧٠١ م فقد نزلت بالظافر خسارة فادحة بموت زعيمها سلمه بن مرشد بن سويط . وكان هذا أبرز أعداء أشراف مكة . وتميزت السنة التالية بالقحط الذى أصاب الحجاز . وفى نهاية ١٧٠٣م تنازل الشريف سعد من تلقاء نفسه لابنه سعيد ، فواجه الشريف الجديد كثيرًا من القلاقل والاضطرابات التى كان مبعثها الجوع والأسعار المرتفعة . ولقد ساءت الأحوال فى تلك الأيام حتى أن سليمان باشا المعروف بباشا جَدَّة ، والممثل الوحيد للباب العالى فى رحاب الحرمين ، بدأ يفكر فى عزل سعيد لصالح الشريف عبد الكريم بن

محمد بن يعلا إحدى أفراد العائلة من فرع آخر . وتنسم سعيد أخبار المؤامرة فنسبب تولى ابن أخيه عبد المحسن بن أحمد بن زيد الإمارة وكان تنسيبه هذا عبارة عن تدبير لإحباط المؤامرات التى تحاك ضده . لكن سليمان باشا أصر على تنفيذ خطته فتنازل عبد المحسن عن الإمارة بعد تسعة أيام من توليه ، لمصلحة عبد الكريم المرشح التركى . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٧٠٤م بعد أن تبدلت الأوضاع فى السلطنة العثمانية نفسها بمدة قصيرة ، حيث خلع الشريف عبد الكريم الإمارة طرد الشريف سعيدًا وأباه سعد بن زيد من مكة . وكانت مكة لايزال يلفحها الجوع بسياطه ، ولكن بصورة أخف وطأة من ذى قبل .

وهكذا ، واجهت عبد الكريم متاعب كثيرة صرفته عن الاهتمام بأمور نجد وشؤونها . ولم يخفف من أعبائه هذه كونه مرشح الأتراك .

وقد عاد الشريف سعيد سنة ١٧١١م من المنفى ولاقى دعمًا شعبيًا ساعده فى غزل عبد الكريم ونفيه . ويبدو أن هذا كان بإيعاز من الأتراك وموافقتهم إلا أنَّ السلطان سارع فأصدر فرمانًا يعين بموجبه الشريف سعيد فى الإمارة .

وهكذا عاد الأمير إلى منصبه للمرة الرابعة وظل يحكم بسلام حتى وافاه أجله سنة ١٧١٧م . وعندئذ خلفه الشريف محسن بن عبد الله ، فغزا نجدًا وأغار على بنى حسين فى المجمعة فى شتاء ١٧٢٦ - ١٧٢٧م . الا أن الصحراء العربية الآن ظلت بعيدة عن اهتمام الشرفاء بها زهاء ربع قرن . ولربما كان ذلك مبعثه الضغط المتزايد الذى كان الحكام الأتراك يمارسونه فى الحجاز ، إذ كانوا منهمكين فى مهمة حفظ النظام وتأمين سلامة الحجاج وطرق الحج من غارات البدو .

هكذا كانت حال الحجاز فى أوائل ظهور آل سعود . وإذا كان الأتراك قد نجحوا فى تثبيت أقدامهم فى البلاد المقدسة وتحقيق الأعتراف بالسلطة الروحية للخليفة ، السلطان ، فإن الأمر كان يختلف فى الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية ، حيث كان اهتمامهم هناك دنيوى واستعمارى .

وعلينا الآن أن نعود القهقرى فى معارج التاريخ لنصل إلى النقطة التى تركنا فيها على باشا يتولى السلطة فى الاحساء . ومن ثم نتقصى الأحداث التى أدت إلى انعدام أثر سلطان الأتراك فى شرق الجزيرة العربية ، وأدت بالتالى ، إلى نشوء إمارة وطنية قوية تضاهى كلا من العيينة والدرعية ، وتطمح إلى توحيد الجزيرة العربية بكاملها . وكانت الدرعية أقل المتنافسين شأنًا وأثرًا يوم ولى سعود الإمارة ليثبت فيما بعد أنها الجواد المتجلى فى السباق الطويل المتعب .

لسنا نسمع كثيرًا من الأحداث فى الإحساء بعد سنة ١٦٣٤م حين قام بكر بن على باشا بالحج ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن الأتراك لم يهدفوا إلى احتلالها احتلالاً دائمًا . صحيح أن مركز الأتراك قد قوى فى الجزء الشرقى من الجزيرة عندما استعادوا بغداد من الاحتلال الفارسى سنة ١٦٣٨م فى عهد السلطان مراد ، وصحيح أن الوضع تحسَّن كثيرًا أيام السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد عندما احتل مصطفى باشا مدينة البصرة سنة ١٦٦٧م ، الا أن حكمهم فى الإحساء قد انتهى بعد مرور عامين على ذلك التاريخ ، بفضل قبيلة محلية ظلت تناضلهم نضالاً مريرًا طوال ثمانين عامًا تقريبًا . ولم يتجدد ذلك النفوذ الا بعد مرور قرن ونصف . وفى هذه الأثناء خلف محمد باشا والى تركى اسمه على باشا ، وعقبه عمر باشا ، آخر الولاة الأربعة الذين دامت ولايتهم زهاء الثامنة والسبعين عامًا .

وفى ولاية عمر باشا ثار برّاك بن غرير زعيم قبيلة آل حميد من بنى خالد ، على راشد بن مغامس آل شبيب ، أمير المنتفك الذى كان فيما يبدو لعبة فى أيدى الأتراك وقتله . وكان ذلك بمساعدة مهنا الجبرى أحد أفراد عشيرة أجود بن زامل التى كان الأتراك قد أقصوها عن الحكم سنة ١٥٩١م . وبعد أن قتل براك عددًا كبيرًا من البدو الذين كانوا فى جيش راشد ونهب أموالهم اتجه نحو الحامية التركية فى كوت الهفوف ، أى قلعتها وأعمل السيف فى حاميتها وطرد مَن ظلوا أحياءًا فيها من البلاد .

وهناك مسرحية شبيهة بهذه مشهدها المكان عينه بعد قرنين ونصف من الزمن ، وذلك عندما هب المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود فأنهى الاحتلال التركى فى الاحساء بعد احتلال دام الأكثر من أربعين عامًا . وفى كلتا الحالتين كانت خطة الهجوم بسيطة وجريئة . وقد نفذها بكل دقة ، نفر من الشجعان الأشاوس يأتمرون بأمر قيادة رشيدة حازمة ، وضد عدو مل طول النفى فى الصحراء القاحلة ، وكان جنوده متعبين فلم يبدوا أية مقاومة تذكر .

لم يكن براك بن غرير بن عثمان بن مسعود بن ربيعة من آل حميد ، وهو زعيم بنى خالد وأمير الإحساء ، كما هى ألقابه جميعًا ،ليستكين بعد هذا النصر المؤزر ، أو يقتنع بأكاليل غاره الجديدة . كلا ففى السنة التالية هاجم قبيلة الظافر فى مكان ما بين التلال الواقعة جنوب غربى القصيم يجوز أنها وهاد الكيثل . وكانت عشائر الظافر قد قاتلت بطون الفضول فى ذلك الموقع قبل مدة قصيرة . وفى طريق عودته ، مر براك بواحة سدوس ، فنهب قبائل كاثر التى تسكن فيها . والجدير بالذكر أن ديار بنى ظافر كانت تمتد إلى ما وراء الحدود الحالية للصحراء المتاخمة للعراق . ولابد من القول بأن الفصول لم يعودوا عنصرًا له وجود فى الجزيرة العربية بشكل قبيلة منظمة . وربما بدأت هجرتهم من أواسط الجزيرة إلى الشرق سنة ١٦٧٤م حين ضربت المجاعة نجدًا فأذلت أهلها . تلك المجاعة التى عرفت فى الأساطير البدوية باسم جرمان .

وقد شهد شتاء ١٦٧٥-١٦٧٦م أمطارًا عوضت على السكان ما فقدوه ، ولكن أسرابًا عظيمة من الجراد اجتاحت المراعى فى السنة التالية فضاعت آمالهم وأطلق البدو على غزوة الجراد هذه اسم جرادات لأن الكثيرين من الناس أصيبوا بالتخمة من كثرة ما أكلوه من الجراد .

وفى هذا الوقت بالذات قام براك بالهجوم على بنى ظافر ، واكتفى بأسر زعيمهم الشيخ سلامة بن مرشد بن سويط . ثم قام فى السنة التالية بالإغارة على بعض عشائر الدرعية .

ويبدو أن هذه الغارة كانت آخر أعماله الباهرة إذ وافاه الأجل سنة ١٦٨٢م . وخلفه أخوه محمد الذى احتفل بهذه المناسبة بأن غزا يمامة من منطقة الخرج .

وبعد أربعة أعوام عاد إلى نفس المكان ليهاجم بعض عشائر سبيع فى حاير من وادى حنيفة . وكانت نفس هذه العناصر هدفه فى غزوته الثانية فى صيف سنة ١٦٨٧م فى " حائر المجمعة " فى السدير . وانهمك فى السنة التالية فى حرب مع زعماء مشايخ آل عثمان فى الخرج، وإن كنا لا نعرف شيئا عن العمليات هذه المرة . الا أن السنة كانت خصب فازدهرت المراعى وكثرت الكمأة .

ولكن الجراد داهم البلاد مرة أخرى . فكان البدو يقولون : " أن الجراد يأكلنا ونحن نأكله " وكان القمح يباع كل خمس صاعات بمحمدى واحد " والمحمدى يساوى مجديًا تركيًا" والتمر للمحمدى عشرون وزنة أما فى الدرعية فقد بيعت الألف وزنة بأحمر واحد "أى الليرة الذهبية التركية " .

وفى السنة التالية ضربت القوافل التقليدية الثلاث للحج خيامها فى عنزة أثناء طريقها إلى مكة ، فارتفعت الأسعار كثيرًا بنتيجة ذلك . وكانت هذه القوافل الثلاث قادمة من العراق ، وبلاد فارس ، والاحساء وحين أغارت قبيلتا الفضول والظافر فى " تنومة " على قافلة العراق فى طريق عودتها من الحج منيتا بخسارة فادحة فى الأموال والأرواح .

وفى سنة ١٦٩٠م دهم الجزء الجنوبى من العراق وباء لم يسبق له مثيل . فأهلك سكان البصرة ودمر المدينة تدميرًا تامًا ، ظلت مهجورة على أثره عدة سنوات ثم زحف الطاعون شمالاً إلى بغداد فأهلك قسمًا كبيرًا من سكانها .

وقد توفى محمد بن غرير سنة ١٦٩١م ، وقتل ابن أخيه ثنيان بن براك فى السنة ذاتها أثناء غارة له . كما مات المرشحان المحتملان لتولى الإمارة فآلت هذه إلى سعدون ابن محمد بن حسين بن عثمان . وكان قد تعاون مع براك فى طرد الأتراك وبدأت الإدارة التركية الآن تواجه

المتاعب على أيدى قبيلة المتنفك فى العراق وفى سنة ١٦٩٤م أعلن مانع بن شعيب الزعيم الأكبر لتلك القبائل نفسه خلفها لراشد بن مغامس آل شبيب حاكم البصرة ومنطقتها. ولا شك أن الأتراك لم يكونوا قد شدوا قبضتهم عليها بسبب سوء الحالة الصحية فيها بعد الدمار الذى لحقها من جراء الطاعون . غير أنهم لم يرتضوا فقدان هذا الحصن الشرقى المهم . أما زعيم المنتفك فلم يستطيع الاحتفاظ بالبصرة طويلاً ، ففى سنة ١٧٩٦م هاجمهم فرج الله أبن مطلب زعيم قبائل المستنقعات العربية بمساعدة الفرس ، واستولى عليها إلى أن طرده الأتراك من المنطقة سنة ١٦٩٩م ، فاستعادوا هذا المركز الحربى المهم .

وشهدت السنة الأولى من القرن الجديد نشاطًا قام به سعدون ضد قبيلة ظافر وبمساعدة الفضول وبعض عشائر الحجاز فى معركة دارت رحاها فى " بترا " بين رمال نفود السر . كما غزا سلامة بن سويط أرض السدير بعد أن خرج من سجن شريف نجد الذى حبسه لاعتدائه على الفضول . ولكن سعدون لم يتركه يستقر بل أذاقه الأمرَّين فى معركتين خاض سلامة وقبيلته غمارهما ضد سعدون وحلفائه الشريفيين فى موقعى السلع والبترا ، ويقال : إنه جرح فى القتال بل توفى وهو فى طريقه إلى بلاده ودفن فى جبيلة .

أما السنتان أو الثلاث التالية فقد كانت سنوات قحط وجوع ومتاعب بين العشائر البدوية فى جميع أنحاء البلاد . لذا لا نسمع الكثير عن أعمال بنى خالد . ولكن فى سنة ١٧٠٦م مضى نجم بن عبيد الله ، (حفيد غرير) أشهر الصيف فى ثادق ، وغزا دجين بن سعدون عشائر آل زارع ونهب أموالهم . وفى نفس السنة أيضًا طرد بنو ظافر أهل عنزة من منازلهم الصيفية فى منطقة السدير ، وطاردوهم واشتبكوا معهم فى خضار ، من صحراء الدهناء . فوقعت خيام الشريف عبد العزيز شريف نجد فى أيدى الأعداء ، حيث كانت آنئذ مع قبيلة عنزة المهزومة .

وفى الأشهر الأولى من عام ١٧٠٨م رافق سعدون بنفسه حجاج الإحساء فى منطقته ، وخيم معهم فى ثادق وشعيب العتك أثناء مرورهم بسلسلة الطويق التى تفصل بين السدير والعارض . أما عبد العزيز بن هزاع حفيد غرير ، فقد قام فى هذا الوقت بقتل عبد الله ابن عبد الرحمن بن إسماعيل بن عم الشيخ محمد بن عبد الله إسماعيل القاضى السابق فى عشيقير ، إلا أننا نجهل الدافع لهذه الجريمة ونتائجها . وفى سنة ١٧٠٩م نشب قتال بين سعدون بن غرير وبنى ظافر فى أقليم هجرة بصحراء العراق دون أية مكاسب لواحد من الطرفين . وتميزت السنوات القلائل التالية بأمطارها الغزيرة وعواصفها الشديدة المدمرة التى أصابت ملحة ورغابة وكان من نتائجها أن ازدهرت المراعى وازدادت المحصولات الزراعية ، فهبطت أسعار المواد الغذائية بفضل جودة الموسم . وفى سنة ١٧١٤م قام سعدون بالاشتراك مع عبد الله بن معمر وعناصر أخرى من عُيينة والعارض بحملة واسعة على الخرج . فهاجموا يمامة ونهبوها . ولكن الغزاة أنسحبوا عندما قام زعيم البجادى مع أربعة من الفرسان بهجوم معاكس .

هكذا انقضت الأيام متتابعة دون وقوع أحداث مهمة سوى ما كان يتعاقب على البلاد من جفاف وأمراض " بما فى ذلك شتاء ١٧١٤-١٧١٥م ببرده الشديد المهلك " . وأستمر هذا الحال حتى عالم ١٧٢١م الذى تعرضت فيه نجد لغزوة عامة شاملة قام بها سعدون فأمضى طوال الصيف يحاصر بدو كاثر ويحول دونهم ودون الوصول إلى العارض . ثم جلب مدافعه ليحاصر عقربة والعمارية ، فكان من ذلك أن تعرضتا لمجاعة شديدة ونهب مزارع السكان ودمر نخيلهم أما سعدون فتوجه إلى الدرعية ونهب مزارعها الغنية بثمرها ودمر منازل عديدة فى قرى الظهرة والسريحة والملوى .ولكن جيشه منى بإصابات فادحة كما روى المدافعون ،والجدير بالذكر أنه فى وسط هذا الخضم بالأحداث والمتاعب أبصر عبد العزيز النور لأول مرة فى قلعة طرف العظيمة .

كان سعدون فى طريقه إلى نجد فى أوائل سنة ١٧٢٣م عندما توفى فجأة فى معسكره فى جندلية من الدهناء ، والواقع أن سعدون قد ساس قبيلته وتولى الحكم فيها بصورة ممتازة لأكثر من ثلاثين عامًا . ومن سوء طالع أبناء وطنه أن أفل نجمه وغابت يده الحازمة من على دفة الحكم فى اللحظة التى بدأ فيها الصراع الحقيقى لقيادة العرب . وقد حدثت بعض الاضطرابات بعد وفاته . إذ انقسمت العشيرة إلى طوائف وأحزاب يؤيد كل منها زعيمًا يطالب بالحكم . وكانت المعركة الحقيقية من أجل الزعامة تدور بين ولدى سلفه : محمد وسليمان ابنى غرير . وكان هذان ولدى عمه سعدون الأدنيين اللذين كان سعدون قد جمد نشاطهما احتياطًا لأمره . وبعد مشاجرات ومشاحنات غير منظمة ساد العقل والمنطق وحل السلام موضع الخصام فاختير على بن محمد زعيمًا لقبائل بنى خالد بينما ألقى القبض على ولدى سعدون رهائن لفترة من الوقت . غير أن هذا الحل لم يدمْ طويلاً فما كادت تنقضى السنة حتى حاول دجين اغتيال سليمان ، ولكن محاولته باءت بالفشل . وقد حاول سليمان من ناحيته اغتيال أحد أتباع دجين ففشلت المحاولة أيضًا .

استمر الجفاف الذى بدأ سنة ١٧٢٢م حتى شتاء ١٧٢٤-١٧٢٥م ، حين انفرجت الأزمة وسقطت أمطار غزيرة ففى منطقة الحجاز مثلاً ، ارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعًا مريعًا . ومع ذلك لم يكن هناك ما يمكن شراؤه . فأخذ السكان يأكلون جيف الحيوانات الميتة. أما الأمطار التى هبطت بعد ذلك الجفاف الطويل فقد رافقها لسوء الحظ ، مرض أصاب المزروعات وأهلك المحاصيل . بالإضافة إلى زحف أسراب الجراد الغادر التى زادت الطين بلة وانتشر مرض الكوليرا فى عيينة وما جاورها من النواحى ففتك بالسكان فتكًا ذريعًا أضطر الناجين منهم إلى النزوح عنها . وكان موت الأمير العظيم عبد الله بن معمر ضربة قاصمة للإمارة فى ذلك الحين . فلم تفق من هول صدمتها حتى اكتسحتها الوهابية . ومن غريب الصدف أن عيينة والإحساء وهما المنافستان العظيمتان للدرعية ، فقدتا زعماءها المخلصين فى الوقت الذى كان يدور فيه الصراع الحاد للعثور على زعيم يسجل حكمه صفحة

مجيدة فى تاريخ العرب والمسلمين ، ويضع أساسات امبراطورية لم تشهد مثلها الجزيرة العربية منذ عهد ملوك سبأ فى الجاهلية الأولى .

ويظهر أن " جين " غادر الاحساء فترة من الزمن بعد أن فشل فى محاولته لقتل سليمان . ولكنه قبل ان تنقضى سنة ١٧٢٦م وفق إلى نيل تأييد بنى ظافر وعشائر المنتفك فى المطالبة بعرش والده فحاصر الهفوف فترة من الزمن بينما أخذ حلفاؤه من البدو يذرعون البلاد ، فيقتلون وينهبون نخيل سكان القرى فى الطريق .

غير أن عليا ظفر فى مختلف العمليات الحربية الفعلية وكان فى مركز لا يخشى فيه الاندحار ، فانسحب الغزاة بعد الهدنة التى توصل إليها أبناء العم . أما على ، فظل قاضيًا فى الاحساء عندما بدا حكم محمد فى الدرعية . وكما مر معنا ، كان محمد بن محمد بن عبد الله بن معمر الملقب بخرفش ، معاصرًا لهم فى إمارة عيينة .

وما علينا الأن إلا ان نكمل هذه المقدمة التى سبقت عهد محمد بن سعود بسرد قصة العيينة ، من النقطة التى وصلنا إليها ، حين تولى أحمد بن معمر الإمارة سنة ١٦٦١م .

لم يتميز حكمه الذى دام ثلاثة وعشرين سنة بحوادث ذات شأن سوى نشوب القتال بين عيينة وحر يملة سنة ١٦٨٤م ذلك القتال الذى لم يشهد أحمد إلا مرحلته الأولى . ونحن لا نعرف أخاه عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله الأول وقد تميز حكم هذا الأمير بطوله إذ توفى من جراء وباء الكوليرا سنة ١٧٢٦م كما ذكرنا آنفًا .

وفى عهده أصبحت العيينة الكوكب الهادى للصحراء الغربية ، بفضل الجهود الكبيرة التى بذلها لتطوير طاقاتها الزراعية وتوفير السكن للناس الذين كانوا يتزايدون فيها تبعًا لتحسين مرافق المدينة ، ومن الغريب أن والده محمد ابن محمد كان لا يزال حيًا وقت حكمه . فقد ذكر أنه أدى فريضة الحج فى العام الذى تولى فيه ابنه الإمارة . وأمثال هذه الحادثة ليست

مألوفة فى بلدان العالم ، ولكنها ليست غريبة فعلاً فى شبه جزيرة العرب . إذا نحن نرى الوالد يعيش قرابة ربع قرن فى عهد ملكية ولده وأعنى بذلك والد الملك عبد العزيز .

وربما كان توليه الحكم فى وقت سابق لأوانه يعود إلى استئنافه الحرب التى بدأها سلفه ضد حريملة ، فبعد توليه الحكم بقليل خاض معركة المهيريس مع مسعود بن محمد الدريعى . وتعرف هذه المعركة باسم " الكمين الأول " وقد منى فيها أبناء حريملة بخسائر فادحة . غير أنه لم يحاول مهاجمة المدينة نفسها . وكان هذا خطأ وقع فيه ، إذ مالبثت أن خرجت من حريملة غارة هاجمت قرية على بضعة أميال فى أسفل الوادى واحتلها وكان على الحر يمليين أن يواجهوا هجومًا شنته عيينة فاستدرج أميرهم المدافعين إلى كمين ، وأوقع بهم وما يعرف "بالكمين الثانى" ولكنه لم يفت بعضد سكان حريملة ما أصيبوا به من خسائر فغزوا سدوس بالاشتراك مع محمد بن مقرن من الدرعية ،وزامل بن عثمان من الخرج ونهبوها ودمروا حصنها .

وانتهت الحرب سنة ١٦٨٨-١٦٨٩م بين حريملة وعيينة بعقد الصلح فتمتع عبد الله بن عمر بحكم سلمى دام خمسة عشر عامًا ، كرسها لتطوير بلاده وتحسينها .

الا أنه فى عام ١٧٠٣م هاجم القرية واحتلها وفى السنة التالية وجه اهتمامه إلى مركز ثادق الخطير ، غير أنه حين بلغ قرية البير ، فى طريقه إلى هناك ، حال بدو عنزة بينه وبين هدفه، واستولوا على كثير من رواحله .

أما عيينة نفسها فقد تعرضت لفيضانات شديدة فى وادى حنيفة جرفت الكثير من البيوت ودمرتها .

وقد استرعت حريملة انتباه عبد الله مرة أخرة سنة ١٧٠٩م . فهاجمها بعد عشرين عامًا من السلم ، بقوة جمعها من قرى العارض وبئر السبيع لكنه عاد فانسحب عنها بعد قتال غير منظم حينئذ اشتد ساعد حريملة ، فأغارت على مضارب بعض حلفائه واستولت على واحة

ملحم كما ذكرنا آنفا ، وفى سنة ١٧١٦م عاد ابن معمر مرة أخرى فهاجم حريملة ونهب أملاك عشيرة الزعاعيب ثم جدد القتال بعد ذلك بعامين . فقتل عشرة رجال واستاق عددًا كبيرًا من الأغنام من مراعيها .

وفى سنة ١٧٢٥م أعد ابنه إبراهيم حملة على واحة العمارية المجاورة ، وبقى هناك فترة بعد أن أجبر أهلها على الاستسلام ، وبعد بضعة أيام قابل عبد الله نفسه جماعة غازية من بدو كاثر فى العزيقة فقتل عشرون من رجاله فى المعركة التى نشبت ، وانسحب عبد الله وهرب تاركًا البدو يحاصرون إبراهيم فى العمارية . وكانت هذه آخر حملة قام بها عبد الله بن معمر .

لم يكن عبد الله قائدًا بارعًا من الناحية العسكرية ، وتعود الشهرة التى كان يتمتع بها إلى ما قام به من أعمال مدنية وإدارية باهرة وفى العيينة وما تركه فيها الدليل الكافى على هذا .

وقد أهلكته الكوليرا وأهلكت ابنه إبراهيم ، فآلت الإمارة إلى حفيده الذى كان عليه أن يواجه قوة الدرعية النامية .

أما محمد خرفش فلم يكن الشخصية القوية التى يمكنها الاضطلاع بمثل هذه المهمة . وفيما عدا حادثة زيد بن مرخان التى كان زيد نفسه هو المسؤول عنها فإن أول أعماله فى تحمل مسؤوليات الحكم لم تكن مشجعة أبدًا أما طرده للشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضى ، صديق جده ومستشاره الأمين ، فكان هفوة لم يتمكن أن يكفر عنها فيما بعد .

الفصل الثاني

محمد بن سعود

لا نعرف إلا النزر اليسير عن التطورات السياسية والعسكرية التي حدثت في العشرين سنة الأولى من حكم محمد . ولكنها مع هذا كانت فترة ذات أهمية عظيمة في تاريخ الجزيرة العربية ، ولم يكن العامل البارز هذه الفترة هو أسفار الملوك والقادة ، وإنما نشوء " الكلمة " أي العقيدة التي كتب لها أن تكون الوحي وصيحة الحرب اللذين ألهما الأجيال القادمة ، ويلهمان زمننا الحاضر ونحن نرى بدءَ الجسد يتحلَّل جراء القلق الروحي الذي سبَّبه "الصوت الصارخ في البرّية " .

ولد محمد بن عبد الوهاب في العيينة سنة ١٧٠٣م . وهو ابن عبد الوهاب قاضي عبد الله بن معمر ، القاضي الذي كان أبوه الشيخ سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن رشيد بن بَريد بن مُشرف بن عمر بن مظهر بن إدريس بن زاخر بن علوي بن وهيب ، فقيهًا دينيًا مشهورًا ، وتعود شجرة النسب الثابت لمؤسس الوهابية إلى ستة عشر جيلاً خلَتْ أو قرابة الخمسة قرون ، وربما شاهد أحدُ أسلافه ابن تيمية الأشهر وهو يَعظُ الناس ، فقد كان ابن تيمية هذا هو المصدر الرئيسي في إلهام تلميذه الجديد .

وتوفي جد محمد سليمانُ، وهو يعمل قاضيًا في العيينة سنة ١٦٦٨م . وكان قد ورث ذوقه العلمي والتقاليدَ ، واكتسب الفقه ومبادئ العلوم الدينية عن جده محمد بن أحمد ، وبدوره لقنها ولديه عبد الوهاب وإبراهيم ، وقد واكب عبد الله الثاني ابن معمر في حملته على قرية البير سنة ١٦٦١م ، فلعب دورًا مهمًا في إحلال السلام كما رأينا سالفًا .

ولا بد أنه كان شخصية فذه إذا صح ما قيل من أنه أعدّ رسالة فى نقطة فقهية معينة هى " الإقناع " ، ولكنه عاد فمزقها عندما علم بوجود رسالة أخرى فى نفس الموضوع ، كتبها الشيخ منصور البحوطى A Bahuti" الذى توفى سنة ١٦٤٢م ، وكان يعتبر مع تلميذه الشيخ محمد الخالوطى Kha"uti من أبرز فقهاء المذهب الحنبلى .

وكان الشيخ أحمد بن محمد بن حسن بن سلطان القُصيِّر الذى ورد ذكره فى حصارسعد للعشيقير ، حيث كان يعمل قاضيًا آنذاك ، من أبرز تلاميذه ، ولقد توفى الشيخ أحمد هذا ، سنة ١٧٠٢م كما توفى أخوه وابنه محمد إثر أصابتهما بالطاعون سنة ١٧٢٦م ، حين انتشر هذا الوباء فيما وراء سلسلة الطويق حتى الوشم .

أما والد شيخنا محمد ، واسمه عبد الوهاب ، فلا نعرف عنه شيئًا أكثر من ورود اسمه بمناسبة مولد ابنه زائع الصيت ، وكونه كان تلميذًا لوالده سليمان ، ولا نسمع عنه شيئًا قبل يوم عزله من القضاء فى العيينة فى أيام محمد خرفش ، عند توليه الحكم سنة ١٧٢٦م ، وربما لم يكن فى مقدوره أن يخلُف والده فى القضاء قبل أن بلغ عمره ٥٨ عامًا ، ولابد أنه كان فى حدود الثمانين عندما عُزل من منصبه وذلك كى يكون فى سن تمكنّه من دراسة العلوم الدينية فى حياة والده ، هذا مع العلم بأن نبوع الشباب كان شيئًا عاديًا معروفًا فى الأوساط الفقهية فى الجزيرة العربية ، وفى الإسلام بشكل عام ، وقد تمثل على صورة واضحة فى ابن عبد الوهاب .

وعندما عزل من منصبه وعُين مكانه الشيخ ، أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب ابن عبد الله بن عبد الوهاب ، الذى لا يمت إليه بصلة القربى ، هاجر إلى حريملة واستقر فيها إلى أن توفى سنة ١٧٤٠م وهو طاعن فى السن ، وكان ذلك الشيخ راضيًا كل الرضى عن تعليم ولده وأنكبابه على الدراسة لدى عودة الأب من سفرة طويلة ، ولقد قيل . أن الوالد عمدَ فى كثير من المرات إلى حدّ جماح طموح ذلك الشاب الذى كانت حماسته للعمل فى سبيل الله ، عالية بأن تفُوق مداركه الخاصة ، فى مجتمع غير مستعد لقبول فكرة ترك الحياة السهلة فى ذلك العصر .

كانت مراعاة أركان الإسلام صفة لجميع أولئك الذين يحترمون أنفسهم فى كافة مدن نجد وقراها ، إلا أنهم كانوا يشفقون على الجهلة ويعطفون عليهم بدلاً من تسفيههم . وكان

عِلْيَة القوم يترخصون فى تطبيق الشعائر الإسلامية المفروضة بالنسبة للعلاقات الجنسية ويهملونها أو يتجاهلونها . أما معتقداتهم الخرافية فى تأثير السحر والنذور والأضاحى وقوة الأشجار والصخور وشفاعة بعض القبور وأثرها فى الرغبات البشرية ، فكانت تدليلاً كاذبًا على مدى جهل " السامريين " من الناس ، وكان فى إمكان " الفريسين " أن يزدروهم ويتجاهلوهم ، بسبب ما كان هؤلاء يرتعون فيه من رفاهية فى العيش ، وفّرها لهم مركزهم الاجتماعى الرفيع .

ولكن محمد بن عبد الوهاب ، لم يكن ليعتقد بهذا .. لقد أخجله ما عرفه فى معاصريه من مخازى واستهتار أحدثا فى نفسه أعمق الجروح ، ومتحليًا بالشجاعة التى توارثها عن أسلافه كان على استعداد تام لأن يثور على عالمه فى سبيل قضية عظمى فى نظره ، متجاوزًا فى سبيلها جميع الاعتبارات الأخرى . كالسلام والرفاهية والشعبية ، وما أشبه ذلك .

ولما كان العمل فى خدمة مثل هذه القضية يتطلب إعمالاً فى الروية واستعدادًا فى الخبرة ، فقد قرر محمد السفر علّه يستطيع كسب هذه المزايا . ونحن لا ندرى بالضبط كم عمره عندما باشر فى رحلته التى بدت عسيرة للغاية ، لولا أن الشيخ وضعها فى رأسه ، ثم رسم خطتها مدفوعًا بعوامل طموحه ، ولا شك أن رحلته هذه كانت قبل عزل والده من منصبه القضائى، ولربما أن الشيخ وصل مكة الهدف التقليدى الأول فى مثل هذه الرحلات ، ولما يبلغ العشرين من عمره بعد ، أى قبل سنة ١٧٢٣م .

وكان له من النضج العقلى آنئذ ما يؤهله لزيارة مراكز العلم الرئيسية الهامة ، فقد درس الفقه على والده ، وتعمق فى دراسة التفسير والحديث ، وبعد أن أدى شيخنا فريضة الحج قام بزيارة قبر الرسول فى المدينة ، حيث مكث طويلاً ليدرس على الشيخ عبد الله ابن إبراهيم بن سيف ، سليل إحدى العائلات البارزة فى المجمعة ، وكان هذا الشيخ مجاورًا فى المدينة ، يعلّم فيها آنذاك ، فدعا الشيخُ تلميذه ليطلعه على الهدية التى أعدها تقدمة لمدينته ، وذهب به إلى حجرة زاخرة بالكتب وقال له :

" هذه هى هديتى إلى المجمعة " .

وعرّفه كذلك على فقيه آخر مشهور اسمه الشيخ محمد حياة السِندى المدنى ، فجعل الشاب يحضر دروسه فى الحلقة .

عاد ابن عبد الوهاب من المدينة إلى نجد - وربما قام بزيارة مسقط رأسه هناك وإن كنا لا نعرف شيئًا عن هذه الزيارة - قبل ان يواصل سفره إلى البصرة ، ومن ثم عزم أن يزور دمشق. كان محمد فى هذا الوقت قد بدأ يسترعى انتباه أوساط أخرى غير حلقات الدرس ، وخصوصًا عندما درس على يد الشيخ محمد المجمعى فنال حظوة فى عينية بما أظهره من غيرة على التحصيل وحماسه فى سبيل العمل به .

وما كاد ينقضى بعض الوقت على وجوده فى البصرة ، حتى أخذ بعض الأهلين يبدون استياءهم من آرائه المتطرفة ، فجعلوا يضايقونه ، ثم طردوه فيها بعد من المدينة ، وكاد يموت عطشًا وهو فى طريقه إلى الزبير ، لولا أن رجلاً يدعى أبو حميدان أنقذه من الهلاك المحقق ، وأركبه على حمارة له بقية الطريق .

حينئذ تخلى محمد عن فكرة زيارة سوريا ، خاصة وإنه كان قد فقد جميع كتبه وموارده المادية أثناء خروجه من البصرة ، ومن جراء ما لاقاه فيها من المتاعب ، وهكذا يمم شطر الإحساء حيث استقبله . الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الإحسائى ، بكل حفاوة وإكرام ، ثم انطلق من هناك إلى حريملة لينضم إلى والده ، ويبقى معه حتى موت الأخير كما ذكرنا سابقًا .

وفى سنة ١٧٤٠م ترك شيخنا الشاب الحذر جانبًا وخرج يبشر بالتجديد الأخلاقى والروحى ، فاعتنق الكثيرون من سكان حريملة المبادئ التى كان يدعو إليها الشيخ ، غير أن قلة منهم أبدوا عدم الارتياح لتطبيقها بحرفيتها على حياتهم الخاصة والعامة ، وكان أهل حريملة المدينة وحريملة الواحة ، منقسمين إلى شيعتين ، كل منهما تخضع لزعيمها الخاص ، ولا تعترف بسلطة الأخرى ، ومن شأن هذه الحالة أن تشجع على عدم مراعاة القانون أو احترامه .

وكان مما زاد فى سوء الوضع وتأزمه وجود جماعة من العبيد العتقاء ، يطلق عليها الحمَيَّان " المحْمِيّين " . طبقة من المزارعين ، يعملون فى الزراعة والرى فى كثير من الواحات

العربية ، فأصرَّ محمد على أن يطبق الشرع على هذه الفئة بشكل خاص . وكان هؤلاء كثيرين ، وعلى غير صلة بالأخلاق الحميدة ، فأحاطوا ببيته يريدون به شرًا ، غير أن الجيران تدخلوا وطردوهم .

ومن ثم عمل محمد بنصح أصدقاءه وقرر مغادرة المكان المتنكر لرسالته الأولى ، والعودة إلى مدينة العيينة ، حيث كان عثمان بن حمد بن عمر يحكم أنذاك ، بدلاً من أخيه محمد خرفش ، " إلا أننا لا ندرى كيف تم ذلك ، ومتى حدث هذا التغيير " . وقد وجد محمد فى عثمان شخصًا يفضُل سلفه الفظ ، فاستقبله الأمير بالحفاوة والتكريم ووجد فيه الشيخ تلميذًا مستعدًا لتلقى تعاليمه .

ولا شئ أدل على تقدير الأمير لمحمد الذى يحلم بالنصر الدنيوى والروحى فى القضية التى نذر حياته لها .فقال محمد لعثمان ما معناه " إنى لآمل فى أن يأخذ الله العلى القدير بيدك ، ويهبك نجدًا وعربانها ، إذا وقفت إلى جانب الله الواحد الأحد " .

وهكذا بدأ الاتفاق بين رجل الدين وصاحب الدنيا ، الشيخ والأمير . فأخذ الشيخ فى السير قدمًا فى طريق تحقيق رسالته ، وجعل التمسك بالفضيلة ونبذ الرذيلة جماع أوامره التى يصدرها فى مدينة العيينة كل يوم فى الصلاة . ومع مرور الأيام وجدت الحركة الجديدة الكثير من الأنصار المتحمسين .

أما اختيار قوة هذه الحركة الجديدة وثباتها فى وجه أفعال خصومها فلم يتغير . لقد استأجر أنصار محمد خادمًا ليقطع بعض الأشجار التى كانت مقدسة فى عيون الجهلة . فتم العمل بحكمة ، ودون أن يثير الدهشة بين صفوف الشعب .

وبقيت هناك شجرة واحدة كانت تعتبر أقدس أخواتها جميعًا . فقرر محمد أن يقوم بقطعها بنفسه . ولما بلغ ذلك المكان ، وجد راعيًا يجلس تحتها حاول منعه من الاقتراب منها . ولكن محمدًا وهبه ثوبًا من ثيابه ، فما كان من الراعى الا أن أستجاب . وخفت صوت ضميره، وسقطت الشجرة تحت ضربات فأس الإمام .

وسرعان ما اشتهر محمد بإخلاصه وشجاعته فى طول البلاد وعرضها ، فتبعه سبعون رجلاً من عِلية القوم فى البلاد وأصبحوا تلاميذه .

ومع هذا النجاح الذى أصابه فقد كان عليه أن يواجه متاعب المستقبل ويتغلب عليها . فأولى اهتمامه شأن قبر زيد بن خطاب ، وكان ذلك الضريح مزارًا ذا قدر كبير من التبجيل والتقديس فى جبلة . وسمح الأمير لخليفة بأن يهدم ذلك القبر ، فألح محمد عليه أن يرافقه إليه. وتم لمحمد ذلك بصحبة ستمائة رجل ، وقد تجمهر أهل جبيلة ليحولوا دون هدم الضريح لدى وصوله المكان فأخذ محمد معولاً . فهدمه بنفسه .

وتوقع السذَّج والبسطاء من الناس أن يصاب محمد بمصيبة أثناء الليل ، مجازاة له على عمله الفظيع ، ولكن الشك بدأ يخامر قلوبهم عندما أبصروا محمدًا حيًا يرزق ويتمتع بصحة جيدة فى اليوم التالى .

وجاءت بعد هذا حادثة المرأة الزانية واعترافها بفعلتها ، وكان فى هذه الحادثة اختبار عظيم لإخلاص الإمام فى نظر أعدائه ، فقد كانت مسألة موت وحياة وقضية تتعلق بمصير امرأة !

ولم يشأ محمد أن يصدر أمره بقتل امرأة بدون إرادة الله . فحاول بكل وسيلة ممكنة لديه أن يجد منفذًا فى كتب الفقه ، لينقذ حياة المرأة الزانية من حكم الشرع ، إلا أنها كررت اعترافها بالزنا ورفضت أن تسحب أية كلمة قالتها بهذا الصدد ، ولم يتراجع محمد وهو يواجه المحنة ، لقد أصدر حكمه بأن " تموت المرأة الزانية " ، ونفذ فيها ذلك رميًا بالحجارة ، فوصلت شهرة محمد إلى عنان السماء .

انتشر خبرهذه الحادثة فى كل مدينة وقرية فى الصحراء فأحدث إستياءً عند البعض ، وأثار أعظم الاهتمام والتأمل فى البعض الآخر ، ولما رويت الأخبار فى مجلس سليما ن بن غرير الذى خلف أخاه عليًا فى زعامة بنى خالد وإمارة الإحساء ذعر وغضب ، فكتب إلى عثمان يحتج على أعمال هذا الرجل الذى احتمى به ، ويطلب إليه أن يحكم عليه بالموت ، والا فإنه سيمتنع عن تقديم المؤن والأموال التى أعتاد تقديمها إلى العيينة فى كل سنة ، وكانت هذه المنح بمثابة مبالغ تُدفع لتأمين حقوق تجار الساحل فى المتاجرة مع المنطقة الداخلية وتأمين سلامتهم ، فهى ليست جزية على الإطلاق ، وكانت تبلغ الألف والمائة قطعة ذهبية " أحمر " مع كمية مساوية من الأطعمة والبضائع .

لم يكن بمقدور عثمان التضحية بمثل هذا الكنز الأرضى ، فلم يكن فى وضع يمكنه من مجابهة أى هجوم يقوم به بنو خالد مهما كان حماسم للحركة صادقًا ، ومهما كان إخلاصه لصاحبها عظيمًا ، أما جواب ضيفه فكان " لا يخشى الأمير أعداءه ما دام يثق بالله ويخافه " .

وبعد أخذ وردّ ، قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه ، كى يحول دون أمير الإحساء وتنفيذ ما أنذر به .

فطلب إلى محمد أن يختار المكان الذى يريد الذهاب إليه فاختار الدرعية وحينئذ أرفقه الأمير عثمان بخفير من عنده اسمه فُرَيدْ ، وكان قد كلّفه أن يقتل الشيخ فى الطريق حيث يصلان معادرة يعقوب ، ويعقوب هذا درويش صالح قُتِل فى ذلك الموقع ، فأقيمت عليه قّبة ومزار ، غير أن فُرْ يدًا خذلته إرادته ، ولم تطاوعه نفسه أن يقترف تلك الجريمة . فما أن وصلا مزار الدرويش حتى قفل فُريد راجعًا دون أن يمس الشيخ بسوء ، وهكذا كان الشيخ يُرَى وهو يسير فى الوادى ، لا يحمل بيده ألا مروحة من الخوص يلوح على وجهه طردًا لحرارة الشمس .

ولدى وصول الشيخ البلدة عند الظهيرة ، حل ضيفًا على رجل يدعى محمد بن سويلم العرينى فى المنطقة العليا من الواحة ، ولقى عناءً عظيمًا فى تهدئة مخاوف مضيفه ، وأكد له أن الله سيباركه ويحميه من غضب محمد بن سعود ، وعرف بعض أصدقائه بمقدمه ، فزاروه فى المدينة سرًا وتلقنوا شيئًا من مذهبه .

وأخذوا شيئًا فشيئًا يفكرون فى الوسائل التى ستؤمن حماية الأمير لهذا الزائر العظيم ، فقرروا أن يستخدموا جاه موذى زوجة محمد بن سعود ، فهى التى أخبرت زوجها بالأمر وطلبت إليه أن يقدر هذا الكنز الذى ساقته إليه العناية الألهية .

وهكذا تقرر ان يقوم الأمير بزيارة الشيخ سيرًا على الأقدام حتى يشهد الناس مبلغ التعظيم الذى حباه الأمير به ، فيقتدى السكان بأميرهم ، ويشاركوه حماسته فى الترحيب ، أحر الترحيب ، بالشخص الذى كان يعتبر صانع العجائب .

وقال الأمير "مرحبًا بكم فى بلادٍ خير من بلادك . إنك ستلقى منا كل تبجيل ومساعدة". فرد عليه الشيخ قائلاً : " ثق أن الله يمنحك المجد والقوة ،لأن الذين يؤمنون

بالله ويعملون فى سبيله ، لهم البلادُ وما عليها ، فالله هو الرب الواحد الأحد الذى بعث جميع الأنبياء من آدم إلى محمد " أو شيئًا بهذا المعنى .

ويجدر بنا أن نذكر بأن الأنبياء الكبار كما ذكرهم ابن بشر فى مقدمته وقال عنهم ، هم أولئك الذين قادوا الإنسانية فى إعلاء كلمة الله فى جميع الأطوار وازدهار الإسلام نفسه من أمثال آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وأسحق ويوسف وسليمان وعيسى ومحمد .

وهكذا توطد التحالف بين الأمير والإمام سنة ١٧٤٥م ، ولكن محمدًا بن سعود طلب من الشيخ تأكيدًا بالنسبة لنقطتين وقال :

" أخشى إن أنا ساعدتك وكسبنا الدنيا أن تتخلى عنى لتبحث عن حظك فى مكان آخر. ثانيًا : أن تترك لى بموجب قوانين البلاد حق جباية الضرائب من رعاياى والفوائد الزراعية والتجارية وأن لا تطلب إلىّ التنازل عن هذا الحق " فأجابه الشيخ قائلاً : " أما من ناحية المسألة الأولى فهات يدك أعاهدك على ذلك ، وأما بالنسبة للمسألة الثانية فربما أنالك الله فتوحات كثيرة تعوضك عنها بالكثير من الغنائم والأسلاب الحربية التى تفوق ما تتقاضاه من ضرائب ".

فمد الأمير يده للشيخ وتعاهدا على الإخلاص لدين الله ونبيه والقتال فى سبيله ، وانتقل الإمام الآن من بيت محمد بن سُويلم إلى المكان الذى أعدوه له فى المدينة فتقاطر الناس من كل حدب وصوب كى يسمعوا وعظه ، وهجر الكثيرون من أنصاره فى مدينة العيينة وساروا إلى الدرعية ليعيشوا فى ظلال الطهر والقداسة .

وقد طرق سمع عثمان نفسه ما جرى فى العاصمة المنافسة لعاصمته ، فخسى على نفسه ، وندم على فعلته ، وسار فى موكب رسمى من وجهاء العيينة ، ليزوروا الشيخ فى مقامه الجديد.

وهناك طلب إليه العودة ، واعدًا إياه بالمعاملة الحسنة الشريفة والمساعدة المخلصة ، ولكن الشيخ أجابه قائلاً : ليس هذا الأمر من شأنى بل من شأن محمد بن سعود ، فإذا رغب ذهبت معك ، وإن أبى بقيت عنده ، فلن أتخلى عن صديق فى سبيل صداقة آخر " . فعاد عثمان إلى بلاده خائبًا .



المهد الأول الذى بدأت منه الدعوة الوهابية تنتشر فى أرجاء الجزيرة

أما اللاجئون الذين وفدوا إلى الدرعية فقد أصيبوا هم أيضًا بخيبة أمل إذ كانوا فى قرارة أنفسهم يتمنون الخلاص ، فالدرعية لم تكن بالعاصمة الملكية آنذاك مثلما كانت أيام ابن بشر ، كانت مواردها ضئيلة لدرجة أن أولئك الذى جاءوا لتلقى العلم على يد الشيخ لم يجدوا بدًا من أن يعملوا ليلاً كى يؤمنوا معيشتهم .

وقد أقام الشيخ فى وسط بساتين كثيرة للنخيل فى ضاحية البجيرى ، أما أمراء آل سعود وأتباعهم فكانوا فى قلعة طريف ، وأمست البجيرى هذه ، المركز الثقافى للعاصمة ، وكانت هناك أسواق تقع على أطراف المسيل منها ما كان مخصصًا للرجال وأخرى للنساء .

على هذه الصورة كانت بداية إنطلاق الحركة الإصلاحية التى وصلت موجتها إلى أقصى البلاد العربية ثم تجاوزتها إلى ما وراءها . كانت دروس الشيخ علنيةً ، يحضرها الأمير والمزارع والفقير بدون تمييز ، فقد كانوا جميعًا فى مسيس الحاجة إلى الاطمئنان الروحى ، وفى حمأة اليأس الذى غرق فيه العرب طوال سنى الجهل والإهمال ، وكانت المعاصى الصغرى والكبرى شائعة فى الأحياء الراقية وغير الراقية على السواء ، لقد أهملوا وتوقفوا عن تقديم الصدقات التى كانت فرضًا عليهم .

وبدأ الشيخ بنفسه أولاً ثم على نطاق محدود فى العاصمة ، ومن بعد ذلك على نطاق أوسع وهذا صحيح . فبدون قوة حربية وموارد مالية كان لا يستطيع عمل شئ غير الإقناع، فأخذ يستدين المال ليقوم بأوَد طلابه ، ويقال : إن ديونه بلغت أربعين ألف محمدى يوم فتح الرياض .

وكان هذا المبلغ كبيرًا فى تلك الأيام ، إلا أن ديونه جميعها أوفت بها حصتُه فى الغنائم الحربية من المدينة المنافسة ، ونصيبه من الزكاة التى جمعتها الحكومة .

وقد أدخل الإمام فى عقول طلابه مبادئ فريضة الجهاد المقدس فوجد الكثيرون منهم فى الجهاد أقدس تعاليمه ، إذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب .

كما خصص خُمس الأسلاب للخزينة المركزية ، التى كان الأمير والإمام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما ، وما يحتاجان إليه فى سبيل القيام بمهمتهما .

ويبدو أن الأمير والشيخ كانا متفقين تمامًا فى كل تصرفاتهما كما لو كانا شخصية واحدة لها وظيفتان فى الحياة ، ويقال : بأن محمدًا بن سعود وخليفته عبد العزيز ، لم يقوما بأى مشروع أو يصدرا أى قرار ذى شأن إلا بموافقة الشيخ وبركته ، وقلما نجد لهذا التعاون المتسق الذى دام زهاء نصف قرن مثيلاً .

هكذا كان سلطان الشيخ فى تصريف شؤون البلاد بعد مرور سنة أو سنتين . لقد أصبح يعتبر شريكًا مؤسسًا ، وعندما بدأ الشيخ ينوء تحت وطأة أعباء حكم الدولة المزدهرة الآخذة فى الاتساع تنازل لعبد العزيز عن حقه فى المسؤوليات التنفيذية فى شؤون السياسة والمالية ، إلا أن عبد العزيز ظل يستشيره فى كافة الأمور .

ولنعد الآن إلى نجد لنبحث أوضاعها يوم ظهر هذا النظام الجديد فى الدرعية سنة ١٧٤٥م .

كانت الإحساء والعيينة ، وهما المنافستان الرئيسيتان للدولة الوهابية تحت إدارة حكام تولوا الحكم من جديد خلال الثلاثين سنة الأولى من القرن الثامن عشر ، ونعنى بهما سليمان بن محمد بن غرير ، وعثمان بن حمد بن معمر .

وفى التخوم الشرقية من الدرعية وفى نفس الزمن تقريبًا ، نشأت دولة كانت لسنوات خلت ، أصلب وأقوى خصم للدولة الوهابية ، ولنعد قليلاً إلى الوراء لنقف على تاريخ نشوء إمارة الرياض .

لقد بدأت القصة فى منفوحة سنة ١٦٨٢م ، وذلك عندما قام دوَّاس بن عبد الله بن شعلان ، زعيم المدينة ، بذبح بعض الزوار الذين جاءوا إلى المدينة من عائلة جلاجل فى السدير ، ومع أننا لا نعرف التاريخ الموثوق فيما بعد ذلك ، فإن اتجاه الأحداث كان واضحًا ، فعندما توفى دوَّاس سنة ١٧٢٦م ، فخلفه محمد أكبر أولاده الستة إلا أن ابن عمه عبد الله بن قارس بارزه وقتله وطرد أشقاءه من منفوخة . واغتصب الزعامة فيها لنفسه .

أما الأخوة ، ومن جملته دهام ، فقد التجأوا إلى الرياض ، وكان يحكمها زيد بن موسى. فحالفهم النجاح فى منفاهم ، وأما زيد فقد قتله عبد يدعى خميس ، اغتصب الحكم مدة ثلاث سنوات ، ولكنه فى نهايتها هرب لدى سماعه بأخبار مؤامرة يدبرها أهل البلدة لإقصائه عن الحكم ، وذهب إلى منفوحة حيث قُتل ، وأصبحت الرياض الآن دون أمير . فتولى الحكم فيها دهام بن دواس باسم ابن اخته القاصر بن زيد . وكانت اخته أرمله زيد بن موسى . وعندما استتب له الحكم ، طرد ابن اخته من الرياض واغتصب إمارتها .

وبالنظر لطول حكم دواس فى منفوحة ، إذ انتهى سنة ١٧٢٦م ، وبما أننا نجهل بدايته ، فليس لنا الا أن نفترض حدوث هذه الأحداث فى زمن ما ، يقع بين سنة ١٧٢٦ و١٧٤٥م . وربما كان ذلك سنة ١٧٤٠م .

وليس لدينا سجل بالأعمال العدائية والمنازعات بين الرياض والدرعية خلال المدة التى سبقت وصول الشيخ ، إلا أنه فى بدء سنة ١٧٤٦م قام دهام بمعاونة جماعة من بدو السمدة "ظافر" بهجوم على منفوحة ، وتلا ذلك معارك قاسية كانت خسائر الطرفين فيها فادحة جدًا، لكنها بدون فائدة تذكر ، وظل الأمر كذلك حتى وصلت نجدات قوية من الدرعية تحت إمارة ابن أميرها عبد الله وحينئذ وقع المهاجمون بين القوى المحاصرة والنجدة فما ولو جاهدين أن يشقوا طريقهم وسط النجدة ، ولكن دهام نفسه جرح مرتين وقتل جواده تحته . ومن ذلك الحين أصبح على بن مشروع الذى خلفه عبد الله بن فارس فى زعامة منفوحة ، خليفًا طبيعيًا لابن سعود فى كفاحه الطويل لإخضاع أمير الرياض . فاستؤنفت المعارك فى الحال . وأرسل بن سعود قوة من الجند تحت جنح الظلام ، بعد حادثة المنفوحة ، لتدخل المدينة وكانت منفوحة فى تلك الأيام على تلة وراء أشجار النخيل إلى الغرب من موقعها الحالى . نجح المهاجرون فى اقتحام بيوت ناصر بن معمر ، وتركى شقيق دهام ، ويبدو أنهم لم يفعلوا أكثر من نهب عدد من الجمال .

ثم أخذ دهام زمام المبادرة وهاجم العمارية فقتل زعيمها وعقر بعض جمالها ، وما كاد يسمع محمد بما جرى حتى سارع بقطع الطريق على الغزاه ، ويوقعهم فى كمين نصبه لهم فى أحد الأودية ، لكن دهام علم بالمكيدة فقرر بدوره أن ينصب كمينًا لمحمد فى الوادى نفسه .

والتقى الفريقان . كل قبالة كمين خصمه . فسقط عددمن القتلى اثر معركة حامية الوطيس نشبت بينهما ، وبعد ذلك بقليل نشبت معركة أخرى على مقربة من الرياض ، اشترك فيها محمد بن سعود وعثمان بن معمر ، وكان عثمان قد تخلى عن الشيخ وحكومة الدرعية ، وتعرف هذه المعركة بمعركة الشيوخ .

وعندما وصل المهاجمون الرياض انقسموا إلى فريقين ، فريق هاجم ضواحى المدينة وفريق آخر كان عليه أن ينصب كمينًا لمن يخرج من أهل الرياض للدفاع عن أملاكه .

وقد نشب القتال الرئيسى حول تلة " الوشام " قرب المدينة ، وكان بفضل مفاجأة الكمين لدهام أن سارع هذا لحماية أسوار مدينته نفسها ، وكان بين القتلى شيخان سميت المعركة باسمهما ، ثم نشبت معركة أخرى عرفت باسم معركة العبيد ، لأن معظم الذين قتلوا فيها من مدافعى الرياض كانوا من العبيد ، جميع هذه الاشتباكات حدثت فى نهاية سنة ١٧٤٦م .

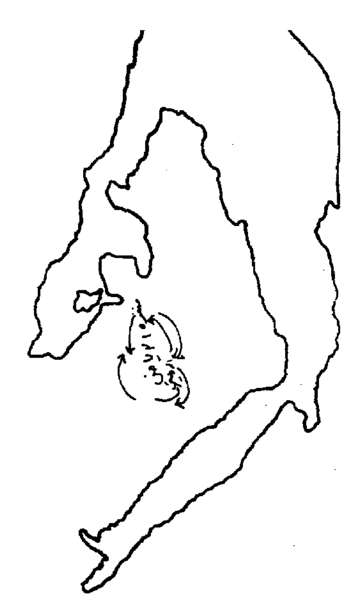
وفى أوائل السنة التالية ، نقل دهام القتال إلى الأراضى الوهابية واتبع نفس الخطة فى نصب الكمين المعتاد ، فخرج أهل الدرعية للقائهم ، ولكن الغزاة هربوا بغير انتظام كى يستدرجوا الناس للكمين الذى نصبوه لهم ، وهذا ما تم بالفعل فقتل فى المعركة اللاحقة ولدا محمد بن سعود ، فيصل وسعود . فجهز محمد حملة معاكسة على الرياض بجييش جمعه من منفوحة وحريملة بدون مساعدة العُيينة . وكانت هاتان المدينتان قد انضمتا إلى الحلف الوهابى ، وكان لسوء حظ محمد أن وُجد فى صفوف حريملة رجل خائن ، أنسلّ فأنذر دهام بالهجوم المقررعند الفجر ، وعند هجوم محمد على المدينة وجد أهلها على أهبة الاستعداد لملاقاته ، فنشبت معركة " دَلَقَه " أو " الشراك " ، ومنى الطرفان بإصابات كبيرة .

وتجدد القتال فى سنة ١٧٤٨م ، وكان عثمان بن معمّر قد حشد خليطًا من الرجال من الدرعية والعيينة ، كما اشترك فى المعركة جند من حريملة وضُرمه .

أما عبد العزيز بن محمد فكان قائد رهط الدرعية ، ولكنه كان تحت إمارة عثمان الذى زوّجه من أبنته ، فدار القتال الرئيسى فى ضاحيتى المقرْن وسيّاح ، وكاد المهاجمون أن يستولوا على الموقعين ، لولا أن قوة خرجت من المدينة فأحدثت توازنًا معقولاً ، وقد قاتل الطرفان قتالاً مريرًا ، غير أن الوهابيين أُكرهوا على الارتداد ، مخلّفين وراءهم أربعين قتيلاً كان معظمهم من جند حريملة ، وعرفت هذه الواقعة بمعركة " البنيّة " .

ثم جهز محمد حملة على ثرمدة فى إقليم الوشم ، ونصبوا نفس الكمين المعتاد ، فانهزم سكان المدينة لدى خروجهم للقتال وفقدوا سبعين من رجالهم ، بينما لجأ الباقون إلى مزرعة خارج المدينة فشدد عبد العزيز ، هجمته على ثرمدة الخالية من السكان ، إلا أن عثمان رفض أن يسمح له بذلك الأمر الذى دعاه إلى أن يرتاب فى إخلاص عثمان للقضية . وقد أخبر

عبد العزيز محمدًا بن سعود والشيخ بما حدث ، غير أنهما لم يتخذا أى إجراء ، وذلك لأن عثمان عاد فجهز حملة صغيرة على ثرمدة ، ومن هناك هاجم ثادق فقتل عددًا من الناس واستولى على بعض الأغنام .



«معركة الشبوخ» وفى هذه المعركة تخلى عثمان بن معمر عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وقاد محمد بنفسه حملة أخرى على الرياض سنة ١٧٤٩م ، فهاجم مقاطعة الحبونيَّة عند الفجر ولكنه وجد السكان على أتم الاستعداد ، فاقتصر القتال على إطلاق النار من بعيد وقليل من الإصابات ومرت البلاد فى أوائل هذه السنة بموجة من الصقيع والبرد الشديد ،

الذى أتلف المحاصيل وأدى إلى سنة عجفاء من تلك التى تميز بها تاريخ الجزيرة العربية ، وفى نهاية هذه السنة بالذات ، منع الشريف سعود ابن سعد أمير مكة ، حجاجَ نجد من الحج وأجبرهم على الإقامة فى أحد المحاجر الصحية فمنى الحجاج بخسائر فادحة فى الأرواح .

وفى سنة ١٧٥٠م ازداد الشك فى نفس الحلف الوهابى فى إخلاص عثمان بن معمر ، فقُتل عند انتهاء صلاة الجمعة فى جامع العيينة الكبير ، وقد ذُكر أنه أتصل سرّا بمحمد بن عفالق فى الإحساء واتفق معه على خيانة الدولة الوهابية وعدم الولاء لها ، ولذلك قتله نفر من العيينة نفسها ، هذه المدينة التى كانت آسفةً لفقدها محمد بن عبد الوهاب ، وكان عثمان هو وحده المسؤول عن ذلك بالرغم من توبته وإعتناقه المذهب الجديد .

ويقول ابن بشر " أن الدين الحنيف لا يحابى الوجوه " . وقد لاقى قتل صهر وارث العرش استحساناً فى الدرعية ، وكان ابنه يبلغ من العمر سنتين يوم ذاك .

وفى السنة التالية قاد محمد بنفسه حملة على الرياض تميزت بنفس الضرواة . فنشبت المعركة بين رجاله وجماعة خرجت من المدينة حول بئر " مروى " فى مسيل البُطيحة ، فعرفت المعركة باسمها .

هذا كما نشبت معركة أخرى حين خرجت جماعة من ثرمدة تحت إمارة زعيم العيينة الجديد ، مشارى بن إبراهيم بن معمر بن عم عثمان الأدنى ، وكان يرافقه فى هذه الحملة عبد العزيز على رأس جيش الدرعية ، وكان أهل ثرمدة على علم بالحملة فحصلوا على نجدة من العثيثية ومَرةً مِن جيرانهم ، وخرج أهل ثرمدة للقاء العدو خارج المدينة ، فوقعوا بالشرك الذى نُصب لهم ، وحينئذ أضطروا إلى التقهقر إلى قريتهم ، فاكتفى الغزاه ببعض الأسلاب والغنائم ثم عادوا إلى بلادهم وعُرفت هذه المعركة باسم الواطِيّة .

ثم غزا الوهابيون الرياض فى نهاية السنة أو بداية ١٧٤١م ولكنهم أصيبوا بنكسة ، فوصلوا منطقة عَوذْة جنوب شرقى المدينة ، ولكنهم طوردوا وتكبدوا بعض الخسائر، وكان من بين القتلى ، على بن عيسى آل دروع وهو قريب للسعوديين .



معركة الواطية

وفى هذه الأثناء حدث أمر خطير للغاية مع جماعة من أقرباء البيت السعودى كانت قد ارتدت من الدرعية إلى ضُرمه مع عبد الرحمن بن إبراهيم الذى كان الجدَّ الرابع لمحمد بن سعود ، أما محمد بن عبد الرحمن فقتل أثناء اضطرابات عادية وقعت بين جماعته وبين جيرانهم سنة ١٦٨٤م . وربما كان حفيده إبراهيم هو الذى قاوم الحركة الوهابية ، فقتل عددًا كبيرًا من أنصارها البارزين فى مدينته ، وكان من جملتهم رشيد العزآزى ، وبعد بضعة أشهر فاجأه الوهابيون من أقارب رشيد فى الجامع فقتلوه مع ولديه هبدان وسلطان ، وهكذا كانت نهاية

هذا الفرع من العائلة ، فأقام عبد العزيز رجلاً يدعى عبد الله بن عبد الرحمن " المريدى " أميرًا عليهم بينما كان فى طريقه لغزو زلفى ، متظاهرًا بزيارة ضُرمه .

وقد شوهدت سنة ١٧٥١-١٧٥٢م خصبًا وخيرًا كثيرًا بعد الجفاف والهلاك الذى أصاب المحاصيل . وقام فى السنة التالية جيش مشترك مؤلف من أهل السدير والمُنَيْخ وزلفى والوشم وبنى ظافر ، تحت إمارة فيصل بن سويط ، فهاجم واحة الرعابة وأعمل فيها السيف بلا رحمة ، وتوفى فى هذه السنة الشيخ محمد حياة السندى معلم محمد بن عبد الوهاب أثناء طوافه بالمدينة ، أما المناوشات العسكرية الوهابية فى هذه السنة فكانت محدودة ، إذ اقتصرت على غزوة صغيرة على الدَّلَمْ ، عاصمة الخرج ، وانتهت بنشوب معركة فى منطقة العفجة AFJA فى وادى حنيفة ، وحاول أهل الدَّلم فى هذه المعركة ، استرجاع إبلهم وأغنامهم ولكن جهودهم باءت بالفشل .

وفى السنة التالية كان لدى الوهابيين أمور جد خطيرة تشغل أفكارهم ، إذ يبدو أن أهل حريملة التى كان سليمان شقيق الشيخ نفسه يشغل منصب القاضى فيها ، قد ملوا طقوس المذهب الجديد الصارمة ، فثاروا على أميرهم محمد بن عبد الله بن مبارك وعزلوه وطردوه واختاروا عمه عَدوان ، وابنه مبارك ، وأخاه عثمان ابن عبد الله ، وآخرين من أعيان المدينة ليرافقوه إلى منفاه فى الدرعية ، وبعد ذلك بقليل اقترفوا خطأ . إذ عادوا إلى المدينة ملبين بذلك دعوة أقربائهم من عشيرة آل حمد .

ولكن أفراد عشيرة آل رشيد هاجموهم فى الحال لغاية فى نفوسهم ، فقُتل الأمير المعزول وثمانية آخرون من أتباعه ، أما مبارك ابن عدوان فقد نجا بنفسه والتجأ إلى الدرعية .

وفى السنة التالية رافق مباركُ عبد العزيز بن محمد بن سعود فى حملة تأديبية على حريملة، فنجم عن ذلك قتال عنيف نهبت فيه المزروعات ومزارع النخيل ، ولكن المهاجمين لم يتمكنوا من إخضاع المتمردين من رجال المدينة .

وفى هذه الفترة بالذات قررت منفوحة أيضًا أن تنسحب من حلف الوهابيين وتقاتلهم ، وحاول عدد من الذين لجأوا إلى ضرمه أن يعودوا إلى بلادهم بعد أن تغيرت الأحوال ولكنهم مُنعوا بالقوة ، بالرغم من مساعدة أصدقائهم من السدير والوشم ، ويبدو أن الأمير

الجديد لم يتمكن من إقناع السكان بالعودة إلى الأخذ بالمذهب الوهابى ، وهكذا كانت السنة على العموم تتميز بتقهقر الوهابية .

ووقعت اضطرابات فى أراضى بنى خالد كان من جرائها أن ظهرت شخصية قُدِّر لها أن تكون شوكة فى صدر الوهابيين فى السنوات التالية ، فقد ثارت عشيرة المهاشر "ahashir على سليمان فهب إلى " الخرج " حيث توفى بعد وصوله إليها بقليل ، وتولى الزعامة عريعر بن دُجَيْن الذى احتفل بتوليه المنصب بقتله زعار بن عثمان حفيد غرير الأعلى ، ثم ثار عليه رجل من بنى خالد يدعى حماده ونجح فى إجباره على الفرار ، فلجأ إلى حريملة ولكنه عاد وأجبر حماده بدوره على الفرار إلى الشمال .

وحين وطد عريعر مركزه قام ابن عمه عبد الله بن تركى بحملة على بنى ظافر قرب زلفى فتغلب عليهم وغنم أموالهم .

وفى هذا الوقت بدأ دهام يتبرم بالقتال من فترة الهدوء الطويلة والمتاعب التى كانت تواجه الوهابيين ، ففى نهاية سنة ١٧٥٣م وأوائل السنة التالية قرر أن يبدأ بالمفاوضات ، فأرسل رسولاً إلى الدرعية مع هدية فاخرة من الخيول والأسلحة النارية ، ليقترح عقد صلح وليؤكد دهام ولاءه لمحمد بن سعود ولمذهبه وطلب إرسال معلم إلى الرياض ، فاختار الشيخ رجلاً يدعى عيسى بن قاسم وأرسله إلى هناك .

وهكذا ، دخلت الرياض حظيرة الوهابيين فساد السلام فترة من الزمن ، وفى هذه الأثناء بدأ الاضطراب يسود ضرمه بسبب مقتل أربعة أخوة من عشيرة السَّايرة، أحفاد سيف بن إبراهيم ، وكان مقتلهم على يد الأمير الجديد محمد بن عبد الله (المُرَيْدى) . وكان هذا وهابيًا مخلصًا ينحدر من سلالة عبد الرحمن التى أندثرت يوم ثارت عشيرة سيف وقتلت آخر أمرائها الأمير إبراهيم وولديه قبل بضع سنين .

ويبدو أن عشيرة سيف هذه تمردت بعد عزل الأمير الحاكم وبدأت تقاوم الوهابيين جهارًا ، وأخذوا يظلمون السكان ويبدون احتقارهم للسلطة ، فنقُل الأمر إلى الدرعية ، وبعد أن تناول الشيخ محمد بن سعود فى ذلك ، خول الأمير المحلى السلطة المطلقة ، كى يعمل حسبما يراه مناسبًا فى تلافى أية ثورة واضطرابات ، وأخذ هو بدوره يستشير بعضًا من زعماء

المدينة . فأشاروا عليه بأن يعمل على إخضاع المتمردين نهائيًا ، ولكن فى شهر تشرين الثانى من نفس السنة قام رجل يدعى الغفيلى بالاشتراك مع أهل (مرّة) وتعهد بأن يساعد أمير ثرمدة إبراهيم بن سليمان فى محاولته فى تحطيم نير الوهابيين فى خُرمه . أما أمير ضُرمه فقد توجس شرًا وطلب النجدة من الدرعية ، فأسرع محمد بن سعود نفسه لإنقاذه ووصل إليها فى نفس الوقت الذى وصل فيه الغفيلى وأتباعه من الوشم ، فدحر الغفيلى وأفقده ستين قتيلاً.

ووجه محمد انتباهه الآن إلى حريملة ، فأرسل إليها عبد العزيز فى غارة من ثمانمائة رجل فى أوائل سنة ١٧٥٥م ، فوصلها فى الليل ، ووزع رجاله ونصب كمينين ، وكان هو نفسه على رأس أحدهما فى شعب العويجة ، ومبارك بن عدوان مع مائتين من رجاله فى الجُزَيعْ .

وتقدمت القوة الرئيسية نحو المدينة فخرج أهلها إلى لقائهم ولكن اشتراك الكمين الأول فى المعركة لم يكن كافيًا لقلب ميزان القوى ، غير أن الكمين الثانى الذى شق طريقه لقطع الاتصال بالمدينة قلب الميزان ، ولم يستطع المدافعون الصمود فتقهقروا وتفرقوا بين أشجار النخيل وعلى الطرقات ليحتموا بها بعد أن فقدوا مائة قتيل .

وعاد عبد العزيز لغاية فى نفسه إلى الدرعية تاركًا لمساعديه الاستمرار فى العمليات الحربية ، وما كاد يفعل ذلك حتى قام أحد هؤلاء القادة ، محمد بن عبد الرحمن أمير ضرمه مع ثلاثة عشر من رجاله فدخل المدينة واحتلها بدون أى مقاومة ، فعاد عبد العزيز فى الحال ليعالج الوضع وأعلن العفو عن كل أصحاب النوايا الحسنة ، فيما عدا بعض أفراد من آل رشيد الذين اقترفوا الجرائم ضد القانون المدنى ، وسمح للوهابيين المنتصرين أن ينهبوا المدينة ومزارع النخيل وعين مبارك بن عدوان أميرًا بدلاً من ابن عمه الذى قتل .

وهكذا عادت حريملة إلى حظيرة الوهابيين فى الرابع عشر من آذار سنة ١٧٥٥م ، أما القاضى سليمان بن عبد الوهاب فهرب من المدينة ماشيًا أثناء اشتداد الثورة ووصل السدير بأمان .

وفى الرياض . ملَّ دهام السِّلْمَ كما سئم الحرب من قبل ، وفى هذه السنة أخذ زمام المبادرة فابتدأ المرحلة الثانية من صراعه مع الدرعية ، وقد هب لمساعدته أمير منفوحة محمد

بن فارس ، وإبراهيم بن سليمان زعيم ثرمدة الذى جمع حوله جميع المتبرمين من الوضع ، فى الوشم والسدير وثادق وحريملة .

وكان هدفهم الأول إنقاذ حريملة من يد الحكم الوهابى ، فتجمعت القوات التى كانت تحت إمرتهم فى الحسيَّان ، وهو مكان للسقاية فى أعالى الوادى . وهناك هاجمهم مبارك بما لديه من القوات ، وبدأ يناوشهم حتى وصلته النجدة من الدرعية ، ولدى رؤيتهم ذلك ، تراجعوا مذعورين ، فلجأت بعض القوات إلى المزارع ومكثوا فيها خمسة أيام ، فهرب فى أثنائها من تمكن من الهرب أما الباقون فأبيدوا ، وكان شارى بن يحيى زعيم الثادق أحد الذين فروا ، بينما فقد الحلفاء فى معركة (الدار) هذه ستين قتيلاً .

وكان ذلك فى شهر آب أو أيلول من سنة ١٧٥٥ م .

أما السنة التالية فقد تميزت بالهدوء فيما عدا هجوم صغير شنه عبد العزيز على منفوحة ، ووصول وفد من قرية القُويَعة Quaiya لزيارة أمير الدرعية والشيخ ، لتأدية الولاء لهما ، وكان العام كثير الأمطار جيد المحاصيل والمراعى ، الأمر الذى أدى إلى الحد من النشاط الحربى ، ولكن شتاء سنة ١٧٥٦-١٧٥٧م شهد استئناف الإشتباكات ، وكان أولها معركة سدُ الرِشاء Risha التى حولت رحى المعارك من وادى حنيفه إلى مزارع النخيل فى منفوحة ، وكان هذا هو هدف عبد العزيز الرئيسى، فاحتل بعض المزارع وبدأ فى هدم السد الذى كان مبنيًا من الصخور الضخمة المدعومة بأبراج مستديرة ، وفى أثناء الاشتباك خرج دهام من الرياض ، فنشبت معركة حامية الوطيس ، قتل فيها عشرة من الوهابيين وثلاثة من أعدائهم .

أما زمام المبادرة فكانت الآن لسكان الوشم حيث كانت الشقرا عاصمتهم ، المركز الوحيد للوهابيين ، وقيل : إن سكانها كانوا أول طائفة اعتنقت مذهب الوهابية الجديد فى نجد (باستثناء الدرعية والعيينة) ، ولكن قرى الأقليم الصغيرة ، كانت منذ البداية تقاوم الحركة بضراوة ، فطلبوا النجدة من السدير والمنيخ لمهاجمة الشقراء فخرج بعض الأهالى للقائها ونشبت معركة انتصر فيها المدافعون عن المدينة ، وغنموا بعض الخيول والجمال من الأعداء .

وعندما جاء عبد العزيز من الدرعية ليشترك فى المعركة ، فاستؤنف القتال وانتصر أهل الدرعية انتصارًا ساحقًا ، أما المتحالفون فانسحبوا إلى القراين Qarain التى كانت تبعد بضعة أميال عن العاصمة . وخسروا فيها سبعة عشر رجلاً ، منهم بعض أعيان السدير ، وعاد عبد العزيز إلى بلاده بعد أن أنقذ الشقراء فهاجمته فى طريقه جماعة من بدو السُّبيع عن آبار الحاسى المؤدية إلى هضبة الطويق ، فانحدر البدو وأسر زعيمهم فيصل المليْجى ، إلا أنه افتدى نفسه بمبلغ خمسمائة قطعة ذهبية .

أما عبد العزيز فقام الآن بالهجوم على الرياض من الغرب ، ونصب كمينًا تحت ستار الليل ، فدُعيت المعركة التى نشبت باسم معركة الباب القبلى . وقد خسر سكان الرياض بعض القتلى فى هذا الكمين ، وفى هذه الأثناء قام محمد بن عبد الله أمير ضُرمه بالهجوم على الوشم ، إلا أنه فوجئ بغزو من عشائر السمده (ظافر) ففر ، ثم قام عبد العزيز بهجوم آخر على الوشم فهاجم قريةُ عشيقير ، ومن هناك تقدم نحو ثادق ، فحاصرها بضعة أيام وقطع عددًا كبيرًا من نخيلها وسلب أموالها .

وبعد أن تكبد الطرفان بعض الخسائر ، وكان من بين القتلى محمد بن ذعيثر الوهابى ، طلب السكان عقد الصلح ، معلنين استعدادهم لاعتناق المذهب الجديد والخضوع لسلطان ابن سعود وحينئذ عُيّن دُخيّل بن عبد الله بن سويلم أول أمير على ثادق بينما عُين شخص آخر من نفس العائلة اسمه حمد بن سويلم ، قاضيًا فيها .

واتجه عبد العزيز الآن ناحية السدير ليهاجم مدينة جلاجل المهمة فتمركزت المعركة حول أراضى (العميرى) شمال المدينة ، ثم تقدم صوب (الروضة) فجمع قضاة المدينة وقضاة الحوطة والدخيلة ودعاهم لمرافقته إلى الدرعية ليبسط إلى الشيخ شكاواهم الروحية والزمنية ، وفى طريقه مر بـ (العودة) فأخذ معه اثنين من زعمائها وهما : عثمان بن سعدون ، ومنصور بن حماد ، رهائن لضمان سلامة أميرها عبد الله بن سلطان ، وبعد أن أقاما فى الدرعية بضعة أيام ، سمح لهما بالعودة إلى وطنهما بعد أن قطعا العهد بألا يحركا ساكنًا ؛ ولكنهما ماكادا يصلان إلى بلدهما حتى قتلا الأمير وزعيمين آخرين ، فاغتصب عثمان الإمارة وأعلن رفضه للمذهب الوهابى ، ويبدو أن عثمان هذا تمكن من بسط سلطانه فى المدينة طوال عشر سنوات

إلا أنه قتل فى نهايتها ، أما فى الروضة التى كانت (مع جلاجل) تعتبر المدينة الرئيسية فى السدير ، فقد عزل عمير بن جاسر أخاه الأمير فوزان بن ماضى الذى خلفه عمه محمد عند اغتياله سنة ١٧٤٥م ، وطرده من المدينة .

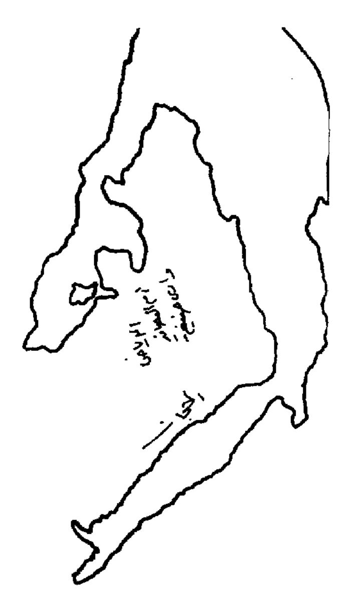
وفى سنة ١٧٥٧-١٧٥٨م قام عبد العزيز بالهجوم على ثرمدة ، هدفه الأول . فنصب الكمين المعتاد فى وادى جمال تحت ستار الليل ، ودخل إلى مزارع النخيل القريبة ، عن طريق ثغرة أحدثها فى السور ، وبقى هناك مع قواته ينتظرون إطلالة الفجر ، إلى أن عسس الليل سمعوا حركة غير عادية فأخبروا الأمير إبراهيم بن سليمان بذلك ، فأعد العدة للقاء العدو عند الصباح ، وقسم قواته إلى فريقين ، فريق أرسله ليراقب كل من يخرج من بين النخيل ، والآخر ليهاجم العدو فيها ، ولكنه قُتل وابنه فى المعركة التى نشبت ، وكانت خسائر الوهابيين فيها أعظم ، إذ بلغت ثلاثين قتيلاً مقابل ثمانية قتلى خسرها المدافعون ، وتقدم عبد العزيز بعدها نحو إقليم السدير ، فاستولى على الحوطة الجنوبية بلا مقاومة .

وكانت الرياض هدَفه التالى ، فهاجمها فى شهر رمضان ، فسقطت فى يده سنة ١٧٥٨م . وقد نشبت المعركة فى مكان ما من واحة (أم العصافير) وكان بين القتلى تركى بن دواس ، شقيق دُهام ، وزعماء أخرون من الرياض .

وجاءت بعدها معركة (البُنيَّة) . وفى أثناء عودته منها إلى بلاده ، أصدر أوامره لبناء حصن الغزوانه فى وادى حنيفة ، غربى الرياض لتكون نقطة انطلاق إلى المدينة وضواحيها ، فتم بناؤها فى سبعة أيام ، غير أنه لم يقدر لمحمد بن سعود أن يحاصر المدينة ويشهد سقوط دهام خلال السبع سنوات التى عاشها .

وبدأ الاضطراب يظهر فى حريملة من جديد ، حيث أخذ أميرها الجديد ، مبارك بن عدوان يستعلى ويبدى ازدراءه لعناصر الوهابية بين السكان ، ولما وصلت هذه الأخبار إلى الدرعية ظن القوم أن الإقليم ربما تخلى عن المذهب الجديد ، فاصطحب عبد العزيز معه مبارك فى حملة على الرياض . وعند الرجوع إلى الدرعية اقترح الشيخ ومحمد أن يبقى مبارك فى ضيافتهما هناك لفترة من الزمن دون المساس بحقوقه فى حريملة ، وعينا ابن عمه حمد بن ناصر بن عدوان أميرًا مكانه ، فتظاهر مبارك بالموافقة على هذا الاقتراح ، إذ وجد أن لا مندوحة له من إطاعة الأمر ، وطلب بعد ذلك أن يسمح له بزيارة أخته فى العيينة ، وكانت أخته هذه زوجة حمد الطويل ، ولكن مبارك نكث عهده وعاد إلى حريملة وأعلن توليه

الإمارة بقرع الطبول فى سوق المدينة ، وسرعان ما انضم إليه أنصاره السابقون ، وكان الأمـر فى تلك الحال يتأثر بموقف آمر الحامية إلى درجة كبيرة ، غير أن حسن أمـرَ الحاميـة، فـأُغْلِقَ بابُ الحصن الرئيسى فى المدينة باسم الأمير الجديد ، ثم هرب مع بعض من أبرز أنـصاره إلى رغابة خوفًا من أن يعود عبد العزيز فيعيد النظام إلى المدينة ، ولكن أمير رغابة على الجريـسى ألقى القبض على أحد أنصاره وأعدمه .



معركة «البنية» التى سقطت على أثرها مدينة الرياض لأول مرة سنة ١٧٥٨
فى واحة أم العصافير ، وهذه المعركة هى التى قتل فيها «تركى بن دواس» شقيق دهام

أما مبارك نفسه فسار إلى المجمعة عن طريق قرية «الصفرا» ، فتعهد حاكمها حمد بن عثمان وزعماء مدلج فى حريملة أن يناصروه ، وانضم إلى الثوار ، إبراهيم بن سليمان الثرمدى وجميع قرى الوشم فيما عدا الشقرا ، وربما وقعت حادثة الرغابة هذه قبل الهجوم على ثرمدة فى حزيران سنة ١٧٥٨ .وأما القوات المتحالفة فتوجهت إلى موارد المياه قرب الفقير Fugair لمراقبة التطورات وإعداد خطط الهجوم ، ولكن أخبار وصول عبد العزيز بجيش قوى إلى حريملة أطفأ حماسهم فهاجموا ذلك القسم من رغابة المعروف بالجو E"jau ، وحاصروا عَلِيّ الجريسى فى الحصن الكبير وقتلوا أحد زعماء العرينات المدعو راخى بن لهثة بن عبقية وقطعوا بعض النخيل ، ولم يحاولوا نجدة أميرهم المحصور ، ولكن المحاصرين انسحبوا عندما جاءتهم أخبار حملة عبد العزيز وتفرقوا ذاهبين إلى منازلهم وتركوا وراءهم أصدقاءهم فى الحزم يتعرضوا لوطأة هجوم القائد الوهابى الذى عمد إلى تدمير منازلهم ، وإعطاء نخيلهم إلى الجريسى مكافأة له على ولائه .

وشهدت سنة ١٧٥٨ تحديًا خطيرًا للدولة الوهابية على أيدى زعيم الإحساء عريعر بن دُجَيْن وعشائره من بنى خالد ، وأنصاره فى عدد من مناطق نجد ، وعلى الأخص فى الوشم والرياض والسدير والخرج ، فاتخذ عريعر وجيشه القوى مركزهم فى جبيلة من وادى حنيفة ، ولكن المتقاتلين لم يكسبوا شيئًا فانسحب الغزاه ، أما سكان ثادق والمحمل الذين انضموا إلى الأعداء ، فسارعوا لعقد الصلح مع الدرعية ، وتعهدوا بدفع غرامة كبيرة لعدم ولائهم ، للدولة الوهابية ، فأرسلت الدرعية سارى بن يحيى بن عبد الله بن سويلم إلى المنطقة ليؤكد الطاعة والإخلاص للحكومة المركزية ، وعندها هاجم عبد العزيز قرية قصب Qasab القريبة فأخضعها . وفرض عليها غرامة مقدارها ثلاثمائة قطعة ذهبية .

وفى خريف سنة ١٧٥٩ توجه نحو الخرج ليعاقبها على اشتراكها فى الحركة وهاجم الدِّلَم ونَعْجان Na'jan ، فتكبد السكان بعض الإصابات ونُهبت ممتلكاتهم .

وأثناء عودته إلى بلاده ، وجد عبد العزيز نفسه مرة أخرى فى طريقه للحرب باتجاه ثرمدة وعشيقير ، حيث كرر خططه المعهودة فى نصب الكمائن ، فكان النجاح حليفه دائمًا ، ومرة أخرى مرّ بالخرج وهاجم الدلَّم ونعجان فاستولى على عدد كبير من الإبل وأوقع فيهم خسائر فادحة ، وبذلك انتهت غاراته الموفقّة فى تلك السنة .

جاء دور العيينة كيما تشعر بقبضة الوهابيين الشديدة ، وكان الشيخ ومحمد قد قررا أن يخلعا مشارى بن معمَّر من الإمارة ويعينا مكانه سلطان بن محسن المعمَّرى ، ولهذا توجه الشيخ إلى العيينة ليشرف بنفسه على تدمير قلعة العشيرة ، وكان بالطبع يقصد من وراء ذلك أن يرمز إلى ضم إمارة العيينة إلى الدولة الوهابية ، واسم الأمير الجديد لا يدل على أنه من عائلة معمَّر فربما كان عبدًا أو تابعًا بارزًا .

وكان عبد العزيز آنذاك مشغولاً بحملاته العسكرية المعتادة ، فهاجم منفوحة وأحرق مزروعاتها ، وغزا آل عسكر فى الثرمانية قرب رغابة ونهب مواشيهم . ثم غزا الوشم فالتقى بجماعة من محاربى ثرمدة ، لكنهم هربوا أمام جيش يفوقهم عددًا وعدة ، ولجأوا إلى مزرعة الحريق قرب قصب ، إلا أن عبد العزيز ، تتبع أثرهم وطلب إليهم أن يستسلموا ، أما المزارعون الأباة فرفضوا أن يسلّموا ضيوفهم ، واتفقوا أن يفتدوهم بمبلغ ألف وخمسمائة قطعة ذهبية .

وفى سنة ١٧٦٠-١٧٦١ تابع عبد العزيز غزواته لمناطق عدة ، فغزا أولاً السدير واشتبك مع جماعة من الروضة اشتباكًا قصيرًا حامى الوطيس ، ولكن بدون نتائج تذكر ، وبعدها هاجم الرياض ، فخرج فهد بن دواس جرحًا بليغًا ، وتلا ذلك غزوة قام بها ضد منفوحة ، وأخرى ضد بدو السبيع قرب آبار العتك ، فاستولى على ثمانية آلاف جمل من جمالهم وأسلاب أخرى ، وقام بغزوة ثانية على الرياض ، حيث تكبد الطرفان خسائر فادحة ولكن بدون نتائج تذكر ، وبهذا انتهت غزواته لذلك الموسم .

وفى سنة ١٧٦١ أصيب مبارك بن عدوان ، الحاكم السابق لحريملة ، بالفالج . وفى الخريف استأنف عبد العزيز نشاطه العسكرى فقاد هجومًا على منفوحة ، ومن ثم هاجم نعجان فى الخرج ، فقطع بعض أشجار النخيل وأنزل بالمدافعين بعض الخسائر ، وبعدها مباشرة هاجم الوشم والفارعة ، حيث قررت هذه أن تنضم إلى مذهب الوهابية ، فأرسلوا وفدًا إلى الشيخ وإلى محمد يرأسه الأمير منصور بن حمد بن إبراهيم بن حسين ليقدموا خضوعهم وولاءهم ، وإثباتًا لإخلاصهم قاموا بالهجوم على العشيقير ، وقد استمر هذا طوال سبع سنوات تمكن منصور فى نهايتها من الاستيلاء على أبراج الدفاع فى الطرف الأقصى

من الواحة المتاخمة للفارعة ، فخضعت العشيقير للدولة الوهابية بعد قتال ضارٍ استمر فى فترات متقطعة ، طوال عشرين عامًا .

وعاد عبد العزيز هجومه على الرياض فقُتل فى المعركة تسعون رجلاً من حراس ضاحية المقرَن ، كما جُرح شعلان بن دواس ، وهو حفيدٌ آخر لدواس . ثم اتجه عبد العزيز إلى الوشم وهاجم عشيقير ليساعد سكان الفارعة الذين بنوا حصنًا عظيمًا يسمى الحُلْيْليةُ (بالإتفاق مع سكان الشقرا المخلصين) ليحموا أنفسهم ويهددوا الأعداء المهاجمين .

وكانت الأمطار فى موسم سنة ١٧٦١- ١٧٦٢ غزيرة جدًا والبلاد على العموم فى حالة ممتازة ، غير أن مرضًا يعرف بالدمغة (ربما كان هذا نوعًا من الأمراض المعروفة بحمى الواحدة وهو مرض يؤثر فى الدماغ) انتشر فى البلاد ، وأهلك عددًا كبيرًا من الناس ، من ضمنهم شخصيات بارزة من العلماء . وزاد الطين بلّة أن رافقت الوباءغزوة للجراد ، فأهلكت جزءًا كبيرًا من المحصولات الزراعية .

وعاد عبد العزيز فافتتح موسم الفتوحات فى سنة ١٧٦٢-١٧٦٣ بالهجوم على الرياض، ولكن دون طائل ، ثم توجه إلى الإحساء ونصب خيامه جوار المطَيْرفَة فاستولى على غنائم كثيرة وكبد العدو سبعين إصابة ، وبعد هجوم فاشل على مدينة المفرَّز "uvartaz عاد إلى بلاده ، وفى طريقه التقى بقافلة كبيرة فى منطقة العرمة ، تحمل ذخائر جاءت بها من الساحل إلى سكان الرياض وحرَمة ، فاستولى على بضائع الرياض ، أما بضائع أهل حرمة فلم يستولِ عليها ، وكانت هناك هدنة بين حرمة والدرعية .

وفى هذا العام ارتد سكان العُثيثيَّة فى الوشم عن المذهب الوهابى وهاجموا أتباعه فى الإقليم ، وكان عبد العزيز آنذاك مشغولاً بغزو السُّبيع قرب سَيْح الدُبُل "Saih a" Dubu" فلم يتخذ أى إجراء مباشر لإخضاع المرتدين . إذ كان أهل الدرعية مهتمين بما هو أهم وأعظم من ذلك قرب ديارهم . وهو خضوع أمير الرياض القوى دهام بن دواس نتيجة لكلله من الحرب الطويلة . وكان هذا هو الخضوع الثانى الذى يقوم به ، فأرسل وفدًا إلى الشيخ وإلى محمد بن سعود مع ألفى قطعة من الذهب ، يطلب الدخول فى المذهب الوهابى ، واعدًا بأن يحترم قادته ويقدم لهم الطاعة والولاء .

غير أن المؤرخ النجدى (ابن بشر) لا يكاد يأتى على ذكر هذا الحدث الهام أو يعلق عليه، ولربما كان مهتمًا بنتائج إحدى حروب الوهابيين العظيمة الأثر ، ألا وهى حملة عبد العزيز على جلاجل ، إحدى مدن السدير الرئيسية ، فبعد المناوشات المعتادة والإصابات البسطية وقطع بعض أشجار النخيل ، قرر سُوَيِّد زعيم جلاجل أن يدخل حظيرة الوهابيين وقد حذت حذو جلاجل مدن إقليم السدير وقراه .

وبعد أن مر عبد العزيز برغابة ، فى طريقه إلى بلاده ، جاءته أخبار غزوة قام بها جماعة من العجمان على بدو السُّبيع فى الصحراء ، إلى الغرب من سلسلة الطويق ، وتغلب عليها ، فما كان منه إلا أن تتبع أثر العجمان فى سهل هدبا قذلة ، بين العارض ونفود السِّر . فقتل منهم زهاء السبعين رجلاً ، بالإضافة إلى مائة أسير وأربعين فرسًا .

وفى شتاء ١٧٦٤-١٧٦٥ استأنف عبد العزيز غزواته مبتدئًا بغزو عشيرة السُّعيِّد Su'aiyid (من بنى ظافر) التى يتزعمها حمد المُديَهْم ، وكان يرافقه فى هذه الغزو جندٌ من الرياض تحت إمرة دواس بن دهام ، فهاجم البدو عند جَذابْ Janab فهزمهم وقتل منهم ثلاثين رجلاً ، واستولى على كل ما كانوا يملكون .

وفى تشرين من سنة ١٧٦٤ أخذ يفكر جديًا بتطوير خطير نتج عن تغلّبه على العجمان، إذ لجأ الذين نجوا من المعركة إلى نجران وأقنعوا عشائرها الشرسة الشديدة المراس ، بأن تنضم إليهم فى هجومهم المعاكس على الوهابيين لإنقاذ الأسرى من أقربائهم .

وكان أمير نجران آنذاك زعيم آل مكرمى ، حسن بن هبة الله ، الذى يمتد نفوذه إلى عشائر وائلة ، ويام . فجمع عددًا منهم لمهاجمة الدرعية . ولدى وصولهم إلى قرية حاير السُّبيع وواحتها فى وادى حنيفة ومباشرتهم فى حصار القرويين هناك ، وصلتهم الأخبار بأن عبد العزيز فى طريقه إليهم ومعه جيش كبير من الوهابيين . فتأهب النجرانيون للقاء العدو ، ونشبت بينهم معركة ضارية ، انهزم فيها عبد العزيز هزيمة ساحقة ، وفرَّ الوهابيون تاركين وراءهم خمسمائة قتيل وعددًا كبيرًا من الأسرى ، وقيل : إن الدرعية وحدها فقدت سبعًا وسبعين قتيلاً بينما فقدت منفوحة سبعين قتيلاً والرياض خمسين ، وخسرت عرقة ثلاثة وعشرين قتيلاً والعيينة ٢٨، وحريملة ١٦، وضرمة أربعة ، وثادق قتيلاً واحدًا ، وكان باقى

الإصابات موزعًا بين المجندين من البدو ، أمـا مجمـوع الأسرى فقـد بلـغ مـائتين وعـشرين أسيرًا ..

وعندما مثُل عبد العزيز مع من نجا من الدرعية أمام الشيخ محمـد بـن عبـد الوهـاب ، ونقل إليه أخبار الكارثة ، ما كان منه إلا أن ردّد الآية الكريمـة التـى معناهـا : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٩)



المعركة التى انهزم فيها الوهابيون سنة ١٧٦٤ هزيمة منكرة ، وفروا تاركين ٥٠٠ قتيل

وكان النصر الساحق الذى حققه الخوارج المحتقرون من أهل نجران والإحساء على الوهابية – ضربة شديدة سُددت لمؤسسها ، وكان له أعمق الأثر فى نفس الشيخ ، فقد بقى شبح الكارثة يلازمه حتى آخر أيام حياته .

وكان رد الفعل لمواجهة هذا الوضع الخطير مثيرًا وغريبًا للغاية . فبدلاً من أن يعدّ الوهابيون العدة للثأر قرروا أن يفاوضوا المنتصرين الذين وصلوا إلى مشارف الرياض فى تقدّمهم نحو الدرعية . واستعد الشيخ زعيم بنى ظافر ، فيصل بن سهيل ، ليكون وسيطًا . وجرت المفاوضات فى بستان المحطّة المشهور بنخيله ، حيث كان حسن بن هبة الله قد نصب خيامه هناك ، فاتفقوا على تبادل الأسرى ودفع التعويضات ، ثم عاد زعيم نجران مباشرة إلى بلاده . ويظهر أنه تجاهل عريعر أمير بنى خالد الذى قد اتفق معه على أن يشترك الجيشان فى مهاجمة عاصمة الوهابيين .

وقد مرت فترة طويلة منذ انتهاء الحرب ، واستعد عريعر للاشتراك فى مهاجمة عاصمة الوهابيين ، فرأى أن لا جدوى من تنفيذ الاتفاق وحده بدون حليفه الجنوبى . إلا أنه وصل بجيشه الكبير إلى مشارف الدرعية فقصفها بمدافعه فى فترات المناوشات التى حدثت بين مزارع النخيل خلال عمليات فاشلة استمرت ثلاثة أسابيع ، ثم رحل عن الدرعية وتوجه إلى الإحساء مخلفًا وراءه أربعين قتيلاً مقابل اثنى عشر قتيلاً فى جانب الدرعية .

وهكذا انتهت آخر معارك محمد بن سعود الذى لحق بأجداده سنة ١٧٦٥ فدفن فى مقبرة الدرعية بعد عمر مديد ملىء بالأمجاد ، وكان شعبه يذكره دائمًا بما كان يتحلى به من إنسانية وتقوى أكثر من شجاعته وإقدامه فى الحروب . وفى الواقع كان الهجوم الوحيد الذى اشترك فيه هو غزوة الرياض سنة ١٧٥٠ ، أما بعد ذلك فقد ترك القيادة لأمراء العيينة عثمان ومشارى ، ومن بعدهم لابنه ووريثة عبد العزيز ، وشهد مرتين فى حياته استسلام ألد أعدائه فى الرياض ، دهام . ومات قرير العين مطمئنًا على أن أعظم مهمة فى حياته قد سوِّيت إلى الأبد. فقد ثار دهام هذا مرة أخرى ولآخر مرة على الدرعية بعد وفاته ، وكانت هزيمة نَجران لجيشه أعظم ضربة تلقَّاها فى حياته الحافلة بجلائل الأعمال . وربما لقى وجه ربه وهو ما يزال

قلقًا على مستقبل دولته ، وإن كان الانتصار التالى على بنى خالد قد شدد من إيمانه وثقته بقدرة دولته العسكرية . وقد كان له وحده الفضل كل الفضل فى تثبيت أقدام نظامه الجديد وانتشار مذهبه الذى أسبغ عليه وعلى خلفائه من بعده الجاه العريض والشهرة الواسعة . فلولاه لما كان للوهابية كيان . ذلك أنه هو الذى أعد العدة لمرحلة الإصلاح الإسلامى الجديد .

الفصل الثالث

عبد العزيز الأول بن سعود

لم يكن إمام الدرعية الجديد غريبًا عن المسؤوليات الإدارية والحربية التى أنيطت به بعد موت والده . فقد اكتسب شهرته العسكرية الأولى فى حملتين ضد دهام بن دواس فى الرياض، وتحت إمرة عمه (حميه) أمير العيينة، عثمان بن معمَّر ، سنة ١٧٤٨ . تلك السنة التى ولد ابنه البكر وخليفته العتيد سعود .

أما شقيقه عبد الله بن محمد، فقد قاد سنة ١٧٤٦ جيشًا لنجدة منفوحة ، التى هاجمها دهام هجومًا شديدًا ثم انسحب ، بعد أن جرح مرتين وقتلت فرسه تحته . وكان هذا أول اشتباك بين الدرعية والرياض ، منذ ظهور المذهب الوهابى فى السنة السابقة ، وبداية الصراع الطويل بين الدول المتنافسة . ولم يكن هذا الصراع قد انتهى يوم تولى عبد العزيز عرش الدرعية سنة ١٧٦٥ .

وصدف أن نشأ شيء من البرود ، بينه وبين حميه . خلال الحملة التى قادها عثمان ضد ثرمدة سنة ١٧٤٨ ، هذه الحملة التى أوقفها عثمان بالرغم من احتجاج عبد العزيز، وفى ظروف أدت إلى الاشتباه فى قضية اعتناقه للمذهب الوهابى.

وقد وصلت هذه الشكوك إلى أوجها عندما قتل عثمان سنة ١٧٥٠ ، وهو يصلى فى جامع العيينة الكبير يوم الجمعة على يد أحد ضباطه الذين كان يثق فيهم .

ومنذ ذلك الحين ظل عبد العزيز منهمكًا فى نشاط عسكرى هنا وهناك ، وبشكل خاص ضد أمير الرياض . وبعد هذا بقليل ، ترك محمد المتقدم فى السن ، قيادة الوهابيين إلى

عبد العزيز. ولقد طلب دهام أكثر من مرة الصلح ، بعد هجمات الوهابيين الضارية . وأخل مرارًا وتكرارًا بشروط الهدنة التى عقدت بقبوله المؤقت للمذهب الوهابى.

وجديرًا بالذكر أنه اختار العام الذى تولى فيه عبد العزيز العرش ، ليحطم نير الدرعية مرة أخرى. فاستأنف القتال بهجرم على منفوحة ، بالاشتراك مع زيد بن زامل حاكم الدلم والخرج . فهاجم عبد العزيز الرياض ، وثبتَّ أقدامه فى بعض حصونها . إلا أنه عاد فتراجع بعد هجوم معاكس ضار. وغزا عبد الله بن محمد قبيلة السبيع حليفة دهام ، إلا أنها ردت على أعقابها دون عناء كبير من جانب أهل المدينة .

وهكذا امتد النزاع ، مع ما رافقه من مناوشات استطلاعية لا أهمية لها ، جرت فى فترات متقطعة ، مثل هجمات الدرعية على حلفاء دهام من بدو صحراء العرمة ، وأحلافه فى واحة حاير – السبيع ، وعلى منفوحة فى وادى حنيفة . وفى سنة ١٧٧١ شنت الدرعية هجومًا شديدًا على قرية حاير، وحاصرتها فاستسلمت ، وأقسمت على الولاء لزعيم الدرعية . ولكن هذا لم يدم طويلاً، مثله مثل باقى الاتفاقات السياسية فى ذلك الزمن . فقد كان ما أسهل نقضها تبعًا للقوة .

ولكن الأمور ساءت كثيرًا فى خريف السنة ذاتها ، فبعد هجوم قصير على الرياض وصل عبد العزيز إلى قرية عرقة فى طريقه للقيام بهجوم آخر، واذا برجال كشافته ينقلون إليه أن خصمه دهام يقترب مع خيالته وهجانته لمهاجمة القرية . ولكن دهام تقهقر لدى رؤيته جيش الدرعية . فطارد عبد العزيز قواته المتراجعة مطاردة شديدة فى الصحراء . وقد وقع اثنان من أبناء زعيم الرياض ، دواس وسعدون ، فى الشرك وقُتلا مع عدد من أتباعهما قرب بئر الفوارة . وكان هذا الحادث ضربة سددت لعزَّة دهام وثقته بنفسه .

وحين استأنف عبد العزيز حملاته الاستطلاعية مرة أخرى سنة ١٧٧٣ ، وصل مرة أخرى إلى عرقة فى محاولته الثانية ، إذ بلغ سمعه أخبار هرب العدو من الرياض . فزاد من سرعة سيره ، ووصل المدينة عند الظهيرة ، فوجدها خالية من سكنها . لقد هرب دهام بن دواس مع النساء والأطفال والخدم ! وكان قد وضع خطته هذه سرًا ، وخاطب سكانها الرياض بقوله :

« يا أبناء الرياض لقد حاربت ابن سعود طوال هذه السنين وقد أصبحت الآن منهوك القوى من الحرب . فليلحق بى من يريد، أما الذين لا يريدون فليبقوا فى المدينة »

وقد هرب معظم السكان معه إلى (الخرج) فى منتصف فصلى الصيف الشديد الحرارة ، وكان ذلك فى شهر حزيران ، فمات كثيرون منهم من شدة الجوع والعطش .

أما عبد العزيز فاحتل المدينة المهجورة وختم أبواب جميع البيوت لئلا تسرق محتوياتها ، ثم أرسل جيشه فى أثر الهاربين قاتلاً المبطئين منهم وناهبًا أموالهم .

وهكذا انتهى القتال الذى استمر زهاء السبعة والعشرين عاما . وتقدر خسائر الجانبين فيه بأربعة آلاف قتيل من الطرفين ، كانت خسائر دهام منها ٢٣٠٠ قتيل .

ولا يزال الناس فى نجد يذكرون هرب دهام بالسخرية كلما قام شخص عندهم بعمل يدل على الحمق .

ولكننا لانملك إلا القول بأنه كان رجلاً بطلاً محاربًا بعزم فى سبيل حرية العرب يوم حاول خصومه فى الدرعية أن يضعوا نير الحرب فى أعناق اولئك الوثنيين اليابسة المتصلبة . لقد حارب فى سبيل قضية خاسرة . وربما كان انهيار دفاعه المفاجئ يعود لفقده ولديه أثناء هزيمته فى السنة السابقة . فقد كان لهذا الحادث أعمق الأثر فى نفس رجل أنهكته الحروب التى خاضها طوال حياته .

كان قد مضى ثمانى سنوات على ارتقاء عبد العزيز العرش فى الدرعية التى كانت أولى قريناتها من المدن المستقلة فى الجزيرة العربية ، ولم تحدث تطورات ذات بال خلال هذه السنوات فيما عدا حربه ضد دهام . فهاجم الآن ثرمدة ، سنة ١٧٧٦ ، وانتصر فى معركة الصحن انتصاراً قليل الأهمية .

و فى السنة التالية قام بعدد من الغزوات ، أهمها تلك التى وجهها إلى واحة العواد ، تحت إمرة ابن أخت الشيخ محمد واسمه هذلول بن فيصل . وكان والده قد قتل فى المعارك التى نشبت ضد دهام سنة ١٧٤٧ . ولقد كان يصحبه فى هذه الغزوة سعود الابن الأكبر لعبد العزيز ويبلغ الثالثة عشر من عمره ، فكان هذا أول تجربة له بحياة المعسكرات .

وصاحب هذه الحملة طرد بعض العائلات التى كانت تحكم العواد فى السابق ، لأنها طالبت بالزعامة لرئيسها منصور بن عبد الله بن حمد ، وتغلبت على حاكم القرية فقتلته ونصبت مكانه منصورًا.

وفى هذه السنة انضم اقليما السدير والوشم إلى الدولة الوهابية ، وتعاهدا على الإخلاص والولاء لعبد العزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان الأخير اعتبارًا من بداية حركته يعرف بنائب الملك . وقيل بأن عبد العزيز كأبيه لم يقم بأى مشروع ، دون استشارة الشيخ .

وعلى كل حال فقد نجحت الدولة الوهابية كثيرًا بانضمام هذين الإقليمين وبتحالفها مع العيينة ومنفوحة ، فى مشروعها التوسعى. فوصلت فى خلال ثلاثين عامًا إلى اكثر مما كان يحلم به الأمير والإمام اللذان اشتركا فى خلقها . وكان جل اهتمام الدولة الوهابية فى هذا الوقت ينحصر فى محاربة نتائج المجاعة التى عرفت باسم (السوقة) لدى مؤرخى تلك الأقاليم . لقد جفت الآبار ونضبت مياهها فارتفعت تكاليف المعيشة ، بينما مات الكثيرون من الجوع والمرض . فهاجر الناس من نجد إلى البصرة والزبير والكويت خلال ذلك العام والأعوام التى تليه وبعدها نزلت الأمطار الغزيزة : إلا أن ظهور أسراب الجراد حال دون حصاد الدخن ومحاصيل العلف .

وفى سنة ١٧٦٨ عرف سعود لأول مرة فى حياته القيادة المستقلة فى حملتين . فسارت الأولى منهما سيرًا حسنًا ضد زلفى المتاخمة لإقليم القصيم المهم ، وسارت الثانية ضد آل مُرّة . وقد كانت فى البداية حسنة ولكنها انتهت بتقهقر جيش سعود عندما تقاطرت النجدات لمساعدة خصومه . ومنى جيش سعود ببعض الإصابات ، منها موت ناصر بن عثمان بن معمر الذى كان سيصبح زعيمًا للعيينة ، خلفًا لعثمان بن معمر، قبل بضعة سنوات . ولكننا لا نعرف شيئاً عن أسباب التغير.

بعد هذه النكسة دعا حمود الدرينى حاكم بريدة سعودًا ليتدخل فيحل الخلافات فى القصيم.. و كان بين حمود هذا وبين قبائل عنيزة ثأر. فنشبت المعركة التالية خارج أبواب

الأخيرة ، بخسائر طفيفة فى الجانبين ، وكان بين قتلى عنيزة عبد الله بن حمد بن زامل ، الذى كان فيها يبدو حاكم المدينة فى تلك الآونة .

وفى السنة التالية قاد عبد العزيز بنفسه حملات ضد المجمعة والهلالية الواقعة إلى الغرب من عنيزة فخضع أهل القصيم للدولة الوهابية . ولكن هذا لم يحل دون المؤمرات والمكائد فى الإقليم . فقد طرد رشيد الدريبى أمير بريدة الجديد من المدينة على يد عائلة عليان أثناء ما كان عبد العزيز منهمكًا فى غزوته الأولى ضمن حدود الجزيرة ، وهدفه بنو ظافر وبدو المحمرة النازلون على الحدود العراقية .

أما فى الجانب الآخر من الجزيرة العربية فقد كان على اتصال بشريف مكة احمد بن سعيد. وتلبية لطلبه أرسل سعود فقيهًا من عنده اسمه عبد العزيز بن عبد الله بن حسين ليوضح له ولعلماء المدينة المقدسة مبادئ العقيدة الوهابية ، ولدى وصول الفقيه إلى مكة تبدل حاكم مكة إذ عُزل أحمد على أيدى أفراد عائلته ، ونُصِّب عوضًا عنه ابن أخيه سرور بن مساعد ، ولا ضرورة للبحث فى تفاصيل المجالس الذى أعلن فيه شيوخ مكة رضاهم التام عن زيارة الفقية وتوضيحه الفذ للقضية الوهابية .

وما كان عبد العزيز يفرغ من الكفاح الطويل ضد دهام حتى واجهه خطر أعظم وأخطر من جهة الشرق . وربما كان هذا ناتجًا عن تغلغله فى المناطق المتاخمة للعراق . ففى خلال ربيع سنة ١٧٧٤ تقدم عريعر بن دجين ، أمير الاحساء وزعيم قبائل بنى خالد ، نحو القصيم ليهاجم بريدة . فاحتلها بعد هجوم صاعق وحصار قصير، ودمرها قبل أن يسحب جيشه إلى وادى ريمة قرب الخابية والنبعية . وهنا وصلته رسائل عديدة مشجعة من مناطق مختلفة فى نجد، أبدى فيها مرسلوها تأثرهم البالغ لاحتلال بريدة . وكان يعد حملة على الدرعية نفسها والمناطق المجاورة عندما مرض فجأة وتوفى فى أيار بعد شهر من انسحابه من بريدة .

وقد خلفه ابنه الأكبر بطين . فوزع الأسلاب على الجيش ، إلا أنه لم يتمكن من السيطرة على الجند لتحقيق أهداف والده . ونتيجة لذلك ، عاد إلى الإحساء. وهناك ثار عليه أخوه دُجين وسعدون ، وخنقاه فى بيته . فخلفه دُجين ، ولكنه توفى بعد ذلك بفترة وجيزة . ويعتقد أن أخاه سعدون سمَّمَه ليخلفه فى إمارات الإحساء وزعامة العشيرة .

وفى هذه الأثناء كان سعود بن عبد العزيز يقوم بغارا ته أولاً على الخرج ، ثم على زلفى . غير أنه لم يلق نجاحًا كبيرًا. وان كان هناك دليل على انتشار التعاليم الوهابية بين كلا الجانبين . فها هم سكان مناطق حارق النعام ، والمجمعة يرسلون وفودًا ليعلنوا ولاءهم للنظام الجديد لكن سكان الخرج لم يبدوا ميلا للانضمام إليه .

وبعد زيارة ثانية قام بها عبد العزيز نفسه ، فى أوائل سنة ١٧٧٥، تآمر زيد بن زامل الدلمى بالاشتراك مع زعيم وادى الدواسر حويل الوداعين وزعماء المنطقة الآخرين ، ليطلبوا مساعدة نجران فى رفع اعتداء الدرعية . وقد جمعوا من أجل هذه الغاية مبالغ طائلة من المال ليوزعوها على الزعماء المقصودين . وفى الوقت الملائم تجمع جيش كبير قوى يشتمل على عناصر من الواحة الكبيرة وقبائل يام ، وتوجه نحو العارض .

ووصل الحلفاء إلى حاير السبيع بعد أن انضم اليهم فى الطريق سكان الدواسر والخرج، فأحدثوا تلفًا كبيرًا فى مزارع النخيل وقتلوا قرابة الأربعين رجلاً من المدافعين ، فى معارك عدة قبل أن يواصلوا السير إلى ضرمة . ولكنهم واجهوا هناك مقاومة ضارية ، ومنوا بخسائر فادحة فى القتال الذى دارت رحاه بين أشجار النخيل حتى أخرجوا منها فى الحال .

ومن ثم قرر الحلفاء أن يرافقوا الحملة ، ويعودوا إلى بلادهم بينما ظل زيد بن مشارى عرضة للهجوم ، فعقد الصلح مع الدرعية ودخل الحظيرة الوهابية . وكان سعود فى ذلك الوقت يقوم بتجهيز حملة ضد بريدة فأكرهها على الاستسلام وقبول عبد الله بن حسن العليان أميرًا جديدًا عليها بدلاً من رشيد الدرينى الذى طرد من قبل من المدينة ولكنه عاد واستولى على الحكم فيما بعد.

وفى سنة ١٧٧٦ حاول سكان الإحساء، بقيادة أهل الهفوف ، أن يحطموا نير بنى خالد وزعيمهم سعدون ، ولكنهم فشلوا. وكان مذهب الوهابية قد قوى واشتد بانضمام. سكان زلفى ومنيخ (المجمعة) ، وإن كان زعيم الدلم، ارتد وندم على عمله السابق و قتل أشد دعاة المذهب الجديد حماسًا. فقام عبد العزيز فى الحال ليعالج الوضع فهرب زيد ، ولكنه عفا عنه فيما بعد عندما أعلن زيد خضوعه إلا أنه لم يتول الإمارات التى آلت إلى سليمان بن عفيصان. أما مدينة اليمامة المجاورة فقد أعلنت هى أيضًا اعتناقها المذهب الوهابى إذ كان زعماؤها قد

اتصلوا سرًا بعناصر ساخطة من الدلم لمقاومة النظام الجديد. و كان زيد بن زامل هو قائد هذه الحلقة المتآمرة التى أجبرت ابن عفيصان على الانسحاب من الدلم مع حاميتها الموالية له .

وعاد زيد فتولى الإمارة ، .ووضع بالاشتراك مع حسين البجادى زعيم اليمامة الخطط للثورة العامة فى الإقليم أثناء غياب عبد العزيز لانشغاله بغزو آل مُرَّة ثانية . وهناك استولى عبد العزبز على عدد كبير من الجمال فى مراعيها ، غير أن البدو الذين تجمعوا ليطردوا الغزاة أجبروه علر التراجع إلى بوغاز العقبة الضيق فى هضاب محيرق الصفا ، حيث تكبد الوهابيون خسائر فادحة فى الرجال والجمال . وكان من جملة القتلى أمير بريدة عبد الله بن حسن العليان .

وأصبح من الواجب على عبد العزيز الآن أن يعالج اضطرابات الخرج ، فأرسل سعودًا إلى الاقليم كى يقوم باستقصاء أخبار الوضع فى منطقة اليمامة . حيث واجه الجيوش المحلية العائدة من غزوة (أو من رحلة استطلاعية) ، فنشبت معركة حامية فى قناة الصهباء انسحب على أثرها كلا الطرفين عائدًا إلى بلاده.

وعندئذ اضطر عبد العزيز لأن يدعو إلى تعبئة جيشه ، محاولة منه للقضاء على مشكلة الخرج نهائيًا. وما كادت الحملة أن تبدأ حتى احتج أمير حرما عثمان المدلجى وقال بأن مقاطعته أحوج من منطقة الخرج إلى درس مفيد. لأن شعبها قد خرج عن طاعته وأخذ يعلن استهزا ءه بمبادئ الدين الجديد، حتى أنه لم يعد فى مركز يمكنه من ممارسة مسئولياته كحاكم. وتوسل إلى الدرعية برهائن تضمن حسن سلوك السكان . فقبل عبد العزيز طلبه وأرسل أخاه عبد الله بن محمد ليحسم الوضع المضطرب . وقد سلك عبد الله بجيشه طريقًا عبر ممر الحيسية وسهل حمادة ليحمل الناس على الاعتقاد بأنه ذاهب إلى القصيم . ثم عاد وانحرف راجعًا عبر جرف الغات إلى الهضبة . وبلغ هدفه تحت ستار الليل ، ليقوم بالاستعدادات الضروريه ، فى داخل المدينة وخارجها ، للهجوم عند حلول الفجر.

كان السكان فى هذه الأثناء يرقدون ملء أعينهم عندما أيقظتهم ناركثيفة أطلقها كل من كان يحمل السلاح من الهاجمين ، ولم يكن هناك مجال للمقاومة ولا خوف عليهم ، وأعلمهم أن أميرهم قد شكا إلى الإمام ثورتهم على الدين الحنيف . ولذا فإنه رأى من المناسب أن يقوم بزيارتهم ، ويطلب أربعة من زعمائهم التوجه معه إلى الدرعية ليبقوا هناك كضمان لمسلك

السكان، وأكد أنه إذا أطلق الأربعة ومن ضُمنهم شقيق عثمان ، فسينتهى كل شئ بسلام ، ومن ثم ترجع الحملة .

وهكذا تم كل شئ دون أية إصابة ، وبايع السكان على الولاء مرة أخرى للدولة الوهابية ، كما رافق الزعماء الأربعة عبد الله إلى الدرعية ، ليحلوا ضيوفًا على الإمام ، بينما كان الأخير يستعد لاستئناف عملياته الحربية ضد أهل الخرج .

ومرة أخرى وكل إلى عبد الله أمر هؤلاء. ولكنه يظهر أنه لم يقم بأكثر من مناوشات بسيطة .

ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى بدأ التمرد يظهر فى حرمة ، فقد تآمر زعماؤ ها مع حمد بن عثمان التويجرى على اغتيال أميرهم عثمان بن عبد الله ، ثم يلقون القبض على أصدقائه علماء المجمعة ، الذين كانوا ضيوفًا عليه ، فيبقونهم رهائن مقابل رهائنهم فى الدرعية . أما القسم الأول من الخطة فقد سار سيرًا حسنًا فحضر الضيوف ودخلوا إلى قاعة الضيوف بينما طلبوا حضور عثمان ، الذى كان غائبًا فى مزارع نخيله . وفى طريقه إلى المنزل غدر به أخوه خضير وقتله . ثم أسرع ابن عمه عثمان ابن ابراهيم فى إلقاء القبض على الضيوف ، وربط أرجلهم بالمقطرة (حبل الدواب) وأغلق باب غرفة الضيوف عليهم .

ولكن القسم الثانى من الخطة المتضمن احتلال المجمعة باتفاق سرى مع أميرها فشل لحادثة غريبة . فعندما وصلت القوة المرسلة من حرمة إلى المجمعة كان الأمير المجرم واقفًا آنذاك خارج بوابة قلعته مع عدد من وجهاء السكان الوهابيين . فما كان منهم إلا أن اندفعواداخل الحصن مع الأمير لدى رؤيتهم القوة المسلحة وأغلقوا الباب . وفى هذه الظروف لم يستطع الأمير أن يستجيب إلى نداء أصدقائه من الخارج . فاستعد السكان للقتال. أما الغزاة فعادوا إلى بلادهم يجرون أذيال الفشل .

وحمل ابن الأمير الأخبار إلى الدرعية ، فقدم سعود ليعالج الوضع . واستسلمت حرمة بعد حصار دام بضعة أيام وتعهدت بعد قتال غير منظم أن تسلم أسرى المجمعة . بينما وعد سعود بأن يطلق سراح الرها ئن الموجودين لديه فى الدرعية .

ثم استدعى أمير المجمعة وجلاجل اللذين كانا موضع ريبة باشتراكهم فى المؤامرة ، وطردهم من منازلهم فى الإقليم مع عائلاتهم ومتاعهم إلى قصب والشقرا على التوالى. إلا أنه رأى من المناسب نقل سويد أمير على جلاجل المعزول إلى الدرعية . وعين ناصر بن ابراهيم شقيق أحد قتلة عثمان أميرًا على حرمة بينما وضع الإقليم كله (مع المجمعة وحرمة) تحت إمرة عبد الله بن جلاجل . وهو فيما يبدو أحد أثرياء سويد ، وكان مركزه فى جلاجل نفسها.

وبعد كل ذلك عاد سعود إلى بلاده . ومرة أخرى تفرغ عبد العزيز لمعالجة الوضع فى الخرج . فتقدم بنفسه إلى الدلم ، وزيد بن زامل غائب فى اليمامة . وكان الهجوم شديدًا فى ضواحى المدينة نفسها . وقد جمع زيد جيشًا لنجدة مواطنيه ، ولكنه تعذر عليه الوصول إلى المدينة بسبب المعركة ، فقام بمهاجمة معسكر الوهابيين . وكان فيه عبد العزيز مع المتاع والجمال.

والواقع أن الوهابيين قاوموا بشدة وعنف. غير أنهم خسروا ما يقرب من العشرين قتيلاً قبل أن يعلم الجيش الرئيسى الذى كان يهاجم المدينة ، وعند ذلك سحب عبد العزيز قواته إلى واحة نعجان المجاورة ، قاطعًا أشجار النخيل ومدمرًا المزروعات فى طريقه قبل أن يعود فاشلاً إلى الدرعية .

وفى ربيع السنه التالية (١٧٧٨) جاء سعدون بن عريعر، أمير الإحساء ، إلى الخرج ، للمفاوضة حول عقد تحالف مع زيد بن زامل وحلفائه ضد الدولة الوهابية . ولسبب غريب مجهول قرر الرجل أن يتفاهم مع عبد العزيز، فقبل بأن تعقد بينهما معاهدة للصلح . غير أنه لم يتم الاجتماع بين الزعيمين المتنافسين ، وان كان سعدون مر «بنبان » فى طريقه إلى بئر المبيض ، قرب سلسلة جبال المجزل .

وسواءً كان عمله هذا خرقًا للسلام أم لا، فإنه يدل على أن سعدون كان ثائرًا يتوقع هجومًا من الدرعية . ولذا قرر العودة إلى الإحساء بسرعة فى وقت حزيران وتموز، فخسر الكثير من غنيمه وجماله . وفى أوائل السنة التالية (١٧٧٩) أخذ سعدون يتآمر مع سكان حرمة وزلفى للهجوم على المجمعة . مركزا الحماس الوهابى. وكانت حاميتها من الجيش الوهابى. وأخذ سكان حرمة زمام المبادرة فاحتلوا الحصون المحيطة بمزارع النخيل الواسعة . ثم جاءت قوة زلفى الرئيسية لنجدتهم ، وبعدها بقليل ، وصل سعدون على رأس جيش قوى.

أما سكان المجمعة ، فقد أغلقوا عليهم أبواب المدينة ، وأخذوا يستعدون للحصار. بينما كان العدو طليقا فى المزارع ، يقطعون الأشجار ويرعون إبلهم وأغنامهم فى الزرع . كان أمل المدينه الوحيد أن تأتيها نجدة من الدرعية . إلا أنها أرسلت رسالة إلى سعدون تقترح فيها عقد هدنة حتى تتم المفاوضات لعقد الصلح والاستسلام . وانتشر خبر وصول حسن بن مشارى بن سعود على رأس جيش وهابى إلى جلاجل عاصمة الإقليم لإنقاذ المجمعة . وبعث حسن قوة صغيرة لتحاول الدخول إلى المدينة من خلال خطوط العدو وتحت ستار الظلام . ويبدو أن هذه القوة دخلت دون أن يلحظها أحد ، إذ ألقى السكان إلى أفرادها بالحبال من على أسوار المدينة ليمكنوهم من الدخول . فتسرب اليأس إلى قلوب المحاصرين . وكان بدو بنى خالد أول من تخلوا عن الخطة ، فقد كانوا متعبين من توقف الأعمال الحربية وعدم وجود مراع لجمالهم . ثم تبعتهم فرقة زلفى وعادت إلى بلادها تاركة حرمة وحدها تقوم بمحاربة جارتها .

وكان عبد العزيز سابقًا وقد أرسل أخاه عبد الله لإنقاذ المجمعة . فانضم إليه سعود مع قوة كبيرة من الجيش لحصار حرمة . ودارت الدائرة الأن على المعتدين ، هجومًا شديدًا . أيامًا متتالية حتى اضطروا لأن يتراجعوا إلى حصنهم يائسين . وعندما طلبوا الصلح اصر سعود على طرد الذين اشتركوا فى الإخلال بالسلام وأن تكون جميع مزارع النخيل ملكًا للخزينة . وبعد أن عقد الصلح على هذه الشروط كتب سعود إلى والده يعلمه بالنجاح ، فكتب إليه أبوه أن يدمر المدينة لأن سكانها ظلوا على الدوام يعكرون السلام . فهدم سعود سور المدينة ودمر كثيرًا . من بيوتها ونفى أهلها . وقد ذهب معظمهم إلى الزبير بينما استقر آخرون فى المجمعة .

وبعد هذه الأحداث مباشرة جهز الوهابيون حملتين ضد زلفى تحت إمرة سعود بن عبد الله ، وعبد الله بن محمد. بغية الاقتصاص منها لمساهمتها فى الاضطرابات . ولدى وصول عبد الله إلى الرغابة (فى طريقه إلى بلاده) سمح لقوات الوشم والسدير بالسفر إلى بلادهما. حتى إذا ما وصلت بقية الجيش إلى حفار العتك هاجمها سعدون بن عريعر على رأس جيش كبير من بنى خالد. فَغُلِبَ الجيشُ الوهابى المنهوك القوى على أمره ، ومنى بإصابات فادحة . وكان من جملتها موت قواد قوات الوشم والسدير الذين بقوا مع عبد الله لزيارة الإمام . أما عبدالله،

فكان بين القلائل الذين تمكنوا من قوات ضُرمة تخيم على نفس البئر . فدحرت فرسانه وفرقتهم ، ووقع سعدون بن خالد فى أيدى العدو فافتداه أصحابه بثلاثة آلاف قطعة ذهبية .

ثم تواجه أمل السبيع لغزو بنى ظافر، وعسكرت قواتهم عند صفوان على الحدود العراقية واستاقوا أربعة آلاف من جمالهم . وفى هذه الأثناء كانت الفرقة الوهابية قد عادت لتهاجم الخرج ، فتوغلت حتى وصلت الحوطة . ومن ثم هاجمت زلفى أيضًا ، فأبدت خضوعها للحكم الوهابى الذى أصبح متمركزًا من القصيم شمالاً وإلى الخرج جنوبًا، ومن الدهناء فى الشرق إلى بلاد عتيبة وحرب فى الغرب . وكانت حرب هذه شكليًا تحت حكم شرفاء مكة وإن ظلت القبائل نفسهامستقلة.

إن استمرار اعتناق المذهب الوهابى والارتداد عنه خلال هذه السنوات ليعكس روح العصر بين الحضر والبدو على السواء . . لقدكان نفور العرب من أى شكل من أشكال النظام أو الخضوع فى صراع متزا يد مع الحركة الروحية المؤسسة على مبادئ السلطة تلك المبادئ التى كانت تعتبر مشروعة وان كانت الغالبية تخل بها بدلاً من أن تحترمها . وقد أدرك محمد بن عبد الوهاب منذ البداية بأن الحاجة ماسة إلى قوة ساحقة لنشر كلمة الله والتغلب على عادات عرب الصحراء نصف الوثنية .

وكانت نقطة الضعف الرئيسية فى المعركة هى أن البدو كانوا يدركون معانى هذه الرسالة الروحية ، ولكنهم على استعداد تام لأن يسهموا فى مشروع يدر عليهم الغنائم . هذا فى البادية . أما فى الحضر بين أهل المدن والقرى فكانت المنازعات المحلية هى العامل المؤثر فى اعتناق المذهب الوهابى أو رفضه . وفى تلك العهود وما رافقها من تطورات سياسية ، لايمكن للمرء أن يلمس أى معنى من معانى الأخوة الإنسانية التى كانت ستصبح حجر الزاوية فى حركة الإخوان فى القرن العشرين .

وكانت سنة ١٧٨١ سنة اضطراب وعدم استقرار فى مناطق واسعة ، تمتد من فاره Fara إلى العشائر المتاخمة للعراق . وكان اهتمام الأمير الوهابى موجهًا إلى الخرج ، وإلى توسيع نطاق غزواته حتى تصل إلى مناطق الحوطة والحارق . وبعد أن هاجم سعود الدلم توجه إلى الشرق حيث بنى حصن قرب السليمية ، ووضع فيه حامية بقيادة محمد بن غشيان ليراقب حركات

زعيم اليمامة حسن بن رشيد البجادى الذى توفى فى تلك السنة بينما قُتِلَ أخوه فى المناوشات التى جرت حول المدينة . ولجأ سكان الدلم إلى سعدون بن عريعر يطلبون المساعدة لإخضاع هذا الحصن الوهابى. فصد الحصن هجمتين قاموا بهما عليه . أما سعدون فقد انطلق بحثًا عن المراعى فى الشمال . وأما عبد العزيز الذى كان يقود غزوة على الحوطة حيث نجح بعض النجاح ودمر مزارع النخيل – فهاجم الدلم ليفعل بها مافعله فى الحوطة . وانتقل ثقل المعركة إلى الشمال حيث أغار سعدون وحلفاؤه من قبائل عنزة (عشيرة حيلان) على الدهامشة تحت إمرة مجلاد بن فواز، بينما تقدم بنو ظافر بجيش قوى وهاجموا عددًا من الجماعات القبلية قرب المبيض . وأسرع سعود لمقابلتهم . ولدى رؤية عددهم امتنع عن مهاجمتهم وعاد إلى طمير فى انتظار النجدة التى طلبها . وعند وصولها هاجم الظافر وانتصر عليهم ، فاستولى على كل ما فى المخيم من متاع ، وعلى عدد كبير من الماشية ، بلغ سبعة عشر ألفًا من الأغنام وخمسة آلاف من الجمال ، مع خمسة عشر فرسًا.

وفى هذه الأثناء كان مرجل المنورة يغلى فى القصيم . فقد حلت سنة ١٧٨٢ وكل شئ جاهز للثورة العامة على دعاة الوهابية المحليين . وقد قتل بعض البارزين منهم ، مثل منصور وثنيان اللذان ينتميان إلى عائلة بنى خليل . ولجأ الثوار إلى سعدون بن عريعر فظهر أمام بريدة بجيش لجب من قبيلة عشيرة بنى خالد وعناصر كثيرة من بنى ظافر وشمر. ويبدو أن جميع أهل القصيم كانوا يؤازرون الثورة فيما عدا مدن بريدة ورس وتنومة .

وبالطبع كانت بريدة وأميرها حجيلان بن حمد العليان ، مركز الولاء للمذهب الوهابى. ويبدو أن حجيلان هذا خلف عبد الله حسن فى الهجوم على الخرج عند موت عبد الله . وفى أثناء الحصار الذى دام زهاء الأربعة أشهر، ارتاب حجيلان فى مسلك رجل من عشيرة عليان يدعى سليمان الحجلانى واتهمه بالاتصال بالعدو والتآمر فقتله .

وصادف هذا العمل قبولاً لدى عامة الناس ، ففك سعدون الحصار، لاعتقاده بأنه سيطول ، وسار عن طريق زلفى إلى المبيض ونصب خيامه هناك ليعيد تنظيم جيشه . وانضمت إليه قوات عديدة من جهات متعددة ، كان من جملتها زعماء السدير المنفيون من الزبير. وكان زيد بن زامل يقود جند أهل الخرج . فما أن حل منتصف تشرين الثانى حتى كان

الجيش بأكمله على أهبة الاستعداد للهجوم ، فسار هؤلاء على رأس قوة كبيرة من الجيش واحتلوا المدينة بكل سهولة تحت جنح الظلام .

وقد وافقت الحامية الوهابية فى الحصن الكبير على الاستسلام والرحيل بعد أن تعهد المهاجمون بالمحافظة على حياة أفرادها . فأقام سعدون قيادته العامة فى الروضة كى يتفرغ لتركيز الوضع وإعادة الأمير ماضى إلى الحكم .

وكان سعود بن عبد العزيز فى هذا الوقت مخيمًا فى الشادق يرقب الوضع والتطورات . وما كاد جيش سعدون ينسحب من الروضة ويتفرق ، حتى أرسل سعود جيشًا قويًا لمهاجمتها،موكلاً أمر العمليات الرئيسية إلى الفرق القروية من السدير نفسها ، يدعمها رجال العارض والوشم . وقُتل الأمير عون بن مانع فى المعركة ، فخلفه اخوه عقيل واستمرت المعركة تدور بالشكل المعتاد من المناوشات غير المنظمة ، إلى أن وصل سعود نفسه بالجيش الرئيسى فاشتد الضغط على المدافعين . وقد احتل المهاجمون مزارع النخيل وقطعوا كثيرًا من الأشجار، فلم يبق فى يد عقيل غير الحصن . فاضطر فى هذه الحالة إلى أن يطلب الصلح ، وبالفعل تم ذلك ولكن بشروط جد قاسية : لقد تعهدوا بأن يدفعوا مبالغ كثيرة كتعويض ، وطرد آل ماضى مرة أخرى مع جميع أنصارهم .

وبعد أن احتل سعود الروضة . بدأ يبحث فى أمور المدن المجاورة المهتمة بمناصرة الثوار مثل الدخلية والفارعة . وبعد ذلك عاد إلى بلده ليُعِدَّ العدَّة لنشاطه فى مرحلة ثانية حيث قام بغزو عشيرة مطير.

وحوالى نفس الوقت تقريبًا أى فى ربيع سنة ١٧٨٣ خرج زيد بن زامل ليغزو السبيع فى مكان ما من الصحراء. وفى أثناء عودته إلى بلاده، قابل دورية تحت إمرة سليمان بن عفيصان كان قد أرسلها عبد العزيز من الدرعية لإبقاء طرق القوافل الرئيسية مفتوحة . فبدأت المناوشات بين الفريقين وقُتل زيد برصاصة طائشة .. فأدخلت هذه الفاجعة اليأس والخوف فى نفوس أتباعه فهربوا مخلفين وراءهم عشرة قتلى.

وقد خلفه ابنه بَّراك فى الإمارة . وسرعان ما اشترك مع أهل اليمامة فى الهجوم على منفوحة . فوقعت المناوشات المعتادة ، وأصيب الطرفان بإصابات طفيفة . وكان سعود فى

هذا الوقت ، يقوم بغزوة فى جهات الإحساء إلا أنه قرر أن يزور اليمامة زيارة مفاجئة ، أثناء عودته من هجوم ناجح شنه على قرية العيون . وكان من حسن حظه أن وجد السكان فى مضاربهم الصحراوية فهاجم فى الحال . وقد هرب أهل اليمامة واختل نظامهم وخسروا ثمانين قتيلا على أقل تقدير.

ثم سار سعود إلى القصيم بغية مهاجمة عنزة ، و لكنه عاد إلى بلاده وربما فعل ذلك لعدم تمكنه من إعالة جيش كبير فى الميدان نتيجة للأحوال السيئة السائدة فى المنطقة أنذاك . فبسبب انحباس الأمطاركانت نجد كلها على أبواب جفاف شديد ، و قد استمر هذا الجفاف حتى سنة ١٧٨٦ ، فارتفعت الأسعار و اختفت المؤن والمواد الغذائية وانتشرت الأمراض .

وفى نهاية سنة ١٧٨٤ أو بداية السنة التالية ، قاد سعود حملة على الخرج ، ولكنه حين سمع بوجود قافلة محملة بالمؤن متجهة إلى الحوطة ، قرر أن يكمن لها على آبار ثليمة الواقعة فى الصحراء على بعد اثنى عشر ميلا عن اليمامة . أما القافلة وحرسها المؤلف من ثلاثمائة محارب فقد نفذ منهم الما ء، ولذا بادرت طليعة القافلة إلى الآبار حالما رأوا أشجار نخيل الواحة . فلم يجد جيش سعود عناء كبيرًا فى التخلص منهم . ولكن القافلة توقفت لدى سماعها طلقات الرصاص، وأخذ حراسها مواقعهم استعدادًا بالرغم من دفاع حرسها المستميت الذين فقدوا نصف قوتهم . وكان من ضمن القتلى فارسهم زامل وهو الابن الثانى لزيد الجبار. أما الناجون فتفرقوا وفروا تاركين وراءهم القافلة وما تحمله من كنوز ثمينة .

ولم تكف أهل الخرج هذه الكارثة ومآسى الجوع و الجفاف والأحوال السيئة التى كانوا يعانونها ، بل خرقوا معاهدة الصلح ، فقتلوا برَّاك ، أميرهم الجديد ، وكان القتلة أولاد عمه الذين التجأوا إلى الدرعية . فخلفه تركى فى الإمارة ، وكان هذا ولد آخر من أولاد زيد. إلا أن تركى لم يبق طويلا فى الحكم . ففى شهر تشرين الأول من سنة ١٧٨٥ سار سعود نحو الدلم حيث أكره المدافعين عن المدينة على التراجع إلى داخل أسوارها ثم استولى عليها بعد هجوم صاعق .

وهكذا انتهت مقاومة أحد الحصون المناوئة للوهابية ، فأسرع أهل الإقليم جميعًا إلى إعلان ولائهم للمذهب الجديد.

وفى هذه الأثناء جاء سكان وادى الدواسر إلى الدرعية ليعترفوا هم أيضًا بالمذهب الجديد.

وهكذا شهد نهاية العام امتداد الدولة الوهابية وتوسعها نحو الجنوب .

ولكن يا للأسف! لقد تسبب انحباس الأمطار الطويل فى إصابة جمال نجد بالجرب فكانت الخسائر فادحة فى المناطق البدوية - القرى والمدن على السواء - لقد كانت جمال القافلة تسير بجمالها وتهوى صريعة فى الطريق غير أن الجفاف انتهى بنزول أمطار غزيرة سنة ١٧٨٥ - ١٧٨٦ فاكتست الصحراء واخضرت الأرض وهبطت الأسعار. إلا أن هذا لم يكن ذا أثر فى الحد من بؤس القبائل .

وتآمرت عشيرتان من قبائل بنى خالد مع أميرين من أمرائها ، هما عبد المحسن بن سرداح العبيد الله ، ودويحس بن عريعر ، على الثورة على حكم سعدون . وتجاوب معهما فى هذا الأمر ثوينى بن عبد الله ، زعيم المنتفك ، وتعهد بمناصرتهم . فقابل المخالفون بجيش هائل . وبعد قتال مرير استمر بضعة أيام ، أدرك سعدون أنه لامفر من الهزيمة ، فأركن إلى الفرار مع أتباعه ، واتجه نحو الدرعية حيث استقبله عبد العزيز بحفاوة بالغة جديرة بعدو شجاع . فاغتصب دويحس مكانه فى زعامة بنى خالد، وكان عبد المحسن ساعده الأيمن يمارس بعض مسئوليات الحكم .

كان سعود فى هذا الوقت متغيبًا ، ينظم حملة ضد عشائر قحطان فى الجنوب ، بينماكان حجيلان بن حمد، أمير القصيم ينظم حملة على جبل شمر بموافقة عبد العزيز الذى لم يكن قد زحف على تلك الجهة بعد. فأوقف جند حجيلان قافلة موسوقة ، قادمة من العراق إلى حايل وسلبوا كل ما تحمله . وأسرع حجيلان إلى بلاده يحمل الغنيمة قبل أن يكر عليه الأعداء ويطاردوه ؛ ولكن هؤلاء سرعان ما انتقموا منه .

ففى تشرين الثانى التالى سار ثوينى زعيم المنتفك بجيش كبير إلى القصيم ومعه سبعمائة من الجمال المحملة بالذخائر الحربية فقط . ولدى وصوله إلى تنومة ، حاصرها بضعة أيام ، مضعفًا تحصيناتها بقنابل مدافعه لكى يفتحها بنجاح . وقد دخل المدينة عنوة وأعمل فى أهلها السيف ثم نهبها بعد أن قتل ما يفوق عن المائة والسبعين رجلاً.

ثم سار ثوينى إلى بريدة نفسها . وما كاد يشرع بالهجوم عليها ، حتى سمع بوقوع قلاقل فى بلاده فعاد بسرعة . وكان عبد المحسن نائبه فى الإحساء فى طريقه إليه مع جيش كبير ؛ لمساعدته فى عملياته ضد القصيم . ولكنه هو أيضًا تخلى عن المهمة لدى سماعه بانسحاب ثوينى.

وحين دخل عبد المحسن الزبير ، وافاه حاكم البصرة ليزوره ، إلا أنه ماكاد يصل حتى ألقى عليه القبض ، واستولى عبد المحسن على جميع ما بها من حيوانات . ثم أسرع إلى البصرة واحتل دور الحكومة واغتصب الحكم . ثم دعا أعيان المدينة ليتداول وإياهم بشأن المستقبل واتفقوا على إرسال رسالة إلى السلطان فى استنبول طالبين إليه الموافقة على تعيين ثوينى حاكمًا للإقليم . ولكن ذلك الرسول لم يفلح ، فلدى رؤيته الوزراء بمظهرهم الصارم ، ارتعب وخاف فهرب تحت جنح الليل .

وقد صدرت الأوامر إلى والى بغداد ، (سليمان باشا) ، ليتخذ الإجراءات اللازمة لإعادة الأمور إلى نصابها فى البصرة . فقام الوالى بنفسه على رأس حملة تأديبية ، اتجه بها إلى مكان الاضطرابات فى خريف سنة ١٧٨٧ . فجمع ثوينى ليقاوم الغزاة . وسار إلى قناة الفاصيلة ، قرب سوق الشيوخ للقاء الأتراك ، تاركًا وراءه أخاه حبيبًا ليتولى زمام الأموار فى البصرة .

واندحر جيش ثوينى شر اندحار، وفر إلى الجهرة قرب الكويت ، حيث انضم إلى بنى خالد فى الصمان فأصبح حمود بن تامر زعيم المنتفك بينما عين سليمان باشا ، (الأغا مصطفى) حاكمًا على البصرة .

وفى هذه الأثناء جدد حجيلان هجومه على جبل شمر، حتى خضع سكان حايل رسميًا للحكم الوهابى، وهكذا اتسعت حدود الدولة الوهابية وامتد سلطانها .

سار سعود إلى القصيم ليعاقب عنيزة على القلاقل التى حدثت هناك أيام كان الحاكم من قبيلة رشيد . وكان يحيى بن على قد خلف عمه عبد الله بن حمد فى الإمارة سنة ١٧٨٨ ، السنة التى قاد فيها سعود حملته على الخرج ، (وكان عبد الله من عائلة زامل) . فطرد المغتصب وعائلته من المدينة وأعاد الإمارة إلى عائلة زامل التى زكّت لذلك المنصب شيخها عبد الله بن

يحى. وكان يحى بن على قد حكم المدينة بالاشتراك مع مغتصب من عائلة الرشيد فحكم فى تلك الفترة حتى سنة ١٧٨٨ ، ويبدو أن هذا التبديل قد تم دون أية معارضة لمرسوم سعود .

وفى نفس الوقت كان سليمان بن عفيصان يغزو المناطق الشرقية ، فكبد أهل قطرخسائر فادحة ثم اتجه نحو الإحساء، حيث عامل أهل قرية «جيشه » معاملة قاسية ، وقتل الكثيرين من أهلها . ثم سار إلى ميناء العقير وأحرقه واستولى على كافة البضائع الموجودة فى المستودعات .

ومع هذا فقد كانت أبرز الأحدث فى هذه السنة ، تصميم عبد العزيز الذى بلغ الخامسة والستين بأن يضع الترتيبات بشأن خلفه على العرش. وكان سعود هو الشخص التى وقع الاختيار عليه ، لكبر سنه، وللأعمال الباهرة التى أنجزها فى المجالات الإدارية والعسكرية ، ليخلفه على عرش الدولة التى نشأت وترعرعت حول الدرعية .

ومن الجدير بالذكر، أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، المثل الأعلى للسلطة الروحية فى الدرعية ، هو الذى أصدر الأوامر إلى جميع الأقاليم والمقاطعات للاعتراف بسعود ، وقبوله حاكمًا فى المستقبل . ولم تجر فى العاصمة مراسم خاصة من أجل هذه الغاية . ولكن مجرد مبايعة الأمراء لسعود على الولاء والإخلاص ؛ كان يعتبر فى حد ذاته قبولاً منهم ، بتقديم الخضوع والولاء لسعود من تلك اللحظة ، ليس فقط بصفته إمام المستقبل بل لكونه ملكهم الفعلى الذى من حقه أن يطيعوه ويحترموه كما كانوا يفعلون مع أبيه ، وإن كان هو نفسه يدين بالطاعة لأبيه . ويظهر أن هذا التقليد قديم جدًا فإن ملوك سبأ كانوا يشركون واحدًا أو اثنين من إخوتهم أو أبنائهم أو أبناء إخوتهم معهم فى العرش ، لا كأولياء للعهد ولكن بصفتهم ملوك .

أما فى البلاد العربية فبالاضافة إلى كون الحاكم هو الإمام لشعبه ، فهو يشار إليه بكلمة «الشيوخ» بالجمع ، وهو الشخص الوحيد فى الدولة الذى يستحق هذا اللقب هو والأمير نائب الملك أو الوارث للعرش . ومن فوائد هذا التقليد، أن لا يكون هناك ضرورة لتنازل الملك عن العرش ، فيما إذا اصيب الملك بعاهة تقعده عن ممارسة مهام الملك أو فى حالة الوفاة .

وبعد أن عين سعود وليًا للعهد، قضى شتاء سنة ١٧٨٨ - ١٧٨٩ فى غزوات شاملة وقعت جميعًا فى المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية . فوضع خطة عامة للضغط على أمراء بنى خالد فى الإحساء. وفى الصمان واجه حشدًا كبيرًا لقوات بنى خالد ، فانسحب دون أن يقوم بأية محاولة للاشتباك معهم . ثم قابل ثوينى فى نفس هذه المنطقة واشتبك مع لاجئى المنتفك الذين كانوا قد هربوا مع ثوينى من العراق ، بعد كارثة «سوق الشيوخ» وفى هذه المرة هاجمهم هجومًا صادقًا فهزم أهل المنتفك واستولى على معسكرهم . ثم هبط على مجموعة من القرى الصغيرة والمزارع فى صحراء الطف ، واستولى على كل مخزونهم من الحنطة .

أما حركته التالية فكانت أبعد كثيرًا .. لقد هاجم جماعة أخرى من المنتفك فى الروضتين، قرب صفوان ، عند الحدود العراقية ، فاستولى على جميع متاعهم وخيامهم وممتلكاتهم الأخرى. ثم عاد إلى آبار الوفرة ، فهاجم فى طريقه جماعة من بنى خالد وهزمهم ، قاتلاً منهم سبعين رجلاً . ثم سار إلى واحة الحسا حيث ناوش سكان مدينه المبرز دون نتائج حاسمة . غير أنه ضرب قرية الفضول التى لا تبعد عنها كثيرًا ضربة قاسمة وقتل ما يقرب من الثلاثمائة من رجالها.

وفى خريف السنة التالية وجد نفسه فى الميدان ثانية ليستأنف ضغطه على الإحساء . وكان جيشه يتألف من فرقة من بنى ظافر وبعض العناصر من قبيلة بنى خالد تحت إمرة زيد بن عريعر. وكان هذا قد طرد من القبيلة مع أنصاره بعد ثورته على سعدون . هذا بالإضافة إلى جند سعود النظامى المؤلف من رجال العارض وما جاورها من المناطق . وقد سار سعود بهذا الجيش لمقابلة الحشود الرئيسية لبنى خالد، التى كانت معسكرة قرب تلة غريمل وآبارها القريبة من واحة الإحساء ، تحت قيادة دويحس بن عريعر، وعمه عبد المحسن .

واشتبك سعود مع أعدائه فى الحال .. وكان القتال شديدًا. ويائسًا بين الطرفين . غير أن بنى خالد انكسروا فانهزموا وأصيبوا بخسائر فادحة على أيدى فرسان سعود ، وتركوا وراءهم أشياءهم وممتلكاتهم الأخرى. ويبدو أن عبد الحسن ودويحس هربا إلى المنتفك ، فعين سعود زيدًا بن عريعر زعيمًا على القبيلة .

وفى خريف سنة ١٧٩٠ ظهر فى الغرب تهديد خطير لاستقرار الدولة الوهابية . فقد كان الشريف غالب بن مساعد الذى خلف أخاه لدى موته سنة ١٧٨٨ ، يعد العدة لغزو

نجد، معلنًا عزمه على مهاجمة الدرعية نفسها ، ووضع حدًا للهرطقة الوهابية ، فأرسل أخاه عبد العزيز بجيش يتألف من عشرة آلاف رجل وعشرين مدفعًا . وانضم إليه فى الطريق بدو الحجاز، وعناصر من شمر ومطير، وقبائل أخرى من نجد. ولدى وصولهم إقليم السر، أحدقوا بقرية «قصربسام» المتحصنة وسحقوها بالمدافع التركية . ولكن حاميتها الصغيرة ، التى قيل أنها كانت تتألف من ثلاثين رجلاً ، صدت بشجاعة كل هجومٍ كانوا يشنونه عليها .

وبعد بضعة أيام من القصف الشديد، قرر الشريف غالب الذى كان يدير العمليات بنفسه بعد أن انضم إلى الجيش الرئيسى المعقود لأخيه ، عند الشقرا فى مرتفعات نجد. فتعرضت الشقرا إلى قصف شديد من المدفعية ، وحاول المهاجمون اقتحامها مرارًا كثيرة ؛ ولكن محاولاتهم هذه جميعها باءت بالفشل .

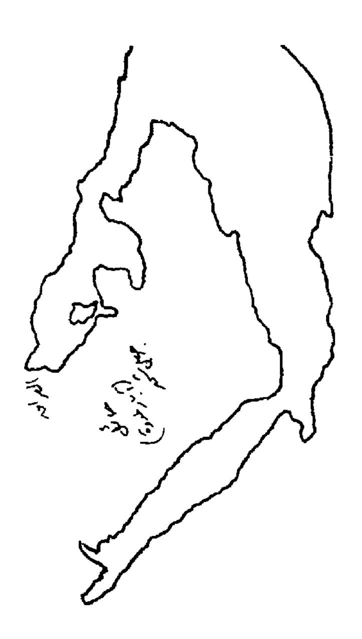
وبعد شهر من المحاولات الفاشلة ، فك غالب الحصار الذى فقد خمسين من رجاله ، وتخلى عن فكرة احتلال نجد نهائيًا . أما البدو الذين انضموا إليه حبًا فى الغنائم والأسلاب ، فقد تركوه حالما تحقق لهم فشل محاولته . وسار غالب بجيشه الرئيسى دون أن يحقق شيئًا من أحلامه .

أما سعود الذى كان يحتفظ بقواته الرئيسية لمواجهة أى تهديد محتمل للدرعية ، فسار بجيش كبير ليعاقب البدو الذين انضموا إلى قوات الشريف غالب ، حالما وصلته أخبارانسحابه من نجد.

وفى صيف سنة ١٧٩١ وصلت قبائل شمر ومطير إلى آبار (عدوه) جنوب حايل . فنشبت معركة (عدوه) فى الثلاثين من آب . وقد حارب البدو بكل شجاعة وضراوة إلا أنهم هزموا تاركين لسعود غنائم كبيرة ، وجثث عدد من زعمائهم . ولكنهم عادوا فهاجموه عندما وصلتهم النجدات التى لم تشترك فى المعركة . وكان سعود لا يزال فى عدوه ، يوزع الأسلاب كما هى العادة . فصمد الوهابيون لهجوم البدو. وقُتل مسلط بن مطلق ، أحد زعماء شمر، عندما حاول اقتحام خيمة سعود نفسه ، فانهزم المهاجمون وتشتتوا . فتبعهم فرسان الوهابيين وطاردوهم مدة يومين كاملين يقتلون منهم من يقتلون وينهبون ماينهبون .

وقد بلغ ماغنموه منهم مائة ألف رأس من الغنم ، وأحد عشر ألف جمل .

وفى كانون الثانى من سنة ١٧٩٢، كان سعود فى طريقه إلى الحسا ، فاستولى على سيهات وعنك وقتل أربعمائة من سكانها ، وغنم غنائم هائلة وعقد مع أهلها الصلح على شرط أن يدفعوا له خمسمائة جمل كفدية لأرواحهم .



معركة عدوة سنة ١٧٩١

وفى هذا الوقت كان بن عريعر، الذى عينه سعود زعيمًا لبنى خالد بعد معركة الغريمل ، قد أغرى عبد المحسن لأن يعود ، وضمن له سلامته ، وتعهد له بأن يعامله معاملة كريمة ، ولكنه قتله فى اجتماع عام فتجمعت قبائل مطير فى (جنايح) فى نجد العليا ، ولكن هادى بن قرملة زعيم قبائل قحطان ، هاجمها بأمر من الإمام بينها قام سليمان بن عفيصان يغزو قطر، وهاجم جماعة مسلحة من سكانها وهزمهم . وعاد سعود نفسه بعد العمليات فى منطقة القطيف ، وسار إلى جبل شمر ليغزو حشدًا كبيرًا من قبائل حرب ومطير عند آبار شقرا ، فغنم منهم ثمانية ألف جمل وعشرين من الأفراس العتاق .

وكان أبرز أحداث هذه السنة ما وقع فى الصيف . ففى العشرين من تموز، توفى محمد بن عبد الوهاب العظيم ، بعد أن قضى سنوات طوالاً معززًا مكرمًا ، وأمضى حوالى نصف قرن فى جهاد مستمر لتوطيد أقدام الحركة التى بدأها فى سبيل تأكيد الإخلاص والولاء للأمراء الذين تعاونوا معه ؛ فجعلوا هذه الحركة تزدهر وتتسع وتنجح . ولقد مات قرير العين هانئ البال ، فى شيخوخته ؛ غير أنه لم يعش طويلاً كى يرى الأرض الموعودة تزدهر وتتسع حتى تصل إلى أقاصى حدود الجزيرة .

أما ابن بشر الذى جاء فى تاريخه على ذكر موته فيقول إنه كان فى الثانية والتسعين من العمر عند وفاته . غير أنه يعود فيذكر فى مكان آخر سنة ١١١٥ الهجرية تاريخ مولده ، الموافق سنة ١٧٠٣ - ١٧٠٤ وفى هذا الحال يكون الشيخ قد بلغ التاسعة والثمانين حين وفاته. وفى أواخر سنين حياته أصبح ضخم الجثة ثقيل الحركة حتى كان كلما ذهب إلى الجامع يساعده رجلان .

ويذكر ابن بشر فى تاريخه ، رثاءًا كتبه الشيخ حسين بن غنَّام ، يؤبِّن فيه الراحل العظيم . ولكن أعظم النصب التذكارية لإحياء ذكرى هذا الراحل الكريم هو دولته التى عمت الجزيرة العربية آنذاك . دولته التى صمدت إلى يومنا هذا فى وجه تقلبات الزمن والأحداث الجسام خلال أكثر من قرنين من التاريخ .

ويجدر بنا أن نذكر، بأنه لم يتول إدارة الشئون الدينية والروحية فحسب ، بل ساهم مساهمة فعالة فى إدارة دفة النشاط السياسى والعسكرى أيضًا ، فى سبيل إعلاء كلمة الله .

والتوافق التام بينه وبين أول رئيسين مؤقتين للدولة الوهابية والإنسجام الذى واكب علاقاتهم التى استمرت زهاء خمسين عامًا لها أنصع دليل على عبقريته الفذة وإخلاصه وتفانيه فى سبيل القضية المشتركة ، التى تغلبت على الضعف البشرى وأطماع العالم الإقطاعى الذى كان أهل زمانه يعيشون فيه .

وفى خريف السنة التى تلت موت الشيخ ، شهد إقليم الإحساء تطورات مهمة . فقد ثار بنو خالد ، يدفعهم براك بن عبد المحسن ، على زيد بن عريعر الذى اختاره سعود زعيمًا للقبيلة، وعزلوه . وماكاد يتولى برَّاك زعامة القبيلة حتى قاد عشيرته ليغزو آبار لصافة وهاجم فى طريقه فريقًا من السبيع ، ونهب كثيرًا من متاعهم . ووصل سعود فى هذه الاثناء بجيشه المؤلف من مجندى الوهابيين إلى الصحراء الشرقية ، بحثًا عن بنى خالد ، الذين كانوا فى لصافه ثم ضرب خيامه هناك وأرسل قوة من جيشه لاحتلال آبار لهبة وقرعة Qara'a .

وكان الغزاة قد عادوا فعلاً إلى لهبة ، فوجدوا جيش سعود يحتلها . فقام فرسانه وهجانته بالهجوم عليهم . وبعد قتال ضار استمر زهاء الساعة تفرق بنو خالد وانهزموا فى فوضى واضطراب . وتبعهم فرسان الوهابيين فلم يرحموهم وعادوا بغنائم هائلة .

ويقدر عدد قتلى قبيلة بني خالد فى تلك المعركة وفى أثناء هزيمتهم ، بألف إلى ألفى قتيل. كما استولى سعود على ما لا يقل عن مائتى فرس .

أما براك نفسه ففر مع نفر من أتباعه إلى المنتفك عند الحدود العراقية . فاستولى الذعر على الهفوف حين طرق سمعهم خبر اندحار بنى خالد وهزيمتهم المنكرة .

أما سعود الذى كان متجهًا إلى تلك الجهة فتوقف عند آبار الردينية ، فى إقليم الطف ، بضعة أيام . وفى هذه الأثناء وصلته من سكان الحسا دعوة لزيارة بلادهم كى يقدموا له ولاءهم . فتمت المراسم المعتادة لدى وصوله مياه عين نجم الحارة ، ثم أرسل جماعات من جنده ليدمروا قبور الشيعة وأضرحة الكفر التى يزورها السكان ، والمقامات الدينية التى كانوا يتبركون بها . وأمضى سعود شهرًا هناك فأعد خلال هذا الشهر كل شىء ضرورى لهداية السكان وتعيين الشيوخ الأكفاء ليشرحوا لهم أصول الإسلام وعقيدة التوحيد. وعين

محمدًا الحملى أميرًا على الإقليم على أن يكون مركزه قلعة الكوت . كما عين الموظفين اللازمين فى الوظائف الأخرى وأرسل الحاميات إلى الحصون المختلفة ومراكز الحراسة المتعددة .

ثم رحل سعود وسار إلى آبار نطع فى إقليم الطف ، حيث أمضى هناك شهرًا ترعى جماله وخيوله فى مراعيها . ثم جاءته أخبار اضطراب وقع فى الهفوف ، إذ ثار السكان على الحكم الجديد وقتلوا الحاكم ، وثلاثين رجلاً ، وموظفين آخرين بينهم الشيوخ الذين عينهم حديثًا لتفقيههم .

وقد جُرَّت جثث الضحايا وشوِّهت على مشهد من الجميع . ولم يبق أحد من الجهاز الإدارى الذى أقامه سعود - فيما عدا حامية حصن حصار - تحت إمرة محمد بن غشيان . وقاومت الحامية فترة من الزمن غير أنها فرت تحت جنح الظلام وانضمت إلى معسكر سعود. فعاد سعود إلى الدرعية ، بينما استأنف زيد بن عريعر حكمه لإقليم الإحساء فترة مؤقتة . وكانت الدولة الوهابية قد خسرت فى هذا الوقت خسارة فادحة ، بموت سليمان بن عفيصان أمير الخرج خلال السنوات الستة عشر الماضية ، هذا الرجل الذى اختاره عبد العزيز وسعود مرارًا كثيرة لحملات عسكرية تتطلب جرأة ومقدرة فى القيادة .

وفى خريف سنة ١٧٩٣ كان سعود على أهبة الاستعداد لقمع الثورة فى الحسا ومعاقبة مثيريها . فسار إليها بكامل جيشه وهدفه الأول قرية شقيق ، فاحتلها عنوة بعد حصار استمر يومين وقتل بعض السكان ، غير أن الباقين فروا . وتجمع سكان القرى الشمالية من الواحة للدفاع عن أنفسهم فى القرية ، فطوقها سعود مع قرية المطيرفة ، حتى افتدى السكان أنفسهم بنصف ممتلكاتهم .

ثم سار سعود إلى المبرَّز، المدينة الثانية بعد الهفوف فى الأهمية ، وهناك هاجمه . زيد بن عريعرعلى رأس جماعة من السكان المحاصرين إلا أنهم هُزِموا وتراجعوا إلى العاصمة . وهاجم سعود حصن المهيرس المنعزل وحاميته التى يقودها بعض أهل المبرز، فخسرت قرابة المائة من القتلى.

وكانت البتالية هى القرية التالية التى هاجمها سعود . ومن ثم سار إلى الشرق ليهاجم قرية جبيل . وكان سعود يهدف من وراء هجماته هذه أن يعمل السيف والنار فى الإقليم

بأكمله ، ليعاقب أهله على الثورة التى قامت بها الهفوف ، والفظائع التى ارتكبت هناك . وفى هذه الأثناء أرسل فرقة البدوية إلى كل ناحية لينهبوا أموال السكان ويدمروا قراهم بلا رحمة .

وبعد هذه الحملة الإرهابية التى استمرت فترة من الزمن ، اختار سكان الإحساء براك بن عبد المحسن ، ليتوجه إلى عبد العزيز ويطلب منه الرحمة ، واعدًا إياه بالخضوع والولاء. تاركًا لبراك بن عبد المحسن أمر وضع الترتيبات لتنفيذ العهد الذى قطعه على نفسه نيابة عن أهل الإقليم .

غير أن الهفوف لم تُظهر ندمًا على ما فعلت ، إذ منعت براك من دخول المدينة فسار إلى المبرز فدخلها ، بينما كان زيد وأبناء عمومته عريعر فى قرية جيشه وجفار من أطراف الواحة .

وبعد قتال مرير بين الأطراف المتنازعة ، كان النصر حليف براك ، ففر زيد إلى المنتفك شمالاً، وتولى براك الحكم نيابة عن الدولة الوهابية واعترف به أهل الإقليم جميعًا .

وهكذا انتهى استقلال الإحساء تحت حكم أمراء بيت عريعر وسلالة حميد الذين حكموها ١٢٤ سنة ، أى منذ سنة ١٦٦٩ عندما احتلها من الاتراك براك ابن عريعر، الجد الأعلى لسعدون وزيد . وكان الأتراك ، قد احتلوها بدورهم عندما قهروا أمراء عائلة أجود بن زامل الجبرى القيسى سنة ١٥٩٢ على يد فاتح باشا الذى كان أول والٍ لها .

ويعطينا ابن بشر أسماء خلفاء فاتح باشا الثلاثة ، ومنهم عمر باشا الذى فقد الإقليم يوم احتله آل حميد ، فيقول ، (ابن بشر) : الاحتلال التركى استمر ثلاثين عامًا تقريبًا . وإذا اعتبرنا التواريخ التى ذكرها صحيحة ، فلا بد أن حكم الأتراك استمر أكثر من ثمانية وسبعين عامًا . غير أن هذه المدة طويلة لا يمكن أن يتولى الحكم فيها اربعة ولاة فقط ، وإن كان ذلك ممكنًا أحيانًا . ولربما أنه كتب رقم ٣٠ خطأ بدلاً من رقم ثمانين . فالتشابه بين كتابة الرقمين فى اللغة العربية كبير.

على كلٍ ، فقد أصبح إقليم الإحساء الآن إقليمًا وهَّابيًا مدة تقرب من الثمانين عامًا. وبعدها جاء الأتراك مرة أخرى سنة ١٨٧١ فاحتلوه فترة استمرت زهاء الإثنين والأربعين عامًا ، وحتى سنة ١٩١٣ . وعندها عاد نهائيًا إلى الدولة الوهابية . ويعتبر إقليم الإحساء فى الوقت الحاضر أغنى أقاليمها على الإطلاق .

وصحيح أن الحملة على الإحساء وقعت في فصل الشتاء الشديد البرودة سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٤ إلا أن نتائجها فاقت الغزوات الصحروابة الأخرى . ولقد تلاها مباشرة نشاط وهابى عظيم فى المجالات العسكرية ، وفى نواح أخرى ، من ضمنه حملة كانت عدتها ستمائة جمل وألف رجل تحت إمرة عبد الله بن محمد بن معيقل من الشرما وصلت إلى سهل رقبة عند الحدود الحجازية ، واشتبكت مع فريق من قبيلة عتيبه قرب تل البغث (برث) ولكنها ردت على أعقابها متكبدة بعض الخسائر.

وقد سارت حملة أخرى تحت قيادة محمد بن معيقل نفسه ، فهاجم بنى حجر Hajir فى سهل حزم الراقى HazmRaqi بين تلال ضنيب وآبار ثعل واستولت على كثير من الأسلاب بالإضافه إلى مقتل زعيم القبيلة ناصر بن شارى .

وسارت حملة أخرى بقيادة إبراهيم بن عفيصان ، أمير الخرج ، وابن سليمان الذى توفى حديثًا ، أو أخيه ، فهاجمت بادئ ذى بدء قطر حيث دمرت قرية الحويلة المشهورة بمصائد الأسماك . ثم هاجمت فيما بعد الكويت نفسها ، حيث تمكنت من إبادة جماعة خرجت من القرية المحصورة بواسطة كمين نصبته لها ، غير أن أفراد الحملة لم يدخلوا المدينة نفسها .

وكان أهم هذه الغزرات الصغيرة التى جرت فى تلك السنة تلك التى تجمعت فيها فرق من الوشم وجبل شمر ، كل منها تحت امرة قائدها المحلى، وجميعها تحت إمرة محمد بن معيقل، وتوغلت فى أقصى الشمال مسافه أبعد مما فعلت الجيوش الوهابية حتى الآن .

وكان هدفهم الأول الجوف الشمالى الذى لايزال يُعرف باسم دومة الجندل ، على جناح الصحراء السورية . فاحتلوا ثلاثًا من قرى الواحة ، أما البقية ومنها قصر المارد ، الحصن الرئيسى فى الجوف ، فحاصروها حتى استسلمت ، وخضعت للدولة الوهابية وقطعت على نفسها عهدًا بالطاعة والولاء.

وربما يعود تاريخ هذه الأحداث لشتاء وربيع سنة ١٧٩٤ التى توفى فيها شيخ الدرعية، سليمان بن عبد الوهاب ، بعد سنوات عدة من وفاة أخيه الأشهر. أما الشهور الأخيرة من هذه السنة فشهدت سعودًا يغزو بنى ظافر على الحدود العراقية فى مقاطعة الحجرة ثم يعود إلى العاصمة بأسلاب وافرة فى شباط من سنة ١٧٩٥ ليعدَّ العُدَّة لغزوة الحجاز. وفى شهر أيار

ظهر سعود أمام ترابة متبعًا التكتيك المعتاد فى قطع أشجار النخيل والقيام بمناوشات متفرقة. فقتل فى أثنائها أحد قادته البارزين ، محمد عيسى بن غشيان .

ويبدو أن سعود ، لم يواصل هجومه بشكل جِدِّى، إذ ارتحل بعد أن أغراه عرض التعويضات الكبيرة .

وربما كان الدافع على رحيله شدة الحراره فى شهر حزيران ، فلم يواصل تقدمه باتجاه سورية والعراق ، الأمر الذى لو تم لدل على أن لأسياد الدرعية مطامع توسعية يرجون من ورائها إلى توسيع عملياتهم الحربية ويجربون كافة الوسائل لتحقيقها.

واعتبر غالب بن مساعد، شريف مكة ، الحملة على ترابة بمثابة جس النبض ، فنظم حملة على نجد بالرغم من شدة الحرارة الضارية .

وكان هدف الشريف فهيد (قائد الحملة) قبيلة قحطان النازلة على آبار المسيل على بُعد خمسين مِيلاً من الدوادمي . وبعد قتال عنيف ، انهزمت قبيلة قحطان وتكبدت خسائر كبيرة جدًا ، منها عشرة آلاف جمل . ولولا هطول الأمطار آنذاك لهلكت النساء والأطفال من العطش .

وعند انسحاب قوات الشريف واستيلائها على الغنائم ، قام محمد بن مُعيقِل بغزوة ناجحة على قبائل عُتيبة فى مران فى المنطقة البركانية من حرة الكشب .

وبعد ذلك بقليل جاء سعود بنفسه إلى تلك المنطقة ، يقود حملة على مضارب مطير وعُتيبة . ولكن غالبًا كان يعد العدة لغزوة ثانية على نجد. وقد انطلقت هذه الحملة من مكة فى شهر كانون الأول سنة ١٧٩٦ تحت قيادة الشريف ناصر بن يحيى، واتجهت إلى المرتفعات الواقعة فى أواسط الجزيرة العربية . ولدى سماع عبد العزيز بخبر هذه الحملة ، أصدر أوامره إلى كل من محمد بن ربيعات العتبى وفيصل الدويش من قبيلة مطير، وقبائل السهول والسبيع وقبائل الدواسر والعجمان ليحشدوا قواتهم تحت قيادة هادى بن قرملة القائد الأعلى للقوات المدافعة عن المعسكر حول آبار الجمانية على طول تلة النير، وطرق القوافل بين نجد والحجاز .

ولدى وصول جيش الشريف ناصر المزوَّد ببعض المدافع بدأت المعركة فمنى الجانبان بإصابات فادحة ، إلى أن قام فرسان هادى بهجوم ضار قرر مصير المعركة . فتفرق جيش الشريف وانهزم ، ولكن فرسان نجد طاردوهم وقتلوا منهم ثلاثمائة قتيل ، وغنائم هائلة من بينهامدافع ناصر وخيامه . وكان عبد العزيز قد أرسل محمد بن معيقل بنجدات إذا اقتضى الأمر، ولكنها وصلت متأخرة عن المعركة ، فاشتركت فى مطاردة الهاربين والضغط عليهم حتى القنصلية قرب خرمة ، فقتلوا أربعين من الهاربين وغنموا منهم غنائم كبيرة .

وكان مبارك بن هادى ، فى هذه الأثناء ، يقوم بغزو الحدود اليمنية ، فهاجم قبائل نجران واستولى على أموالهم . وبدأ كأن الصحراء العربية تتقد حماسًا وتتوثب نشاطًا عسكريًا أرسله الوهابيون . غير أن اضطرابات نشبت فى الإحساء حيث قام براك بن عبد المحسن بإغراء فئة كبيرة من السكان بأن يطرحوا نير الوهابيين عنهم . أما قبيلة السياسب ، فى المنطقة الساحلية حول القطيف ، فقد رفضت الانضمام لهذه الحركة وطلبت المساعدة من الدرعية . فتوجه ابراهيم بن عفيصان فى الحال لقمع الفتنة التى أبقاها أهل السياسب ، ضمن حدود ضيقة بالتعاون مع أهل المبرز الذين رفضوا الانضمام للمتحالفين . وكان بعض الثوار قد استسلموا قبل وصول ابن عفيصان ، مثل صالح بن نجار ، أحد قادة الحركة ، ولكن الباقين صمموا على المضى فى الحرب ، فحاصرهم الجند الوهابى فى مختلف مواقع الهفوف إلى أن طلبوا عقد الصلح . وقد تم ذلك على شرط أن يذهب زعماء المتمردين ويعلنوا ولاءهم أمام عبد العزيز نفسه فى الدرعية .

وفى أيام من ذلك العام ذهب سعود إلى إقليم الوشم ليشرف على تعبئة الجيش استعدادًا لحملة على الإحساء . ولدى وصوله إلى الرقيقة Ruqaiyiqa قضى شهرًاهناك لا يفعل شيئًا غير عملية حشد قواته وإعادة تنظيم الترتيبات الإدارية . وقد حدث بعض القتال هنا و هناك، لكنه يبدو أن الثورة لم تكن ذات تأثيركبير. واستسلم السكان عن حكمه فيهم بعد أن تحققوا بأن لاجدوى من العناد ، فقتل بعض الأفراد وسجن آخرون ونفى غيرهم من البلاد ، وهدمت البيوت وأنشئت مراكزالحراسة ، ونُهبت الممتلكات وفرضت التعويضات والغرامات ودفعت ؛ وهذه نتيجة طبيعة لتمرد لا ينجح .

وقد طلب سعود إلى شخص يدعى نجم بن دهينم من سكان الهفوف بأن يدل على كل من يعتقد بأنه اشترك فى اقتراف الفظائع أثناء الفتنة . ثم عين هذا الرجل حاكمًا على الإحساء. وعاد سعود إلى بلاده ، آخذًا معه عددًا من الرهائن . ويظهر أن براك هرب من الإقليم ، إما قبل هذه العمليات أو بعدها . وربما إلى المنتفك ، حيث عادت الاضطرابات فتجددت خلال الجزء الأخيرمن نفس السنة .

أما ثوينى، بعد هزيمته على يد سعود فى دار بنى خالد قبل بضع سنوات ، فقد فرَّ إلى صفوان حيث انضمت إليه عشائر كثيرة من قبيلته . ولكن الأمير الجديد ، حمود بن ثامر، هاجمه حالاً وهزمه وأتباعه . فهرب ثوينى إلى دياركعب Ka'b على شط العرب . وقد حاول سنة ١٧٨٩ أن يحصل على مساعدة من زيد بن عريعر ليستأنف الكفاح . ولكنه لم يلق تشجيعًا منه ، فالتجأ إلى عبد العزيز فى الدرعية ، ومكث هناك مدة من الزمن ضيفًا عليه معززًا مكرمًا.

وشق ثوينى فيما بعد ، طريقه إلى الكويت ، ومن هناك سار إلى بغداد يطلب عفو سليمان باشا ، الذى كان قد أزعجه كثيرًا فى سوق الشيوخ . فعفا عنه وسمح له بالبقاء فى بغداد ، حيث بدأ ثوينى يستعطف الوالى ويتودد إليه ، لعله يعيده إلى زعامة المنتفك . ومن أجل هذه الغاية ، أقنع الوالى بأنه إذا ما عاد أصبح فى وضع يحقق له مطمعه فى إخضاع نجد للباب العالى. فاهتم سليمان باشا بهذا الأمر، وزوده بالسلاح والرجال وأرسله فى تلك السنة ليتولى الزعامة فى المنتفك بعد عزل حمود .

وما كاد ثوينى يستقر فى منصبه الجديد حتى بدأ يحشد الجيوش للمغامرة التى تعهد أن يقوم بها . فأخضع بنى ظافر بجيش من قبيلته وبمدد من الزبير والبصرة . ووجد أن بنى خالد على استعداد لينضموا إليه تحت إمرة براك الهارب ، فحشد كل جيشه فى الجهرة وبقى هناك ثلاثة أشهر، يعد العدة ويضع خطط الحملة العتيدة .

وانضمت عساكر الأتراك فى البصرة عن طريق البحر، بينما نقل آخرون فى أسطول من السفن على موازاة طريق زحفه إلى القطيف التى ستكون القاعدة الرئيسية لعملياته لفتح الإحساء.

حينئذ ، أمر سعود بتعبئة جميع جيوش الأقاليم تعبئةً عامة ، ليواجه التهديد الجديد. وعين محمدًا بن معيقل قائدًا عامًا لهذا الجيش الكبير الذى غادر الدرعية فى الوقت المعين ، قاصدًا آبار القرية فى إقليم الطف . وأمر فى نفس الوقت ، جميع العشائر البدوية ، بأن تنتقل بمؤنها وعائلاتها وقطعان أغنامها ، إلى أراضى بنى خالد ؛ ليحتلوا الآبار، وليدافعوا عن أنفسهم ضد الغزاة . ثم سار سعود بقوة كبيرة من جيش أهل العارض ومناطق أخرى فى وسط البلاد ، ليعسكر فى روضة الصنجة فى الطرف الغربى من الدهناء ، ومن هناك انتقل إلى حفار العتك ليقم فيها مدة شهرين .

أما ثوينى فتقدم نحو إقليم الطف ، فتراجع الوهابيون إلى آبار جودة وأم الرباعية فى الجنوب . وأرسل سعود قوة من الفرسان المتطوعين تحت إمرة حسن بن مشارى لنجدة محمد ابن معيقل ومساندة القبائل البدوية .

ويبدو أنّ انتقال ثوينى إلى آبار الشباك قد أفزع البدو. غير أن العناية الربانية تدخلت فى اللحظة الأخيرة عندما قتل ثوينى على يد عبدالله أثناء ما كان يرقب تنظيم الجيوش والرواحل حول الآبار. ولكن القاتل قُتل فى الحال وأخفى الخبر عن الجيش لئلا يصاب بالذعر. فخلفه ناصر شقيقه. ولكن براك الذى كان على اتصال سرى بحسن بن مشارى، والذى كان ساخطًا على انضمامه إلى زعيم المنتفك قرر بأنه قد آن الأوان كى يحدث تبديلاً فانسحب .

وقد أدى انسحاب بنى خالد إلى الفزع بين صفوف الجيش الغازى، فأخذ يتقهقر، وطارده الوهابيون إلى حدود الكويت . وقد وقعت معسكراته ومدافعه فى أيدى الوهابيين المنتصرين كما غنموا غنائم كبيرة لدى مطاردتهم عشائر المنتفك المنهزمة .

جرت هذه الأحداث فى نهاية حزيران من سنة ١٧٩٧ .

وبعد أن وزع سعود الغنائم فى ميدان المعركة ، سار نحو الهفوف ليتأكد مرة أخرى من ولاء أهلها. وخلال إقامته هناك نزلت الأمطار فى نجد، بشكل لم يعرف له مثيل من قبل . لقد دمرت الفيضانات مدينة الدلم فى شعيب العجيمى، بينما تساقط فى حريملة برد شديد أتلف ثمار النخيل وأهلك المحاصيل الزراعية ، وتسبب فى انهيار كثير من البيوت والجدران .

وفى صيف هذه السنة أو السنة التى بعدها ، أحدثت الفيضانات دمارًا. واسعًا فى الحوطة، ووادى حنيفة ، كما قاست منها مدينتا الدرعية والعيينة . إلا أن موسم الغزوات لم يتأثر مطلقًا بهذه النوازل . فغزا زعيم « الدواسر» قبيلة شهران الحجازية قرب البيشة ، كما أغار محمد بن معيقل ، على جزيرة العماير الواقعة فى الخليج الفارسى. وكانت هذه الجزيرة أول أرض تحتلها الدولة الوهابية فيما وراء البحار، على حساب البحرين .

ولدى وفاة ثوينى، عين سليمان باشا حمودًا بن ثامر زعيمًا على المنتفك ، كخطوة أولى فى خططه الرامية إلى استئناف هجومه على الوهابيين . إلا أن الشريف غالب سبقه إلى ذلك فقام بحملة ضد قحطان التى تنزل عند آبارعقيلان شمال البيشة . ولكن الجند لم يتمكنوا من الوصول إلى الماء ، فوقعوا فى ضيق شديد من شدة العطش وأصبحوا فريسة سهلة للبدو الذين دحروهم وكبدوهم خسائر فادحة .

وتلا هذه المعركة هجوم آخر قام به ربيع بن زيد ، زعيم الدواسر، على واحة البيشة ؛ فاستسلم السكان . ولكنهم تعرضوا لهجوم معاكس قام به الشريف فهيد عبد الله الذى كان قد أرسله الشريف غالب بجيش قوى. فلم يجدوا بُدًا من الاستسلام لعدم حضور النجدة الوهابية . وفى أثناء عودة فهيد هاجم رنية ، إلا أنه لم يصب كبير نجاح هناك .

هذا بينما بدأ هادى بن قرملة هجومًا ذا مرحلتين ضد قبيلة البقوم قرب ترابة .

واستمرت هذه العمليات حتى بداية سنة ١٧٩٨ ثم أرسل عبد العزيز قوة من الإحساء لتهاجم الكويت ، فاستولت على عدد كبير من جمال السكان فى المرعى، ثم صدت قوة خرجت لمهاجمتها ، وكبدتها خسائر فادحة ، غير أن المهاجمين لم يتمكنوا من دخول المدينة .

أما الجانب الآخر من الجزيرة ، فقد أرسل حمود بن ربيعان زعيم عتيبة ، والذى كان يظن بأنه يخضع لسلطان الحجاز، وفدًا إلى عبد العزيز يعرض عليه خضوع عشيرته للحكم الوهابى ، واستعداده لدفع التعويضات عن جرائمه السابقة . فوضعت الترتيبات المناسبة لهذا الأمر. غير أن نكوص عتيبة ؛ أغضب غالبًا ودفعه للعمل ، فسار على رأس حملة كبيرة ليهاجم هادى بن قرملة القحطانى.

وبعد معركة جرت فى الصحراء ، لقى فيها هادى شر المصير، تقهقر إلى رنيه بينما استمر غالب فى مهاجمة الواحة دون أن يصيب نجاحًا كبيرًا. وفى هذه الأثناءكانت أسهم القضية الوهابية ترتفع فى التخوم الغربية وكان عشائر البقوم إلى معسكرات الوهابيين ضربة قاصمة أخرى تسدد إلى غالب .

حينئذ غير عبد العزيز وجهة عملياته الحربية وانحرف نحو الشمال . وأرسل حجيلان بن محمد أمير بريده لغزو الشرارات على الحدود السورية ، فأصاب شيئًا من النجاح وقتل قرابة المائة والعشرين رجلاً منهم و استولى على غنائم كثيرة ، وزعها بين المشتركين فى الغزوة وبين الدولة .

وفى آزار من هذه السنة ، قاد سعود حملة على الحدود العراقية ، فغزا سوق الشيوخ ، ثم استدار نحو سماوة ، فالتقى هناك بقوة من بدو شمر وظافر تحت إمرة مطلق بن محمد زعيم الجربا ، على آبار الأبيض . و فى المعركة الضارية التى دارت رحاها عند تلك الآبار، قتل مطلق ، وغابت الشمس عن يوم مظفر للوهابيين الذين استولوا على معسكر الأعداء بما فيه . ولقد كانت خسائرهم أيضًا كبيرة جدًا، وكان من جملة قتلاهم براك بن عبد الحسن ، فانتهت بموته المهمّة التى وكلت إليه .

وفيما كان سعود منهمكًا فى الشرق ، كان الشريف غالب يقود حملة واسعة مدعمة بالجنود المصريين والمراكشيين ، على الواحات الجنوبية الغربية . وبالرغم من تقطيع النخيل والمناوشات الدموية التى جرت خلال الثلاثة أسابيع التى أقامها هناك ، فشل غالب فى زعزعة مراكز المدافعين ، فانسحب إلى بيشة ، حيث استطاع إخضاع الواحة كلها بمناصرة عناصر كانت موالية له فيها . بما فى تلك جنينة والروشان حماة الوهابية فى تلك المنطقة .

ويقول ابن بشر بأن غالبًا عاد من هذه الحملة راضيًا عن نفسه كل الرضا . ومر بخرمة حيث ضرب خيامه هناك . فهاجمه آنذاك ، هادى بن قرملة بجيش قوى من الوهابيين . وكان من نتائج هذا الهجوم غير المنتظر أن تضعضع جيش غالب وانهزم ، تاركًا وراءه الخيام وما فيها للعدو الذى راح يطارده دون هوادة ، فقتلوا من قتلوا من جيشه ، واستولوا على أموالهم.

ويقدّر ابن بشر عدد قتلى جيش غالب بألف ومائتين وعشرين قتيلاً ، وكان بينهم الشريف سعود بن يحى بن بركات ، وابن أخيه هيازع وزعماء آخرون .

أما جيش الأتراك المؤلف من المصريين والمغاربة فخسر ستمائة رجل . وقد استولى الوهابيون على رواتبهم الكبيرة التى كانت ستوزع عليهم صباح ذلك اليوم ، علاوة على الغنائم المعتادة فى الحروب .

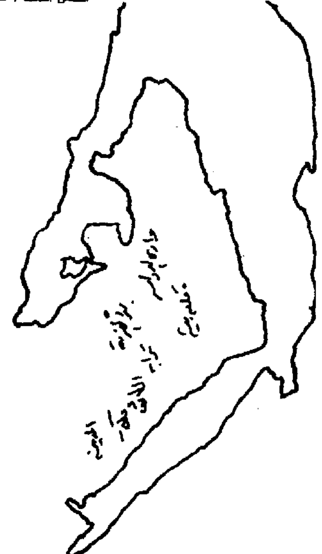
ويتوقف ابن بشر عند هذه النقطة ، ويسرد لنا قصة مطولة شيقة عن العمليات الحربية الفرنسية فى مصر وفلسطين سنة ١٧٩٨ والسنوات التى تلتها . والحق أنه يصف معركة عكا وصفًا رائعًاويتحدث عن وصول الأسطول البريطانى. ويدعى أنه نقل هذا الذى كتبه واختصره عن تقرير وجده فى الطائف عندما احتلها عثمان المضايفى.

الا أنَّ القصة لاتهمنا ، إذ لاعلاقة لها بشؤون الجزيرة العربية البعيدة عن العالم الكبير فى تلك الأيام ، والتى كانت تدور فيها المعارك الطاحنة دون اكتراث للصراع العالمى الذى كان يمكن أن يجرف الجزيرة العربية ومقدساتها لولا انتصارات البريطانيين ، عند حدودها البعيدة، على جيوش نابليون المعدة لاحتلال الهند.

ويقول ابن بشر : بأن أخبار معركة عكا ، وصلت إلى مكة ، فقدجاء بها رجل من قبيلة حرب ، وكان هذا هو الشخص الوحيد الذى نجا من جماعة صغيرة مؤلفة من عشيرته كانت تقاتل مع الأتراك .

ومما هو جدير بالذكر بهذه المناسبة أن رجلاً آخر قص نفس القصة على الملك حسين يوم زار الاردن سنة ١٩٢٤ ، وادعى أنه شاهد نابليون بأم عينه فى عكا سنة ١٧٩٩ ، وكان فتىً عمره آنذاك خمسة عشر عامًا .

وبعد الهدوء الذى تلا اندحار غالب فى صيف ١٧٩٨ ، أرسل عبد العزيز ربيع بن زيد زعيم الدواسر ليهاجم البيشة بجيش من عشيرة قحطان . فنهب القرى الصغيرة فى الواحة ، واقتحم بعضها واستسلمت الأخرى. كذلك فعلت روشان نفسها ، وقدمت ولاءها إلى سالم ابن محمد بن شكبان الذى عينه عبد العزيز أميرًا على المنطقة بكاملها .



الموقعة التى انهزم فيها الشريف غالب الذى كان مدعمًا آنذاك بالجنود المصريين والمراكشيين، وقد تكبدوا فيها عددًا من القتلى يقدر بألف ومائتى قتيل

وفى أوائل السنة التالية قام سليمان باشا والى العراق فأعد جيشًا لا يقل عدده عن ثمانية عشر ألفًا من الفرسان ، والجند النظامى والبدو مع مدافع كثيرة لغزو الإحساء . فأسرع أهل الهفوف والمبرَّز وقرى الواحة الأخرى لإعلان خضوعهم للقائد على كيخيا .

غير أن حاميات حصون الهفوف والمبرز، (قصر سهود) تحدَّت الغزاة ، فوجه الأتراك جُلَّ اهتمامهم فى البداية إلى المبرز. وقد أمضى على كيخيا قرابة الشهرين وهو يحاول إحكام

الحصار الحربى ضد حامية ماجد الصغيرة التى لم يتجاوز عددها المائة ، فأحدث بعض الصدوع فى تحصيناتها ولكنه فشل فى الاستيلاء عليها . ولدى سماعه بوصول جيش سعود لنجدة الحاميات المحاصرة ، فك الحصار وارتحل بعد أن احرق كل معدات الحصار ودفن الذخائر فى الصحراء .

وما أن سمع سعود بأمر رحيله حتى سارع إلى الثج ليصد العدو المتقهقر فتوقف عند آبار الشباك ليعد العدة للمعركة المتوقعة . وبعد بضعة أيام من المناوشات بين الطرفين ، عرض على كيخيا على سعود الهدنة فوافق سعود مشترطًا أن يعود الأتراك بأمان . ثم سار إلى الإحساء ليشرف بنفسه على إعادة بناء الحصون ومراكز الدفاع الأخرى فى الأقاليم . وعين سليمان بن محمد بن ماجد والد بطل المبرز أميرًا على الإقليم .

ومن هناك عاد سعود إلى الدرعية فى أواخر الصيف . فجاءته الأخبار بنجاح الحج الذى قام به جماعة من أهل الوشم والقصيم ، تحت إمرة أمير الشقرا ، يرافقه على وابراهيم ، والدا المرحوم الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان هذا ممكنًا ، إذ أن الشريف غالب بعد اندحاره فى خرمة ، كتب إلى عبد العزيز يقترح عليه عقد الصلح بين الطرفين . ويدعو الحاكم الوهابى لأن يسمح لرعاياه بأداء فريضة الحج كما تعودوا فى السابق .

وقد شجع نجاح الحج فى تلك السنة سعود. لأن يعيد الكرة على نطاق أوسع وبأبهة أعظم سنة ١٨٠٠ ، فقام على رأس جموع غفيرة من نجد ، مع نسائهم وأولادهم ، بأداء الفريضة . ومر الحج بسلام ، وأكرم غالب وفادة سعود ودعاه إلى أن يعود فى السنة التالية مع والده الشيخ المسن . ويظهر أن الطرفين دفنا أحقادهما إلى الأبد وعادالوئام بين زعيمين كان لهما العذر كل العذر، دينيًا ومدنيًا ، فى أن يكرها بعضهما بعضًا .

وبعد مرور اثنى عشر شهرًا سار عبد العزيز العظيم الذى كان فى الثمانين من العمر، وخرج من الدرعية مع سعود وحشد كبيرمن شعبه . وما كادت القافلة تصل مشارف الدوادمى على مسيرة سبع ليال ، حتى شكا عبد العزيز من انحراف فى صحته ، وقرر العودة إلى بلاده ، تاركًا سعودًا ينوب عنه فى موسم الحج .

ومرة أخرى استقبل الشريف ضيفه بمظاهر الحفاوة والتعظيم . وقد عاد سعود إلى الدرعية بعد أن قدم هبة مالية كبيرة لتوزيعها على فقراء الحرم الشريف ، وكان مسرورًا من توطيد العلاقات الودية بينه وبين جيرانه فى الغرب .

وتوقفت الأعمال الحربية طيلة سنتين كاملتين ليس لدينا خلالها ذكر شىء من النشاط . ولعل الهدنة التى عقدها غالب طبقت على جميع الحدود الوهابية العربية . غير أن سعودًا عاد فعكر الهدوء الذى كان سائدا حينما قاد حملة على الحدود العراقية سنة ١٨٠١ - ١٨٠٢ .

وبعد المناوشات المعتادة بينه وبين الظافر والمنتفك ، ظهر فجأة أمام كربلاء، المدينة المقدسة ، فى أذار من سنة ١٨٠٢ ، فاقتحمها عنوة بعد حصار قصير، وأعمل السيف فى رقاب أهلها ونهبهم . لقد قتل السكان بلا رحمة فى الشوارع والبيوت ودمر ضريح الحسين ونهب المجوهرات التى كانت تغطى الضريح وجمع كل شىء ذا قيمة فى المدينة ونقله إلى ابار الأبيض قرب سماوه ، حيث استقر بأمان وطمأنينة ليحصى غنائمه ويوزعها كالمعتاد . ثم عاد إلى الدرعية ليحظى بتهيئة والده وشعبه على الضربة الجريئة التى سددها فى سبيل خدمة المذهب الحنيف ضد فرق دينية تعتبرها الوهابية إحياءًا وتجسيدًا للوثنية .

والحق يقال بأن عمله هذا هز العالم كله فضلاً عن الشيعة . فقد كان نقطة انطلاق ركينة للانقلاب على الوهابية . كما أدى فيما بعد إلى عواقب وخيمة على هذه الدولة .

أما فى الدرعية فلم يكن هنالك حد للفرح والابتهاج الذى عمها وغمر قلوب أهلها. كان ماجرى فى كربلاء سيتم فى مدن الحجاز المقدسة الأخرى. وعندها سيبدأ مد الانتقام والعقاب الشديد.

وكان أحد الضحايا المجهولين للفظائع التى ارتكبت فى كربلاء هو الذى سيضرب ضربته الأولى ، كفارة عن انتهاك حرمة هذه المقدسات .

وفى أواسط شهر أيار من سنة ١٨٠١ أعد حاكم مسقط ، سلطان احمد سعيد ، حملة بحرية قوية ضد جزر البحرين ، فلم يجد صعوبة فى انتزاعها من زعماء آل خليفة (عتبان) الذين استولوا عليها من الفرس قبل ذلك بنصف قرن . فطلب زعيم آل خليفة مساعدة

الدرعية لاستعادة ملكه . وبعد قتال ضار طرد الوهابيون الغزاة من الجزيرة بعد أن كبدوهم زهاء ألفى قتيل .

ولنعد الآن إلى مجرى الحوادث الرئيسية فى الوهابية سنة ١٨٠٢، حيث توفى كل من زعيم عتيبة ، حمود بن ربيعان وسليمان باشا الذى خلفه الملازم على كيخيا واليًا على بغداد ، فنجد أن تراخيًا طرأ على العلاقات بين الدرعية ومكة من حادثة لايمكن أن يلام عليها أى من الطرفين ، وإن كان من نتائجها تعريض كيان التفاهم السريع الانفصال الذى كان قائمًا بينها منذ هزيمة غالب فى خرمة ، إلى الانهيار.

كان غالب قد طرد رئيس وزرائه عثمان بن عبد الرحمن المضايقى لسبب غير معروف ، فتوجه عثمان رأسًا إلى الدرعية ، ليعرض خدماته وولاءه على الحكومة الوهابية . وبعد أن رحب عبد العزيز وسعود بهذا الحليف القوى ، عاد عثمان إلى بلاده فى عبيلة عند تلال الطائف ، وأخذ يمنع العناصر البدوية الحجازية من خدمة غالب . ثم بدأ يجمع حوله نواة جيش حتى يكون على أهبة الاستعداد ليقوم بأية عمليات من شأنها مساعدة القضية الوهابية ضد سيده السابق . فأخذ غالب بزمام المبادرة وهاجم عبيلة بقوة كبيرة يدعمها الجيش النظامى ، ولكنه فشل فى زعزعة الثوار. فتراجع إلى الطائف ليعيد تنظيم جيشه .

أما عثمان فحصل على النجدات التى طلبها للهجوم على الشريف ، إذ جاءه سالم بن شكبان بجيش من بيشه ، ومسلط بن قطنان ومعه فريق من سكان رنيه ، وحمد بن يحيى بفريق البقوم من ترابه . وأخيرًا هادى بن قرملة مع جيش من قحطان وعناصر من عتيبة .

حينئذ تقدم غالب نحو الطائف ، وكان قد نظمها وحصنها للمقاومة . ولكنه تراجع لدى رؤيته الأعداد الهائلة التى كانت بانتظاره ، وانسحب بجيشه النظامى ليؤمن بذلك سلامة مكة ، تاركًا الطائف تحت رحمة الأعداء . فاستولوا على المدينة ولم تبد منها أية مقاومة فعلية . وقد نهبوا كل شئ ذى قيمة فى المدينة ، وقتلوا من سكانها مايقرب من مائتى قتيل فى الشوارع والبيوت .

وقد أعاد التاريخ نفسه بعد مائة وعشرين عامًا، حين هاجم عبد العزيز الأخير المدينة بقوا ته البدوية فاحتل الوهابيون الحجاز نهائيًا .

ولدى سماع سعود بأخبار هذا التطور المرضى، أصدر أمره فدعا إلى حشد عام للقوات الوهابية من القبائل والمناطق الأخرى وسار باتجاه سبيله Sibila قرب زلفى ، حيث بقى هناك ليستعرض جيوشه فترة من الزمن . وفى نهاية أذار سنة ١٨٠٣ وصل إلى الحدود الحجازية ونصب خيامه على آبار عشيرة فى وادى العقيق ، حيث تمكن من السيطرة على الممرات المؤدية من الجبال إلى بطحاء مكة .

وصدف أن كان ذلك فى موسم الحج . وكان الحجاج السوريون والمصريون والمغاربة ، وجميع من رافق سلطان مسقط فى حجه الأول موجودون هناك . وكانوا جميعهم مسلحين ، وأقوياء بحيث يستطعون صد الغزاة . وقد أبدوا فعلاً ميلهم للخروج إلى الهجوم .ولكن آرءاهم اختلفت . وقر قرارهم آخر الأمر على وجوب مغادرة مكة إلى بلادهم حيث كانت الطرق الشمالية بمحاذاة الساحل مفتوحة أمامهم . أما غالب الذى كان خائفًا جدًا فانسحب من مكة إلى جدة مع جنده النظامى وكافة كنوزه وذخائره ومستودعاته .

وأما سعود فارتحل إلى حمامات سيل الكبير، حيث قام جيشه بالاغتسال والتطهر ولبسوا لباس الحج (الإحرام) استعدادًا لدخول مكة . وأعلن سعود العفو العام عن المكان ووزع عليهم الهبات السخية . وقامت القوة الغازية بشعيرة العمرة والحج الأصغر، وانتشروا فى المدينة يبحثون عن القباب التى بنيت على اضرحة أبطال وبطلات فجر الإسلام ، والأماكن الأخرى التى لها علاقة بالسير الاسلامية فهدموها . واستمرت هذه المهمة عدة أسابيع كما نفذت بحماسة منقطعة النظير، فقوض كل بناء تعارض إقامته المبادئ الوهابية وتحول إلى ركام وتراب .

وكان غالب فى هذا الحين يحاول كسب الوقت فى تحصين جدة ، إذ ربما دعت الضرورة إلى ذلك . هذا مع أنه ظل على اتصال بسعود ، فاقترح عليه ايجاد تسوية سلمية لخلافاتها . ولكن سعودًا عين عبد المعين بن مساعد ، شقيق غالب أميرًا. على مكة ، ومن ثم تقدم إلى جدة آملا فى أن يحتلها بعد هجوم مباغت . إلا انه وجد التحصينات قوية لدرجة لم يستطع مهاجمتها رأسًا . فقد بنى غالب سورًاحول المدينة وحفر خندقًا واسعًا خارج السور. فعاد سعود أدراجه إلى مكة ، وهناك أقام حاميات قوية من الوهابيين فى حصونها المختلفة ، ثم سار إلى نجد.وكان هذا فى أواسط صيف عام ١٨٠٣ .

وبعد ذلك أقام سعود فى الدرعية وأوقف الأعمال الحربية . غير أن الاستيلاء على مكة واحتلال جنوب الحجاز باستثناء جدة ، لم يكن نهاية مهمته . لقد بقى عليه الكثير ليقوم به ، ويضيفه إلى ما أنجزه عبد العزيز فى خلال حكمه الذى امتد ثلاثين عامًا وكان سعود فى السنوات الأولى منها اليد اليمنى لوالده ، فى الحملات التى وضعت الأسس التى أقام عليها إمبراطوريته .

كان عُمْر عبد العزيز الآن اثنين وثمانين عامًا فحالت شيخوخته دون قيامه بفريضة الحج قبل سنتين . وكان هذا يعود إلى سوء حالته الصحية فى أواخر حياته . ويبدو أنه فى مناسبة سابقة أصيب بنوبة جعلته يطلب إلى رعايا أن يصلوا من أجل شفائه ، ووُزِعَّت الصدقات السخية على الفقراء فى جميع المدن الرئيسية والقرى فى مملكته .

ولم يكن هنالك أمل فى حياة أطول له ، بالرغم من كل ما فعل . إلا أن الشكل الذى انتهت عليه حياته كان مفجعًا محزنًا. فقد كان يصلى كالمعتاد فى مكانه المعروف وسط الصف الأول بين المصلين فى جامع طريف من قلعة الدرعية ، فى الثانى من تشرين الأول أو بعد ذلك بيوم اويومين ، عندما هاجمه رجل غريب ، أثناء ركوعه للصلاة .

وكان هذا الرجل درويشًا قَبِلِه الأميرفى بلاطِه وهيأ له الفرصة الكافية لتلقى التعاليم الوهابية . كان يجلس فى الصف الثالث من صفوف المصلين وراء عبد العزيز مباشرة فألقى بنفسه عليه وطعنه بمدية اخترقت بطنه من الخلف وكان عبد الله بن محمد، شقيق الامام ، يقوم بأداء الركعة المطلوبه بجانب أخيه ، فهاجمه الدرويش أيضًا ولكن عبد الله كان أسرع منه مع أنه أصيب بجرح بليغ ، فأهوى على المعتدى بسيفه بينما أسرع آخرون فذبحوه . وحدث اضطراب فى الجامع ، ولكن سرعان ما ساد الهدوء عندما علم الناس بالحقيقة . فاسْتدُعى سعود من مزرعة نخيل فى المشيرفة كان يقضى فيها يومه فى الراحة والاستجمام ، وحمل عبد العزيز الذى كان لايزال حيًا (وإن كان فاقد الوعى) إلى قلعته حيث فارق الحياة بعد ذلك بقليل .

وقُضِى الأمر. وتوفى عبد العزيز ولم يتمكنوا من إنقاذ حياته ، أما القاتل فتخلصوا منه . ولدى وصول سعود إلى المكان ، سيطر على الوضع ، وعزى شعبه بفقد زعيمه العظيم وطلب

إلى السكان أن يركنوا إلى الهدوء ويقدموا ما يتوجب عليهم نحو القضية . ثم بايعه رعاياه على الولاء والإخلاص بمناسبة تعيينه خلفًا لوالده على العرش .

ويُعتقد أن القاتل كان يقصد سعودًا بالذات ، انتقامًا منه لما فعلـه فى كـربلاء فقـد كـان القاتل من سكانها. وقد شهد بأم عينيه ذبح الأبرياء (ومنهم زوجته وأطفالـه) فأقـسم عـلى الانتقام .

وهناك قول آخر: وهو أن القاتل كان كرديًا من العمارية قرب الموصل ، يـدعى عـثمان ، ولم يكن الباعث له على القتل معروفًا وربما كان مدفوعًا استؤجر ليقـوم بهـذا العمـل إذ كـان سنيًا ليس له أى مأرب دينى من عمله .

ويرسم ابن بشر فى عرضه لقرائه تاريخ عبد العزيز صورة شعرية جميلة ، لأحوال نجـد خلال حكمه ؛ لكن العمليات الحربية المستمرة التى وقعت فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر لا تكاد تثبت صحة ما ذكره عن الأمن التام المطلق فى جميع أنحاء المملكة حتـى أقـاصى الصحراء . حيث كان يقول : كانت الخيول والجمال ترعى ولارعاة معهـا ، بـل يحرسـها راع واحد كثيرا ما كان يتغيب عن مضرب خيمته فيجد لدى عودته زيادة غير متوقعة حققتها أمه العزيزة الجانب .

ولا شك فى أن عبد العزيز وسعودا كانا يرميان دائما إلى مثل هذا الحكم المثـالى ، ولكـن ذلك الحكم كان من نصيب جيل متأخر من أبناء هذا البيت ، قام بتحقيقه فعلاً فى الـصحراء العربية . . ولا شك فى تقوى عبد العزبز وحبه للإحسان . غير أنه عاش حياتـه فى عـالم كلـه شر ، وكان عزمه على التمسك بأهداب الفضيلة ونبذ الرذيلة ، دائما بحاجة إلى ساعده الأيمن لحماية الضعيف من القوى . وقد قام دائما بأداء هذا الواجب دون تردد ، وأبدى صبرًا وطول أناة فى معاملة المنحرفين الذين ثاروا على حكمه ، يستحقان منا كل تقدير وإعجاب . وكذلك كان لجوءه إلى السلاح واحتكامه إلى الشدة فى إخضاع المتمردين من سكان بـلاده لـسلطانه . فكانت الضرائب تُدفع بانتظام خشية الغرامات المادية التى كانت تعقبها إذا ما تأخر أداؤها . وكان طلب عبد العزيز من المدن والقرى أن تقدم للدولة المجندين ، يقابل بارتياح تام وينفـذ فى الحال وبصورة كاملة ، خشية معاقبة كل مقصر فى هذا السبيل .

ولا يورد ابن بشر اية شيء مفصل عن الموارد الاقتصادية للدولة فى زمن عبد العزيز إلا أنه يزودنا ببعض المعلومات الوافية عن الأساليب التى كانت تطبق فى تمويل حاجات الحكومة ففى سنة واحدة مثلاً كان مجموع ما دفعته عشيرة مطير من الضرائب يبلغ الثلاثين ألف ريال (ربما ثلاثة آلاف جنيه ذهبًا) وفى نفس السنة بلغ مادفعه بدو سورية للخزينة المركزية أربعين ألف ريال ، وما دفعته عشيرة هتيم الوضيعة النسب سبعة آلاف ريال .

وبالإضافة إلى هذه الضرائب النظامية التى كانت تفرض على المواشى ، ومزارع النخيل والمحاصيل الزراعية الأخرى ، والتى ليس لدينا معلومات عنها ، كانت هناك غنائم الحملات الحربية التى قامت بها الدولة . وكانت هناك بالطبع ، تشكل موردا هاما وهائلا للخزينة فقد كان للدولة الحق فى خمس الغنائم الحربية ويبدو أن الدولة كانت تنمو بشكل معقول . وكانت النفقات على المؤسسات الدينية والتعليم ، دون ذكر الصدقات السخية ، تأتى على نسبة مئوية كبيرة من موارد الدولة ، بالإضافة إلى الكرم ودور الضيافة التى كانت تشكل عبئًا ثقيلاً لابد منه .

أما شكل الإدارة التى كانت تتمشى مع مقتضيات الأحوال فى الصحراء قبل الحكم الوهابى بعدة أجيال فقد صمدت على حالها منذ أواسط القرن الثامن عشر . فاضطرت الدولة إلى اجراء تعديل فيها فى الفترة التى تميزت بالثراء بعد الحرب العالمية الثانية .

وكان شكل الحكم بسيطًا ومعروفًا لدى الشعب الذى قاسى الأمرين فى الماضى من الكوارث الطبيعية : كالمجاعات والجراد والأوبئة ، فلم يكن لدى المواطنين عوامل اقتصادية تدفعهم لأن يتذمروا من حكومتهم التى كانت تعلو وتسقط بعوامل شخصية محضة .

ولا تزال هنالك فى الوقت الحاضر مظاهر من الأساليب القديمة بالرغم من تطبيق الأساليب المعيشية العصرية ، ومثال ذلك مسؤلية الحكومة فى الحفاظ على الخدمات الدينية والصدقة والضيافة وتعهدها بتمويلها .

فالإدارة المركزية لا تزال - كما كانت فى السابق - منوطة بالحاكم الذى له ملء الحرية فى اختيار المساعدين لإدارة الدوائر الحكومية المختلفة والإشراف عليها . ولم يحدث أى تغيير فى أسلوب حكم الأقاليم التى تشترك فى إدارتها السلطة التنفيذية والقضائية (الحاكم والقاضى) كما كان الحال فى زمن عبد العزيز الأول ، بقطع النظر عن إدخال نظام الجمارك والمكوس والموظفين الماليين لجباية الضرائب وضبطها . وإن لمحة قصيرة على جهاز إدارة الأقاليم الذى

وضعه عبد العزيز لسد حاجات الامبراطورية الضرورية ، تلك الحاجات التى نشأت فى حكمه ، هى خير خاتمة رائعة لتاريخ أعماله ومنجزاته التى سردها هذا الفصل . أما الأقاليم والوظائف الرئيسية وكبار الموظفين فى المملكة التى آلت إلى خَلَفه سعود فكانت كما يلى :

الإقليم	الحاكم	القاضى
عسير تهامة	عبد الوهاب ابو نقطة	
الحجاز	عثمان بن عبد الرحمن المضايفى	
عمان	صقر بن (راشدا) - من راس الخيمة	
الإحساء	سليمان بن محمد بن ماجد	
القطيف	احمد بن غانم	
زبارة والبحرين	سليمان بن خليفة	
وادى الدواسر	ربيع بن زيد الدوسرى	سعيد بن حجى (فى الحوطة)
الخرج	ابراهيم بن سليمان بن عفيصان	محمد بن سويلم
محمل	سارى بن يحيى بن سويلم	
الوشم	عبد الله بن حمدين غيهب	عبد العزيز بن عبد الله الحسين
السدير	عبد الله بن جلاجل	حمد بن راشد العرينى
القصيم	حجيلان بن حمد (فى بريدة)	عبد العزيز بن سويلم
جبل شمر	محمد بن عبد المحسن	بن فايز بن على
الدرعية	حسين بن محمد بن عبد الوهاب	
خطيب الامام	عبد الرحمن بن خميس	
الجمعه والمنيح (يشملها السدير)	محمد عثمان بن شبانة	
البيشة	سالم بن شكبان	
رنية	مسلط بن قطنان	
ترابة	حمد بن يحيى	

ملحوظة : الفراغ يشير إلى أنه لم يكن هنالك من يشغل هذا المركز بصورة دائمة وكان يشغل المركز مدة سنة أو ما يقاربها ، قضاة يرسلهم الإمام من العاصمة .

الفصل الرابع

سعود الثانى ابن سعود

عندما ارتقى سعود عرش الدرعية ، كان عمر هذا العامل الذى سُميت العائلة باسمه قبل فجر الوهابية المعاصر. خمسًا وخمسين سنة . وكان قد اشترك اشتراكًا فعليًا فى تصريف أمور الدولة تحت إمرة والده ، منذ خمسة عشر عامًا . أى منذ إعلانه وارثًا للعرش سنة ١٧٨٨ . وكانت أعماله العسكرية قد امتدت ستة وثلاثين عامًا ، أى منذ حملته الضارية والناجحة على قرية العودة فى السدير تحت إمرة ابن عمه الأدنى ، هذلول بن فيصل بن محمد سنة ١٧٦٧ . كما عمل معظم الوقت كقائد أعلى للجيوش التى أعدها والده للحملات العسكرية العديدة طوال حكمه الطويل . كان خبيرًا جدًا فى الأمور الحربية ، وفى المسئوليات الحكومية التى آلت إليه الآن ليكمل ما بدأه والده من قبل . فكتب له فى خلال حكمه ، أن يرى القضية الوهابية تصل إلى أوج إنجازاتها العظيمة .

وفى أوائل سنة ١٨٠٤ ، بل فى الشهور الأولى منها ، نجده مرة أخرى فى ميدان القتال ، متجهًا شمالا نحو مدينة تنومه فى القصيم ، حيث طلب إلى الجند من عشيرته ومواطنيه أن يقابلوه هناك استعدادًا لحملة الربيع . وفى نهاية شهر آذار كان لا يزال هناك . يحتفل بموسم الحج فى مكة ، لكنه عاد بعدها بصورة مفاجئة إلى الدرعية ، الأمر الذى أدهش الجميع ، وطلب إلى جميع الفرق الشمالية ومنها بنو ظافر أن تعود لبلادها . ثم سار مع بقية الجيش إلى الجنوب .

وبعد أن منح مقاتلى بنى ظافر الوقت الكافى للعودة إلى الحدود العراقية ونشر الأخبار عن عودته إلى الدرعية ، عاد فغير وجهته ، وسار بكل ما لديه من سرعة إلى البصرة . ولدى

اقترابه منها اصطدم بجماعة من خيالة المنتفك يقودهم منصور بن ثـامر ، فهـاجمهم فى الحـال وهزم العدو وأسر منصورًا نفسه ، ثم أرسله إلى الدرعية حيث بقى طيلة أربع سنوات .

وبعد هذه المعركة عسكر سعود قرب الزبير من حيـث أرسـل جيوشـه لتنهـب وتـدمر ضواحى البصرة ، فلجأ سكانها إلى منازلهم وأغلقوا أبوابهم عليهم .

ولقد ركز سعود همه فى حصار الزبير ، وفى أثناء ذلك أخذ فى تدمير القباب المبنيـة عـلى الأضرحة ، ومزارات الحسن وطلحة التى ظلت خربة حتى أعيد بناؤها بعد سقوط الدرعية . ثم هاجم حصن الدريهمية ودمره ، وقتل جميع أفراد حاميته .

وعند غياب الشمس أرعب السكان المحاصرين بأن أمر جميع أفراد جيشه بإطلاق النار فى آنٍ واحد . غير أن أهل الزبير لم يظهروا أى ضعف من جانبهم .

وبعد حصارٍ غير مجدٍ ، استمر اثنى عشر يومًا ، سحب سعود قواته وعاد إلى بلاده بعـد أن جمع المحاصيل الزراعية التى كانت ناضجة آنذاك .

تُوفى سلطان مسقط ، السلطان أحمد بن أحمد بن سعيد ، على أثر اشـتباك بحـرى جـرى بينه وبين قرصان القواسم فى رأس الخيمة Khaima وخلفه أخوه بدر .

وفى هـذه الأثنـاء رأى سـعود ضرورة إحـداث بعـض التغيـير فى التنظـيات الإداريـة الإقليمية التى كانت فى زمن والده . فنقل إبـراهيم بـن عفيـصان مـن الخـرج إلى الإحـساء ، ليخلف سليمان بن محمد بن ماجد المعزول . وكان هذا أعظم حدث وقـع فى هـذه الـسنة ، إذ كان له أثره فى مستقبل الجزيرة العربية بعد استلام محمد على باشا زمام الحكم فى مصر . وكان محمد على فى ذلك الوقت قائدًا للقوات التركية فى البلاد ، حيث أنه أغار عـلى الحـاكم المحـلى محمد باشا وقتله ثم تولى الحكم . وكان ذلك بسبب حادثة تافهة ، مثل منع الطعام عن الجيش أو تأخيره . أما الباب العالى فقد أيد ما فعله محمد على باشا وثبته واليًا على مصر.

وفى خريف عام ١٨٠٥ ، قرر سعود أن يقوم بحملة تأديبية ضد بنى ظافر ، أثـر بلوغـه أخبار تقاعسهم فى الأمور الدينية واشتراكهم فى مهاجمة القبائـل الوهابيـة النجديـة . ولـدى وصوله لينة Lina المتاخمة لصحراء الدهناء على الحدود العراقية حيث كانت منازل بنى ظافر،

طلب إليهم الانضمام إلى قواته كما كانت العادة فلبى الدعوة فريق صغير منهم تحت إمرة أحد زعماء القبيلة ، مسلط بن شيوش بن عفنان .

ولما أشار سعود إلى مسألة قلة عدد الفرقة ووبخ زعيمها ، أجابه هذا قائلاً بأن بقية القبائل قد خرجت على سلطانه وقررت أن تهاجم قبائل مطير ، مخلِّين بعهدهم الذى قطعوه بعد أن أصلح بينهم سعود منذ عهد قريب . فاتجه سعود الآن إلى الحدود العراقية ولكنه دار ليلقى بجميع قواته فى هجوم على المعسكر الرئيسى لعشيرة ظافر . فقتل عددًا كبيرًا منهم وفر الباقون . ثم نهب كل ما يملكون .

وكانت الغنائم تتألف من عدد كبير من الجمال والغنم والأمتعة والمؤن . وكان بينها عدد كبير من الجمال والأغنام تخص قرى السدير المختلفة ، فأعيدت إلى أصحابها لدى إثبات ملكيتهم لها .

ووجه سعود الآن أنظاره للحجاز ، حيث أقيم حصن فى وادى فاطمة ووضعت فيه حامية للضغط على غالب . وفى نفس الوقت أرسلت التعليمات إلى عبد الوهاب أبى نقطة أمير عسير تهامة ، بأن يهاجم جدَّه بكل ما لديه من قوات . فضرب خيامه عند آبار السعدية قرب الساحل ، على بعد يوم ونصف اليوم من مكة . وكان عدد هذه القوات ستة آلاف جندى ، فوصل غالب فى الحال من مكة مع جيش كبير يبلغ عدده العشرة آلاف مقاتل ليهاجم أبا نقطة قبل وصول النجدات إليه .

وفى الطريق التقى بدورية من عسير . تتكون من أربعين رجلاً ، وأبادها ولكن القتال مع القوات الرئيسية لأبى نقطة كان شيئًا مختلفًا . فبعد قتال مرير فرت قوات غالب تاركة وراءها جميع عتادها وأموالها ، بما فى ذلك المدافع والذخيرة والأسلحة والمؤن . وكان عدد الأسلحة الصغيرة كبيرًا جدًا حتى قيل أنها بلغت ٢٥٠٠ قطعة .. أما عدد القتلى من قوات الشريف فبلغ ٦٠٠ قتيل معظمهم من الأتراك . وهرب غالب إلى مكة . . أما أبو نقطة فعاد إلى بلاده فرحًا مسرورًا ، وإن كان لم ير الشيء الكثير فى جده التى كانت هدفه الأصلى .

ولا يتعرض ابن بشر لذكر غالب ووجوده فى مكة فقد زعم أن آخر مرة شوهد فيها غالب فى جدة كانت عندما عاد سعود إلى نجد بعد أن وضع حاميات فى حصون مكة .

ويظهر أن غالبا عاد إلى مكة فيما بعد ليتولى الحكم فيها ، غير أننا لا نعلم هل استمرت الحاميات الوهابية فى احتلال الحصون أم لا .

كانت الجزيرة العربية آنذاك ، تحت وطأة الجفاف وانحباس الأمطار والمجاعة التى اجتاحت البلاد بسبب مقتل الإمام عبد العزيز حسب اعتقادهم ، واستمر انحباس الأمطار التام - الذى بدأ فى شتاء سنة ١٨٠٤ - ١٨٠٥ - من ست إلى تسع سنوات . فقاسى السكان خلالها الأمرين . وكان أشدُّها وطأةً فى ذلك الجزء من الحجاز الذى كان يحكمه الشريف والأتراك ، لانقطاع كافة المواصلات مع الداخل ، وبسبب الحصار الذى ضربه الوهابيون .

وقد ارتفعت أسعار حاجيات الحياة الضرورية ارتفاعًا جنونيًا لا يُصدَّق ، وبيع لحم الحمير والحيوانات الميتة بأسعار باهظة ، وأكل الناس لحم الكلاب ، وكان سعر الرطل الإنكليزى من الزبدة ٤ ريالات (ما يقارب الاثنى عشر شلنا) ويقارن ابن بشر الأحوال الطيبة نسبيًّا التى كانت سائدة فى الدرعية والبلاد المحيطة بها ، بتلك التى كانت تسود البصرة والإحساء ويفتخر .

ويعنى بالطبع أنه كان بالإمكان الحصول على المؤن عن طريق البحر .

وفى الخريف من ذلك العام قرر سعود أن يشدد حملته على غالب . فصدرت الأوامر إلى عبد الوهاب أبى نقطة ، وسالم بن شكبان ، وعثمان المضيفى ، بأن يعدوا حملة هائلة جبارة على مكة وضواحيها ، وأن يظلوا هناك حتى مجىء قافلة الحج من دمشق ، فيمنعوها من الدخول إذا كانت مسلحة .

ويظهر أن الشريف غالب وجد أن ليس فى مقدوره ،مقاومة مثل هذا الجيش الكبير مقاومة فعالة . فطلب عقد الصلح واعدًا بأن يتوجه إلى الدرعية بعد الحج ليقدم خضوعه وولاءه الشخصى . ووافق قادة الوهابيين على طلبه هذا ، فدخلت قوافل الحج مكة دون ممانعة ، وأدى عثمان وعبد الوهاب فريضة الحج أيضًا .

وبعد مقابلة عبد الوهاب لغالب انسحب عبد الوهاب بجيشه وعاد إلى بلاده بعد أن حمله غالب المذكور بهدايا سخية ثمينة . أما سالم بن شكبان فقد مرض أثناء إقامته فى مكة وبدأ فى سحب جيشه والعودة إلى البلاد . ولكنه توفى بعد ذلك بقليل لدى وصوله بيشة ،

وخلفه ابنه فهاد . وكان غالب فى هذه الأثناء يراسل سعودًا فعقد معه الصلح بشرط أن يخضع للحكم الوهابى ويعلن ولاءه للقضية الوهابية . فرفع الحصار . ومرة أخرى أصبحت مكة والحجاز على اتصال بمواردها الطبيعية من المؤن وهبطت الأسعار إلى مستوى معقول وسار كل شىء سيرًا حسنًا.

ويبدو أن غالب ، لم يكن جادًا فيما تعهد به ، فوصلت أخبار تطورات يشم منها الإخلال بشروط الصلح الذى عُقِد . فقد أكره بعض الحجاج السوريين والمراكشيين على البقاء فى الحجاز للخدمة .

وكان هذا فى الظاهر من عبد الله باشا الفطيم ، أمير الحج . تنفيذًا لأوامر صدرت إليه من الباب العالى . وقام غالب كذلك ببناء التحصينات فى أسوار جدة ومشروع بحفر خندق حولها ، الأمر الذى كان يدينه بخرق شروط الاتفاقية . هذا ، كما أمر بعدم دخول الأجانب إليها ومن ضمنهم أهل نجد .

وكان غالب يشعر ويعلم علم اليقين بأن سعودًا سيقضى أموره ، أما سعود فقد كان منهكًا فى أمور أخرى بالتخوم العراقية حيث كانت قبيلة ظافر تقوم هى وأنصارها بأعمال السلب والنهب والاعتداء على العناصر الوهابية فى تلك المنطقة باستمرار واختير منصور بن تامر الذى كان كما عرفنا أسيرًا فى الدرعية قائدًا لهذه الحملة التأديبية العامة على هذه العناصر المتمردة من عشيرة الظافر.

فاشترك مع غصاب زعيم عتيبة ، فى قيادة الحملة المزدوجة وسار الاثنان إلى ديار بنى ظافر . فوجدا فرقة غازية قوية من القبيلة نازلة على مياه الفليج Fulaiyij قرب حفار البطين. فأبيدت عن بكرة أبيها تقريبا ، ولم ينج منها غير عشرة رجال من مجموع مائة وعشرة .

وحين وقوع هذه الأحداث ، كانت تجرى هناك تطورات هامة فى منطقة المدينة ، وكان من نتائجها ، أن أعلن المدنيون خضوعهم للدولة الوهابية ، ووافقوا على هدم جميع الأضرحة والمقامات التى أنشئت فى المدينة وضواحيها .

ويذكر ابن بشر أن هذا حدث سنة ١١٣٠ هجرية ، أى قبل عقد الصلح مع غالب فى مكة ، أثناء الحج الذى حدث أيضًا فى نفس السنة . وبما أن السنة المذكورة بدأت فى الأول من

نيسان سنة ١٨٠٥ وانتهت فى العشرين من آذار سنة ١٨٠٦ (لأن أيام الحج كانت من ٢٨ شباط - الثالث من آذار) فيعتقد بأن استسلام المدينة جرى فى أوائل صيف سنة ١٨٠٥ أما الصلح مع غالب فحدث فى شباط من تلك السنة .

ومهما يكن من أمر ، فإن خضوع المدينة المنورة يعود إلى الزيارة التى قام بها إلى سعود شابّان من قبيلة حرب وهما بادى وبداى Badai ولدا بدوى بن مضيان .

وكان هذان الشابان قد مالا إلى المذهب الوهابى ، فجاءا ليقدما خضوعهما ويطلبا إرسال فقيه لإرشادهما . فأرسل سعود معهما الشيخ عثمان بن عبد الحسن أبو حسين ليلقنهما وأصدقاءهما أصول الدين الإسلامى ومبادئ التوحيد . وخوله صلاحية تعليمهم الأمور العملية الأخرى . وسرعان ما أضمرا العداء للمدينة فاستقر فى ضاحية العوالى ، وشرعا فى بناء حصن فيها وفقًا لأوامر سعود . وانضم إليهم سكان قباء نكايةً بأهل المدينة . ثم قطعوا اتصالها بالعالم الخارجى سنوات عدة حسب رواية ابن بشر .

و أخذ سعود يساعد هذا المركز الثقافى الهام ، فأرسل إليهم الشيخ قرناس بن عبد الرحمن ، قاضى الرس ليزورهم كل سنة . أما سكان المدينة فقد ملوا الحصار فاتصلوا بسعود وكانت النتيجة كما ذكر دخولهم فى الحظيرة الوهابية .

كان سعود فى هذه الأثناء منهمكًا فى حروبه على الحدود العراقية . فقد سار بنفسه على رأس حملة متوسطة الحجم وهاجم مشهد (النجف) ، وكانت أسوارها محاطة بخندق ، جعل الهجوم عليها متعذرًا ، فاكتفى الوهابيون بتبادل إطلاق النار على المدافعين فى حصونهم وقلاعهم . وقتل عدد من المهاجمين ، فانسحب سعود إلى الهندية والحلة ، حيث جرت هناك بعض المناوشات البسيطة .

وظهر أن إطالة العمليات الحربية فى تلك المنطقة أمر لايجدى نفعًا فانتقل سعود إلى سماوه فقطع اشجار النخيل وأحدث شيئًا من الدمار . وفى طريقه إلى بلاده ظهر فى الزبير ولكنه لم يستطع أن يزعزع المدافعين أيضا .

وجاءت من أقصى أطراف الجزيرة العربية أخبار حدوث تطورات مهمة فى جهتين فى نفس السنة (من أوائل سنة ١٨٠٦ أو أواخر ١٨٠٥) وكانت هذه التطررات تهم الوهابيين

ولو من بعيد . ففى مسقط ثار ابنا سلطان بن أحمد بن سعيد مِن قتلة قرصان القواسم على عمهما بدر الذى خلف أخاه ، وقتلاه واغتصب سعيد بن سلطان - أحد هذين الولدين - العرش . أما فى تهامة من أعمال اليمن ، فقد قرر صالح ، زعيم ميناء الحديدة ومدينة بيت الفقيه ، أن يدخل حظيرة الوهابية ، وهكذا وجدت الوهابية لها موطن قدم فى اليمن دونما أى سعى منها.

ويمكننا القول بأن الدعوة الوهابية فى هذا الزمن وما فيها من فوائد ومساوئ كانت عرضة لاختبارات واسعة فى كافة أنحاء العالم العربى. ففى الجزء الشمالى من اليمن كانت واحة نجران دائما فى متناول يد مطامع سعود ، فأصدر فى هذه السنة أوامره إلى عبد الوهاب أبى نقطة وأمراء بيشة ووادى الدواسران ينضموا إلى عبيده وسنجان ، وهى من عشائر قحطان الجنوبية ، وأمر الودعة Wadaa فى شمال اليمن أن يقوموا بهجوم واسع على نجران ومقاطعاتها .

واحتشدت قوة قوامها ثلاثون ألف رجل من أجل هذه الغاية ، ولكن ما أنجزته ليس شيئا بالنسبة إلى مثل هذا العدد وفى الواقع أنها لم تصل قط إلى ضواحى نجران ، لأنها منعت من التقدم عند بدر ، مركز قيادة إخوان المكرمة (المكرمى) (الإسماعيلية والشيعة) حيث منى الوهابيون بخسائر تفوق خسائر المدافعين . وهناك أمر أبو نقطة رجاله أن يبنوا حصنا مقابل منازل المكرمى المحصنة ، وأن يضعوا فيه الحامية اللازمة ، ثم ارتحل مع جنده .

وكان من النتائج السريعة لانضمام الحديدة إلى الدولة الوهابية ، أن أرسل إمام صنعاء حملة لاسترجاعها . وبعد حصار قصير استولى عليها . فعين ابن صالح العارض ، أميرًا عليها، غير أن صالحا نفسه (الذى كان فى بيت الفقية) أعد حملة على زابد ، واستولى عليها عنوة ثم دمرها . وقد أرسل إلى الدرعية حصتها من الغنائم ووزع الباقى بين قواته قبل عودته إلى بلده .

لقد تركت عقيدة الوهابيين ، فيما يبدو ، أثرها فى تهامة اليمنية لأن سكانها (الشوافع) كانوا يكرهون الزيديين سكان المرتفعات . ودليلنا على ذلك أن القوة التى أعدها صالح للهجوم على زابد كان قوامها ثلاثة آلاف رجل ، بالرغم من وجود جيش الإمام على شواطئ البحر الأحمر.

أما بطل قصة المدينة فلم يعش طويلاً بعد النصر الذى أصابه . لأن بداى بن بدوى أصيب بالجدورى فى نفس السنة ، فخلفه فى زعامة « حرب » أخوه بادى ولم يمض بعض الوقت حتى قام سعود نفسه بزيارة المقاطعة التى كان لبادى ولأخيه اليد الطولى فى ضمها إلى الدولة الوهابية .

وبعد أن قرر سعود القيام بأداء فريضة الحج إلى مكة للمرة الثالثة ، تحقق من إمكانية قيام بعض الاضطرابات بسبب مسلك غالب المبهم ، فيما إذا قرر الباب العالى إرسال جيش من الأتراك والجنود النظاميين لحماية قافلة الحج السورية ولذا قام بإعلام أبى نقطة والقادة الآخرين الموثوق بهم عن موقفه ورأيه بهذا الشأن قبل ذلك بزمن ، أى فى نهاية صوم رمضان أو فى الأسبوع الأول من كانون الأول سنة ١٨٠٦ . ولكنه مع ذلك لم يغادر الدرعية إلا فى نهاية كانون الثانى ، حيث كان الحج سيقع فى الثامن عشر من شباط سنة ١٨٠٧ .

وكانت خطة سعود التى وضعها ، تقضى بحشد جيش كبير فى المدينة يتكون من فرق عسير وبيشة ، ورنية تحت إمرة أمرائها ويقابلهم عثمان المضايفى مع سكان الجبال من منطقة الطائف ، بالإضافة إلى عناصر أخرى من الحجاز . يضاف إلى هذه قوات القصيم النجدية ، تحت إمرة حجيلات بن حمد ، وقوات جبل شمر، بقيادة أميرها بن عبد المحسن بن على ، وجنود الوشم . وقد انضم إليها فى الطريق جيش كبير من قبيلة حرب بقيادة مسعود بن مضيان وجابر ابن جبارة .

وقد عين سعود المدينة المنورة مكانا للاجتماع الذى سيدخلون منه مكة لأداء فريضة الحج . ولكنه قبل أن يشرع فى السفر أرسل رسولاً إلى قادة قواته فى المدينة ليطلب منهم منع قافلة الحج السورية من دخول مكة ، أو السفر إليها .

وعليه ، فعند وصول القافلة السورية إلى مشارف المدينة المقدسة ، أعلم أمير الحج عبد الله العظم ، بلطف ، بعدم السماح له بالتقدم ، وطلب إليه أن يعود مع القافلة إلى بلاده . وقد فعل ذلك بالرغم من الاحتجاج الشديد على هذا الأمر .

أما الحجاج التعساء الذين أنهكهم السفر طوال الخمسة الأسابيع الماضية ، فاضطروا لأن يعودوا إلى دمشق دون أن يروا المدينة ولا مكة . وقد أظهر سعود بعمله هذا بدون شك ، أن شئون الديار المقدسة من اختصاصه هو وحده ، لا من اختصاص السلطان .

وبعد أن عاد الحجاج السوريون إلى بلادهم ، سار الجيش الكبير لينضم إلى سعود الذى كان فى طريقه إلى مكة رأسا من الدرعية فأدوا فريضة الحج مظهرين الخضوع لله ، محتفظين مع ذلك بمظهر العزة والعظمة أمام الناس ، وهى المزايا التى كان يتحلى بها الوهابيون القدامى . فوزعت الصدقات بسخاء من قصر البياضية الذى اتخذه سعود مركزًا فى المشارف الشرقية من مكة . وهناك زاره غالب ، مجددًا له الولاء الذى كان على وشك أن يخل به بعد مرور سنتين من إعلانه . وأرسلت جميع الفرق التركية التى كانت فى مكة وضواحيها إلى جدة .

وكان آخر عمل قام به سعود قبل أن يغادر مدينة الله إلى مدينة النبى أن كسا الكعبة الكسوة التقليدية الحريرية . وكان قد أحضرها معه من أجل هذه الغاية وهكذا انتهى حجه الرابع .

وفى نهاية آذار من السنة ١٨٠٧ ، غادر مكة إلى المدينة حيث وجه جل اهتمامه إلى تحصينات المدينة والواحة فى وجه أى اعتداء عليها من الأتراك فرممت الحصون الأمامية ووضعت فيها الحاميات ، تحت قيادة حمد بن سالم من أهل عيينة ، وطرد القاضى التركى القيم على الحرم . كما طرد أشخاص آخرون كان الوهابيون يشكُّون فى إخلاصهم وعُيِّن مكانهم موظفون وهابيون من جملتهم رجل من الدرعية ، ليشرفوا على الدوائر المالية .

وبعد أن أمضى سعود فترة من الزمن فى منطقة المدينة المنورة ، صرف جنده وعاد إلى عاصمة ملكه ليقضى فصل الصيف هناك وفى غضون ذلك قامت الثورة فى قصر السلطان فى اسطنبول ، وأدت إلى خلع السلطان سليم بن أحمد ، وتعيين مصطفى بن عبد الحميد مكانه .

وفى السنة التالية قامت فى اسطنبول ثورة معاكسة ، تهدف إلى إعادة السلطان سليم ، الذى كان لايزال فى السجن ، فقُتِل هذا بتحريض مستشارى السلطان مصطفى . وقد أحدث هذا العمل رد فعل يوسف باشا قائد الحركة فنجح فى خلع مصطفى ونصب على العرش

محمدًا بن عبد الحميد ، أخاه القاصر ، الذى استمر فى الحكم حتى سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٦ ، حسب قول ابن بشر.

ويدل هذا على أن ابن بشر بدأ فى كتابة تاريخه فى بداية حكم فيصل أو قبل ذلك ، ترك هذه الملحوظة دون أن يصححها أو يغيرها عند موت السلطان محمود بعد ذلك ببضع سنين . وكان السلطان سليم قبل عزله قد طرد عبد الله العظم من منصب الوالى فى سورية ، بسبب تراجعه من مكة الذى يدل على الجبن ، وعين مكانه رجلا آخر يدعى يوسف الغنج Chanj .

وفى العراق أيضا انتهى حكم عدو قديم لنجد ، بمقتل على كيخيا الذى كان قد خلف سليمان باشا فى ولاية بغداد . وقام رجل آخر يدعى سليمان فأعدم القتلة واستولى مؤقتا على الحكم ريثما يصل فرمان السلطان بالموافقة .

واستمرت المجاعة تجلد بسياطها نجدًا والجزيرة العربية طوال هذه السنة . أما فى نهايتها فقد سقطت الأمطار الغزيرة فمكنت الناس من زراعة أراضيهم فى فصل الربيع ، مما ساعد فى رفع معنوياتهم بعد الكارثة التى ألمت بهم . ومع ذلك ، قام سعود بأداء فريضة الحج للمرة الخامسة مع عدد غفير من الناس ووجد غالبًا راضيًا تمامًا عن الوضع ومسالمًا ووفيًا . ومكث سعود فى مكة زهاء ثلاثة أسابيع كان فى خلالها مثلا طيبا للناس فى محافظته على الشعائر الدينية ، كما قام بتوزيع الهبات السخية على المعوزين ، بالإضافة إلى كسوة الكعبة بكسوة حريرية ثمينة . ثم سار لزيارة المدينة المنورة ، للمرة الثانية . وهنا أيضا مكث بضعة أيام يبحث فى أسوراها الإدارية مهتما بالحصون والحاميات ، فعين فى قيادتها عبد الله بن مزروع وهو أحد أبناء العائلات المشهورة فى منفوحة .

ويذكر ابن بشر فى كتابه بأنه لم يؤد فريضة الحج أى حاج أجنبى، لا من سوريا ولا من أى مكان آخر .

وفى تموز كان سعود مرة أخرى على أهبة الاستعداد لعملياته الحربية ، فعبأ جيوشه لشن هجوم عام على الحدود العراقية . وكان هدفه الأول مدينة كربلاء غير أنه لم يجدها سهلة المنال كما كانت فى المرة الأولى . لقد كانت محمية بسور حصين وعريض لدرجة مخيفة . فهاجمها فى الحال ، وأرسل فرقًا لتتسلق الأسوار . غير أن مهمة الاستيلاء على المدينة كانت مهمة صعبة

التحقيق ، فسحب جيشه وسار إلى عثاثه . فهرب سكانها إلى المرتفعات القريبة تاركين قريتهم تحت رحمته . غير أنه أغراهم بالعودة واعدًا إياهم بالمحافظة على حياتهم ضد أي اعتداء يقع عليهم وعلى ممتلكاتهم ، ولم يطلب منهم غير مائة من خيولهم . ثم غزا المنتفك المجاورة لقناة المجرة Majarra ، وسوق الشيوخ ، قبل أن يعود إلى البصرة والزبير فيهاجمهما دون أن يصيب ما يرجوه من نجاح .

وبعد أن عاد سعود إلى عاصمته من هذه الحملة الخائبة ، بدأ يستعد لأداء فريضة الحج للمرة السادسة . ولقد كانت هذه المرة شبيهة بسابقاتها ، لولا أنه وجه انتباهه الآن إلى الأمور الدينية ذات الأهمية الخاصة . وكان بسطاء الناس في المدينة المقدسة يجدون صعوبة في استيعابها وهضمها . فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر كانوا يتجولون يوميًا ليراقبوا الناس فيمنعوهم من التدخين علنا ويجبروهم على الذهاب إلى الجوامع لأداء فريضة الصلاة في مواعيدها .

وقد حضر غالب مرة أخرى بين يدي سيده وتبادلا الهدايا ، ووطدا التفاهم والثقة المتبادلة بينهما . وزينت الكعبة بأفخم مما زينت به من قبل ، وفي هذه السنة أيضا لم يكن هنالك حجاج من سوريا ومصر والعراق أو مراكش ، وإن أدى فريضة الحج عدد قليل من المراكشيين الذين سمح لهم سعود وضمن سلامتهم .

وبعد أن قضى الملك الوهابي ، ثلاثة أسابيع في المدينة ، عاد إلى بلاده دون أن يزور قبر النبي في المدينة النورة ، إلا أنه أرسل اليها حاميات جديدة لتحل محل حامياتها التي أمضت هناك قرابة السنة .

ولدى وصوله الدرعية أرسل حملة صغيرة إلى منطقة عمان ومعها مشايخ وفقهاء يلقنون أهلها مبادئ العقيدة الوهابية ، ولدراسة الوضع هناك .

وكان هنالك حركة أثارها الحكام المحليون من مثل قيس بن أحمد الإمام من سهار Suhar وابن أخيه سعيد بن سلطان مسقط . وكانت هذه الحركة تهدد المناطق الخاضعة للوهابيين ، إذ أن قوة قوامها عشرة آلاف جندي كانت تتقدم نحو المنطقة عندما وصلت حملة سعود .

وكان سلطان بن صقر من رأس الخيمة . أمير المنطقة ، فحشد على التَوْ قوة تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل لمقابلة الغزو ، وتقابل الجيشان فى خور المكان ، بين عاصمة السلطان ومقاطعة البطينة فى معركة حاسمة ، قتل فيها قيس نفسه مع عدد كثير من رجاله ، وغرق آخرون فى البحر عند هروبهم . وكان مجموع القتلى ، يقدر بأربعة آلاف قتيل فأرسل ابن قيس رسائل إلى سلطان بن صقر وإلى سعود نفسه طالبا الصلح معلنًا عن استعداده للخضوع واستعداد شعبه للدخول إلى حظيرة الوهابية . ووافق سعود على ذلك فخضع سعيد بن سلطان . وأصبحت كل منطقة عمان تحت الحكم السعودى .

ووزع سلطان بن صقر غنائم المعركة التى كسبوها فى نفس المكان ، وتقاضى سعود خمسها ، كما كانت العادة ، ليرسلها إلى الدرعية استمرت المجاعة واستمر الجفاف يلفح البلاد ويصيبها بالأوبئة . مع ارتفاع الأسعار ارتفاعًا فاحشًا ، وزاد الطين بلة انتشار الكوليرا التى زادت من رعب الناس وأهلكت عددًا كبيرًا منهم . وحدث فى تشرين الثانى من سنة ١٨٠٨ كسوف فى الشمس ، وتوفى كذلك قاضى الإحساء المشهور ، محمد بن سلطان العوسجى Ausaji فى شهر كانون الثانى التالى ، واستمر وباء الكوليرا حتى أواسط صيف عام ١٨٩٩ ، وكان شديدًا بشكل خاص فى الدرعية وما جاورها من بلدان ، حيث كان الناس يموتون بمعدل ثلاثين أو أربعين شخصا فى اليوم الواحد . وكان من جملة الأشخاص البارزين الذين لاقوا حتفهم ، حسين بن محمد بن عبد الوهاب ، قاضى الدرعية الذى خلف ولدًا واحدًا اسمه على ، ليحمل على عاتقه عبء وراثة العائلة فى المدينة .

وإبان حدة الوباء واشتداد أواره ، أصدر سعود منشورًا يدعو فيه السكان إلى التوبة عن خطاياهم طالبين الرحمة والغفران من الله ، وذكر فى المنشور عدة أمور تدعو إلى الإصلاح ، وتضرع إلى الله العلى القدير أن يرفع غضبه عن شعبه الأمين ويبعد عنه هذه المحنة ، فقد كان سعود دائما يفكر فى الناحية الدينية عند حدوث أمثال هذه المصائب .

ويقال بأنه حالما قرئ هذا المنشور على الناس المجتمعين فى جامع الدرعية ، بدأ الوباء يتوقف . وكان الضحية الثانية للكوليرا سعد بن عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن سعود ، أبن أخى سعود . وتوفى كذلك أربعة من العائلة المالكة السابقة فى العيينة .

وفى نهاية سنة ١٨٠٩ ، خرج سليمان باشا والى بغداد الجديد ، بقوة كبيرة ليؤدب قبائل ظافر وعنزة النازلة عند الحدود العراقية للصحراء . وكانت هذه القبائل تحت زعامة شيوش الذى ورد اسمه فى هذه القصة ، ودريع بن شعلان فاستمروا فى القتل عدة أيام بالرغم من تفوق العدو . وعندما واجهوا الانحدار الأكيد قرروا يائسين أن ينقذوا أنفسهم فشنوا هجومًا قويًا على الأعداء حتى انهزمت القوات العراقية وتفرقت . ومنى الطرفان بإصابات فادحة ، غير أن رجال القبائل ظلوا أسياد ميدان المعركة ثم جمعوا الأسلاب والغنائم وارتحلوا إلى الأراضى النجدية .

نزلت أمطار غزيرة غير معتادة فى منطقة سلسلة جبال الطويق ، واستمر هطول الأمطار عدة أيام شديدة فى معظم أودية المنطقة . وهبطت الأسعار مع نضج محصول التمر وبدأ الرخاء يعود شيئًا فشيئًا إلى البلاد .

وكان سعود فى هذا الوقت منهمكا فى القلاقل التى حدثت فى عسير تهامة فقد حدث خلاف بين شريف أبى عريش ، حمود أبى مسمار نذير شريف مكة أحمد أبو نعمى وبين عبد الوهاب أبى نقطة ، الأمير الوهابى فى تهامة بأكملها .

كان حمود يجمع الرسوم الجمركية فى موانئ منطقته ومن ضمنها جيزان ، طول المدة منذ أعلن انضمامه إلى المذهب الوهابى بينما أرسل ولده فى زيارة طويلة لسعود فى الدرعية . وحدث هنا مناوشات كلامية جعلت تسوية الخلاف متعذرة .

أما سعود فقد أراد اختبار مدى ولاء حمود وإخلاصه فأرسل إليه يأمره بمهاجمة صنعاء غير أنه تجاهل هذه الأوامر . فاتضح لسعود بأن الشريف حمود فى حالة ثورة ولذا حشد جيشًا عدته خمسون ألف رجل جمعهم من كل البلاد ليسحق الثورة . وزود غصاب زعيم عتيبة ، بقوة كبيرة من الفرسان ومنحه السلطة على المنطقة المضطربة ، إلا أنه حذره التدخل فى إدارة أبى نقطة الذى كان المسئول الأول عن الإقليم وجيوش الحملة ، التى كانت تتألف من عناصر جمعت من كل مقاطعة فى الحجاز ، من الطائف حتى خميس مشيط ، ومن بدو قحطان وعبيدة وعشائر أخرى .

وبالمقابلة حشد أبو مسمار قوة كبيرة من هضبة اليمن ، ومن حاشد وباقى Baqi وعناصر حمدانية أخرى، ومن نجران ويام Yamوالدهم Dahm . وبعد أن وزع الحاميات على جميع الحصون فى المنطقة ، زحف بجماع جيشه على القوات الوهابية المتمركزة فى لبيشة (يقول ابن بشر عنه وادى بيشه) وهاجمها قبل أن تستعد للمعركة . وهاجم فرقة عسير التى كان يقودها أبو نقطة ، بشكل خاص . فنشبت معركة ضارية قُتل فيها أبو نقطة وعدد كبير من رجاله إلا أنها كانت نهاية فوز حمود ، فقد هاجمته الفرق الوهابية الأخرى ، بعد أن استعدت لخوض المعركة بكل شدة وضراوة ، فانكسرت قواته وهزمت شر هزيمة فطاردها الوهابيون ونهبوها .

وظل حمود وفرسانه يجرون هاربين حتى وصلوا حصون أبى عريش بينما أحاط الوهابيون المنتصرون بحصن سبية Sabya يدمرون ويسلبون وقد استسلم حصن سبيه العظيم بدون قتال ، فوضع غصاب فية حامية قوية ، بينما أرسل رجاله إلى جميع الجهات للقيام بأعمال القتل والنهب والتدمير . وكان يرافق جيش الوهابيين بعض السفن فى البحر ، فحمَّلوها مما حوته عنابر الجمارك فى جيران ، وبشكل رئيسى بالقهوة ، وخلف عبد الوهاب أبو نقطة فى إمارة تهامة ابن عمه تامى Tami ابن شعيب Shu,aid .

وفى هذه الأثناء كان سعود يقوم بالاستعدادات لحجه الموافق فى منتصف شهر كانون الثانى سنة ١٨١٠ . وقرر أن يكون موكبه هذه المرة فخمًا للغاية . فشجع العشائر ، الرحل منها والحضر ، أن يصحبوا معهم نساءهم فى حجهم .

وقد وافقه فى موكب حجه بناته وسيدات أخريات من عائلة مقرن المالكة .

وأدى الجميع مراسم الحج بدون أى حادث يذكر . ولم تؤد فريضة الحج أية عناصر أجنبية أخرى ، كالتى كان يزدحم بها موكب الحجاج فى السابق . وظلت العلاقات مع غالب ودية لاتشوبها شائبة . وفى أوائل شباط عاد سعود إلى بلاده فى الوقت الملائم إلى الدرعية بعد أن استبدل حاميات الحصون بغيرها .

فى هذه الأثناء ساءت الأمور فى عمان فقد ثار سعيد بن سلطان على حكومته وتخلى عن ولائه لها واستدعى البريطانيين لمهاجة القلعة الوهابية فى رأس الخيمة فاشتعلت النيران فى

أكواخها المبنية من سعف النخيل حين سلطت البحرية الإنجليزية عليها أشعة الشمس بواسطة العدسات الشمسية ، وانسحب سلطان بن صقر وأتباعه إلى الصحراء . وبعدها نزلت القوات البحرية الإنجليزية وأتمت تدمير القرية إلا أن أهلها عادوا فبنوها بعد رحيل المغيرين .

وما كان سعود يسمع هذه الأخبار ، حتى أرسل عبد الله بن مزروع من منفوحة على رأس قوة من نجد ، وأصدر إليه التعليمات بأن يحتل واحة البريمى ويتخذها مركزًا ، بينما أرسل مطلق المطيرى على رأس قوة أخرى لجمع النجدات من أهل عمان أنفسهم ؛ لمحاربة زعيم مسقط الثائر . فوجه مطلق عملياته إلى مزارع البطينة الممتدة بين رأس الخيمة ومسقط على طول الساحل ، وعلى مدينتها الرئيسية كار Suhar قلعة عزان بن قيس الذى خلف والده بعد موته فى هجوم سابق قام به الوهابيون فاستولى على عدة قرى وغنم غنائم كبيرة وقتل خمسمائة من رجال عزان Azzan فى هذه العمليات التى استمرت - فيما يبدو طوال أشهر الصيف والخريف من السنة التالية أما مسقط فلم تهاجم وقد صمدت سحار لجميع محاولات الاستيلاء عليها عنوة ، ولكن بقية المنطقة استسلمت لمطلق ودخلت مرة أخرى إلى الحظيرة الوهابية .

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الأحداث ، اضطر سعود لأن يرسل حملة إلى البحرين ، وزبارة بسبب موقف حكامها الغامض ، وذلك قبل أن يسير إلى الحج . وكان محمد بن معيقل قائد هذه الحملة ، فأرسلت إليه النجدات فيما بعد ، تحت إمرة عبد الله بن عفيصان بن إبراهيم أمير الإحساء آنذاك . وقد ظلت القوتان لا تقومان بأى عمل فى زبارة طيلة أربعة أشهر ، وحتى عودة سعود من الحج .

وحينئذ هدد القائدان بشن هجوم قوى ما لم يرافق زعماء آل خليفة أن يرافقوهم إلى العاصمة الوهابية . وكان من جملة ضيوف سعود البارزين ، سليمان بن أحمد بن خليفة ، الزعيم الأسمى للبحرين وزبارة . وأمر فهد بن عفيصان بأن يسافر إلى الجزر ليستلم زمام الأمور هناك وليعين موظفًا كفؤًا لجمع الضرائب . أما أبناء زعماء آل خليفة فلم يرضوا بأن يبقوا مجرد مواطنين عاديين فى بلادهم ، فهربوا نساءهم وكنوزهم سرًا على بعض السفن الصغيرة إلى مسقط .

وصادف وجود بعض السفن البريطانية فى مرفأ مسقط آنذاك . فجهزت عددا من السفن فى حملة على زبارة . وبعد أن هاجمت الحامية الوهابية وهزمتها واستولت على ممتلكاتها، غادرت الحملة زبارة وتوجهت إلى البحرين ، لتحاصر فهد بن عفيصان وقواته فى حصن المنامة بضعة أيام وقد استسلم الحصن بموجب شروط . أما فهد ومعه ستة عشر رجلا فقد احتجزوا كرهائن حتى يطلق سراح شيوخ آل خليفة فى الدرعية ، وأما البقية فقد أطلق سراحهم . وكان سعود آنذاك منهمكًا فى حملة الشمال ، تاركًا هؤلاء الشيوخ فى الحبس . ولدى عودته وصلته أخبار هذه التطورات الطارئة ، غير أن زعماء آل خليفة تقدموا من سعود وطلبوا إليه أن يطلق سراحهم ليعودوا إلى البحرين ويباحثوا أولادهم وأنصارهم فى أمر الدخول فى المذهب الوهابى . وإلا فإنهم يتعهدون بالعودة إلى الدرعية ليبقوا فيها كرهائن . فوافق سعود على اقتراحهم هذا وأرسل معهم المرافقين اللازمين . غير أن الشيوخ فشلوا فى إقناع أبنائهم بحكمة هذا الاقتراح فعادوا إلى الدرعية ليبقوا رهن الاعتقال . وفى هذه الأثناء أطلق سراح فهد بن عفيصان وبقية أتباعه المعتقلين .

أما الحملة المشار اليها أعلاه فقد دفعت بسعود ليس إلى الحدرد السورية فحسب ، بل إلى مشارف دمشق فأرعب بذلك سكانها . وقد رأى للمرة الأولى فى حيا ته الثلوج على قمة جبل حرمون (الشيخ) .

ويلاحظ بأن ابن بشر قد أخطأ جغرافيًا فى ذكر المسافة التى قطعها قادما من بلاده ، فالتلال التى كانت تغطيها الثلوج قرب نابلس والتى قيل بأن عشائر سعود ضربت وراءها خيامها لم تكن غير جبل الشيخ فى شهر أيار . وكان هدف سعود مجموعة من القبائل السورية الضاربة فى منخفض نقرة الشام . غير أن هذه القبائل اشتمت رائحة حملته هذه وخيمت فى مواقع جديدة بعيدة عن متناول يده ، مع دوخى بن سمير Dukhi زعيم «ولد عنزة » فى الغور. وقد يكون هذا إما البقاع الواقع بين جبال لبنان الشرقية والغربية أو وادى الأردن .

وسار سعود فى سهول حوران مدمرًا لمزروعات وممتلكات القرويين فى المزيريب وبصرة الشام ، فهرب سكانها من منازلهم لدى سماعهم باقتراب القوات السعودية من بلادهم. وقد حاول سعود الهجوم على حصن المزيريب ولكنه عاد وتخلى عن هذه المحاولة وانسحب بعد

ذلك إلى بصرة لقضاء بضعة أيام هناك ثم عاد إلى بلاده بغنائم طائلة استولى عليها في هذه الحملة . وعزل الباب العالي يوسف ، والى الشام ، من منصبه بعد هذه الأحداث ، فخلفه في الولاية سليمان باشا ، والى عكا وصدرت إليه الأوامر بأن يصادر جميع أموال سلفه .

أما الأحوال الاقتصادية في هذه الفترة ، فقد كانت في تحسن سريع عقب الأمطار الرسمية والعاصفة غير المعتادة التي هبت في شهر تموز سنة ١٨٠٩ وكان سعر القمح بعد هذه العاصفة (٤ صاعات للريال الواحد) ، ثم عاد فنزل إلى ٨صاعات للريال . وفي شتاء سنة ١٨١٣ عاد فهبط إلى ١٣ صاعا للريال . وكان سعر التمر قد تدنى فأصبح من ١٠ وزنات للريال إلى ٣٠وزنة ثم ٣٧ وزنة للريال ، غير أنه لم تبد بشائر السلم في أفق الأقاليم الوهابية .

وفي شهر آب عاد الاضطراب فذر قرنه في عسير تهامة ، حيث عاد حمود أبو مسمار بعد هزيمته في وادي بيش إلى القتال من جديد فأرسل عثمان بن مديفع لإخضاعه ، فتقابلت القوتان المتنازعتان في مكان يدعى الوحلة Wahla فانهزم أبو مسمار مرة أخرى وخسر مائتين وخمسين من جنوده . وفي نفس الوقت كان أمير عسير تهامة يجهز حملة لاختراق تهامة اليمنية فاقتحم أبواب لحية عنوة بعد حصار قصير ، وصادر جميع الأشعة الثمينة والبضائع الموجودة في مستودعات الجمارك والتجار.

وقيل: أن ألف رجل قد قتلوا في هذه العمليات الحربية التي انتهت بإحداث فجوة في المدينة بواسطة النيران . وتقدم تامي الآن نحو الحديدة بجيش قوي عدته عشرون ألفًا ولدى سماع السكان خبر هجومه على المدينة ، نقلوا من متاعهم ما أمكنهم نقله إلى القوارب الراسية في الميناء ، ونجوا عبر طريق البحر . فاستولى تامي على المدينة بكل سهولة ، وهدمها ونهبها ، وقتل الكثيرين من سكانها . غير أنه لم يحاول أن ينشئ (إدارة) حكومية وهابية دائمة لاهنا ولا في لحية فقد كان الهدف من هذه الحملة - فيما يبدو - الاستيلاء على أكبر كمية من الأسلاب والغنائم .

وكانت الاضطرابات التي حدثت في بغداد هذه الفترة ذات طابع محلي ، فلم تؤثر في مصالح الجزيرة العربية ، وان كان ابن بشر يعطي تفصيلات مطولة عنها ويكفي القول : بأن

الوالى سليمان باشا ، الذى صدرت إليه الأوامر من السلطان بألا يجبى الضرائب التى لم تحصل فى السنوات السابقة ، قد هاجمه زعيم الأكراد عبد الرحمن باشا وقتله ثم احتل المدينة وبدأ ينهب ثراوتها تحت حماية والٍ عميل يدعى عبد الله باشا ، نصبه الزعيم الكردى واليا فأرسل السلطان إليه جيشا ليعاقبه على أعماله ، فطلب من شاه الفرس الهجوم على كردستان ، فضمها الشاه إلى ممتلكاته بعد هروب عبد الرحمن .

وفى نهاية كانون الأول من سنة ١٨٠١ سار سعود مرة أخرى إلى مكة ليقوم بأداء فريضة الحج للمرة السابعة ، وكان ابن بشر نفسه أحد الذين شاهدوه وفى هذا الشهر بالذات توفى سلفه ، المؤرخ النجدى ، حسين بن غنام الإحسائى .

ومن الغريب أنه وفى الثناء على حياته واعماله الباهرة كعالم دينى ابن بشر مؤلفه التاريخى، هذا المؤلف الذى اقتبس منه ما شاء له أن يقتبس . ويرسم لنا ابن بشر صورة مبهجة للعاهل الوهابى فى لباس الحج ، وامتطاؤه جمل وسط الجموع الغفيرة فى نَمِرة Namira وإلقاؤه الخطبة التقليدية المعهودة فى معانى الحج وفوائده ، مستعرضا فى نفس هذه الخطبة السلام والازدهار السائدين فى الجزيرة العربية ، بفضل رحمة الله وبفضل دينه الذى تقبله كافة سكان الجزيرة . وهيأ خطبته بإعلان منع حمل الأسلحة فى المدينة المقدسة ، ومنع أية امرأة من إظهار زينتها ومجوهراتها ، كيلا يتعرض الناس لسخطه الشديد .

ثم تقدم منه غالب ممتطيا صهوة جواده فترجل الزعيم الوهابى ليعانق عدوه السابق أمام جماهير الحجاج الجالسين تأهبًا لأداء فريضة الظهر ، قبل بداية السير إلى عرفات .

ويشير ابن بشر إلى أنه لم يجرؤ أحد من الحجاج أن يدخن فى شوارع مكة ، ولم يتلكأ أحد فيها عن الذهاب إلى الصلاة عند سماع أصوات المؤذنين يدعون اليها وكان المكان المفضل لدى سعود هو سطح البناية التى تضم بئر زمزم قبالة الكعبة مباشرة .

وخلال هذا الحج توفى فى مكة الشيخ أحمد بن ناصر بن عثمان بن معمر بعد إتمام مراسم الحج فى منى . وكان أحد شيوخ نجد العظام وتلميذ حسين بن غنام وكان هناك أيضًا أحد تلامذة المؤرخ البارز وهو الشيخ سليمان بن عبد الله حفيد محمد بن عبد الوهاب .

ولدى عودة سعود إلى الدرعية ، واجهته مشكلة عائلية ، فقد ذهب أولاده - تركى وناصر وسعد إلى عمان بحثًا عن المجازفات والموارد الكافية التى لم يسمح بها والدهم . وقد حدث نقاش فى هذا الأمر قبل أن يسافر سعود إلى الحج فطلب الأولاد منه السماح لهم بالانضمام إلى الجيش فى عمان . إلا أن سعودًا كان مقتنعا بأن مخصصاتهم تكفيهم ، ورفض أن يسمح لهم بمغادرة البلاد ، وفى خلال غيبة والدهم ، تم لهم ما أرادوا دون إذن منه . فسافروا برفقة بعض أتباعهم الأقربين ولم ينتظروا طويلاً . . فلدى وصولهم رأس الخيمة ، تآمر سكان بطينة وهى قرية فى سحار ، بأن يهجموا عليهم ويقتلوهم ليلاً ، وتم الهجوم . غير أن ابناء سعود ورفاقهم قاوموا مقاومة عنيدة فتراجع المهاجمون وتكبد الطرفان بعض الخسائر .

وبعد هذه الحادثة ، طلب إلى مطلق المطيرى ، قائد البريمى أن ينضم بقواته إلى الامراء الثلاثة ، وأنيطت القيادة العامة بتركى ابن سعود ، وهكذا تم تشكيل الحملة الجديدة فهاجموا مطرح ، المدينة الساحلية القريبة من مسقط ، واستولوا عليها عنوة . وفى هذه الأثناء كانت قوات تركى الغازية تجوب قوس الدائرة فى شبه جزيرة عمان من الضاهرة Dhahira إلى بطينة، فصر Sur حتى جعلان Ja,lan وكانت الأوامر الصادرة تقضى بالنهب والسلب وأعمال القتل بدلا من الاستيلاء على المواقع . ولكن سعود غضب غضبا شديدًا لدى سماعه ذلك ، فأرسل جماعة من أربعين رجلا إلى البريمى وإعطائهم تعليماته بوجوب الاستيلاء على الحصن من حاميته السابقة التى كان يقودها ابن مزروع ، وأن يمنع أولاده وأتباعهم من الدخول اليها . وفى نفس الوقت صدرت الأوامر إلى مطلق المطيرى بأن يخلى عمان من قواته وألا يترك فيها أى جندى منهم .

وبدأ أولاَد سعود الثلاثة يشعرون بمبلغ الحماقة التى ارتكبوها. ورفض سعود رفضًا باتًا جميع الوساطات التى بذلت للعفو عنهم وأصر على وجوب الاستسلام له دون قيد ولاشرط . وعلى هذا وافقوا مطلق أثناء انسحابه إلى الإحساء إلا أنهم رفضوا أن يسيروا أبعد من ذلك فقد كانوا يخشون غضب والدهم . وفى النهاية عفا سعود عنهم فعاد الأبناء الضالون إلى وطنهم ، واستقبلوا بمظاهر الاستياء والسخط الأبوى على تصرفاتهم الطائشة وبعد شهرين مرض ناصر ومات ، فرفض سعود البكاء عليه أو حضور مراسم جنازته ودفنه.

وانصرف سعود لمعالجة نتائج فرار أولاده الذى خلق كرها شديدًا للقضية الوهابية ، فقد أعلن بنو إياس وهم من الضاهرة الثورة ،فأمر سعود عبد العزيز ابن غردقة أن يسير من الإحساء ليعالج الأمر . وفى القتال الذى تلا ذلك فى ايار سنة ١٨١١ ، اندحرت القوة الوهابية وقتل قائدها ، وبدت عمان جميعها على وشك الاستقلال عن الدرعية ويبدو أن مطلق المطيرى أعيد فعين فى منصبه القديم ليرقب تطور الوضع ، وكانت عمان آنذاك فى حالة فوضى . وفى نهاية السنة - فى كانون الثانى سنة ١٨١٢ - كان حاكم مسقط سعيد بن سلطان على أهبة الاستعداد بمناصرة الفرس ، لأن يهاجم المناطق الوهابية بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندى كانوا يطوفون حولها ينهبون السكان بلا تمييز . ثم استولوا فعلاً على مركز مهم يدعى سمايل Samail مقر عائلة جبرى . أما مطلق فكان مستعدًا لأن يشدد قبضته على حركة الثوار . فالتقى الفريقان فى معركة ضارية دارت رحاها فى مكان ما بين سمايل والبريمى . وكانت الغلبة لمطلق فتمزق جيش مسقط وانهزم .

وكان الوهابيون يلاحقونهم فيقتلون منهم من يقتلون ، وينهبون ما يجدون فى طريقهم . وكانت الغنيمة التى استولوا عليها هائلة ، من ضمنها عشرة مدافع للعدو أرسلت للدرعية باعتبارها حصة الدولة من الغنائم . واستمرت هذه العمليات أكثر من سنة أى من بداية فرار الأمراء إلى عمان . ثم استقر الوضع فى الإقليم كله ولو ظاهريا فيما عدا المدن التى كان ممثلو عائلة سعيد لا يزالون يسيطرون عليها .

وفى هذه الأثناء عاد سعود من مكة فى شباط سنة ١٨١١ ، فسمح لزعماء آل خليفة المعتقلين فى الدرعية بالعودة إلى بلادهم على شرط قبول سلطة حكومته فى البلاد وخضوعهم لها ، وصادف رجوعهم نشوب معركة حربية عند جزر البحرين فى نهاية آذار ، بين أسطول إبراهيم بن عفيصان يسانده رحمة بن جابر العذبى من خوير حسن ، وأبو حسين من حويلة على ساحل قطر ، وبين أبناء زعماء آل خليفة المعتقلين وقاتل الطرفان بضراوة وتصميم ، إلا أنها انتهت دون التوصل إلى نتيجة حاسمة ، وإن كان أهل البحرين ، هم الذين شعروا بوطأتها أكثر من أعدائهم .

وشبت النيران فى بعض السفن أثناء الاشتباك وغرقت لدى انفجار الذخائرفيها ، فخسر كل من الطرفين قرابة السبع سفن بهذا الشكل ، إلا أن خسائر البحرين قدرت بألف

رجل بين قتيل وغريق ومحروق . وكان منهم راشد بن عبد الله بن خليفة أما خسائر الوهابيين فكانت مائتى قتيل ، من ضمنهم زعيم الحويلة .

وفى صيف هذا العام قرر الأتراك استرجاع الحجاز من الحكم الوهابى ، وبدأوا يعُدوّن العُدَّة لذلك على نطاق شامل . فأُرسِلت القواتُ التركية لتقوية الحشود فى سوريا ومصر ، ومن ثم أُرسِلت كميات هائلة من الذخائر الحربية من بينها المدافع والرشاشات وما شابهها ، إلى محمد على باشا الذى عُيِّن قائدًا عامًا للحملة .

ثم سارت قوة عن طريق البحر ، فلم تصادف أية صعوبة فى الاستيلاء على ميناء يَنبُع ، بينما انتقل الجيش الرئيسى تحت قيادة أحمد طوسون باشا ابن محمد على باشا ، بحرًا وبرًا . وكان جيشه يتألف من أربعة عشر ألفًا من الأتراك والمغاربة .

فهرب أمير ينبع إلى المدينة المنورة بينما أرسل سعود رسله إلى جميع أنحاء البلاد يدعوهم إلى التعبئة العامة لمقاومة الغزو . وكان الجيش الوهابى تحت إمرة عبد الله بن سعود الذى يظهر لأول مرة فى تاريخ الجزيرة العربية . واتخذ عبد الله مواقعه فى خيف فى أضيق جزء من وادى الصفرا فى منتصف الطريق بين المدينة والساحل وظل هناك ينتظر قدوم العدو ، ويقدر عدد قواته بثمانية عشر ألف مقاتل منهم ثمانمائة من الفرسان . وأرسلت فرقة من هذا الجيش تتألف من قبائل الوشم وحرب تحت إمرة زعيم قبيلة حرب - مسعود بن مضيان - إلى مكان آخر ، كفرقة احتياطية فى حال اقتراب العدو من تلك الناحية .

ويبدو أن الأتراك سلكوا طريق الوادى الرئيسى من واحة حمرة بموازاة طريق القوافل من ينبع فوجه عبد الله فرقه المتقدمة لتهاجمهم ، فدحروها وحشد العدو جيوشه للهجوم على قوات عبد الله الرئيسية فأرسل عبد الله فرسانه ، تحت قيادة أخيه فيصل وزعيم مطير حباب ابن قحيصان Habbab, Quhaisan للاشتباك مع الأتراك وقد خسر الطرفان خسائر فادحة فى المعركة ، أما العناصر البدوية فى الجانب الوهابى فاقترفت عملاً يستحق كل لوم ، إذ أنها تقهقرت أمام العدو تاركة فرق المجندين الأخرى مكشوفة فى المواقع التى تركزت فيها .

واستمر القتال على هذا المنوال طوال ثلاثة أيام ، ودفع عبد الله بقوته الرئيسية لمهاجمة العدو ، فزاد ضغط هذه القوات التى اشتركت فى الهجوم على العدو وزعزعته من مراكزه

فاندحر الأتراك والمراكشيون وفروا تاركين للمنتصرين جميع معداتهم ، ومن بينها سبعة مدافع . وطاردتهم قوات عبد الله على طول الطريق حتى وصل من نجا منهم ساحل البريكة ولجأوا إلى السفن الراسية هناك .

وتقدر خسائر الأتراك بأربعة آلاف قتيل ، أما قتلى الوهابيين فقد بلغوا الثمانمائة . وكان منهم مقرن بن حسن بن مشارى بن سعود ، وهو من أمراء العائلة المالكة ، وعدد آخر من القادة البارزين ، منهم هادى بن قرملة المشهور وهو من قبيلة قحطان ، وقد وقعت معركة خيف فى القسم الأول من شهر كانون الأول سنة ١٨١١ ، وكان الوهابيون هم أول من سفك الدماء فى معركة أصبحت حديث السنوات السبع التالية بأهوالها وشدة غاراتها .

وفى حين لجأ الأتراك إلى ميناء ينبع ليضمدوا جراحهم ، قاد عبد الله جيشه عن طريق الحج ، مارًا ببدر ، المكان الذى قد انتصر النبى انتصاره العظيم على قريش قبل اثنى عشر قرنًا. واتجه إلى مكة حيث حظى بمقابلة والده أثناء تأديته فريضة الحج للمرة الثامنة ، وكرس ثمار نصره إلى الله رب الجهاد .

وقد رافق سعودا فى حجه هذا عدد كبير من المحاربين يضاهى عدد قوات ابنه فى الميدان . وبعد القيام بجميع المراسم المطلوبة فى مثل هذه المناسبة ، صرف قسمًا من هذه القوات ، أما القسم الآخر فتمركز فى منطقة المدينة المنورة لمواجهة احتمال أى هجوم تقوم به قوات العدو التى كانت لا تزال على الساحل .

أما غالب فلم يحمله وجود منقذيه الأقوياء ، على الانضمام إليهم ، أو إظهار أى نقص فى الاحترام أو الود القبلى القائم بينه وبين سعود لعدة سنوات خلت . واحتفل بالحج الذى لم يؤمه أية عناصر أجنبية ، بالأبهة المعتادة وبدون أى حادث مكدر يذكر .

ويبدو أن عبد الله رافق والده فى عودته إلى الدرعية فوصلاها فى نهاية شهر كانون الثانى سنة ١٨١٢ .

وفى هذه الأثناء كان محمد على باشا يفكر تفكيرًا جديًا فى تغيير الوضع الذى نتج عن هزيمة ابنه طوسون فى خيف . فتدفقت الإمدادات إلى ينبع تحت إمرة ضابط يسمى أحمد بن نابارت (بونابرت) وبذلت جميع المساعى والجهود لضمان انضمام القبائل المحلية فانضمت

إليهم مناطق جهينة ، وينبع ، والقسم الجبلى من حرب . فاحتلت واحة «ينبع النخل» الداخلية . ولم يكن فى وادى الصفرا أى جيش يدافع عنه فسار العدو إلى المدينة المنورة حيث وصل إليها واحتلها فى منتصف شهر تشرين الأول .

ويبدو أن الحامية الوهابية المؤلفة من سبعة آلاف جندى ، كانت فى حالة ضعف وخور بسبب الأمراض المختلفة ، وبعد قصف قليل بالمدفعية ، فتح السكان أبواب المدينة للعدو ، والذى أكره بعض الحاميات فى الحصون المختلفة على الاستسلام بعد أن أظهرت عزمًا على المقاومة والصمود . وفى منتصف شهر تشرين الثانى سقطت المدينة فى أيدى الأتراك مرة أخرى . ولم يبد سعود أى عزم على إنقاذها من مثل هذه الكارثة .. كان الأتراك يسيطرون سيطرة شديدة تامة على الحجاز إلى الشمال من الخط الذى يصل ينبع بالمدينة . وكان هذا الوضع من وجهة النظر الوهابية ، وضعا خطيرًا .

فكان جُلُّ اهتمام سعود الآن أن يرسم خطة للحج إلى مكة للمرة التاسعة الأخيرة . ومن قبيل الاستعداد لهذا الأمر أرسل سعود ابنَه عبدَ الله بقوة مهمة لاختبار تحصينات منطقة مكة. فأمضى عبد الله بعض الوقت معسكِرًا فى وادى فاطمة دون نشاط ، قبل أن ينضم إلى والده لدى وصوله إلى ضواحى المدينة لإقامة الاحتفالات المعتادة . وفى بداية شهر كانون الثانى سنة ١٨١٣ ، بدأ سعود سيره عائدًا إلى الدرعية إلا أنه ترك وراءه قسما كبيرًا من جيشه الذى وافقه ، لحماية المدينة ، وأصدر تعليماته إلى عبد الله بأن ينصب خيامه فى وادى المر (القسم الأوسط من وادي فاطمة) قاطعًا بذلك الطرق الرئيسية إلى المدينة المنورة . ومع أن غالب أبدى كل ود وإخلاص فى هذه المرة إلا أن سعودًا جعله يجدد القسم بكل المقدسات ، على الولاء والإخلاص وعدم الخيانة .. لقد كان يشك فيه . وكانت آخر هدية قدمها سعود لبيت الله كسوة جديدة من الحرير الأسود .

وبعد سفر سعود بمدة وجيزة قامت القوات التركية الموجودة فى المدينة وينبع بالزحف على مكة ، وما كادت أخبار هذه الأحداث تصل إلى مسامع غالب حتى غير لهجته وكان فيما يبدو يتحدث بشكل أفزع عبد الله .

ومع هذا ، أرسل عبد الله إلى الحاميات التى تركها فى مكة ، يطلب منها الانضمام إلى جيشه الرئيسى ، ثم سار إلى الممرات التى تصل جبال الحجاز بهضبة نجد ، من حيث زحف إلى عبيلة ، عند سفوح تلال الطائف . ومن ثم أوفد عثمان المضيفى إلى قاعدته فى الطائف

وأصدر إليه التعليمات بوجوب فحص تحصيناتها والدفاع عنها مهما عز الثمن . وعاد عبد الله نفسه الى خرمة .

وجاء على لسان ابن بشر قوله : « لقد سادت الفوضى والقلاقل صفوف المسلمين بإذن من الله ، وذلك بسبب خطاياهم وذنوبهم التى كان عليهم أن يتضرعوا إليه كى يغفرها لهم » .

كان عثمان يخشى انتقام طوسون ، فما أن وصل إلى الطايف حتى جمع نساءه وخيوله وفر لينضم إلى عبد الله . وكان ذلك فى السادس والعشرين من شهر كانون الثانى سنة ١٨١٣ .

وصدف أن حدث كسوف شمسى بعد أسبوع ، فكان هذا نزيرًا بزوال الحكم الوهابى فى الديار المقدسة .

***

دخلت قوات طوسون مكة بلا مقاومة واستقبله غالب بالحفاوة والترحاب . وبعد ذلك ببضعة أيام ، احتل الطايف ، فسارع سكان المرتفعات جميعهم لتأدية فروض الولاء والخضوع للحكم الجديد ، فيما عدا الواحات الغربية التى ظلت على ولائها لسعود . وكذلك الواحات الجنوبية وعسير تهامة ، فقد بقيت هى الأخرى موالية للحكم الوهابى .

كان مركز سعود الأن حرجًا ، فقد أدرك أنه يحتاج إلى جيش قوى جدًا يتمكن من الوقوف فى وجه التحدى التركى من جهة ويقلب ميزان القوى من جهة أخرى . وكان الهم ينهش صدره حسرة على ضياع الحجاز من يده . فسار بنفسه على رأس جيش ، جمعه من مختلف المناطق والمقاطعات فى نجد ، سواء منها البدوية والحضرية ، ومضى به إلى الحنكية ، وهى واحة عظيمة الأهمية تقع على الطريق الرئيسى من المدينة المنورة إلى القصيم . وكان الأتراك بقيادة عثمان كاشف ، لا يزالون يحتلون حصنها ، بينما كانت الآبار فى يد أنصارهم من قبيلة حرب .

لكن ما كاد هؤلاء يبصرون الوهابيين حتى ولو الأدبار وجاءوا إلى آخره الممتدة حتى المدينة المنورة ، مخلفين ورائهم خيامهم وأمتعتهم ، غنيمة باردة للعدو ، وحينئذ كان على سعود أن ينتهز الفرصة السانحة ، فبادر إلى محاصرة الجيش المتمركز فى الحصن ، إلا أن الحامية طلبت الصلح بعد قتال بسيط . فمكنهم سعود من الخروج بشرط ألا يذهبوا إلى المدينة المنورة بل إلى العراق . فساروا إلى العراق فى حراسة أمير جبل شمر ورجاله .

ثم زحف سعود بعد ذلك على المدينة المنورة نفسها ناهبًا فى طريقه إليها تجمعات بدوية متعددة والتقى بعدها بثلة من خيالة الأتراك وهجانتهم فهاجمهم وهزمهم ثم طردهم حتى لجأوا إلى المدينة واحتموا بأسوارها فدار حول المدينة حتى وصل إلى وادى الحسى، من هناك هبط إلى وادى الصفرا ، ناهبًا السكان فى طريقه . ثم استدار جنوبا واتجه إلى الجبال والمنطقة البركانية حتى وصل إلى السويركية Suwairikiya فاستسلم السكان إلا أنه اشترط عليهم أن يدفعوا إليه نصف محصولهم من التمور المعدة للخزين فى شهر آب . وبعدها أهلك كثيرًا من أشجارهم ودمر معظم المنازل . وتوقف هناك بعض الوقت لتوزيع الأسلاب والغنائم على جنده ، وانتظر ما قد يحدث من تطورات .



الأماكن التى سقطت فى أيدى القوات المصرية حتى سنة ١٨١٣

فى هذا الوقت بالذات أوفد طوسون مصطفى باشا يطلب إليه توجيه حملة على ترابة فتعرضت الحامية الوهابية لحصار دام بضعة أيام قبل أن تصلها الإمدادات من بيشة والواحات الأخرى . وفيما كان هؤلاء مشتبكين مع الأتراك ، قامت قوة احتياطيه كانت مختبئة ، والتفت حول معسكر الأعداء ، واستولت عليه وهزمت حراسه الترك . وعندما انسحب مصطفى باشا إلى الطايف ، حيث اشتبك مع قوة أخرى جهزها عثمان المضيفى للهجوم على الحاميات الصغيرة ، عند سفوح التلال المحيطة بالمدينة المنورة . فوقع عدد كبير منهم فى أيدى العرب . ثم سار هؤلاء إلى بصل Basal وهى واحة متوسطة الحجم تقع فى أعالى الوادى تشتمل على منازل عدة محصنة تملكها عشيرة عشقرة . وبعد احتلالها هاجمهم الشريف غالب على رأس جيش تركى نظامى فاحتل الحصون بعد حصار استمر بضعة أيام ، وقتل الكثير من جنود الحاميات .

أما عثمان فتمكن من الفرار ، إلا أنه وقع أخيرا فى أيدى بعض الرعاة من عشيرة أسامة، فسلموه إلى غالب . وما كاد عثمان يقع فى يد خصمه القديم حتى بادر هذا إلى قتله .

وقد عاد سعود إلى الدرعية ، بعد العمليات الحربية قرب المدينة المنورة والسويركية ليجد أمامه طائفة من القلاقل الخطيرة التى وقعت فى منطقة عمان فأرسل مطلق المطيرى إليها مرة أخرى على رأس جيش وهابى ، هاجم به جعلان بعيدا إلى الجنوب من البريمى وعاد يحمل الأسلاب والغنائم ، غير أن القبائل عادت فنظمت قواتها لمطاردته واضطرته أن يخوض معركة ضارية معها . فدارت الدائرة على مطلق وقتل .

وقبل أن يبادر سعود إلى وضع الترتيبات اللازمة للقضاء على الاضطراب ، واجهته فى الغرب أزمة جديدة .

كان ذلك فى تشرين الأول لسنة ١٨١٣ ، يوم قرر محمد على باشا أن يترأس محمل الحج ويزور مكة بنفسه فدخل مكة بالأبهة والفخامة اللازمة لمثل هذه المناسبة الفذة فى التاريخ ثم استولى على جميع الحصون ووضع فيها وفى المراكز القوية الأخرى ، حاميات من جنده . ووقف غالب أمام هذا الرجل العظيم بكل ذلة مقدما فروض الطاعة والولاء بالإضافة إلى الهدايا الثمينة فاستقبله محمد على بالتجلة والإكرام وقدم إليه بعض الهدايا شاكرًا له خدماته

الجليلة، إلا أنه عاد فألقى القبض على غالب ، احتياطا منه للطوارىء وحفظا للأمن والنظام ، ثم طرد عائلته من قلعة أجياد المشرفة على الحرم الشريف وسجن ولديه وصادر أمواله الطائلة كما عين مكانه أخاه سرور بن يحيى بن سرور أميرًا على مكة . وفى الوقت ذاته نقل غالبا وولديه عبد الله وحسين إلى مصر تحت الحراسة المشددة وأصدر السلطان بعدئذ أمرًا يقضى بنقلهم إلى سالونيك ، حيث مكثوا فى معتقلهم مكرمين معززين ، يقدم اليهم ما يحتاجون إليه ، ويتقاضون مرتبات كافية مع إعادة ما صودر من أملاكهم ، وكتب على غالب أن يقضى بقية عمره هناك حيث توفى بمرض الطاعون سنة ١٨١٦ .

وبعد أن أعد محمد على العدَّة لفرض سيطرته على الحجاز ، بدأ يبحث عن الوسائل التى تكفل له توسيع فتوحاته حتى تبلغ نجدًا . ففر الكثيرون من أشراف مكة إلى الجبال لئلا يصيبهم رشاش غضب الباشا ورذاذ شهواته غير أن محمد على اختار «الشريف راجح» الخبير فى شئون الصحراء ليحمل العرب على الانضمام إليه ملوحًا بإمارة مكة بدلاً من شقيق غالب. وكان راجح راغبًا عن خدمة الأتراك ففر فى ذات اليوم وانضم إلى الوهابيين فى ترابة .

وتبعه الشريف يحيى بن سرور ففر هو الآخر وانضم فى غفلة من مراقبيه إلى العناصر الوهابية فى عسير تهامة . فأرسل محمد على ابنه طوسون باشا إلى ترابة على رأس قوة تركية تبغى تصفية الحساب مع الحامية الوهابية وكانت هناك هذه قد وصلتها الامدادات من سعود. وبعد أيام من بدء المناوشات غير المجدية ، وقصف المواقع المحصنة ، انسحب طوسون من الواحة . وانتهت بذلك السنة التى تميزت بشيء من الركود الذى لم يكن ليستمر طويلا . والجدير بالذكر أن هذه السنة المؤسية من تاريخ الإسلام ، والأخيرة من حكم سعود، كانت سنة ١٨١٣ حسب التقويم المسيحى . وكانت بدايتها فى الرابع من كانون الثانى ونهايتها فى الثالث والعشرين من كانون الاول .

وتميزت الشهور الأولى من سنة ١٨١٤ بالعمليات الحربية التى وقعت فى الحنكية . ولكن أسراب الجراد التى غزت نجدًا اضطرت السكان إلى الاهتمام بهذا الخطر الداهم أكثر من اهتمامهم بما هددهم به الأتراك من غزوات محتملة فى المستقبل ، غزوات ظلت طوال أيام سعود الأخيرة ، كالسحابة المظلمة فى حياة رجل لم يعرف للسلام والهدوء طعمًا زهاء نصف قرن من عمره الذى كرسه لخدمه القضية الوهابية .

ولحق سعود بأجداده .. ودفن فى مدافن العائلة فى الأول من آيار سنة ١٨١٤ تاركًا لولده عبد الله مهمة الدفاع عن الدولة والقضية . هذه الدولة التى عمل فى سبيل امتدادها ونشر أعلامها أكثر من أى رجل آخر من أفراد تلك الأسرة التى أنشأتها وقامت بامتدادها فقد كان سعود مسلمًا عظيمًا ووهابيًا فذًا ومحاربًا قديرًا وملكًا عزيز الجانب كما يجب أن يكون الملوك حسب معتقدات أهل زمانه والأعراف الشائعة بينهم . وما أعظم ما حققه بإصراره ومقدرته على التنظيم ، وخططه الحربية البارعة ، وبُعدِ نظره ، وتَمَرُّسِه فى السياسة .

الفصل الخامس

عبد الله الأول ابن سعود

فى بداية عام ١٨١٤ ، وبعد فشل حملة أحمد طوسون فى إخضاع واحة ترابة ، خلال أشهر الشتاء ، باشر محمد على باشا بنفسه العمليات الحربية ، لإقرار الأوضاع فى الحجاز وغيره من أقاليم ساحل البحر الأحمر ، فاحتلت الإمدادات المرسلة من مصر ، ميناء قنفذة ، جنوب جدة . غير أن تامى بن شعيب ، وزعيم قبيلة عسيرى ، هاجم معسكر المصريين ، ففر من تمكن منهم من النجاة إلى القوارب وحملتهم إلى جدة ، تاركين وراءهم عتادهم غنيمة باردة للأعراب . وفى الوقت نفسه تمركز أحمد طوسون فى الطائف ليرقب الصحراء الواقعة بينها وبين ترابة ، لأن الشريف الساخط «راجح» انضم إلى الوهابيين ترفعًا عن أن يتملق المصرى نائب السلطان ، الذى أخذ يغرى القبائل العربية بالتخلى عن قضية عدوه . وفعل مثل ذلك الشريف يحيى بن سرور وتظاهر بقيادة حملة على القبائل المعادية للمصريين ، وغير أنه فر إلى عسير تهامة كارها لبلاده أن تخضع لطوسون .

قوبل الهجوم المشترك الذى تشنه قوات قصيم وحايل بمقاومة ناجحة أبدتها عناصر من عشيرة حرب ، مشايعة للمصريين وذلك بعد الفشل الذى وقع فى ترابة ولكن فى السنة نفسها، اندحرت هذه القبيلة بالذات أمام عبد الله ابن الإمام البكر فى منطقة الحرة حول سفينة وكانت هذه الغزوة من الغزوات المعتادة . وكان الوهابيون يقصدون من ورائها تحذير البدو من مغبة تعاونهم مع الأعداء. ولم يمكث عبد الله طويلاً فى تخوم البلاد التى يحتلها العدو ، إذ تلقى خبر وفاة والده عند وصوله إلى آبار خانوقة ، قرب الدوادمى، وهو فى طريقه إلى بلاده فآل إليه بذلك عبء حماية بلاد أجداده ضد عدوه العنيد فى فترة من الحكم قدر لها

أن تكون قصيرة ، ومليئة بالضيق والشدة . ويبدو أنه كان مصممًا ألا يترك زمام المبادرة فى يد أعدائه . وقبل أن يعود إلى الدرعية ليتقبل فروض الطاعه لدى تسلمه العرش ، فصل غصاب، زعيم عتيبة من قيادة الحملة ، وأرسله ليتولى القيادة العامة على التشكيلات العسكرية العاملة حول ترابة . وكانت هذه قد أصبحت الأن النقطة الهامة الرئيسية فى الدفاع عن الدولة . وفى أيلول من ذلك العام ظهر عبد الله نفسه فى الميدان على رأس جيش كبير من قوات نجد . وبعد أن جعل مركزه الرئيسى فى غزا قطاعات مختلفة من قبائل مطير ، وهى قبيلة أخرى أظهرت تحيزًا نحو النفوذ المصرى . وفى تشرين الثانى سار مرة أخرى إلى الحجاز ليهاجم قبيلة حرب فى حرة جبل غراب . ومن هناك عاد إلى القصيم حيث أقام مدة عاد بعدها إلى الدرعية فى سنة ١٨١٥ . وفى هذه الأثناء أرسل أخاه فيصل على رأس جيشه الرئيسى ليتولى القيادة فى ترابة ويدير العمليات على الحدود . وهناك انضم إليه تامى بن شعيب بإمدادات قوية يقدر عددها بعشرين ألفًا من جبال الحجاز وتهامة . وزحف هذا الجيش المشترك البالغ عدده الثلاثين ألفًا إلى بصل ، عن طريق آبار عزيل فى وادى ترابة ، فوجد قوات كبيرة من المصريين بينها وبين الطائف ، فهاجمها وكان النصر حليف الوهابيين ولكن الإمدادات وصلت إلى العدو فى صباح اليوم التالى، فدارت الدائرة على العرب وهزموا شر هزيمة وتفرقوا شذرًا مذرًا إلا أن جيش فيصل احتفظ بمواقعه ثم تراجع بنظام إلى ترابة (دون أن يطارده العدو) ، حيث قرر أن يستعد لجولة أخرى . أما تامى وقواته البدوية فقد اختفت فى الصحراء . عندما وصلت إلى فيصل أخبار الزحف المصرى ، أخلى ترابة وسار جنوبًا إلى رنية حيث صرف حلفاءه المحليين قبل عودته إلى نجد .

وفى هذه الأثناء كان على باشا قد تسلم القيادة بنفسه (إما قبل معركة بصل Basal أو بعدها) فاحتل ترابة وزحف على بيشة وطباله فقضى على مقاومته ونظم شئون الدولة . أما الشريف راجح الذى انحاز الأن إلى حظيرة الجيش الظافر فأرسل إلى رنية لاحتلالها وتدميرها بسبب مناصرتها القضية الوهابية سابقًا .

واستمر محمد على فى تقدمه فاحتل خميس ومشيط وواحات وادى شهران ، كما استسلمت له قبيلة الرقيدة إحدى عشائر الشهران . أما تامى وقبيلته الجبلية فقد تحدوا الغزاة الذين شقوا طريقهم عبر الجبال . وكانت قرية طلحة التى تسد الطريق إلى ممر الشعار، على

الطريق من أبها إلى قنفذة ، مزودة بحامية قوية مجهزة للمقاومة تحت إمرة رجل يدعى «حوان» أما تامى نفسه فعاد إلى مرتفعات بنى مغد ، ليدير حرب العصابات . ولم يجد محمد على كبير عناء فى القضاء على طلحة ، فدمر تحصيناتها قبل أن يهبط إلى الممر . ومن هناك تقدم عن طريق وادى «تيّه» إلى محيل وقنفذة . وفى هذه الأثناء غادر تامى الجبال متوجها إلى حصن تهامة فى المصلية ومن هناك غرر به بعض أصدقائه الذين أضمروا له الخيانة ، بأن يذهب إلى سبيه Sabya فألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى محمد على الذى أرسله بدوره من القنفذة إلى مصر حيث شنق .

وسمع محمد على باشا وهو فى قنفذة بحدوث اضطرابات فى مصر بين مماليك الغز وحكومته فقرر العودة إلى مصر ، تاركًا أمر العمليات العسكرية الأخرى لابنه طوسون ، وكان آنئذ فى المدينة المنورة ، يقوم بالاستعدادات لحملة على نجد وجرت ا تصالات بينه وبين العناصر الساخطة فى رس والخبرة Khabra شجعته على القصيم فاحتلت القريتين بدون أية مقاومة بينما أخضعت الحصون فى القرى الصغيرة المجاورة ، فيما عدا المدن والقرى الواقعة فى المناطق الوسطى والشرقية من القصيم إذ ظلت هذه موالية للحكومة الوهابية وتحارب المصريين حربًا غير نظامية إلى أن سارع عبد الله لإنقاذهم بجيشه الذى جمعه من جميع أنحاء نجد .

وفى منتصف نيسان من سنة ١٨١٥ غادر عبد الله الدرعية للتطواف فى المذنب ومن هناك تقدم نحو الرويضة القريبة من رس المركز . أما المصريون فاكتفوا بإطلاق مدافعهم من بعيد بينما هاجم عبد الله حشدًا من قبائل حرب ومطير قيل بأنهم كانوا يحتشدون فى الغرب من آبار بصيرى وفى الطريق سمع بأن طوسون نفسه قد وصل بقوة كبيرة إلى داث فى طريقه إلى رس فاستدار فى الحال إلى تلك الجهة مؤملا أن يفاجىء العدو على الآبار ، ولكن طوسون كان قد توقع هذا الهجوم فاستمر فى زحفه نحو رسّ فأرسل عبد الله ، فرقة القصيم لتصد أى تقدم للعدو فى ذلك الاتجاه ، بينما رجع هو إلى خطته الأولى فى مهاجمة القبائل فى بصيرى فى ذلك الاتجاه .

وبعد أن أخضعهم وهزمهم ، وردته أخبار جديدة تقول أن طابورًا تركيا مع المصريين قد وصل بئر البعجة وحصنها فى المنطقة المجاورة . فسار نحوهم ، وقد التجأت القوة المؤلفة

من مائة وعشرين رجلاً إلى الحصن فاقتحمها عبد الله عنوة وقتل جميع أفراد الحامية عن بكرة أبيهم ثم عاد عبد الله إلى قاعدته فى المذنب . بينا أرسل طوسون المتمركز جيدًا فى رس والخبرة قوة أمامية إلى الشبيبية قرب عنيزة من أجل احتلال عنيزة فى الوقت الملائم ، وجعلها مقره الرئيسى إلا أن عبد الله هو الذى وصلها أولاً واتخذ منها قاعدة للغارات المتكررة على المصريين وحلفائهم من البدو الذين أصبح مركزهم العام فى وسط أراضى العدو حرجًا بينما سارعت بعض العناصر من رس نفسها إلى احتلال حصون شنانة لمصلحة عبد الله بعد أن ندموا على تسرعهم فى خضوعهم لطوسون . أما مركز الشبيبية الطليعيفسُحب ، وانتقل عبد الله من عنيزة إلى آبار الحجناوى حيث أمضى قرابة الشهرين ضاغطًا باستمرار على مواقع طوسون .

وقد عقب ذلك حدوث تطورات جديدة على الموقف . وهى إما أن تكون ناشئة عن وضع طوسون الخطر فى وسط الصحراء ، أو ضغط الأحداث فى مصر أو سوء حالته الصحية، فقد ثبت أن ضابطًا بصحبة دليلين من حر ومطير هوجم وهو فى طريقه إلى طوسون ونقل على يد جنود الوهابيين إلى معسكر عبد الله فقتل الدليلان فى الحال بدون سؤال أو جواب . أما الضابط التركى فنقل إلى عبد الله المعلومات التالية : وهو أنه يحمل رسالة إلى طوسون من والده ، يأمره فيها بعقد الصلح والعودة إلى مصر . وبعد معاملة كريمة أرسل الضابط إلى طوسون .

فتوصل القائدان المتحاربان إلى اتفاقية تنص:

(١) على إنهاء الأعمال العدوانية .

(٢) إنهاء التدخل التركى فى شئون نجد .

(٣) إطلاق حرية التجارة بين الجزيرة العربية وجاراتها وتأمين الحج لجميع الأطراف المعنية .

وهكذا غادرت القوات المصرية رسّ إلى المدينة المنورة فى منتصف شهر تموز سنة ١٨١٥ . ورافق طوسون ممثلان ساميان سعوديان يحملان رسالة من عبد الله إلى محمد على باشا الذى أبرم بدوره اتفاقية الهدنة وأيدها . ولم يعش طوسون طويلاً بعد الفشل الذى لحق

به فى الجزيرة العربية ، إذ توفى فى مصر فى أواخر أيلول سنة ١٨١٧ وقبل ذلك بشهر واحد توفى فى سالونيك الشريف غالب بن مساعد الذى كان محمد على قد نفاه إليها .

ويبدو أن عبد الله قد أدار الحرب ضد طوسون بكل نشاط ومهارة ، فقد سيطر بيد من حديد على قواته الكبيرة بما فيها من عناصر فرارة طيارة . وكان هو الذى ألهم شعب القصيم أن يصمدوا فى وجه الاعتداء المصرى كما ظهر ذلك فى توبة أهل رس المتأخرة لسهولة انقيادهم للعدو وكون محمد على هو الذى طلب التوقف يعتبر بحد ذاته نصرًا معنويًا للوهابيين تأتى بفضل المقاومة الضارية التى أبداها أهل نجد ضد مطامع طوسون باشا .

أما عبد الله فقد فاز بفترة قصيرة للراحة من الأعمال الحربية ، وكان باستطاعته أن ينام هادئ البال فوق أكاليل غاره فى الدرعية ولو إلى حين . وكان لايشك فى ضرورة تأديب بعض العناصر من السكان الحضر والبدو ، لعدم ولائهم الذى أظهروه ، والذى أصبح معروفًا لايصح السكوت عنه .

وانقضت سنة .. ثم قرر أن يحشد قوات كبيرة من كل ناحية في مملكته : من عمان ووادى الدواسر والإحساء وجبل شمر ، وحتى من الجوف فى الشمال ، علاوة عن الفرق المحلية من أقاليم موطنه والقصيم . ووجه أنظاره أولاً إلى الخبرة والبكيرية ، فدمر أسوارهما اتقاء أذاهما فى المستقبل . ثم سار غربا نحو حشود من قبائل حرب ومطير ، وصل إلى آبار العلم قرب الحنكية ، ثم اندفع جنوبًا إلى آبار حرة الكشب ، ليعود إلى بلاده عن طريق الدفينة Dafina دون أن يبدو منه أى نشاط . وذلك لأن معظم القبائل انتشرت فى الصحراء ؛ ولتجنب الاحتكاك به بعد أن دمرت معظم الآبار التى يمكن للغزاة أن يعتمدوا عليها . بينما أخذ أمير رس واثنان آخران من أهلها البارزين رهائن إلى الدرعيه .

ولقد أوجدت هذه الأفعال تذمرًا فى القصيم ، ومن ثم أرسل بعض الأشخاص الساخطين رسائل إلى محمد على الذى كان فيما يبدو ميالاً إلى إستئناف نشاطه الحربى فى الجزيرة العربية . وبما أن طوسون قد مات ، فقد وقع اختياره على ابنه إبراهيم ليقود قوات الحملة . فأرسل عبد الله رسلاً يحملون هداياه إلى نائب السلطان ، ورسائل يطلب إليه فيها تجديد الهدنه او تأييدها ، ولكن لم تلق الترحيب الحار الذى كانت تلاقيه سابقاتها فى الماضى . وفى هذه الأثناء كانت الاستعدادات لغزو الجزيرة العربية تسير قدمًا .

وفى تشرين الأول أو الثانى من سنة ١٨١٦ ، وصل إبراهيم باشا إلى المدينة المنورة بجيش قوى ، وأقام القاعدة الأمامية لعملياته فى الحنكية ، ليبدأ عملية طى بساط الصحراء البطيئة حتى يصل إلى التفاحة الكائنة فى وسطه ، أى إلى الدرعية ، متبعًا التكتيك الحربى الذى شرحه لأبيه وجميع مستشاريه العسكريين ، كما جاء فى القصة الشائعة فى ذلك الزمن . وكان من نتاج غزواته على القبائل البدوية أن تحقق له انضمام هذه العشائركحلفاء له فى الحملات المزمع شنها فى المستقبل القريب وأبرز هؤلاء الحلفاء بالطبع ، قبائل حرب ومطير كما كان الحال فى السابق . هذا علاوة عن بعض العناصر من عشائر عتيبة وعنزة (الدهامشة).

ولقد امتدت غزواته إلى الشرق حتى وصلت إلى حدود تلال عبانات Abanat أما عبد الله بن سعود فقد بدا استعداده لمواجهة هذا التهديد بالغزو . فأمر جيوش الوشم والسدير بالانضمام إلى حجيلان بن حمد زعيم القصيم وقوات مقاطعته ، هذه القوات التى تمركزت عند الغميل بين بريدة والخبرة ، ويبدو أنهم أمضوا الأشهر الأربعة هناك وهم لايفعلون شيئًا. غير أن عبد الله جاء على رأس قوة كبيرة إلى رسّ فى شهر آذار سنة ١٨١٧ فدعا إليه حجيلان وجيشه ليوافوه هناك . ثم سار من هناك فى وادى ريما إلى آبار العلم ، مؤملاً أن يلحق بحلفاء إبراهيم باشا من البدو. غير أنهم تراجعوا إلى الحنكية ، فانسحب عبد الله بدوره إلى مكة ونجح فى انتشار ما قد يطرأ . وطرق سمعه بأن على عزان Azan مع قوة تركية ترافقها قوة بدوية قد توجه إلى آبار ماوية Mawiya ماوية على بعد مسيرة يومين من الحنكية إلى الجنوب الشرقى، فهاجمهم عبد الله فى الحال . وباغتهم على الآبار فى الصباح الباكر من اليوم الأول فى آيار ، وطاردهم حتى أصبحوا فى متناول المدافع التركية . وتمركز عبد الله فى موقع مقابل لمعسكر العدو غير أن المدافع أحدثت كثيرًا من الأضرار فى صفوفه فتغلب المصريون بذلك على محاولته احتلال الآبار وظل المصريون يسيطرون على ميدان المعركة وعلى الآبار بينما هرب عبد الله وفرقة من فرسانه عائدين إلى نجح ، حيث ترك معداته الثقيلة ومن هناك سار إلى عنزة عن طريق خبرة .

أما إبراهيم فلم يُضعْ الوقت بل أخذ يطور نصره ويستفيد منه ، فسار من الحنكية إلى ماوية مع جيشه الرئيسى ومعداته كلها . ومن هناك اندفع نحو القصيم فوصل قبالة رس فى التاسع من تموز. ووجد السكان غير ميالين هذه المرة إلى الاستسلام ، فقد أرسل إليهم

عبد الله قوة من الجيش لتقوية دفاعهم . واشتد حصار رسّ ، وكذلك اشتدت المقاومة العنيدة غير أن الأمور سارت فى صالح إبراهيم ، ولم تترك مدافعه ومعدات حصاره راحة للمدافعين لا ليلاً ولا نهارًا .

كانت الثغرات والشقوق التى تحدثها المدافع فى الأسوار نهارًا يعيد المدافعون إصلاحها ليلاً دون كلل ولا ملل .. وكانت الألغام والقنابل تطلق من الداخل لإبطال مفعول ألغام العدو المهاجم من الخارج . وقد استعمل المصريون قنابل يطلقونها من مدافعهم فتفجر وسط التحصينات . وكلما مرت الأيام بلا أمل فى الخلاص أرسل المتحاصرون يستنجدون بعبد الله الذى كان مقيمًا فى عنيزة ، فيتوسلونه ويلحون عليه فى طلب المساعدة أو السماح لهم بطلب الصلح مع الأعداء . ويبدو أن عبد الله لم يكن بوسعه التدخل بأى شكل أما الأعداء فكانوا يتلقون الإمدادات والذخائر من مصر بلا انقطاع وأصبح وضع المدافعين يبعث على اليأس . وبعد أربعة أشهر من الحصار اضطرتهم الأحوال إلى طلب الصلح بشروط سخية فى الخامس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨١٧ . وسُمح للمدافعين أن يخرجوا بكامل أسلحتهم ومعداتهم لينضموا إلى عبد الله فى عنيزة أما خسائرهم فبلغت ٧٠ قتيلاً بينما يقدر ابن بشر عدد قتلى المصريين بستمائة قتيل .

وأمضى عبد الله أعياد الحج فى عنيزة ليلة سقوط رس وكان منهمكا فى وضع الترتيبات للدفاع عن المدينة وحصونها ضد هجوم إبراهيم المتوقع . فأرسل حامية إلى حصن صفا المهم، تحت إمرة ابن عمه محمد بن حسن بن مشارى بن سعود وزودها بكل ما يلزمها من ذخيرة لحصار طويل الأمد بينما أرسل حاميات إلى حصون المدينة وإلى المدينة نفسها بقيادة إبراهيم شقيق محمد . ثم سار عبد الله إلى بريدة ليرقب التطورات من هناك .

ويبدو أنه قرر أن يرهق القوات المصرية وينهكها بعمليات الحصار المتعبة والباهظة التكاليف بدلاً من أن يواجههم فى ميدان المعركة متبعًا أساليب حروب العصابات التقليدية المعروفة فى الصحراء أما إبراهيم باشا فأسرع إلى عنيزة واحتلها . وقد أظهر حصن صفا العزم على المقاومة ، غير أن قذيفة انفجرت فى مخزن كحل البارود فى الحصن فأحدث الانفجار فجوة كبيرة فى الأسوار .

وكان سقوط عنيزة نفسها والحالة اليائسة فى وسائل دفاع حصنها ، أجبر محمدًا السعودى على طلب الصلح . ومرة أخرى وافق إبراهيم على عقد الصلح ، وبشروط جد سخية فسمح للحامية بأن تغادر المدينة بكامل أسلحتها وهكذا ضاعت القصيم .

لذا سار عبد الله إلى الدرعية للإسراع فى تنظيم الدفاع عنها ضد العاصفة القادمة . وتوقف فى الشقرا ، مشجعًا سكانها على أن يبدوا مقاومة ضارية بكل ما لديهم من قوة وكان حمد بن يحيى بن غيهب أمير المدينة قد أخذ فعلاً يدفع السكان إلى حفر خندق يحمى المدينة . وكان قد بدأ فى حفره قبل ذلك بسنتين الا أنه أهمل فلم ينته العمل فيه بسبب عقد الهدنة آنذاك . وزود عبد الله المدافعين بذخائر كافية لحصار طويل الأمد جمعت أثمانها من العائلات الغنية . أما أشجار النخيل التى كانت على أطراف الخندق فقد جردت من أغصانها وسعفها لئلا تحترق من جراء إطلاق النيران .

وبعد أن وضع إبراهيم باشا الترتيبات الضرورية لتأمين سلامة عنيزة ، تقدم صوب بريدة حيث استسلم الأمير حجيلان مع المواطنين دون مقاومة . وهكذا سقطت جميع القصيم فى يد إبراهيم خلال أسبوعين أو ثلاثة بعد انهيار مقاومة رس الباسلة ، وأخذ إبراهيم باشا يتقدم إلى الجنوب بحرية وبعد أن أخذ معه ابن حجيلان وشخصين آخرين بارزين من أهل بريدة كرهائن حسب عادته ، زحف على المذنب وعشيقير والفرعة على التوالى . فاستسلمت كلها لدى ظهوره على أبوابها . وقد اتخذ من عشيقير قاعدة له ، ثم تقدم فى الرابع والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨١٨ للاستيلاء على الشقرا وما جاورها ، وليضع خطة الهجوم على المدينة التى يعرف جيدًا أنها ستبدى مقاومة ضارية وراء تحصيناتها القوية .

وفى اليوم الثانى بدأ إبراهيم الهجوم من مواقعه فى الشمال والشرق من الواحة حيث جرى قتال ضارٍ بين أشجار النخيل . وتكبد الأتراك فيه إصابات فادحة فاضطروا إلى طلب الإمدادات من عشيقير . غير أن المدافعين اندحروا إلى داخل المدينة ، وجرح أميرهم جرحًا بليغًا .

أما إبراهيم باشا فقد بدأ يستخدم تكتيك نسف الأسوار بفضل مدفعيته الثقلية المنصوبة على رابية مشرفة تتحكم بدفاع المدينة . وكان القصف شديدًا حتى سُمع هديره فى

أقليمى السدير والمجمعة القريبين فحسب ، بل فى هضبة عرمة أيضًا أما السكان فتحصنوا وراء أسوارهم الا أنَّ إبراهيم أحضر مدافعه إلى أمكنة قريبة وقام بقطع عدد هائل من أشجار النخيل المحيطة بالمكان . غير أن المدافعين ردوا على الهجوم بكل ضراوة وشدة ، ومن كل نقطة ملائمة بين الأسوار المهدمة والأبنية المدمرة ، وعلى الأخص فى الخندق الذى حماهم من طلقات الرصاص وقنابل المدافع . وقد تجاهلوا يومًا بعد يوم دعوة الباشا لهم للاستسلام بشروط مشرفة . لكن الأمور لم تكن فى مصلحتهم على الإطلاق . وفى العاشر من نيسان عرضوا أن يستسلموا .

كان سقوط شقرا يعنى وقوع الوشم بأكمله فى يد المصريين فأرسل إبراهيم باشا قوة من جيشه تحت قيادة رشوان أغا لإخضاع السدير والمجمعة ونهبها إذا أبدتا أية مقاومة . أما الحولة والمحمل فقد تجنبتا الهجوم المصرى بإعلان خضوعهما إلى إبراهيم أثناء شهر إقامته فى الشقرا ، ذلك الشهر الذى قضاه الباشا منهمكًا فى الإشراف على ردم الخنادق وهدم ما تبقى من الأسوار . وأدخل بعض الناس من ذوى المصالح فى روعه إمكانية الانتقضاض عليه بعد رحيله ، ولذا عامل الأمير الجريح والمواطنين الآخرين معاملة صارمة ، إلى أن ثبت لديه أن هذه الافتراضات لا أساس لها من الصحة . ومع هذا أخذ إبراهيم معه عشرة من أهل المدينة كرهائن عندما غادر الشقرا سائرًا إلى ضرمى ، (ضرمه) .

كان عبد الله قد توقع هذه الحركة . فأرسل إمدادات من عنده إلى ضرمى لتعزيز وسائل دفاعها ، بقيادة ابن عمه عبد الله بن محمد بن سعود ، وقادة آخرين (بن عفيصان ومحمد العميرى) وفى العشرين من شباط ، وصل إبراهيم إلى مشارف المدينة فوجدها مسلحة على أهبة الاستعداد لمقاومة هجومه . فاتخذ مواقع له فى واحة المزاحمية على بعد بضعة أميال من المدينة . وجلب مدافعه وآلات حصاره لقصف أسوار المدينة حسب خطته الحربية الجديدة . وبعد أن تضعضعت وسائل الدفاع ، قام بالهجوم على المدينة محاولاً اقتحامها عنوة ، غير أن صمود مدافعيها رده على أعقابه ، وتراجع جنوده بلا نظام بعد أن تكبدوا ستمائة قتيل .

أما رجال ضرمى فأخذوا يصلحون ما أصاب بعض الأسوار من خلل ولاحظ إبراهيم ذلك فقرر أن ينقل مدافعه إلى ناحية أخرى ، إلى حيث كانت قوات الخرج يقودها متعب بن عفيصان . فصمدوا بالرغم من قصف المدفعية الشديد . وفى هذه الأونة سمع رجل يصيح

بين صفوف المدافعين قائلاً : أن الأتراك قد أصبحوا وراء هم و أن أبواب المدينة أصبحت مفتوحة أمامهم . فتوقفوا عن القتال وتقهقروا بينما أخذت قوات العدو تطاردهم داخلة المدينة من كل جهة وزاد الطين بلة أن نزلت الأمطار فى ذلك الحين ، وكانت موجة البرد شديدة للغاية . وقد استمر القتال فى الشوارع دون هوادة ولا رحمة إلى ما بعد شروق الشمس، وعند ذلك شق محمد العميرى على رأس قوات ثادق طريقه وسط صفوف العدو ونجا بمن معه بينما استمر المصريون ينهبون المدينة ويذبحون من يصادفونه من أهلها فى الشوارع . أما سعود بن عبد الله ومعه مائة رجل من الدرعية فقد التجأوا إلى أحد حصون المدينة ، واستسلموا فيما بعد بشروط مشرفة إلى إبراهيم فسمح لهم بمغادرة المدينة بأمان . وساروا إلى الدرعية وأما سكان المدينة فقد هرب معظمهم إلى الصحراء .

وأخذ إبراهيم يجمع الأسلاب والغنائم ، ثم جمع زهاء ثلاثة آلاف شخص بين امرأة وطفل وأرسلهم تحت الحراسة إلى الدرعية ، دون أن يصابوا بأذى أو تساء معاملتهم فى الطريق .

وهكذ سقطت ضرمى ، التى تعتبر أقوى مدن نجد بعد الدرعية ، واستولى عليها إبراهيم بعد ثلاثة أو أربعة أيام من بدء الهجوم . وقد هلك فى المعارك لا أقل من ٨٠٠ من رجالها البالغ عددهم ١٢٠٠ رجل ، بالإضافة إلى عدد آخر من القتلى من النجدات التى هرعت إلى المدينة .

وبعد أن نهب إبراهيم المدينة ودمرها ، انسحب ليعد العدة للمرحلة الأخيرة من عملياته الحربية التى كلفه بها أبوه ، وسار عن طريق ممر الحيسية ووادى حنيفة مارًا بالعيينة وجبيلة ، حتى وصل إلى مزارع ملقة على بعد مسيرة ساعة من الواحة ، وعسكر فيها . ثم أخذ يقوم بإستكشاف الوادى حتى مشى فى مدخل المرتفعات برفقة بعض أركان حربه وقليل من المدافع . وسارت خيالته إلى الأمامية ، عاد إلى مقره كى يعد العدة للمعركة التى ستقع فى الحادى عشر من آذار سنة ١٨١٨ .

ومع أن المقاطعات والمدن والقرى النجدية سقطت واحدة تلو الأخرى فى يد الأعداء الغزاة ، فلقد كان هنالك دائمًا عناصر ترفض فكرة الخضوع للأجنبى ومسالمته تحت حكم

وثنى ، وتقاطر هؤلاء إلى الدرعية . مما أدى إلى زيادة سكانها غير أن عبد الله عالج الأمر بصورة مرضية . . كانت واحة الدرعية تقع فى وادى حنيفة البالغ عرضه ٥٠٠ ياردة . وكان هنالك مزارع نخيل كثيفة فى هذا الوادى الذى يمتد مسافة أربعة أميال من الشمال إلى الجنوب. وكانت هذه المزارع تمتد على جانبى قناة المسيل حتى تصل إلى مرتفعات صخرية يبلغ ارتفاعها مائة قدم .

فى هذه المزارع نشأت عزب صغيرة يقطنها معظم السكان ، وتشرف عليها قلعة طريف السامقة ، جاثمة على بعض الصخور البارزة إلى الجانب الأيمن وكان هناك قصور العائلة الملكية السعودية ومساكن حاشيتهم ، بالإضافة إلى الجوامع ومظاهر الرفاهية الأخرى التى تزخر بها المدن عادة . وكان هناك خندق عميق يفصل القلعة عن الجناح الأيمن المجاور ، وتنتشر على جانبيه أكواخ حقيرة ، ومبان يقطنها أصحاب الحرف من الطبقات الفقيرة ، من الشعب . أما خارج هذه الضاحية ، فكان هنالك سور تكثر فيه الأبراج والحصون الصغيرة ، يمتد حول مجرى الوادى من الجهة الشرقية ، وكذلك كان هنالك سور آخر أطول من الأول يلتف حول الصخور فى الجانب الشرقى أو الأيسر من الوادى ، فى قوس ضحل قليلة العمق. أما الدخول إلى القسم الرئيسى من الواحة فقد كان مقصورًا على طريق الوادى من الشمال والجنوب ، بينما كانت القوافل تهبط من الصخور الواقعة فى حفتيه . وأهم طرق القوافل هذه الطريق المؤدى إلى الرياض . على هذه الصورة كان الموقع الذى قدر له أن يشهد كفاح الوهابية المرير الأخير من أجل الحياة ضد أعظم دولة إسلامية ، ضد الباب العالى .

وفى الحادى عشر من آذار ، سار إبراهيم باشا بكل قواته عبر ذلك الوادى ، خيالته تنتشر على جانبيه فى الصحراء ، ومركزقيادته العليا فى علب وكان يواجه الباشا فى هذا الوادى، جيش الدرعية الرئيسى المؤلف من سكان المدن والقرى النجدية ، بقيادة أشقاء عبد الله الثلاثة – فيصل و إبراهيم وفهد ولم يكن لديهم غير ثلاثة مدافع يقابلون بها مدافع العدو القوية . وكان سعد وتركى شقيقاهم يقفان على يمينهم إلى الشمال ، على رأس قوات الدرعية، يسدان بها مدخل شعيب المغيصبة . بينما كان إلى القرب منهم قوات منفوحة يقودها زعيمها عبد الله بن مزروع . وبين هذا الخط الدفاعى ومواقع العدو ، كان يقف الحرس الأمامى المؤلف من قوات الحريق بقيادة تركى بن عبد الله الحزانى ، وعناصر أخرى تسد

بوابة سمحان Samhan فى الطرف الشمالى من القلعة ، حيث تمركز عبد الله نفسه داخل الأسوار ومعه بعض المدافع الثقيلة . وتمركز فهد بن عبد الله بن عبد العزيز (ابن عم عبد الله الأدنى) فى قرى عمران القريبة من نخيل رفيعة ، على رأس قوات من الدرعية والسدير ومعه بعض المدافع ، هذه هى المواقع التى تشكل الخط الأمامى من خطوط الدفاع التى تواجه مواقع العدو. ووراء هذه الخطوط الدفاعية ، وفى الجزء الأسفل من الواحة ، كان الشيوخ ، والعناصر التى لا تستطيع القتال ، يقفون فى كل برج وحصن للذود عن مواقعهم إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك . أما سعود بن عبد الله بن عبد العزيز فكان يقف على تلة القرين مع مدفعيته الثقيلة ، ليصد العدو فيما إذ حاول إبراهيم باشا الالتفاف من الصحراء الواقعة فى أسفل الوادى .

وعلى الضفة اليمنى أو الغربية من الوادى ، كان يتمركز عبد الله بن عبد العزيز عم عبدالله ، وحسن شقيقه الأخر ، يحميان مدخل شعيب الحارقة ، على امتداد الخط الذى تمركز فيه تركى وزيد ، أبناء عبد الله بن محمد ، مع قوات الدرعية وهو عبد معتق لسعود الكبير . وتمركز فهد بن تركى وابن عمه بن حسن بن مشارى الوارد ذكره كقائد لحصن الصفا فى عنيزة - تمركزًا فى أعلى الوادى ووراء هذه المواقع فى الضفة اليمنى كان يقف مشارى شقيق عبد الله محتلاً الأرض المخصصة لصلاة العيد على المنحدر الواقع وراء الضاحية الغربية المار ذكرها .

وقرب هذه المواقع تماما كان يقف سعود بن عبد الله على ضفاف شعيب الصفا ليمنع أية محاولة من جانب العدو للتقدم من الخلف إلى هذه الجهة . وكان هذا الأمير ، كما أسلفنا ، يسيطر على موقع القرين الذى يحمى مؤخرة خطوط الضفة اليسرى .

أما إبراهيم باشا فلم يُضع الوقت ، بل بادر حال وصوله علب إلى شن هجوم على خط الوهابيين الأمامى . . واستعر أوار المعركة الوحشية عشرة أيام باستمرار ، ولكن دون نتائج حاسمة لأىٍّ من الجانبين ، بالرغم من أن معركتين نشبتا وجها لوجه ، عند مدخل شعيب المغيصبة والحارقة على طرفى الوادى .

وكان الوهابيون هم الذين بدأوا الهجوم . وأوقف إبراهيم القتال كى يتخذ مواقع جديدة يشن منها هجومه على المراكز الدفاعية فى أقصى المنطقة الشمالية من وادى غبيرة .

ولاح فجر ذلك اليوم ، و إبراهيم ينشط فى هجومه العنيف دافعًا بسيل من الإمدادات لشغل الحامية ، بينما أتى بفرقة قوية من الخيالة كان قد أخفاها ليلاً ، لشن هجوم كاسح من الخلف . وتم الهجوم . . فكان مباغتة للوهابيين اضطرتهم إلى التقهقر فى فوضى شاملة على طول الوادى، وخسروا مائة قتيل ، معظمهم من أفراد العائلة المالكة . فقد كان بين القتلى ، فهد بن تركى ومحمد بن مشارى وحسين زعيم الحزانى أما الناجون فلمُّوا فلولهم وساروا إلى الخط الأمامى الذى لم ينجح الأتراك فى زعزعته . وكان لهذه الهزيمة الموسية أثرها السيء فى نفوس بعض الذين فتر ولاؤهم للعقيدة الوهابية . فانسحبوا من جيش عبد الله وحاولوا استراضاء إبراهيم باشا بإعطائه معلومات واقعية عن الوضع فى المدينة .

وبعد هذا النجاح الذى أصابه إبراهيم فى غبيرة ، أمر فرقة من الفرسان مع عناصر أخرى من المشاة سحبها من مواقعها المحصنة فى وادى العزان المسيطر على القوات المتمركزة فى الضفة اليمنى، وأصدر إليهم تعليماته بوجوب الهجوم على موقع الوهابيين فى حصن سمحة بينما أمر قواته على الضفة اليسرى بأن تشن هجومًا شديدًا على القوات الأمامية للحيلولة دون انسحاب أى من الوحدات المتمركزة هناك وفقًا للغاية الرئيسية من هجومه. ثم فتح مدافعه على الحصن وما يحيط به من مواقع ، فتحولت التحصينات إلى خرائب ، مما اضطر عبد الله بن عبد العزيز إلى ترك مواقعه عله يحمى المراكز الخلفية المحصنة ومن هذه النقطة شن على عزان هجوما على الحصن الذى تمركز فيه عمر شقيق عبد الله ، فصمدت قواته وقاومت ببسالة بالرغم من قصف المدفعية الشديد. غير أنهم بوغتوا بهجوم من الخلف قامت به القوات التى احتلت حصن سمحة . فانهزم رجال عمر وهربوا فى الوادى ، حيث كان إبراهيم يوجه هجومه الرئيسى على الخط الهام الذى تمركز فيه فيصل بن سعود وقد قاوم فيصل مقاومة ضارية : غير أن على عزان أرسل فرسانه ومشاته الذين كمنوا فى مزارع النخيل عند الفياض ، لشن هجوم عن طريق شعبى الحارقة وغبيرة . فاضطر عمر بن سعود لترك مواقعه ثم شق المهاجرون طريقهم والتفوا حول مراكز فيصل الرئيسية . فانهزم جيش عمر بعد معركة ضارية ولاذ بالفرار تاركًا وراءه معظم مدافعه ومعداته . كذلك فرت القوات المتمركزة على جانبى الوادى وأصابها الذعر .

ولم تتوقف القوات عن التقهقر ، حتى نجح فيصل وأخوه سعد فى جمع فلول قواتهما عند مزرعة السلماني وتمكنهما من دحر العدو المطارد وكبداه خسائر فادحة إلا أن هذه القوات لم تحاول استرجاع المواقع التى فقدتها بل ظلت فى المواقع التى وصلتها لتقيم خندقا آخر محصنًا ، يربط المواقع الأخرى المختلفة بخنادق صغيرة أنشئت فى الأرض التى يتمركز فيها جيش أخوة عبد الله : فيصل وتركي وفهد ، وعمهم عبد الله بن عبد العزيز . وإلى اليسار من هذا الموقع ، كان يقف إبراهيم بينما تمركز سعد بن عبد الله على إفريز القلعة بجيش ومدفع ضخم يشرف إشرافا جيدا على الوادى بأكمله ويسيطر على ميدان المعركة . وفى الضفة العليا من شعيب غبيرة كان يقف تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود وابنه فيصل الذى يظهر لأول مرة على مسرح سيلعب عليه دورًا رئيسيًا مدة تزيد على ثلاثين سنة . وكان عمر وحسن أخوى عبد الله ، والعبد فريج الحربى ، يحتلون منطقة شعيب بليدة .

وبين هذه المواقع وشعيب كتلا كان يقف أخ آخر من أخوة عبد الله يدعى عبد الرحمن ، بينما احتل مشارى بن سعود شقيق عبد الله ، موقع مصلى العيد كانت هذه المواقع تواجه مراكز الأعداء فيقوم على حراستها جيش صغير قوى ليلاً ونهارًا أما المراكز الواقعة فى أسفل الوادى فكان يحرسها جيش صغير ووضع ليقوم بواجبه إذا دعت الحاجة ، ولم يكن له شأن يذكر فى تطورات المعركة .

وتولى عبد الله بن مزروع المنفوحى (من منفوحة) وعبد الله بن إبراهيم بن حسن المشارى الدفاع عن المراكز الواقعة فوق السلماني على الضفة اليسرى ، والمشرفة على مرتفع نضرة . وكان يقوم على هذا المرتقع حصن صغير من الحجارة يحميه رجل اسمه سديد آل لوح Al Lauh المحملي ، مشكلاً إحدى النقاط الهامة فى خطوط الدفاع . وبين هذا الموقع، ومسيل شعيب قليقل كان يقف سعد بن سعود ، شقيق عبد الله مع قواته بينما احتل إبراهيم وعلى ولدا دغيثر الشعب نفسه وكان عبد الله يقف بين بوابتى سمحان والظهر قرب بطارية بالمدفعية الثقيلة ، مع عدد من الزعماء وعلماء الدين والفقهاء .

دفع إبراهيم مراكزه إلى الأمام حيث مدخل قرى قصير Qiri Qisair قرب المدينة من الجهة الشمالية ، بينما تمركز على عزان على طول الضفة اليمنى فى مواجهة القلعة من الغرب ،

اشتدت نار المعركة .. واستمرت ليل نهار بنفس الضراوة والشدة . وكثيرًا ما كان يجرى القتال وجهًا لوجه أثناء توقف قصف المدفعية المستمر . وكان هذا النوع من القتال فى مصلحة المدافعين، إلا أن العدو كان متفوقا فى العُدَد ، وبمقدوره أن يسد الثغرات التى تحدث فى صفوفه من جراء خسائره الفادحة . وكانت الإمدادات والذخائر تصل إليه بصورة مستمرة من المدينة المنورة . أما الوهابيون فكانت خسائرهم فى الرجال والعتاد لا تعوض ولا تسد .

ودارت المعركة حول عدد من النقاط الدفاعية مثل مزرعة السلمانى ، وخرائب حصن سمحة ، وشعيب بليدة على ضفة الوادى اليمنى ، وفى شعيب قليقل إلى اليسار . أما خيالة العدو فالتفوا حول منطقة المدينة ليقوموا بشن هجوم على قرية عزقة Arqa على بعد بضعة أميال من الدرعية ، واستولوا عليها فدمروها . وهرب الناجون من سكانها إلى العاصمة عن طريق الوادى وعاد عبد الله فاحتل القرية فى موسم التمر لحماية المحصول وجمعه . وشن إبراهيم باشا هجوما معاكسا على الحامية بمساندة أمير الرياض ناصر العيضى Al Aidhi وعناصر أخرى من الرياض ومنفوحة والقرى النجدية التى انضمت إلى العدو فاستسلمت حامية القرية على شروط ، وسارت إلى الدرعية .

وأصيب إبراهيم باشا بكارثة خطيرة ، إذ انفجر أحد مستودعات ذخيرته مدمرًا مقادير هائلة من الذخائر وخسائر فادحة فى الأرواح . هذا علاوة عن الذعر العام الذى أصاب الجيش بسبب هذه الكارثة . وانتهز الوهابيون هذه الفرصة السانحة فهاجموا العدو ولكن بدون فائدة تذكر . أما إبراهيم باشا فأرسل قطعات من جيشه تجوب البلاد طولاً وعرضًا ، وتجمع كل ما تجده من عتاد ومال ، ليعوض الباشا ما فقده . وشرع الأتراك الموجودون فى العراق وغيرها ينظمون قوافل لتمويل جيش إبراهيم وتزويده بحاجاته . . وهكذا كانت قوة العدو فى ازدياد ونمو يومًا بعد يوم . أما فى الدرعية فكان عدد المرتدين فى ازدياد . وحتى غصاب زعيم عتيبة الذى كان دائمًا يعتبر من أقوى أنصار العائلة المالكة السعودية تخلى عن الوهابيين وانضم إلى الأعداء . ثم قدّم إلى إبراهيم باشا معلومات قيمة وأسدى له النصح بشأن الخطط الحربية الدفاعية ومواقع الوهابيين ، إذ أنه كان قائد فرقة (الفرسان) الخيالة فى جيشهم .

وفى نيسان سنة ١٨١٨ أصيبت القضية الوهابية بخسارة فادحة بوفاة فيصل شقيق عبد الله ، برصاصة طائشة أثناء جولة تفقدية بين صفوف جيشه . فخلفه أخوه تركى . هكذا استمر القتال المضنى بلا هوادة ولا راحة من الجانبين . وقد جرت معارك دامية فى شعيب كتلا وقرى عمران ، كما نشب قتال مرير حول مزارع رفيعة . حيث شن أبناء دغيثير وأتباعهم هجومًا شديدًا على مواقع العدو . غير أنهم ردوا على أعقابهم بخسائر فادحة ، ومن بينها رجلان من عائلة دغيثير نفسها .

ونشبت معركة أخرى أثر هجوم شنه إبراهيم باشا على حصون الوهابيين ، إلا أنهم ردوا المصريين على أعقابهم ، وتتبعهم فهد بن عبد الله ، غير أنه قتل فى المعركة التالية التى نشبت حين صمد الأعداء للمطاردين . ثم خرجت قطعان من الدرعية وأخذت تضغط على الأتراك ، فدارت رحى المعركة واستمرت من الفجر حتى الظهيرة دون نتيجة حاسمة لأى من الجانبين .

وبدأ المدافعون فى هذا الوقت يشعرون بوخزات الجوع .. فقد أوشكت مؤنهم على النفاد وارتفع سعر القمح بشكل لم يسمع بمثله من قبل ، حتى أخذ الكثيرون يغادرون المدينة وكان من الواضح أن تيار الأحداث يسير معاكسا لعبد الله وشعبه .

وفى الخامس من تشرين الثانى ، شن إبراهيم باشا هجومًا شديدًا مركزًا على حصون المدينة من جميع الجهات . فأرسل قطعة من الجيش مع مدافعها إلى طرف الواحة الأسفل للمرة الأولى ، ليرعب الحاميات الضعيفة فى تحصينات عبد الله ، بينما تمركزت قوة كبيرة أخرى بقيادة على عزان فى الضفة اليمنى ، مهددة القلعة من الغرب . وشن هجوما شديدًا على الضفة اليسرى لاستدارج أكبر عدد ممكن من الحاميات إلى تلك الجهة ، بينما وزع على عزان قواته لتقوم عند الفجر بشن هجوم على مراكز دفاع عبد الرحمن شقيق عبد الله ، فوق بستان نخل المشرفة . ودخلت قواته البستان عندما وجدت الموقع خاليًا ، وأحدثت فجوات فى سوره الممتد على طول القناة . وانتظرت دورها للاشتراك فى المعركة الدائرة رحاها على كلتا ضفتى الوادى . أما الحاميات فقد كانت منهمكة فى التهيؤ لمواجهة الأحداث فلم يتنبهوا لما كان يجرى رراءهم إلا بعد أن هاجمتهم قوة المشيرفة من الخلف . فانهزموا تاركين حصونهم بعد أن دب الرعب فى صفوفهم .

وظل العدو يطاردهم حتى تفرقوا وساروا إلى منازلهم فى القرى المنتشرة فى الوادى وأغلقوا أبوابها عليهم وتحصنوا وراء الأسوار . أما سعد بن عبد الله فالتجأ إلى قلعة طريف ، قلعة جده ، مع عدد من أتباعه البارزين . إلا أن إبراهيم باشا شرع يقصفها بمدافعه . وكان عبد الله وأتباعه لا يزالون صامدين فى مراكزهم بين بوابتى المدينة ، وسكان الوادى يقاتلون ببسالة فى معركة يائسة خرجت السيطرة عليها من أيديهم .

وأدرك عبد الله بعد أن قُتل أخوه فى المعركة أنه فقد كل شىء ، فعاد إلى منزله حزينًا، تاركا عتاده إلى الأعداء ، وأرسل وفدًا مؤلفا من عبد الله بن عبد العزيز والشيخ على بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الكبير ، إلى إبراهيم باشا للتفاوض فى عقد الصلح . فقبل إبراهيم باشا مطلبهم بالنسبة لقرى الوادى ، مستثنيا القلعة ، واشترط أن يخرج عبد الله بنفسه ويستسلم بلا قيد أو شرط فعقدت هدنه منفصلة بينه وبين قرى الوادى بموجب شروط مشرفة فى التاسع من أيلول سنة ١٨١٨ بينما أصبحت القلعة المحصورة مسرحًا لأعنف المعارك وأشرسها. إذ قصف إبراهيم باشا منازل العائلة المالكة من بوابة سمحان ، التى اتخذها عبد الله مقرًا لقيادته العليا. وجلب عبد الله المدافع من القصر إلى الجامع ، استعدادًا للجولة الأخيرة مع الأقدار. وانضم إليه أعداد كبيرة من المواطنين الموالين له .واستمر يقاوم العدو الذى يفوقه عددًا ، مقاومة يائسة مدة يومين كاملين ، وبعدها اتخذ قراره بالاستسلام فى الحادى عشر من أيلول ، بعد ستة أشهر من القتال الضارى ضد قوات الباب العالى بمواردها الهائلة . وضد نائب السلطان الوالى الأرناؤوطى على مصر. ولقد تم عقد الصلح بشرط أن يشخص عبد الله بنفسه إلى أسطنبول مع رشوان أغا وعلى دويدار. فوصلها عن طريق مصر وهناك نفذ فيه حكم الموت بأمر من السلطان التركى.

أما حملة إبراهيم باشا على الجزيرة العربية فكلفت الأتراك اثنى عشر ألف قتيل ، منهم عشرة آلاف سقطوا فى المعارك التى دارت فى الدرعية . وكان هذا النصر الساحق زهيد الثمن، فقد دمرت قوات الوهابيين وسحقت تحت أقدام الإمبراطورية العثمانية ، وربما إلى الأبد ، لو لم تبدد الإدارة التركية هذه المكاسب وتذروها هباءً بضعفها وسوء معاملتها . فهى

التى أوجدت فى المناطق التى احتلتها روح الإستياء الذى تبدى فى مظاهر الولاء والإخلاص نحو الأحياء من أمراء العائلة المالكة السعودية .

وكان الكثيرون منهم قد هربوا من الدرعية قبل ختام المأساة ، بينما نقل آخرون منهم إلى مصر وظلوا أسرى، إلى أن عاد البعض منهم فى الوقت المناسب ، ليلعب دوره فى خدمة بلاده. وكان من بين الأمراء السعوديين الذين فروا ابن عم عبد الله ، سعود بن عبد الله بن محمد. غير أن خيالة إبراهيم باشا طاردوه فقتلوه . وتمكن أخوه تركى من الهرب ، وقدر له أن يلعب دورًا عظيمًا هامًا فى إعادة الأمجاد السابقة للبيت السعودى خلال الأعوام العشرة التى تلت الاحتلال التركى، وهى الأعوام التى تميزت بالفوضى والقلاقل . ورافق زيد أخاه تركى إلى الصحراء ، أما فيصل بن تركى فكان من بين الذين نفاهم إبراهيم باشا من العائلة السعودية إلى مصر.

وتقدر خسائر الوهابيين أثناء دفاعهم عن الدرعية بألف وثلاثمائة قتيل ، منهم أخوة عبد الله الثلاثة ، وثمانية عشر رجلاً من العائلة المالكة . وخلال الحصار الذى دام ستة أشهركاملة ، اشترك فى الدفاع عن الدرعية عشرة من أخوة عبد الله وواحد من أبنائه الثلاثة . أما عائلة معمر أمراء العيينة السابقون ، فقد أسهموا بما لايقل عن خمسة عشر رجلاً دونت أسماؤهم فى سجل الشرف . كما قدمت عائلة دغيثير ستة شهداء، وكان لكل فرقة من الإقليم نصيب لا يستهان فى قائمة القتلى هذه .

لقد مضت الإمبراطورية الوهابية فى تلك الحرب إلى النهاية ، وبدا أنها لن تقوم ، ولكنه كتب لها أن تنهض مرة أخرى من بين رماد أنقاضها فى زمن لاحق ، وبعد الاضطراب الذى جاء فى أعقاب تلاشيها المؤقت .

وقد عامل إبراهيم باشا – حسبما نعلم – جميع أفراد العائلة المالكة السعودية بالتجلة والاحترام اللائقين بهم . غير أن الحال يختلف بالنسبة إلى أنصارهم ، وعلى الأخص أفراد الهيئات العلمية . فقد قتل بعضهم رميًا بالرصاص ، بينما مزقت أجساد الباقين منهم إربًا إربًا بقذائف المدافع . أما أحمد الحنبلى، قاضى الدرعية ، فقد ضُرب وعُذب بعد أن قلعوا أسنانه .

وأما سليمان بن عبد الله ، حفيد محمد ابن عبد الوهاب فقد تعرض لعار الإصغاء إلى عزف القيثار قبل قتله رميًا بالرصاص . أما على بن حسين الحفيد الثانى لمحمد بن عبد الوهاب فتمكن من الفرار إلى قطر فعمان ، من حيث عاد بعد بضع سنوات للخدمة تحت لواء تركى.

دام حكم إبراهيم الإرهابى بعد سقوط الدرعية زهاء التسعة أشهر . وأصدر محمد على بنفسه أمرًا يقضى بتدمير مدينة الدرعية تدميرًا فى حزيران من سنة ١٨١٩ .. وكان هذا خاتمة الانتصار الساحق .

الفصل السادس

تركى بن سعود

لقد أدى انهيار القيادة الوهابية - تلك القيادة المستندة إلى المبادىء الدينية والأخلاقية التى فازت بتقدير الشعب واحترامه - إلى الإهمال المثير لتلك التعاليم السامية التى أنقذت العرب من بربرية كانوا يرسفون فى أغلالها قبل ظهور المذهب الوهابى . فقد بدأت تظهر فى الأفق تلك المنافسات والمنازعات القبلية القديمة بتشجيع من لدن أسياد البلاد الجدد . ذلك أن هؤلاء ما كانوا ليهتموا مثقال ذرة بمصلحة الشعب وخيره ، ولا بإعادة بناء اقتصاد البلاد الذى تداعى وانهار من أثر الحروب .

على العكس من ذلك لقد كان هدف إبراهيم الأول هو إشاعة الرعب فى قلوب الناس وفرض الضرائب الباهظة المجحفة لتمويل قواته التى وزعها على الحصون المختلفة ، فى طول البلاد وعرضها ، آملاً بذلك أن يقضى على كل مقاومة لطغيانه . ولم يعد صوت العقل ولا صوت الدين مسموعا فى البلاد .. كان السفر بين القرية والأخرى محفوفًا بالمخاطر ، وحتى عِلْيَة القوم لم يكونوا يجرءون على الانتقال من مكان إلى آخر فى المدينة دون أن يواكبهم حرس.

وأصبح الدس والنميمة من الفروض اليومية . أما المصريون الذين قضوا على ضحاياهم الضعفاء واحدًا تلو الآخر ، فلم يجدوا أدنى صعوبة فى الاستيلاء على أملاكهم ومحصولاتهم لمنفعة الجيش ، بالإضافة إلى تدميرهم كافة الأسوار والأبنية التى يمكن استخدامها فى مقاومة مظالمهم وطغيانهم .

وبالإضافة إلى هذه المطالب الباهظة والضرائب الجائرة التى فرضت على الموارد المحلية المحدودة ، وتدمير مزارع النخيل والمحاصيل الزراعية ، فقد ذر قرن المجاعة واجتاحت البلاد. وقد نجد صعوبة فى تصديق القصة التى تروى أن المصريين قد اضطروا فى بعض الأحايين إلى أكل الخشب ، لكنه من المحتمل أن ضحاياهم التعساء قد مروا بهذه التجربة فعلاً. وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن السلطات ذات الشأن قامت بأى عمل من شأنه تحسين حالة السكان أو زيادة إنتاج المناطق المحتلة . هذا دون الحاجة إلى ذكر الأمن خلال السنوات الست التى عقبت سقوط الدرعية حتى مغادرة الحاميات المصرية للبلاد .

ويظهر أنَّ هذا الإهمال المقصود كان جزءًا من سياسة محمد على فى مصر . وكان حاكم مصر مستعدًا لأن يدع الصحراء العربية تغرق فى الفوضى ، فلا يهمه من أمرها إلا أن تمتنع عن الاعتداءات الخطيرة على أقاليم ساحل البحر الأحمر ، بالنظر لأهميتها الحيوية للإمبراطورية العثمانية . ولم يكن هو ولا غيره يتصور أن الدولة الوهابية قد تبرز مرة أخرى فى أقل من عشر سنوات ، فتنتفض من بين أنقاض الفوضى التى عرفت بها الجزيرة العربية أيام حكم ابنه إبراهيم .

لابد أن فكرة امتداد الحكم التركى حتى الخليج الفارسى داعبت إبراهيم باشا . فبعد سقوط الدرعية ، قام الأخوان ماجد ومحمد من عائلة عريعر وزعيما عشيرة بنى خالد ، يطالبان بإعادة حكمهما إلى البلاد . فسارعت كل من الهفوف والقطيف إلى الاعتراف بهما كُرهًا فى حكم المصريين . غير أنهما لم يتمتعا بالاستقلال طويلاً . فقد أرسل إبراهيم باشا قوة صغيرة من جيشه بقيادة ضابط من عنده اسمه محمد كاشف ، وأمره أن يستولى على جميع أموال عائلة سعود وأنصارها .

وتوجهت القوة نحو الشقيقين المطالبين بالإمارة ، فهرب هذان برفقة زعيم عشيرة السياسب . وأخذ الأتراك يمارسون ضغطهم على كل من كانت له علاقة بالسعوديين ومذهبهم ، ويعتدون عليهم . فمكثوا فى الإحساء حتى بارح إبراهيم الجزيرة العربية . أما الفضل فى إخلاء الإحساء فيعود إلى محمد على نفسه .

وقد كان هذا الأمر فى الظاهر فى مصلحة بريطانيا . وذا أهمية كبيرة فى نظرها . فقد كان عملاؤها وجندها ، خلال السنوات العشرين التى خلت منصرفين إلى ايجاد سلسلة من

المنافذ التوسعية التى لا تزال تقبض بيد من حديد على الأقاليم الساحلية بعد مرور قرن ونصف من الزمن .

لم يكن لنشاط الإنجليز فى هذه المنطقة علاقة بتاريخ السعودية ، إلا أنه يصعب علينا أن نصدق بأن إنزال قوة كبيرة من الجيش البريطانى فى القطيف ، أثناء احتلال محمد كاشف لها ، لم يكن إلا تظاهرة لتأييد الأتراك ومعاضدتهم . فوجود تركيا على ساحل الإحساء كان فى حد ذاته تحديًا غير مباشر لمركز بريطانيا على ساحل القرصان . خصوصًا وأن الأتراك كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين للتركة الوهابية . ومن ناحية أخرى ، كان يهم البريطانيين أن يقفوا على نوايا إبراهيم وأبوه محمد على بالنسبة لساحل الخليج .

وكان الكابتن ج . ف ساد لير يهدف من ورا ء سفرته التاريخية عبر الجزيرة العربية.سنة ١٨١٩ إلى هذه الغاية . ولكن إذا كانت فرصة وجود قوة إنجليزية فى القطيف قد توفرت ، فما هو السبب الذى أضاع إمكانية تحقيق الفكرة البريطانية فى السيطرة على ساحل الخليج كله؟ إن هذا أمر غامض لا يمكن تعليله . ولربما كانت عودة ماجد بن عريعر وأخيه إلى الإحساء بعد مغادرة الأتراك لها ، حلاً مؤقتا مرضيا من وجهة النظر البريطانية ، إلى أن تحدث تطورات جديدة فى الوضع الذى كان غامضًا ، ولكن هذه التطورات لم تقع .

كانت الأوامر قد صدرت إلى إبراهيم من أبيه بوجوب إخلاء البلاد من السكان إخلاءًا تامًا ، وأن يقوم كذلك بتدمير الدرعية تدميرًا تامًا ، بعد هدم التحصينات وردم الآبار الموجودة فى القرى والمدن . وبعدئذ بدأ يسحب جيوشه طالبًا إليها الاجتماع فى ضرمى، ومن ثم بدأ السير ، بعد أن أقام تسعة أشهر فى العاصمة الوهابية . وفى غضون الشهر الذى أقامه إبراهيم فى ضرمى ، وجه عددًا من الغزوات ، ضد بعض عشائر قبائل سبيع ، وعجمان ، وعنيزة . وكان الغرض منها جمع المؤنة . وفى إحدى هذه الغزوات نجا الباشا بأعجوبة ، من طعنة خنجر شقت سرواله (بنطلونه) وسرج حصانه ، وأصابت الحصان بجرح بليغ .

وبعد هذا سار إبراهيم إلى القصيم ومنها إلى المدينة المنورة آخذًا معه حجيلان ، حاكم الإقليم المسن الذى توفى هناك فى الثمانين من عمره . وقام إخوة إبراهيم باشا قبل تركهم مراكزهم باقتراف أعمال منكرة كان الغرض منها القضاء قضاءًا أبديًا على جميع الشخصيات

البارزة فى الجزيرة العربية ، كى لا يتمكن هؤلاء فى المستقبل من إعادة الحياة إلى بلادٍ شملها الدمار . فألقوا القبض على محمد بن عبد الحسن بن على أمير حايل ، وعلى أخيه على وأيضًا على عبد الله بن رشيد أمير عنزة ، وقتلوهم .

وقد لاقت عائلة عفيصان فى الخرج ، الأمرّين على يد الأغا حسين جوخدار الذى كان عائدًا من الحوطة ، فتوقف خصيصًا ليذبح ثلاثة من زعماء تلك العائلة ، ويصادر ممتلكاتهم . كما قتل قرب الدرعية عليًا بن عبد الله ، حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكان هذا متفقهًا كبيرًا فى الدين .

أما المنازعات المميتة والمؤمرات والفتن وحوداث القتل ، التى تلت رحيل إبراهيم باشا عن القصيم وحريملة وغيرها من الأماكن ، فكانت مجرد موجة من الرعب فى مجرى الحوادث الرئيسية التى بدأت تظهر من خلال الفوضى .

* * *

لقد أشرنا سابقًا إلى عودة أبناء عريعر إلى مركزهم التقليدى فى الإحساء ، و إلى تقوية هذا المركز بإلقائهم القبض على سيف بن سعدون ، زعيم السياسب وتخلصهم منه . ويبدو أنهم لم يقنعوابملك أسلافهم وهم يرون عرش الدرعية المرموق خاليًا . و قد كان أخطر مطالب به ، أمراء العيينة الذين أنصهروا فى الدولة الوهابية . وكان عل هذا البيت وزعيمه فى هذا الزمن ، محمد بن مشارى بن معمر ، الذى كان فى الدرعية يوم حصارها ، غير أنه غادرها إلى العيينة بعد أن دمرها إبراهيم باشا .

وفى أيلول سنة ١٨١٩ سار إلى الدرعية ، وأعلن نفسه إمامًا وأميرًا على نجد كلها بدلاً من السعوديين الذين تلاشوا ، طالبًا من أهلها مساعدته على تحقيق هذا الأمر . وصادف طلبه قبولاً لدى بعض المناطق الموالية له ، فشرع فى اتخاذ الخطوات الضرورية لإعادة بناء المدينة المهدّمة . غير أن الجفاف الذى اجتاح البلاد فى تلك السنة ، والمجاعة التى جاءت فى أثره، ثم الأمطار و الفيضانات غير الطبيعية التى حدثت فى تموز سنة ١٨١٩ ، أعاقت جهوده فى هذا السبيل .

وما كادت تمر فترة من الزمن حتى بدأت المعارضة لحكمه ، تظهر فى الأفق ، وبين سكان الرياض وحريملة والخرج على الخصوص . فطلبوا إلى ماجد بن عريعر أن ينضم

إليهم ويساعدهم على طرد الغاصب قبل أن يثبّت أقدامه . وهاجم المتحالفون مدينة (منفوحة) حليفة محمد بن مشارى الرئيسية إلا أن هدنة عقدت بعد القتال الذى لم يكن حاسمًا، فأغرى ابن معمر ماجدًا بالهدايا مؤكدًا له بأنه لا ينوى الاعتداء عليه فى الإحساء . وأعلمه فى نفس الوقت بأن حكمه فى نجد كان باسم السلطان العثمانى. ويبدوا أن شيئًا من هذا كان قد تم بينه وبين إبراهيم باشا الذى كان يعامله معاملة ودية فيها الكثير من الصداقة والإحترام .

ومهما كان رد فعل ماجد على هدايا ابن معمر وتأكيداته، فالبدو هم الذين أنهوا القضية، فعاد ماجد إلى بلاده يجر أذيال الخيبة . وتمكن ابن معمر أن يوسع ويثبت نفوذه فى الأرياف التى انتهزت فرصة ارتفاع أسعار المواد الغذائية فى العاصمة فبدأت ترسل قوافلها إلى الدرعية ، لبيع منتجاتها ومحاصيلها بربح وفير .

أما الرياض وحريملة والخرج ، فلم تعترف بحكم ابن معمر ، ليس هذا فحسب بل يبدو أن حريملة كانت فى طليعة العناصر المناوئة له . وكان لا يعدل عداوتها له إلا ظهور تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود وأخيه زيد المفاجئ ، بعد أن أعطيت لهما التأكيدات بالولاء والمساعدة . وكان من جراء ذلك التشجيع أن دعى تركى لأن يتدخل نيابة عن بعض أهالى حريملة ، فوعدهم بمساندتهم فيها إذا نظموا ثورة على حمد بن راشد الزعيم المحلى عندهم . فأرسل ابن معمر ابنه مشارى . وزيد شقيق تركى على رأس قوة انضمت اليها عناصر أخرى أثناء مرورها بالحمل والسدير لمساعدة أصدقائهم فى حريملة .

وبعد محاصرة حمد بن راشد فى حصنه أسبوعًا واحدًا استسلم على شروط ونقل إلى الدرعية ، وهكذا سارع خضوع حريملة فى خضوع باقى المدن والقرى فى العارض والوشم والسدير ، وأعلن زعماؤها قبولهم بالحكم الجديد ، إما بحضورهم شخصيًا إلى الدرعية ، أو عن طريق رسل من طرفهم .

وقعت هذه العمليات فى بداية آذار من سنة ١٨٢٠ تقريبًا .

وفى نهاية الشهر ذاته تزعزع مركز ابن معمر بوصول مشارى بن سعود المفاجئ إلى الدرعية . وكان أحد أبناء عبد الله السيئ الحظ ، فكان من حقه المطالبه بولاء الأهلين كوارث شرعى لأمجاد العائلة المالكة .

وكان مشارى هذا قد تمكن من الفرار من حراسه أثناء نقله إلى منفاه فى مصر فى مكان يقع بين المدينة وينبع ، فعاد إلى القصيم ، حيث جمع فى زلفى وثرمدة ، عددًا من الأنصار لمساعدته فى مطالبته الجريئة بالعرش . أما ابن معمر فقد انزعج طبعًا من هذا المنافس الجديد . إلا أنه لم يقم تجاهه بأى عمل عدوانى ظاهر . على العكس من ذلك فقد رآه الناس يعلن ولاءه للإمام الجديد . وتقبل الإمام التهانى وفروض الولاء من الأقاليم الأخرى بما فى ذلك الرياض وحريملة والمحمل والسدير والوشم .

وكان أعظم مكاسبه انضمام تركى بن عبد الله إليه ، ثم تبعه عمه عمر وأبناؤه وأخيرًا انضم إليه عضوان من عائلة مشارى ، هما حسن بن محمد ومشارى بن ناصر وكان هؤلاء جميعا قد فروا من الدرعية قبل سقوطها .

كان هم مشارى الأول الآن إخضاع إقليم الخرج الذى كان لايزال يقف فى صف المعارضة بالنسبة إليه أما السُليمية Sulaimiya واليمامة فقد قاومتا فترة وجيزة ، إلا أنهما عادتا فاستسلمتا .فطرد مشارى أميرهما البجادى من منصبه ، ثم عاد إلى الدرعية ، وهناك وجد أن ابن معمرًا قد غادرها إلى سدوس متظاهرًا بالمرض فلم تدخل الحيلة عليه ، وقدر أن ذلك الإدعاء الكاذب يخفى فى طياته نية فى تزعم الثورة عليه . وقد أفصح ابن معمر عن نيته إلى زعيم حريملة ، فرحب بخطته هذه ، وطلب منه القدوم إلى المدينة ليجعلها قاعدة لعملياته الحربية المقبلة . وكان قد جمع لها المجندين والمتطوعين ، ومعظمهم من عشيرة فيصل الدويش، وقبائل مطير.

وقد انضم إليهم آخرون فى الهجوم المباغت الذى شنه على العاصمة ودخلها دون مقاومة فعالة ، ليتجه بعد ذلك إلى قصر مشارى ، حيث ألقى القبض عليه وسجنه .

وبعد ذلك ترك ابن معمر ولده يتولى شئون العاصمة وتوجه بنفسه إلى الرياض كى يلقى القبض على تركى بن عبد الله وأفراد آخرين من العائلة المالكة . إلا أن هؤلاء كانوا قد سمعوا بالخبر فهربوا من المدينة قبل وصوله إليها . وحينئذ تمكن ابن معمر من احتلال المدينة بسهولة ، فأسرعت القرى المجاورة فى إعلان خضوعها .

وهكذا انتهى حكم مشارى الذى لم يعمر طويلاً ، وحكم ابن معمر البلاد من جديد ، وباعتراف من الأتراك هذه المرة . فقد أسرع وأعلم « عبوش باشا » التركى الذى كان قد

وصل قبل فترة وجيزة إلى عنيزة على رأس قوة من الجيش ، بأنه لم يحكم باسم السلطان فحسب ، بل أنه ألقى القبض على مشارى وسجنه ليسلمه إليهم فى الوقت المناسب .

وأثناء ذلك كان تركى بن عبد الله مع عدد من أتباعه ، قد ذهب إلى ضرمى فى شأن من شئونه . وبلغ هذا الخبر ابن معمر فأرسل فى الحال ، ابنه مشارى (حاكم الرياض الآن) على رأس قوة كافية لإلقاء القبض عليه . أما تركى فاعتقل الرسول وسلمه إلى سكان ضرمى، ثم عمل على تجنب الخطر باحتلاله أحد حصون القرية كى يدافع عن نفسه فيه . ولكنه خرج منه ليلاً وداهم بيتا كان فيه بعض أنصار ابن معمر ، فهربوا بادئ الأمر إلا أنهم عادوا ووضعوا أنفسهم تحت تصرف تركى وقد هرب مشارى بن معمر مع بعض من أتباعه على جواد . وبقى تركى فى ضرمى ، حيث وفد عليه الأنصار والمؤيدون من قبيلة سبيع والمناطق الجنوبية .

وفى كانون الأول من سنة ١٨٢٠ زحف تركى على الدرعية وألقى القبض بنفسه على بن معمر بمساعدة محلية من أهل البلدة . ثم اعتقل فيما بعد ابنه مشارى فى الرياض ، ووعدهما بالحرية بشرط إطلاق سراح مشارى بن سعود الذى كان لايزال محبوسًا فى سدوس .

ولكن السكان الذين وصلتهم قوة من الجيش التركى مع فيصل الدويش ، تهيبوا أن يطيعوا أوامر ابن معمر ، فسلموا مشارى بن سعود إلى الأتراك ، كما وعدهم بذلك ابن معمر نفسه من قبل ، وانتقل الخبر إلى الدرعية فقتل تركى أسيره ابن معمر وابنه فى الحال .

أما مشارى بن سعود فتوفى بعد وصوله إلى عنيزة بقليل ، ولم يثبت أن عبوش باشا كان مسئولاً عن وفاته .

ثم قام الأتراك وفيصل الدويش بهجوم عقيم على الرياض ، وأرسلوا بعد ذلك قوة أخرى إلى الشمال والغرب . وفرضوا غرامات كبيرة على الثادق والسدير والوشم . ومثل ذلك فعل عبوش آغا فى القصيم .

وبعودة الأتراك إلى الجزيرة العربية عادت الفوضى تنشر سلطتها كرة ثانية ، وتجددت العداوات فى مناطق عدة ، بينما ساءت الأحوال الإقتصادية ، بسبب أسراب الجراد الهائلة التى اجتاحت البلاد . وفى غضون شتاء ١٨٢٠ - ١٨٢١ ، وصل حسين بك بقواته لمساندة جيش الاحتلال واستلام القيادة العامة فى نجد ، وزحف فى الحال على الوشم .

ومن هنالك أرسل عبوش أغا لمهاجمة الرياض ، بخليط من الأتراك والجنود المحليين من المدن والقرى والقبائل المختلفة ، مع زعماء بارزين كان ابن معمر قد طردهم من الرياض. فأخذ تركى يعد العدة لمقاومة هذا الهجوم ، إلا أن أهل الرياض كانوا قد ملوا القتال الذى أنهكهم ، فدخل عبوش آغا المدينة دون مقاومة .

ولم يقنع تركى باندحاره هنا فتحصن فى القلعة مع سبعين من أنصاره ليقاوم الحصار ، وكان واضحًا أنه يقاتل فى معركة خاسرة إذ سرعان ما دارت الدائرة عليه فهرب وحده ليلاً ، تاركًا رجاله يستسلمون فى الصباح التالى . وقد قتلوا جميعًا فيما عدا عمر بن عبد العزيز وأبنائه الثلاثة ، الذين أرسلوا إلى النفى فى مصر لينضموا إلى أقربائهم الآخرين هناك .

وصل حسين بك إلى المدينة ، وفرض غرامات باهظة على أهل الرياض ومنفوحة ، بينما طلب إلى الأشخاص الذين استقروا فى الدرعية بأمر ابن معمر ، أن يغادروها فى الحال . فانتقلوا إلى ثرمدة حيث أستقبلهم خليل أغا - قائد المدينة استقبالاً حافلاً - ووعدهم بإعطائهم أرضًا فى أى مكان يختارونه .

وقد بدا ذلك أمرًا غريبًا فى حينه . . ولكنه سرعان ما اتضح بعد قليل فقد اعتقلوا وقتلوا فيما بعد ، بناءًا على أوامر صدرت من حسين بك لدى عودته من الرياض . وكان قد قام هنالك أيضًا بقتل عدد من الأشخاص وتدمير ممتلكاتهم ومصادرتها .

كان هذا مجرد استهلال لا أكثر للحكم الوهابى فى نجد أما القطعان العسكرية المتمركزة فى القصيم والسدير والحمل والوشم والأماكن الأخرى ، فقد وفت ما عليها وزيادة ، إذ أخذت تسلب الشعب وتنهب أمواله ، وتضطهد المواطنين حتى اضطروا للهرب بأعداد كبيرة إلى الصحراء . فانتهزت فرصة غيابهم وقامت بتدمير ممتلكاتهم ما استطاعت من تدمير. ولم تسلم النساء ولا الأطفال من الاعتداء .

لم تنته قصة الدمار والموت برحيل حسين بك حوالى نهاية السنة . فقد خلف وراءه تركة من المنازعات المهلكة استمر من جرائها سلب الإقليم ، وخصوصًا السدير والمجمعة الدائمة الاضطراب ، ثم العارض والقصيم بدرجة أخف . وزاد الأمر سوءًا أن توّجت فظائع السنة بانتشار وباء الكوليرا الوبيل ، الذى وفد من الهند إلى الجزيرة العربية عن طريق الخليج والعراق ، ليزيد فى حياة أهلها مأساة إلى مأساة .

ومرة أخرى كان إقليم السدير فى مقدمة الأقاليم المضطربة فى سنة ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، بينما كان لمنفوحة ولبريدة نصيبها الوافى من هذه القلاقل . أما أبرز الأحداث فى هذه السنة فكان قدوم القائد التركى حسن أبو ظاهر ، والى رس . ذلك القائد الذى أعلن بأنه جاء لإخضاع القبائل البدوية لمصلحة سكان المدن . وقد استحق تقدير البلاد وشكرها بالفعل حين أطلق سراح الكثيرين من الرهائن الذين كانوا قد طال اعتقالهم فى حصن ثرمدة وفقا لأوامر سلفه . فأرسل السكان بما فى ذلك أهل المجمعة وقرى السدير يؤكدون له ولاءهم .

غير أن إرساله حملة عسكرية على هذا الإقليم ، بقيادة موسى كاشف ، لجمع الضرائب المعتادة ولّد فى نفوس الناس من التردد والإحجام . فعمد الأتراك إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لإفهام الناس ما يريدون ، لقد نهبوا عدة مدن ، واعتقلوا كثيرين من أعيان الإقليم وقتلوهم، فثار البدو ونشب القتال . ولما كان موسى الكاشف قد تنطع لذلك فقد خسر حياته فى معركة وقعت بين قواته وبين عشيرة السهول التى قام بغزوها . أما أخو موسى واسمه إبراهيم ، فقد تقدم إلى الوشم ثم الرياض حيث اتخذها مركزًا لعملياته فارتفع علمهُ حتى على منطقة جنوب الخرج .

وفى هذه الأثناء زار حسين بك جبل شمر ، طالبًا من أهله تسديد جميع الضرائب المستحقة منذ رحيل إبراهيم باشا . ولما دفعوها فرض عليهم الوالى التركى ضرائب أخرى . فامتنع أهل مقاق عن الدفع ، مما دفع القائد التركى إلى أن يقتل معظمهم بعد استسلامهم فى أعقاب حصار قصير . وفى نفس الوقت تقريبًا ، قاد إبراهيم كاشف جيشًا قويًا إلى الجنوب لغزو السبيع على مقربة من حاير . غير أن رجال القبائل قاوموه بضراوة ، وهزموا الأتراك وحلفاءهم من أهل الرياض هزيمة نكراء . وقد قُتل إبراهيمُ نفسهُ فى هذه المعركة مع ثلاثمائة رجل ، بينما هرب ناصر العيضى زعيم الرياض . غير أن البدو لحقوا به وذبحوه فى مغارة كان يختبئ فيها وكان تركى بن عبد الله قد اختبأ بعد مغادرته الرياض فى منطقة الحوطة .

واستمرالأتراك فى جمع الضرائب ، وإرسال الحملات التأديبية إلى القرى والعشائر العاصية . وفى شهر آيار من سنة ١٨٢٣ ، وفى خلال شهر رمضان ، خرج تركى من مخبئه مع أتباع له يقدر عددهم بثلاثين رجلاً ، ووصل إلى قرية عرقة فى وادى حنيفة ، بين الدرعية

والرياض . ثم استكان فترة من الزمن يجس نبض البلاد . وكان زعيم الشقرا - حمد بن يحيى بن غيهب - أول من رحب بظهوره وعرض عليه المساعدة . فاستبشر تركى خيرًا ، وأرسل ابن عمه مشارى بن ناصر بن مشارى بن سعود إلى سويد وزعيم جلاجل فى إقليم السدير ، يدعوه إلى الأنضمام إليه والمجيء مع أى عدد من الرجال يستطيع تسليحهم .

وكما أن سويد هذا قد اختلف مع الأتراك فى السنة السابقة . ولدى وصول الرجال رفع تركى علم الثورة ، وزحف على الرياض . وكانت تحميها آنذاك حامية تركية تحت إمرة أبى على البهلولى المغربى. غير أن المحاولة باءت بالفشل ، فدب الذعر فى قلوب سويد ورجاله وعادوا إلى بلادهم تاركين تركى مع حفنة من أنصاره فى الميدان . فبادرهم الأتراك وحلفاؤهم بالهجوم ، وحاصروهم فى عرقة ، ولكن بلا نجاح يذكر.

واستمرت المناوشات غير المنظمة حتى مطلع أيلول وعندما هاجم تركى مدينة ضرمى المهمة واحتلها تاركًا قوة صغيرة له فى عرقة .

والحق . . إنه أبدى فى احتلالها بسالة شخصية نادرة تركت فى نفوس الأعراب أثرًا كبيرًا.

أما حسن أبو ظاهر ، فبعد أن آب من حملته على حايل ، وجد نفسه فى جو من المتاعب فى القصيم . ذلك أن الناس كانوا ساخطين عليه لكثرة الضرائب التى فرضها على مواردهم الضئيلة . وكان سجنه ، لعبد الله الجامعى حاكم عنيزة المعادى إلى للأتراك ولقادة آخرين ، قد أدى إلى ثورة بين السكان ، فأجبروه على التسليم بشروط ووافق على سحب جنوده إلى المدينة المنورة بما فى ذلك القوات الموجودة فى ثرمدة لكنه ترك قوة صغيرة فى حصن صفا فى عنيزة ، فاستسلمت هذه بعد ذلك بقليل وتبعت قائدها خارجة من البلاد . ولم يبق فى المنطقة قوات غير تلك الحاميات الصغيرة المبعثرة فى الرياض ومنفوحة . وكانت هذه الحاميات قد اشتبكت مع قوات تركى كما ذكرنا .

وفى هذه الأثناء بدا أن ماجدًا بن عريعر قد وطّد مركزه فى إقليم الحسا الذى لم يشأ الأتراك أن يدخلوه ، فنعم بالطمأنينة والسلام . وكان لتركى من المشاغل ما جعله يضرب صفحًا عن التفكير بأقاليم الخليج الفارسى . ومع هذا وجد ماجد نفسه يواجه تحديا سافرًا

من فيصل الدويشى ، حليف الأتراك القديم . فقد خرج إليه على رأس جيش مختلط من قبائل مطير والعجمان . فوقعت معركة الرضيمة فى هضبة عرمة ، وانتهت بهزيمة بنى خالد هزيمة شنعاء . غير أن فيصل لم يكن آنئذ فى وضع يمكنه من متابعة انتصاراته .

وقد وقعت اضطرابات فى إقليم السدير ، غير أنها لم تكن خطيرة هذه المرة تستأهل من تركى بن عبد الله أن يغادر ضرمى فى شهر تموز ويتجه إلى ثادق ليتدخل فى الأمر . ولكنه فعل وطلب إلى الأطراف المتنازعة أن تعمل على إنهاء خلافاتها فى سبيل المصلحة العامة . وكانت دعوته مثمرة ، فقد سارع زعماء المدن والقرى فى السدير يعلنون عن ولائهم له . وتقدم بعد ذلك باتجاه جلاجل مركز الاضطراب الذى حدث ، على رأس قوة جندها من أهل المحمل ، فما كان من سكانها إلا أن رحبوا به أجمل ترحيب ، عارضين عليه خضوعهم وولاءهم .

أما أهل المجمعة ، فقد ترددوا فى الانضمام إليه بادىء الأمر ، لكنهم عادوا فقبلوا بما عرض عليهم بعد أن حاصرهم بقوة كبيرة من جيشه . ثم عزل مزيد زعيم المدينة وحاكمها ، وعين مكانه محمدًا بن صقر ، وهو شخصية بارزة من العمارية ، وزوده بحامية جعل مركزها الحصن . بادر السكان لتأدية يمين الطاعة والولاء إلى فرد من بيت آل سعود مرة أخرى ، وإن كان لا ينحدر من الفخذ الذى سبق له أن حكم نجدًا آنداك .

وقد بقى تركى فى المجمعة زهاء الشهر ، فأعاد تنظيم إدارات الإقليم وما جاوره . وأرسلت غات وزلفى والشقرا وقرى الوشم ، وفودًا عنها لأداء فروض الولاء والخضوع فقبل تركى ذلك . ثم استولى على جميع المعدات الحربية والذخيرة والمتاع الذى خلفه الأتراك خلال حملتهم الأخيرة على الإقليم .

وما إن أتم تجهيز القوات اللازمة من العناصر المحلية حتى زحف على حريملة ، وكانت هذه لم تبد رغبة فى دخول الحظيرة الوهابية حتى ذلك الحين . وما كاد يعد العدة اللازمة للهجوم ويجهز قواته بالسلالم الضرورية لتسلق الأسوار ، حتى أرسل إنذارا إلى أمير المدينة ، حمد بن راشد يطلب منه الخروج والاعتراف بالولاء ، وإلا فإنه ورجاله سيقابلونه فى وسط المدينة قبل غياب القمر .

واستسلم حمد . . فلم يستقبله تركى بالحفاوة والتكريم فحسب ، بل أبقاه فى منصبه وترك له جميع ممتلكاته العائلية .

وبعد أن انضمت قوات حريملة إلى الجند ، زحف تركى على منفوحة البعيدة .

فاستسلمت دون مقاومة ، وخرج أميرها إبراهيم بن مزروع شخصيًا ليقوم فروض الطاعة والولاء .

أما الحامية التركية فطُردت من المدينة ، وخرجت لتنضم إلى حامية الرياض (هدف تركى التالى) وأما الأمير حمد العيضى الذى خلف أخاه ناصرًا فى منصبه لدى وفاته فى حاير، فقد ظهر أنه لا يريد الاستسلام فأدى ذلك إلى نشوب بعض القتال حول المدينة وتكبد الطرفان بعض الإصابات . وقد أمر تركى جنوده أن يجمعوا محصول التمر ليستفيد منه فى إطعام قواته ، تحت سمع وبصر الحامية التركية فى المدينة . وكانت هذه عاجزة لا حول لها ولا طول .

وعاد تركى فرفع الحصار عنهم بعد مرور شهر تقريبًا ، إذ هرع فيصل الدويش بقوات كبيرة من عشيرة مطير لنصرة الحامية المحاصرة . وتراجع تركى إلى عرقة ، غير أنه عاد فحاصر الحامية ، حالما رحلت العناصر البدوية بعد مكوثها فترة وجيزة فى تلك الأنحاء .

وطلب القائد التركى عقد الصلح فقبل منه تركى ذلك ، مشترطًا عليه رحيل الأتراك نهائيًا إلى المدينة المنورة .

وانسحبت الحامية بالفعل وسقطت الرياض ، فعين مشارى بن ناصر حاكماً للمدينة ، بينما زحف تركى نفسه إلى ثرمدة وشقرا ليتأكد من أن الأتراك لن يحاولوا البقاء هناك ناكثين بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بترك البلاد .

وفى أثناء وجوده فى شقرا وصلته وفود تحمل رسائل من عنيزة وبقية نواحى القصيم يعرضون ولاءهم ، فتقبل ذلك ، ولكنه لم يفارق شقرا إلى أن اطمأن إلى مرور الأتراك بالوشم فى طريقهم إلى المدينة . وحينئذ عاد إلى الرياض .. إلى عاصمة نجد ، منذ الحين .

ولدى سقوط الرياض ، أرسل أهل الحوطة والحريق ، وفودًا من طرفهم تعرض ولاءهم للنظام الجديد . وبهذا خضع القصيم والوشم : ووجد تركى نفسه يسيطر على نجد بكاملها فيما عدا إقليم الخرج الذى كان حكامه آنئذ هم الذين طردهم الحكم السعودى من قبل ، فتربصوا به وعادوا بعد سقوط الدرعية .

والحق أن تركى كان حكيمًا حينما لم يحاول التسرع فى معاقبة عناصر عاجزة عن الإضرار به . ولم يتخذ الخطوات الفعالة لإخضاع الخرج إلا فى شهرآيار سنة ١٨٢٥ . وذلك أن الأمير زقم بن زامل أمير دلم أبدى شيئًا من إمارات المقاومة ، فضايقه تركى حتى أضطره إلى عرض الاستسلام بعد ضمان سلامته وسلامة أتباعه وتم ذلك بسهولة . فاستولى تركى على الحصن بما فيه من العتاد الحربى ، وأرسل زقم إلى الرياض ليبقى هناك فى ضيافة الحكومة (سجينًا) ثم خضعت السليمية واليمامة بدون مقاومة تذكر ، فأستقر الأمر لتركى وعاد إلى عاصمته الجديدة مطمئنًا راضيًا من أن نجدًا قد تخلصت من السيطرة الأجنبية وآبت إلى الحظيرة الوهابية . ومنذ وصوله لأول مرة إلى عرقة لم يجد تركى الموارد المادية التى وجدها الأن تحت تصرفه .

ويعود الفضل فى نجاحه التام فى مثل هذه المدة القصيرة إلى شخصيته فقد كان يجمع فى شخصه سحرًا مغناطيسيًا غامضًا ، وغريبًا ، هذا بغض النظر عن الجو وشيئًا من السيطرة الذاتية التى جملته بشجاعته الشخصية وفروسيته .

وتذكر بعض الروايات أن الإمام سعودًا كان يرغب فى أن يخلفه تركى على العرش إلا أن تركى نفسه قد حال دون ذلك . فقد كان ولاؤه لشقيقه عبد الله عظيمًا ، ولم يتغير قط . والحق يقال بأنه كان روح الدفاع عن الدرعية ، وكان مستعدًا لأن يخدم أبن معمر ومشارى أيضًا فى سبيل مصلحة البلاد .

وكان الفضل فى بعض نجاح تركى يعود إلى إخفاق الأتراك فى تغيير خططهم التعسفية والاستعاضة عن الطغيان والعنف فى إدارتهم بشئ من تحسين أوضاع نجد التى أنهكها الاستبداد والفوضى والتى رحبت بالأتراك فى بداية الأمر للتخلص من نظم الوهابيين .

وتعتبر بداية حكم تركى فى نجد عند وصوله إلى عرقة فى آيار من سنة ١٨٢٣ أما تمام سيطرتة فقد تحقق عندما استسلمت حامية الرياض التركية فى تشرين الأول سنة ١٨٢٤ .

وظهر أثره فى برنامج إعادة بناء الأسوار المدمرة وبناء القصر والجامع اللذين يحملان اسمه . وقد ظلت آثاره تمثل أعظم الأعمال الهندسية فى عاصمته حتى تهدمت سنة ١٩٥٠ ليقوم مكانها أبنية عصرية أضخم وأوسع .

وبالإضافة إلى هذا النشاط العمرانى ، عمل تركى فى إعادة الإدارة الفعالة إلى أقاليم مملكته ومقاطعاتها . فعين فى مناصب الحكم والقضاة أشخاصًا يمكن الاعتماد عليهم فى فرض هيبة القانون والمحافظة على الأمن دوغا خوف أو مراعاة وجوده. أما إقليم الخرج فمنحه إلى عمر بن عفيصان الذى قتل الأتراك عددًا كبيرًا من عائلته فى دلم قبل انسحابهم .

ويبقى هرب ابن عمه ، مشارى بن عبد الرحمن بن مشارى بن سعود ، من مصر ووصوله إلى الرياض ، فقد جعل له ذلك الأمر عذرًا فى وضع مدينة منفوحة المنافسة للدرعية تحت حكم أحد أعضاء العائلة المالكة الكبار . إلا أن مشارى لم يكن جديرًا بثقة تركى واحترامه ، ولم يكن تركى يستطيع أن يتغاضى عن أية اساءة .

ثم وصل من مصر شخص بارز آخر، هو الشيخ عبد الرحمن بن حسن ، حفيد محمد بن عبد الوهاب ، فاحتل منصب قاضى الرياض ، ذلك المنصب الذى قدر للشيخ أن يشغله سنوات عدة ، يشاركه فى ذلك ابنه وتلميذه عبد اللطيف .

وقد لعب الوالد وابنه دورًا مهمًا فى جعل الدين عاملاً له أثره فى حياة العرب ، وإن كانت الوهابية الآن لم تعد تأخذ بناحية التعصب الدينى الذى تميز به نظام الدرعية أيام سعدها .

والواقع أن الحافز السياسى ، لا الحماس الدينى هو الذى أوجد الإمبراطورية السعودية خلال حكم تركى وفيصل ، وإن كانت المؤسسات الدينية لم تنزل من على مستواها السابق كثيرا . وكان العقد الثانى من القرن العشرين فقط أن بدأ الحماس الدينى يسيطر مرة اخرى، على حياة العرب ويضع أسس الإمبراطورية الوهابية الثالثة .

لم يكن تركى فيما يبدو ، يريد الإسراع فى توسيع حدود بلاده وامتداد رقعتها فى هذه الفترة . ففى شتاء . سة ١٨٢٦ - ١٨٢٧ .

وما قبل ذلك ، بادر إلى إعداد حملة ضد بنى خالد الذين كانوا قد عبروا الصحرا ء ونزلوا على آبار حفار العتك . وأسندت قيادة هذه الحملة إلى مشارى بن عبد الرحمن بن حسن بن مشارى بن سعود الذى يصفه ابن بشر بأنه ابن عم تركى ، الذى جرح جرحًا طفيفًا أثناء اشتباك وقع مع البدو.

ونحن لا نعرف على التحقيق فيما إذا كان مشارى هذا هو نفس مشارى الذى عينته تركى حاكمًا على منفوحة فى السنة السابقة . ويقول ابن بشر: أنه كان خاله وليست هذه بالنقطة المهمة على كل حال ، إلا أنها ترينا ما أشد ما كانت أنساب السعوديين معقدة بسبب ترديدهم لنفس الأسماء : ويصدق هذا بالطبع على عائلة مشارى.

* * *

تميزت هذه السنة نفسها (١٨٢٨) بالجفاف الذى أناخ بكلكه على البلاد وبالمجاعة التى انتشرت فيها ، فتسببت فى وفاة الكثيرين من أهل القصيم والسدير ، التى عين فيها أمير جديد من أهل ضرمى ، اسمه محمد بن عبد الله . وكان أبرز أحداث تلك السنة وفاة رحمة بن جابر ، قرصان الخليج الفارسى ، أثناء اشتباك بحرى بينه وبين الحملة التى وجهها إليه ماجد بن عريعر ، بالتعاون مع حكام البحرين والقطيف .

وقد حاول ابن جابر المقاومة ، فترك ابنه يحرس مقره الرئيسى فى الدمام وخرج إلى عرض البحر ، غير أنه سرعان ما حوصر وأجبر على الاستسلام . وكان رحمة هذا صديقًا و حليفًا قويًا للسعوديين قبل كارثة الدرعية . وبموته تقوى مركز ماجد كثيرًا فى الإحسا ء .

ولقد غيرت غزوات تركى المتعاقبة على الوشم وغيرها طبيعة عهده البنّا ء وأيامه السلمية فانقلب إلى ضده . وكان مما زاد الضيق أن خابت آمال المواطنين فى محصول جيد ، إذ أن غزارة الأمطار التى هطلت فى خريف سنة ١٨٢٦ ، ثم هطولها فى نيسان من العام التالى ، سببت تعفن التبن والزرع على البيادر . كما أصيب التمر الناضج بآفة أهلكت محصوله . واستمرت هذه الأحوال الزراعية السيئة عامًا آخر إلا أنها كانت على نطاق أضيق . فأمر ابن عبدان حاكم السدير أن يردم آبار حفار العتك وأم جماجم ، الا أن الأعراب أهتدوا إليه بسهولة .

وكان على تركى أن يعالج غزوة قام بها العجمان بالقرب من بلاده ، فى بابان (وربما بنبان أو ممر العرمة القريب من بابان) وقد وصف المؤرخ النجدى (ابن بشر) هذه السنة بقوله :

« أنها كانت سنة يُمْن وبركات ولو أن سعادة السكان فى أن لايكون لهم تاريخ يدون »

أما زيارة حاكم جبل شمر ، عيسى بن على ، إلى الرياض لإعلان الولاء والخضوع واستعداده لوضع الإقليم كله تحت تصرف تركى فكانت حدثًا بارزًا وتطورًا بالغ الأهمية . خصوصًا وأنه أعقبها عودة فيصل ، الابن البكر لتركى ، من مصر إلى الرياض ، فلم يكن هذا حدثًا محليا مبهجًا فحسب ، بل كان فأل يمن وسعادة للعائلة المالكة والدولة .

كانت القلاقل المحلية التى وقعت فى القصيم تتطلب تدخل تركى . . فاستدعى قادة الإقليم إلى الرياض ، ليجددوا ولاءهم وطاعتهم . وعزل محمد آل على الشاعر ، حاكم بريدة من منصبه واعتقله بصورة مؤقتة فى الرياض ، وعين عبد العزيز بن محمدًا بن عبد الله خلفًا له. أما مطير والعناصر الأخرى من بنى خالد ، وحلفاؤهم ، فقد تم إخضاعهم بعد غزوة شنها عليهم فى الربيع ، فى جهة صهان وبعد قليل استقبل تركى وفدًا يمثل عددا من قبائل أواسط نجد (السبيع والسهول والعجمان ، ومطير وقحطان) جاءه معلنًا الولاء راغبًا فى مساندة حكمه.

والآن ، اتضح استقرار الدولة واتساع نفوذها وسلطانها بوصول وفد من عمان يطلب مد يد المساعدة بإرسال قوة من الجيش وتعيين والٍ وقاضٍ .

فلبى تركى طلبهم ، وأرسل عمر بن محمد بن عفيصان على رأس قوة كافية ، لينصب عبد الله بن سعود من القويعية واليًا على الإقليم ، على أن يتخذ مركزه فى البريمى . وعين كذلك الشيخ محمد بن عبد العزيز العوسجى قاضيًا . ولدى وصولهم الضاهرة أستقبلتهم وفودها مع عناصر أخرى من البطينة ، الواقعة فى المنطقة الساحلية من عمان ، بمظاهر الترحد والتكريم .

وفى هذه الأثناء ، طلب تركى وولده فيصل ، (وكانا فى الرياض) اجتماع عشائر مناطق واسعة تمتد من وادى الدواسر جنوبًا إلى الوشم والسدير فى الشمال . بغية القيام بمناورات

الخريف والشتاء . وكان الغرض الرئيسي من ذلك هو إظهار الوحدة والوفاق . فعين تركى الوشم مكانًا للاجتماع إلا أنه عاد فاستبدله بمرتفعات الطويق ، ابتعادًا عن شرور وباء الكوليرا الذى كان منتشرًا فى إقليم الوشم . ومع هذا ظهرت إصابات الكوليرا بين أفراد الجيش ، فمات الكثيرون منهم فى معسكر المجمعة ، غير أن المرض لم ينتقل إلى المدينة .

ومن الوشم سار فيصل بجيشه للإغارة على عنيزة فى الأراضى المجاورة إلا أن رجال القبيلة كانوا قد لاذوا بالفرار قبل وصوله ، فلم يتم له ما أراد . وأمضى تركى قرابة الشهر فى المجمعة وهو يصرف شئون الإقليم ، فأعفى ابن عبدان من منصبه ، كحاكم للسدير ، وعين مكانه أحمد بن ناصر الصانع .

وانقضى صيف عام ١٨٢٩ ، هادئًا دون حوادث . أما خريف ذلك العام فقد شهد تركى يرسل محمد بن عفيصان فى غزوة على الإحساء ، فيستولى هذا على قافلة محملة بالبضائع الوفيرة ، وهى فى طريقها من العقير إلى الهفوف . ويبدو أن الغرض من هذه الغزوة كان مضايقة عائلة عريعر فى الإقليم . لكن أبناء عريعر أخذوا بزمام المبادرة فأعلنوا الحرب على تركى ، وتجمعت قواتهم الكبيرة العدد فى الصُّمَّان .

وهكذا وجد تركى نفسه مضطرًا إلى أن يحشد قوات عشائره بسرعة ويرسلهم بقيادة فيصل لمقابلة التهديد بالمثل . فنشبت معركة ضارية متكافئة بين الفريقين عند آبار عقلة Aqla بالقرب من خفيسات المحمارى ، استمر فيها القتال من منتصف شباط حتى الرابع والعشرين منه ، أى إلى أول شهر الصوم فقتل ماجد بن عريعر . وقد أرسل فيصل يعلم والده بما حدث وهو واثق كل الثقة من النصر فى النهاية . فوصل أبوه إلى مكان المعركة بإمدادات قوية للسير قدما فى لقطف ثمرات النصر .

وحينئذ تجدد القتال بين الطرفين قاسيًا مريرًا . ويبدو أن جيش تركى كان ينتزع النصر من عدوه شيئًا فشيئًا ، حتى قام تركى فى الثانى والعشربن من آذار ، بشن هجوم كاسح على مواقع الأعداء فتقهقروا ولاذوا بالفرار . وظلت قواته تطاردهم وتذبح الهاربين منهم حتى بعد استيلائها على معسكر عريعر وذخائر غنيمة خالصة .

غير أن عددًا قليلاً منهم نجا بجلده ، مثل مطير حليفة ماجد ، التى كانت قد انسحبت لدى رؤيتها تطورات المعركة قبل الهجوم الأخير ، وبذلك أسهمت فى نجاح تركى إسهامًا كبيرًا .

* * *

زحف تركى وابنه فيصل على الإحساء بعد أن أمضيا زهاء الأسبوعين فى ميدان المعركة، يجمعان الأسلاب ويوزعانها على الجند . ثم أرسل تركى رسله أمامه إلى القبائل والمدن طالبين من أهلها إعلان ولاءهم . وسار بعد ذلك فى أثر رسله إرهابًا ، فعرضت معظم القرى خضوعها لحكمه . أما محمد بن عريعر وأقرباؤه ومشايعوهم فقد سارعوا إلى تحصين الحصون والقلاع للمقاومة . غير أن معظم زعماء بنى خالد هربوا لدى وصول تركى. فاحتل مدينة الهفوف سلمًا ثم أقام قاعدة عملياته فى غنيمة قريبًا منها.

وهناك زاره الزعماء المدنيون والروحيون من مختلف المدن والقرى فى الواحة الكبيرة ، وأخذوا يقدمون فروض الطاعة ويتعهدون بالإخلاص للوائه . هذا فى الحين الذى كان فيه ابن عريعر يحتل حصن الكوت العظيم فى الزاوية الشمالية الغربية من المدينة ويستسلم خصمة بشروط مشرفة . وهكذا عادت الإحساء تحتل مكانها المرموق فى الدولة الوهابية من جديد . وقد ظل تركى وفيصل فى المنطقة قرابة الشهر والنصف ، والوالد يدير شئونها ويصرف أمورها مهتمًا بالحاجات الدينية على الخصوص ، طالبًا إلى الأهلين أن يحافظوا على تعاليم الله ويطيعوا أوامره ونواهيه فى سبيل خيرهم وفلاحهم . وأن يواظبوا على الصلاة فى الجوامع ، ويطبقوا بصورة عامة أنظمة الوهابيين وأحكام مذهبهم وعين بعد ذلك عمر بن عفيصان حاكمًا على الإقليم بينما أسند الأمور الدينية إلى الشيخ عبد الله الوهيبى . وشارفت السنة على الانتهاء والبلاد مستبشرة بالأمطار الغزيرة التى هطلت ، فكانت المحاصيل جيدة وفيرة وهبطت أسعار الحاجيات .

ولم يأت ذكر أى حادث مهم فى أخبارنجد حتى نهاية سنة ١٨٣٠ .

وفى أواخر كانون الثانى من سنة ١٨٣١ ، قام تركى بشن غارة فى ناحية حفار البطين قرب الحدود العراقية ، على عناصر من قبيلة السبيع . إلا أنه أعاد لهم الأسلاب حين ادعوا أن

هجومه كان خرقًا للاتفاقية المعقودة بينهم ، والتى قدموا بموجبها فروض الطاعة وتعهدوا بالولاء والإخلاص .

ثم زحف باتجاه السبيحية فى الكويت وأمضى هنالك وقتًا طويلاً يتقبل الهدايا من جابر بن عبد الله صباح زعيم الكويت ، والطاعة والولاء من قبائلها ووصلته بعد ذلك أخبار من نجد أقلقته ، فسارع بالذهاب إليها ليقف على الحقائق بنفسه .

لابد وأننا نذكر أن تركى قد عين ابن عمه مشارى بن عبد الرحمن حاكمًا على منفوحة ، قبل سنوات ، وأنه أرسل مشارى هذا على رأس حملة ضد بنى خالد فى حفار العتك . ويبدو أن هذا التعيين كان عذرًا انتحله تركى لإبعاده عن منصبه فى منفوحة . وها هو الآن يبلغه الخبر أن مشارى قد غادر الرياض مع أتباعه للقيام بثورة عليه. غير أن تركى لم يأبه للأمر ولم يتخوف بل سرَّح معظم قواته وأعادهم إلى بلادهم . وكان مشارى آنذاك فى طريقه إلى الشمال ليطلب مناصرة حركته . فاجتمع فى المستوى بزعيم عشيرة من عشائر مطير يطلب منه المساعدة ، غير أنه اختلف وإياه ، فرفض الزعيم ذلك.

ومن هناك توجه مشارى صوب القصيم ينشد المساعدة من عناصر مختلفة ، لكنه باء بالفشل . ثم شخص إلى شريف مكة محب بن عوف فلم يقبل اقتراحه .

فغادر مكة يائسًا ، بعد أن ثبت له أن أهل نجد لا يريدرن الثورة على تركى ، وقر رأيه على أن يقصد الرياض حيث يلقى على أقدام عمه راجيًا العفو بعد المقدرة . وكان تركى أمل قريبه فاستقبله بلطف وترحاب ووهبه منزلاً فى الرياض قرب القلعة .

ويذكر ابن بشر أن تاريخ عودته والعفو عنه كان فى نهاية آيار سنة ١٨٣٢ ، فإذا كان هذا صحيحًا ، فلابد من أن مشارى قد أمضى معظم السنة فى مكة . ومهما كان الحال فقد كانت محاولته القيام بالثورة عقيمة ولم تترك أثرًا فى تاريخ نجد الحديث .

وفى تموز من سنة١٨٣١ قاد فيصل جيشًا قويًا إلى مرتفعات نجد ليغزو عتيبة .

فوجدهم عند آبار طلال حيث تغلب عليهم وهزمهم شر هزيمة . إلا أن جنوده تفرقوا يجمعون الأسلاب والغنائم فانتهز المنهزمون الفرصة وعادوا بنجدات قوية ، من قبائل مطير

(التى كانت آنذاك فى مواقعها الحصينة فى الأراضى المجاورة) ، فدارت الدائرة على الفائزين. لكن فيصلاً وحرسه غطوا تراجع قواته فلجأت إلى القويعية بكثير من الأسلاب التى غنمتها فى المعركة الأولى(وقيل أنها بلغت ٣٠٠ جمل) .

وفى الربع الأول من آيار ، هبَّ إعصار مدمر على نجد فأحدث أضرارًا بالغة فى مزارع النخيل ، وخصوصًا فى الأشجار الصغيرة منها . وأصيب الحج الذى اتفق فى نهاية شهرأيار من صيف ذلك العام بوباء الكوليرا ، الذى انتشر بين الحجاج وتسبب فى وفاة الألوف منهم ومن الذين اختلطوا بهم .

ويذكر ابن بشر عددًا من الظواهر الجوية التى أنذرت بوقوع الطاعون الذى أهلك العراق والكويت سنة ١٨٣٢ ، لينتقل من هناك إلى نجد بعد عام .

ومن الظواهر الطبيعية الأخرى التى ذكرها ابن بشر ذلك النور الذى ظهر فى الفضاء . فقد أضيئت السماء خمس ليال متتالية بنور يشبه نور القمر . وكان هذا فى آخر شهر صفر (من آب - ١٠ منه) وكذلك لون المس الأخضر عند الشروق ، وظهور الشفق الشمالى الباهر فى الليالى الأولى من الشهر التالى ، وتقابل الكواكب السيارة الخمسة (الشمس والقمر والمريخ وزحل وعطارد) فى برج ليو Leo .

قضى تركى صيف سنة ١٨٣٢ فى صحراء العرمة ، ولم يكن هنالك من أمورخاصة تشغل باله سوى تقاعس بعض القبائل عن دفع الضرائب المستحقة وما تبع ذلك من حملات عسكرية لإجبارها على الدفع . وفى أواخر الصيف أو بالأحرى أوائل الخريف ، أرسل ابنه فيصل على رأس جيش حشده له ؛ لمعاقبة أحد بطون قبائل عنزة الذى كان آنذاك يرعى إبله فى أراضى ضرمى . إلا أن البدو ولوا الأدبار لدى سماعهم بهذه الحملة . فسار فيصل إلى المجمعة للإقامة فيها فترة من الزمن ، وهناك حشد قوة ليغزو بها عمان تحت قيادة معمر بن محمد بن عفيصان . ولا يذكر ابن بشر شيئًا عن تفاصيل هذه الغزوة.

وبعد ذلك عاد فيصل إلى الرياض . أما والده تركى فقاد حملة إلى إقليم الحسا لمعاقبة العجمان على بعض تصرفاتهم السيئة . ففر فلاح بن هذلين قبل وصول تركى إلى أم ربيعة . وقد انتهز زعيم قبيلة مرة فرصة وجود تركى وعرض عليه ولاءه وخضوعه . ولما سمع فلاح

بهذا استسلم بلا قيد أو شرط ، ونقل إلى الرياض ليظل معتقلاً فيها . وبعد ذلك زار تركى القطيف حيث قدمت إليه الهدايا المعتادة بالإضافة إلى تأكيدات الولاء والإخلاص . ثم أمضى شهرًا فى منطقة الهفوف قبل أن يعود إلى الرياض . وقد توقف فى الطريف عند آبار وثيلان Wuthailan إلى الغرب من الدهناء لعقد اجتماع عشائرى عام ، تحدث فيه عن فلسفة الحكومة الصالحة .

وعندما طلب إليه أمير بريده أن يكون حازمًا وصريحًا فى تبيان أخطاء القادة ومخالفاتهم، رد عليه تركى بقوله :

« إن كلماتى موجهة فى الواقع إليك و إلى أمثالك . لأنكم تعتقدون بأنكم أنتم الذين فتحتم البلاد بسيوفكم ، بينما الواقع أن سيف الإسلام لا سيوفكم هو الذى أنقذ البلاد وصانها بالاتحاد تحت لواء قائد واحد . »

وتفرق الاجتماع بصورة تدل على خضوع المكره المغلوب على أمره أمام رجل يعرف كيف يحسن الانتقال من القول إلى العمل ، وخصوصا حين ينشد القضاء على الفساد بين عِلْية القوم . فقد أكد الناس ولاءهم لتركى وقطعوا عهدًا بطاعته ، إلا أن حديثه بمثل هذه الصراحة فى الوقت الذى استعاد فيه الإمبراطورية التى أضاعها عبد الله يدل على أن هناك الكثير من العمل الواجب إنجازه قبل إيصال سفينة الدولة إلى شاطئ السلامة .

لقد أثبتت الحوادث التى مرت ، أنه لم يكن أمام تركى غير هذا السبيل ، إذا أراد ترسيخ حكمه . إلا أن المنازعات القبلية والحزازات الشخصية والضغائن العائلية مكنت الفتن من ذرقرنها من جديد .

وفى هذه الأثناء مات فيصل الدويش ، فأضعف من زعامة قبيلة مطير القوية التى آلت زعامتها إلى ابن محمد المكنى .

وظهر فى القصيم دَعى زعم أنه خالد بن سعود ، الذى نفاه إبراهيم باشا إلى مصر، فأحدث ظهوره بلبلة فى الأوساط الوادعة فى إقليم نجد . واستقبل الرجل بحفاوة بالغة بأمر من تركى ، غير أن الناس الذين يعرفون خالدًا معرفة جيدة ، سرعان ما اكتشفوا فيه دعيًا كاذبًا إذ كان آخر ما يعرفونه عن خالد هو إعدامه ، كما قيل ، بأمر من محمد على .

وربما كانت عودة مشارى كما ذكر آنفا ، أخطر من هذا الحدث . غير أن الخطوات التى خطاها تركى فى الترحيب به واتخاذ جميع الترتيبات التى تكفل راحته كان لها الأثر الأكبر فى التخلص من جميع المشاكل والمخاوف الناجمة عن وجوده فى نجد .

وتحسنت الأحوال الاقتصادية فى البلاد بعد الأمطار الموسمية الغزيرة بالرغم مما رافقها من برد قارس خلال شتاء ١٨٣٢ - ١٨٣٣ . فقد كان الماء يتجمد بعد خروجه من البئر ، وأصيبت مزارع النخيل بأضرار بالغة وتلف عظيم إلا أن آثار ذلك لم تظهر إلا فى صيف كلتا السنتين التاليتين .

أما أحداث الزبير والبصرة وتهامه اليمنية ، فقد أراحت الجزيرة العربية ومنحتها هدوء نسبيًا فى حكم تركى. غير أن السلام عاد فتعكر خلال الصيف والخريف من سنة ١٨٣٣ إذ وقع شغب وقتال فى المربى Murabba فى مقاطعة السر. وكانت قبائل عنزة ومطير وحلفاؤهم الذين جاؤا من معظم عشائر الصحراء هم الذين أثارروا الفتنة . ولسنا ندرى ما هو السبب الذى جعل تركى لايتدخل فى القتال الذى انتهى بهزيمة عنزة وحلفائها هزيمة منكرة تامة . ويعتقد ابن بشر بأن تركى كان مشغولاً آنئذٍ بقضية مشارى .

وهنالك تعليل آخر معقول ، يذكره ابن بشر حين يرجح أن امتناع تركى عن التدخل يعود إلى اهتمامه بإرساء الاستقرار فى إقليم الحسا . فقد وردته أخبار عن نشوب اضطرابات فى منطقة القطيف بين أهل جزيرة العماير وحاكم قطيف (عبد الله بن غانم) وقطعت طرق المؤن وتعطلت ، فحشد تركى قواته وأرسلها بقيادة فيصل لنصرة تابعه . وزحف فيصل عن طريق آبار الرمحية على حافة الدهنا ، وهاجم أهل العماير وهزمهم شر هزيمة . ففروا إلى حصن الدمام ، التى كانت من أملاك حاكم البحرين . ثم طاردهم فيصل حتى سيهات ووضع خطة لمحاصرة الحامية وأكراهها على التسليم . فاحتل جزر تاروت ودارين وأقام فيها حاميات من جنده . غير أنه توقف عن العمليات الحربية لدى ورود أخبار مرعبة من الرياض، تتحدث عن مقتل والده تركى ، على يد أنصار مشارى بن عبد الرحمن ، عند خروجه من الجامع بعد صلاة الجمعة ، واحتلال مشارى للقلعة وإجباره سكان العاصمة على الاعتراف به أميرًا عليهم .

حدثت هذه المأساة المروعة قبل العاشر من آيار سنة ١٨٣٤ . . إلا أن فيصل كتم الخبر ، ففك الحصار عن سيهات وأخذ معه عبد الله بن غانم إلى الهفوف وهناك جمع قواده وأركان حربه ، ومن جملتهم حاكم الإحساء ، عمر بن عفيصان ، وأمير حايل عبد الله بن على بن راشد صديقه الحميم منذ قدومه إلى الرياض ليعرض خدماته على والده .

وكان هناك آخرون غيرهم يعتمد عليهم فيصل اعتمادًا كليًا ، مثل حاكم بريدة عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن حسن ، وحمد بن غيهب من أهل شقرا ، وتركى الجيزانى من الحريق . وأسرَّ إليهم فيصل الخبر المفجع الذى ورده ، ثم طلب نصحهم فاستقر رأيهم بالإجماع على أن يعملوا على استعادة الرياض ومعاقبة المغتصب بأقصى سرعة ممكنة . ولتوثيق ما ارتأوه أقسم الجميع يمين الولاء والخضوع لفيصل كإمامهم وحاكمهم ، ووضع ابن عفيصان الخزينة المحلية تحت تصرفه التام ، ثم وضعت الترتيبات للزحف فى أقرب فرصة .

وفى العاشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، وصلت قوات فيصل إلى مشارف الرياض . ويبدو أن مشارى لم يكن على علم بهذا التحركات ، غير أن أسوار المدينة وأبراجها كانت محروسة بقواته . وأرسل فيصل طليعة جيشه لدخول المدينة واحتلال الأبنية المحيطة بالقلعة ، وحين تمكنت هذه من دخول الأسوار ، بوشر بعد ذلك بقصف القلعة فى الحال . وكانت القلعة مزودة بالذخيرة والأسلحة لمقاومة الحصار والصمود فى وجه المهاجمين . إلا أن هروب فريق من قبائل السبيع ، أضعف الحامية التى كان تعدادها مائة وأربعين رجلاً . وكان مشارى وحليفه سويد بن على (أمير جلاجل) قد أرسل رسالة إلى فيصل ، يعرض عليه الاستسلام هو وأتباعه على أن تكفل سلامتهم فوافق فيصل على هذا العرض ، شريطة السماح لرجاله بدخول القلعة . . ودليت الحبال من على الأسوار وصعدت بواسطتها فرقة مؤلفة من أربعين رجلاً بقيادة عبد الله بن رشيد إلى السطح وتوزعت تبحث عن مشارى وأتباعه ، فأخرجوا من مخابئهم وسحبوا سحبًا ثم ذبحوا . وألقى الجند برأس مشارى فى الساحة العامة ليؤكد للشعب بأنهم قد ثأروا لقتل إمامهم .

وبعد ذلك تقاطر أهل الرياض للسلام على فيصل ، حاكمهم الجديد .

كان ذلك فى الثامن عشر من حزيران سنة ١٨٣٤ ، أى بعد مرور أربعين يومًا من مقتل تركى الذى دام حكمه زهاء احدى عشرة سنة ، محسوبة من تاريخ وصوله إلى عرقة .

الفصل السابع

فيصل بن سعود

كان حكم تركى القصير الأمد ذا أثر عظيم فى استعادة بعض أمجاد الدولة الوهابية التى تمزقت شذرًا مذرًا، وإعادة مركز بيت سعود السامى . فقد رسخ تركى مرة ثانية الأسس التى قامت عليها الدولة ، وسارت عليها العائلة المالكة فى حكمها خلال نصف قرن الذى سبق كارثة الدرعية . وبفضل ذلك تم له إنشاء تلك الدولة التى امتدت حدودها فأضحت إمبراطورية لم تعرف الجزيرة العربية لها منذ عصر ماقبل الإسلام – هذه الأسس التى مكنت الوهابيين فى الماضى، وستمكنهم فى المستقبل من النهوض مرة أخرى، ليأخذوا مكانهم فى العالم المتمدن ، بصورة تفوق ماكان يحلم به تركى ومعاصروه ولابد أن يمر كل تطور وإصلاح بمحن كثيرة ونكسات متنوعة فالدهر غلب قلب . ويجدر بنا أن ننوه بتركى فنقول : أن من الحق القول بأنه : لولا صبر تركى وجهوده المتواصلة فى سبيل إصلاح التركة التى تسلمها مثقلة بالخراب والدمار، ما قامت الدولة السعودية العربية فى عهد حفيد سعود العظيم . وإذا كان قُدر لأى رجل أن يقوم بهذا العبء فهو تركى.

لقد ولد هذا الرجل فى البيت المالك ولكنه لم يكن ليتوقع الحكم أو يطمع فيه . وهاهو الآن لقد دعى فى الوقت الملائم وحين كانت بلاده فى أمس الحاجة لأن يتولى قيادها . . ونجح . بينما فشل الآخرون الذين كانوا يطمحون إلى الحكم ، وفى مهمتهم التى سعوا إليها من ذات أنفسهم .

كان تركى متقدمًا فى السن حينما اغتيل . بيد أننا لا نعرف تاريخ مولده إلا بالحدس والتخمين . وجل ما نعرفه أنه لعب دورًا بارزًا جديرًا بالتقدير، مثل أى شخص من بيت سعود ، فى الدفاع عن الدرعية ضد إبراهيم باشا ، وأن ابنه فهد قتل فى المعركة . وكذلك دافع فيصل هو الآخر فقدر له أن يكون خليفته على الدفاع فى الدرعية هم : زيد ، ومحمد، وسعود، وقتل الأخيران منهم .

والواقع أنه لا يرد ذكر لتركى فى العمليات العسكرية التى قام بها عبد العزيز الأول وسعود الأول ، غير أنه كان مع أخوته حين حضور والده عبد الله وأبنائه إلى البلاط الملكى، كما ظهر لأول مرة فى تاريخ الوهابيين سنة ١٧٤٦ ، عندما رافق الحملة التى سيرت لإنقاذ منفوحة من حصار دهام بن دواس ، حاكم الرياض .

ومن هذا الوقت فصاعدًا ، نجد اسمه يذكر فى قيادة حملات حربية عديدة ، نيابة عن والده ، وعن أخيه العظيم عبد العزيز الأول .

وفى سنة ١٨٠٣ نجده بجانب عبد العزيز الأول عندما قتل أثناء تأديته صلاة الجمعة فى جامع طريف ، على يد أحد الشيعيين المتعصبين ، انتقامًا لتدنيس كربلاء . ويذكر المؤرخ كذلك أنه كان يعيش فى سعة خلال السنوات الإحدى عشرة التى أمضاها ابن أخيه سعود فى الحكم، وإن كان تاريخ وفاته غير مدون . ولابد أن وفاته وقعت فى زمن ما قبل عام ١٨١٤ . وربما سنة ١٨١٢ . وبهذا يكون قد أمضى ستا وستين سنة من العمر منذ الحملة التى جرت سنة ١٧٤٦ . ومن المعقول أن عمره آنذاك كان عشرين عامًا . فيكون عمره حين وافته المنية ٨٦سنة بينما ولد أخوه عبد العزيز الأول سنة ١٧٢١ ، وابنه البكر وخلفه سعود فى سنة ١٧٤٨ ، ولهذا يكون عمر عبد العزيز عندما اغتيل سنة ١٨٠٣ ، ٨٢ سنة ، ويكون عمر سعود يوم ارتقى العرش ٥٦ سنة وعمره عند وفاته ٦٦ . وهكذا نجد أن أبناء العم سعود وتركى لايكبر أحدهما الآخر بكثير . وعليه فلا يمكن أن يكون عمر تركى أقل من ثمانين عامًا يوم اغتياله سنة ١٨٣٤ .

والمعروف أن فيصل بن عبد الله اشترك فى القتال الذى وقع فى الدرعية . ويذكر ابن بشر : أنه رافق حملة سعود التى أدت إلى احتلال مكة سنة ١٨٠٣ ولم يكن قد تجاوز الخامسة

عشر فى تلك المناسبة بينما كان فى منتصف العقد الرابع عندما اعتلى العرش . وأكثر من سبعين عامًا عندما توفى سنة ١٨٦٥ .

وطول أعمار حكام السعودية البارزين ظاهرة غريبة . فقد بلغ عمر ثمانية أجيال فقط ثلاثمائة سنة : منذ مولد محمد بن مقرن والد سعود الجد الكبير سنة ١٦٤٠ . وهناك مائة عام تفصل بين مولد سعود وموت أكبر أبنائه من خلفه محمد . بينما هنالك أكثر من قرن كامل بين مولد أبى الملك المتوفى(عبد العزيز) واسمه عبد الرحمن وحين وفاة ابنه عبد العزيز نفسه سنة ١٩٥٣ .

لم يبلغ تركى قط الحدود التى كسبها ثم أضاعها سلفه . فلم يكتب للحجاز أن تعود إلى الحظيرة الوهابية إلا بعد قرابة قرن من الزمن . أما اليمن فقد ضاعت نهائيًا ، بينما كانت أقاليم نجران وعسير مستقلة فعلاً تحت قبائلها الحاكمة . ومن ناحية ثانية نجد أن إقليم الإحساء قد استسلم وخضع ، بخلاف عمان التى لم تخضع كلية ، بل أعيدت إلى الحكم . وكان جبل شمر ووادى الدواسر يشكلان الحدود الشمالية والجنوبية للحاجز الأوسط بينما كانت الواحات الغربية (بيشة ورنيا ، حرمة وترابه ، خيبر وتيماء) فيما يبدو متصلة بدولة سعود بروابط أضعف ولقد استطاع تركى أن يرسى قواعدًا بشىء من السلام والنظام فى المناطق العشائرية والمضرية وإن كان وصف المؤرخ الشعرى للحالة فى زمنه يجب أن يسقط من الحساب عند تقدير التركة التى آلت إلى فيصل .

كان فيصل رجلاً دينًا ، ميالاً للبحث و الدرس والتقشف ، مطلعًا تمام الاطلاع على مبادئ الدين . فقد حفظ القرآن فى صغره ، وكان يقضى الساعات الطوال فى التهجد ، والتضرع إلى الله القدير طالبًا المعونة الربانية ليتغلب على متاعبه الدنيوبة .ويالها من متاعب! تلك التى انصبت عليه كما يقول ابن بشر . وأى مخاطر تلك التى واجهها ! تلك التى تبعث اليأس فى نفس الأتقياء والعلماء على السواء، ناهيك عن الحكام والأمراء.

ولقد خُيل إليه عندما ارتقى العرش أن حكمه سيسوده الهدوء والازدهار. فقد كان تكريس حياته لدينه وبلاده وشعبه لايقل قطعًا عما كان يتميز به والده فى هذه الناحية . ولدى عودته إلى نجد سنة

١٨٢٨ كان قد أمضى زهرة أيام حياته أسيرًا عند الأتراك بمصر.

وفراره من مصر للانضمام إلى والده دليل على عزمه المخلص على تحرير بلاده من الحكم والتدخل الأجنبى . . وبعد مرور ست سنوات أصبح يد والده اليمنى فى إعادة بناء الدولة وإرساء الاستقرار فيها .

لقد لعب دورًا بارزًا فى استرجاع إقليم الإحساء الحيوى الذى كان يعتمد عليه اقتصاد البلاد إلى حد كبير. ولم تكن دعوته لتسلم عرش أجداده بالصورة المفاجئة التى عرفناها فاصلاً فى تصريف أمور الدولة بل استمرار له .ومع هذا فلم يكتب لحكمه أن يمر بسلام . فهذه الصور الأخيرة التى رسمها وليم جيفور بلغريف Wiliam Gifford Palgrave والكولونيل لويس بلى Colnel Lewis Pelly له فى أواخر أيام حياته تظهره لنا كشيخ أعمى محطم ، كثير الشكوك ، سريع الغضب مُتَقَلِّ الأطوار ، ينقاد إلى رجال البلاط ولايزال ظل الفتن الداخلية يخيم على أواخر أيامه .

وقد عاش ابن بشر ليرى هذه المتاعب تتطور وتصبح نزاعًا يقتل فيه الأخ أخاه . إلا أنه ليس من سبب يدعونا للاعتقاد بأن تقدير ابن بشر الموجز لمزايا أولاد فيصل يعود إلى معلوماته السابقة . وكونه لا يذكر عبد الرحمن الذى ولد سنة ١٨٥٠، وإنهاؤه تاريخه بسنة ١٨٥١ . يدل كما يبدو على أن ابن بشر لم يكن مهتمًا بالأمر ولا متحمسًا له إلا أن دعاءه إلى الله أن يجعل ذرية فيصل جديرة باسمه، وأن يسدد خطاها للسير فى الطريق السوى يثير فى نفس قرائه الشك فى أن الأموركانت سائرة سيرًا حسنًا .

ومهما يكن من أمر فإن المؤرخ ليفضل محمدًا على إخوته أبناء فيصل ، دون أن يذكر بأنه كان أكبرهم سنًا ومو يذكر مثلاً عن محمد هذا وأخيه عبد الله ، أنهما كانا أنموذجًا للفضيلة والحماس الدينى، بينما يمتدح سعودًا (أصغر الثلاثة) على مسلكه الملكى وشجاعته وكرمه منذ طفولته .

وهكذا يظل القارئ لا يعرف تاريخ مولد أىٍّ منهم ، وإن كان من المحتمل أن يكون محمدًا وعبد الله على الأقل ، ولدا قبل سقوط الدرعية . هذا إذا لم يكن سعود أيضًا. ومن الجائز أن سعودًا ولد بعد هرب والده من مصر سنة ١٨٢٨ . وعندئذ ، لابد أنه كان لا يزال

طفلاً يوم ارتقاء فيصل العرش . فقد مات سعود وعمره يقل عن الخمسين . كان ذلك سنة ١٨٧٥م .

كانت الاضطرابات التى حدثت فى أواخر عهد فيصل لاتزال بعيدة طى الغيب سنة ١٨٣٤ حينما تسلم زمام الحكم . وقد افتتح عهده بموتمر الرياض الذى استمر شهرًا كاملاً، حضر أثناءه جميع فقهاء الدولة البارزين ، ومنهم على عبد الرحمن ، حفيد الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وولدا حسين ، اللذان كانا قاضيان فى الحوطة والخرج .

ثم تبع هذا المؤتمر زيارات التهنئة المعتادة من زعماء مختلف المناطق والمقاطعات لتأدية فروض الطاعة نيابة عن الأهلين فى أقاليمهم .. وانتهى فيصل من هذه مراسم ، فأرسل جباته شمالا وجنوبا وغربًا وشرقًا لتحصيل الضرائب المستحقة لبيت المال . أما الجباة الذين أرسلوا إلى الجنوب فذكروا قيام فتن داخلية فى وادى الدواسر والأفلاج ، مما دعا فيصلاً إلى إرسال حملة عسكرية لإعادة النظام بين السكان .

وفى هذه الأثناء تمكن من إخضاع شرذمة من قبيلة الدواسر كانت تعسكر فى مرابعها الشتوية فى صحراء العرمة ، أثناء طريقه إلى معسكره الربيعى قرب الطوير. وكان قد عينها كنقطة اجتماع للفرق العشائرية والقوات الحضرية التى تؤلف جيشه . ثم سار بجيشه لإقامة طويلة فى الشعرا Sha'ra من مرتفعات نجد، وهناك وجه اهتمامه الأول نحو حاجات الناس الدينية فجعل فقهاءه يفرضون على الأهلين حضور الدروس كل يوم بعد صلاة العصر. غير أنه لم يهمل حاجات الدولة الدنيوية ، وخصوصًا خزينتها . فقد ظل الجباة يعملون بلا هوادة.

وحين نمى إليه أن جماعةً من قحطان هربوا فرارًا من دفع الضرائب المستحقة عليهم بحث الجند عنهم حتى وجدوهم . وقام فيصل بنفسه يعاقبهم على فعلتهم عقابًا صارمًا ، فقتل زهاء الستين رجلاً أثناء هذه الإجراءات التأديبية . ومثل هذه الحوادث شيء عادي كثير الوقوع فى حياة الصحراء، ولايعنى السخط على الحكومة مطلقًا .

وفى أيام سنة ١٨٣٥ . جلب فيصل على نفسه المتاعب فى إقليم قصى، عندما قرر بأن يكافئ عبد الله بن على بن رشيد ، صديقه الحميم ونصيره الجبار فى القضاء على فتنة مشارى، بتعيينه حاكمًا لجبل شمر بدلاً من صالح بن عبد المحسن ، حاكمه آنذاك . وكان هذا يمثل مشيخة العائلة الحاكمة فى حايل.

وقد أرسل فيصل مع الأمير الجديد أحد الفقهاء البارزين ليلقن الأهلين مبادئ الدين الصحيحة . غير أنه حدث اضطراب فى حايل من أثر هذا التعيين الجديد، بدأ بنزاع حدث فى الجامع بعد صلاة الجمعة ، وانتهى بفرار الحاكم المخلوع مع جميع أفراد عائلته إلى القصيم ، بعد اشتباك شديد مع رجال الزعيم الجديد. فلما علم فيصل بالأمر، أصدر تعليمات إلى أمير القصيم أن يلقى القبض على الفارين ويقتلهم . فنفذ الأمير ذلك وقتل صالحًا وبعض أفراد عائلته ، بينما هرب الآخرون إلى المدينة المنورة .

وهكذا ظل عبد الله سيد شمر المطلق تابعًا للدولة الوهابية . ثم خلفه فى الإمارة ولدان من أولاده . أما ابنه الثالث محمد فلم يكتف أن يعمل على استقلال دولته استقلالاً تامًا عن الرياض بل استطاع ضم الدولة الوهابية إلى دولته حتى نهاية القرن.

وفى هذه الفترة ، كان الأتراك فى الحجاز يحاولون جاهدين أن يسيطروا على إقليم عسير، بمساعدة شريف مكة ، محمد بن عوف . غير أن الضرائب والغرامات الفاحشة التى فرضها الجيش الكبير الذى وفد من أجل هذه الغاية ، أدت إلى رد فعل بين القبائل . فاحتشدت للهجوم على جيش العدو وأوقعت به شر هزيمة ، ولم ينج من أفراده إلا القلائل الذين فروا إلى مكة مع أحمد باشا والشريف . وعلى أثر ذلك استدعى محمد على باشا ، الشريف أحمد باشا إلى مصر، فى صيف ١٨٣٥ واعتقل الشريف : إما لارتيابه فى أنه لم يلعب دورالتابع المخلص الأمين ، أو انتقامًا منه جزاء الفشل الذى منيت به الحملة.

وفى هذه الأثناء ، أرسل شيوخ عسير ، معظم الغنائم والأسلاب ، التى استولوا عليها من الأتراك إلى فيصل . وكان هذا دليلاً على دعمهم للقضية الوهابية ، بينما أرسل محمد على - الذى كان فى سبيل وضع خطة لإخضاع فيصل - أرسل إليه الدواسرى بن عبد الوهاب ابى نقطة الذى كان أسيرًا فى مصر منذ سقوط الدرعية ، ليطلب منه أن يدفع الجزية .

أما فيصل فكان قد أرسل هدايا ثمينة إلى أحمد باشا فى مكة مع أخيه جلوى .. وكان هذا شابًا لايربو عمره آنذاك على الخامسة عشرة . فقد ولد أثناء إقامة أبيه فى المنفى بعد هربه من الدرعية .ثم مكث جلوى فى مكة ليؤدى فريضة الحج فى نيسان من سنة ١٨٣٦، أى قبل عودة أخيه من مضاربه الربيعية فى روضة طنحة (فى الطرف الغربى من الدهناء) ، حيث كان

يجمع الضرائب ويعمل على حفظ الأمن والنظام فى الصحراء . ومن المحتمل أن هذا المكان هو نفس المكان الذى استقبل فيه فيصل أبناء عبد الله بن خليفة (شيخ البحرين) وكان هو نفسه قد قام بزيارة ساحل الخليج ليتقبل فروض الطاعة والولاء من حكام القطيف وسيهات.

ولدى عودته إلى الرياض ، أرسل أحد عبيده الموظفين إلى القصيم ليجمع الضرائب من قبيلة عنزة . كما أرسل بناءًا على طلب زعماء القصيم البارزين ، عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين (أحد الشيوخ المعروفين) إلى عنزة ليرعى الشئون هناك خلال زيارة أراد الشيخ أن تكون قصيرة .. وقد نجح فى مهمته حتى أن السكان ألحوا عليه أن يأتى بأهله ويقيم بين ظهرانيهم إقامة دائمة . وصادف ان احتبس المطر سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٦ فتميزت السنة الجديدة بفترة طويلة من الجفاف وارتفاع فظيع فى الأسعار هاجرت بسببه أعداد كبيرة من السكان إلى جهات البصرة والزبير .

ويذكر ابن بشر ظهور مُذنّبٍ معروف ، فى برج الدب الأكبر ، مدة خمسة أو ستة أسابع ، وينذر نذير شؤم يدل على الجفاف الذى اجتاح البلاد انتقامًا لمقتل تركى وما نتج عنه من شر . ويذكر المؤرخ أن جفاف مثل هذا أصاب البلاد بعد مقتل عبد العزيز.

إلا أن المذنّب والجفاف وانحباس الأمطاركانت نذير سوء وشؤم لكارثة أعظم وأشد. فقد صمم باشا مصر على إخضاع الصحراء العربية لإرادته . وساعده فى سبيل تحقيق مشروعه مساندة خالد ابن سعود (الجد) ، وشقيق مشارى الذى حاول إعادة العائلة المالكة سنة ١٨٢٠ ففشل . وكان خالد هذا أحد أفراد العائلة المالكة الذين أخذهم إبراهيم باشا معه إلى المنفى فى مصر ، حيث أمضى ثمانية عشر عامًا ، كما أنه أكبر الذكور الأحياء من إخوة عبد الله السيئ الحظ.

وقد انتحل أحد الأشخاص شخصيته محاولاً بذلك تحدى مركز تركى فى الرياض غير أن المحاولة فشلت كما رأينا . أما الآن فلا حاجة إلى الانتحال . وإنما لحركة بارعة من محمد على أن يشرك معه فى مشروع الإغارة على نجد شخصًا قد يعتبره النجديون الوارث الشرعى لأمجاد البيت الحاكم .

وفي أواخر سنة ١٨٣٦ أو في بداية السنة التالية ، وصل خالد هذا إلى ينبع . وكان يصحبه إسماعيل أغا ، القائد التركي للحملة التي قدر عددها بألفي مقاتل . أما فيصل فأرسل جاسوسًا مع بعض الهدايا إلى إسماعيل وكلفه أن ينقل إليه ما ينوى القائد عمله . وبناءًا على المعلومات التي نقلها الجاسوس عن تقدمه مارًا إلى الحنكية ، وتمشيًا مع نصيحة عبد الله بن رشيد والزعماء الآخرين الذين كانوا موجودين في الرياض آنذاك ، قرر فيصل احتلال القصيم ، استباقًا للعدو، ولئلا يؤدى وصول إسماعيل إلى خضوع أهلها. وبعد أن أصدر أوامره إلى قواته بوجوب الاحتشاد في مكان معين يقع في الشمال ، غادر الرياض في شهر آذار عن طريق خفيسة إلى صريف . وهناك علم بأن إسماعيل وخالدًا قد وصلا إلى رس . فانتقل إلى عنيزة حيث انضم إليه جنودها وجيش بريدة تحت قيادة أمرائهم ، في زحفه على موقع رياض الخبرة ، القريب من رس.

وبعد مناوشات غير منتظمة ورفض سكان شنانه ، الذين ذهب أمراؤهم إلى رس للمفاوضة على شروط الاستسلام ، أن يسمحوا لقوة من جيش فيصل بدخول المدينة ، انسحب فيصل إلى عنيزة . وكان هذا بدء انهيار القوات الوهابية ، فعاد فيصل نفسه إلى الرياض وتخلى كما يبدو عن فكرة مقاومة احتلال العدو للقصيم .

وحتى في الرياض وقع فيصل فريسة للخداع . فقد وجد الناس هناك غاضبين ليس لديهم أدنى ميل إلى مساعدته : إما لفشله في مقاومة احتلال الأتراك للقصيم ، وإما لأن أصدقاء خالد قد نجحوا في تأليب الرآى العام عليه . وخوفًا من الخيانه والخديعة بقي فيصل في عاصمته حتى فرغ من جمع الأسلحة والمؤن والأموال الموجودة في القلعة .. فحملها معه وسار ببقايا جيشه إلى الخرج . وبعد أن مكث فيها عشرة أيام ، اتجه نحو الإحساء فوصلها في بداية شهر آيار سنة ١٨٣٧ تقريبًا. ومكث هناك منتصف شهر تموز حتى تأكد من ولاء حاكمها ، عمر بن عفيصان . ثم أخذ يحشد جيشًا يتألف من قبائل مطير والعجمان وسبيع والسهول ، ومن مدن الإحساء وقراها . وكانت هذه القبائل تكره رؤية الأتراك بين ظهرانيهم مرة أخرى.

وفي هذه الأثناء زحف إسماعيل أغا بجيشه على عنيزة فاستسلمت بعد مقاومة قصيرة . ثم خضعت بريرة بدون مقاومة ، وكذلك باقي الإقليم . فوجه إسماعيل انتباهه إلى حايل .

وفر أميرها عبد الله بن رشيد تاركًا المنصب خاليًا ، فعين فيه إسماعيل أغا رجلاً يدعى عيسى ابن على نيابة عن خالد بن سعود وفى هذه الأثناء وصل وفد الرياض إلى عنيزة كى يعرض على خالد بن سعود خضوع بقية نجد فيما عدا الخرج وفرعة . وكان زعماء هذين البلدين قد كاتبوا خالدا يعرضون عليه قبولهم به حاكمًا على نجد شريطة أن لا يكون للأتراك به علاقة . ووصلت هذه الرسالة لدى وصوله وإسماعيل أغا إلى الرياض فى بداية شهر أيار، فأصر إسماعيل على تأديب هؤلاء على وقاحتهم.

وفى الأول من تموز قام خالد وإسماعيل بإخضاع أهل الحمل وتنظيم الشئون الإدارية فى المنطقة ، ثم سار بجيش من الأتراك والعرب يقدر بسبعة آلاف مقاتل إلى الجنوب . وانضم اليهما فى الطريق ، فهد بن عفيصان حاكم الخرج . أما سكان الحوطة والحريق وبقية أهالى وادى فرعة فقد قرروا أن يقاوموا الأتراك مهما كانت النتيجة . وقد شجعهم على ا تخاذ هذا القرار ثلاثة من أحفاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب وجميع مشايخ الرياض البارزين الذين كانوا قد هربوا إلى الحوطة قبل وصول خالد وإسماعيل .

وقد قابل الفلاحون كتائب الجيش الغازى وقاوموها بكل بسالة . ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة اندحر فيها الأتراك ومشايعوهم اندحارًا ساحقًا. ومنوا بخسائر فادحة فى الميدان، فولوا الأدبار باتجاه الصحراء، مخلفين جميع مدافعهم ومعداتهم . وفر خالد وإسماعيل إلى الرياض مع فلول فرسانها ، بينما فرَّ فهد بن عفيصان الذى انضم إلى المعتدين فى الطريق ، تحت جنح الظلام . وأخذ هو وجنوده يبحثون عن الهاربين ويقتلون منهم من أمكن قتله .

وعاد فيصل إلى الإحساء لدى سماعه بهزيمة العدو، فعسكر بجيشه فى دلم ، حيث انضم إليه أهل الخرج وأعداد كبيرة من أهل الحوطة والحريق . وكان إسماعيل أغار قبل زحفه إلى الجنوب ، قد وضع قوة من الأتراك والمغاربة فى الرياض وعندما وصل فيصل إلى قرية المصانع الزاخرة بمزارع النخيل ، خرج إليه خالد بقواته الاحتياطية إلى اتون المعركة . فلجأ خالد إلى منفحة لأن الطريق إلى الرياض كانت مسدودة بقوات فيصل .

ويبدو أن خالدًا نجح فى الفرار إلى العاصمة ، وإن كان قد حضر معركة المصانع . لأنه لم يكن بين الذين استسلموا لفيصل بعد حصار منفوحة . ثم أخذ فيصل يحاصر الرياض نفسها

بعد أن احتل جميع مزارع النخيل المحيطة بها . أما خالد وإسماعيل فلم يكن فى أيديهما غير المدينة الواقعة داخل السور.

وقد بدأ هذا الحصار فى السابع من أيلول سنة ١٨٣٧ واستمر حتى نفذت منها جميع ضروريات الحياة . فقتلت جميع الحيوانات الموجودة داخل المدينة من أجل لحمها ، حتى خيول الفرسان ذبحت وأكلت . وارتفع سعر البن حتى بلغ سعر الصاع ثمانية ريالات .

وأخذ خالد ينتقم لنفسه بتدمير بيوت كل من فى معسكر الأعداء، وبعد ذلك بمدة جمع جميع الذين لا يصلحون للدفاع وقذف بهم ليلاً من أحد أبواب السور ليجدوا لهم عونًا فى معسكر الأعداء اذا استطاعوا .

وقد استمر الحصار حتى من تشرين ، عندما قرر فيصل بناءًا على نصيحة مستشاريه أن يقتحم المدينة . فنصبت السلالم على نقاط كثيرة من السور .. ونجح المهاجمون فى فتح ثغرة ثبتوا فيها أقدامهم . غير أن المدافعين قاتلوا بشراسة .. ففشل الهجوم وأحبط .

وفى هذا الوقت الشديد الحرج ، أى فى العاشر من تشرين الأول من ذلك العام وصلت قوة كبيرة من قبائل السبيع وقحطان لتخفيف الضغط عن المدينة . وغربت الشمس .. وتحت جنح الظلام ، رفع فيصل الحصار عن المدينة وانسحب إلى منفوحة . وبعد مرور خمسة أيام تم أثناءها تبادل الرسائل بشأن تسوية سليمة للنزاع ، ولكن دون نتيجة . فلم يكن هنالك أى أمل فى حل مشكلة وجود الأتراك الذين انضم إليهم خالد هذا من جهة . أما من الجهة الأخرى فإن فيصل وجميع ضباطه البارزين علاوة على أهل نجد، كانوا يرفضون عودة الاحتلال التركى.

وهكذا استمر القتال من جديد، مع أن انسحاب فيصل مكّن أنصار خالد من إرسال الأغنام والمؤن إلى الحامية ، بالرغم من محاولة فيصل الاستيلاء على القافلة التى حملتها . فنشبت معارك متفرقة فى نهاية تشرين الثانى وأوائل رمضان . ووصلت قافلة أخرى من القصيم بالرغم من الجهود التى بذلها فيصل لمنعها ، ولم تأت هذه القافلة بكميات من النقود للجنود الأتراك فحسب ، بل حملت معها أخبارًا مشجعة عن وصول خورشيد باشا مع نجدات إلى إسماعيل وخالد.

حدث ذلك فى الثالث من كانون الثانى سنة ١٨٣٨ .

وكانت المشكلة الآن هى كيفية الإسراع فى مجىء الأتراك إلى الرياض ، فقد تأخروا فى القصيم خوفًا من أن يهاجمهم فيصل فى الطريق . فتقرر إرسال حرس من العرب مع عدد من الجمال إلى هذه القوة ، تحت إمرة شخص يدعى السيوفى بصحبة ضابط تركى. ووصل الحرس القصيم .. ولكنهم وجدوا أن خطة الأتراك تقضى بمداهنة فيصل وملاطفته بدلاً من مداهمته والقضاء عليه .

ومن أجل هذه الغاية ، اصطحب خورشيد باشا عبد الله (وهو من ينبع) ومضى لزيارة فيصل حاملاً إليه بعض الهدايا . وتحدث إليه بكلام معسول واعدًا بتثبيته فى منصب إمارة نجد. ولذا بقيت النجدات والإمدادات مع خورشيد فى القصيم ولم يحتاجوا إلى حراسة السيوفى غير أن الشريف عبد الله ، خرج لمقابلة فيصل . وأغراه فعلاً على ترك مقاتلة خالد. وربما كان هذا على أمل ان يفى الأتراك بشىء من وعودهم التى قطعوها له فى وقت ملائم . واقتناعا بهذا جمع فيصل المؤن والذخائر فى الرياض وضواحيها ، وصرف حلفاءه من القبائل، ثم قصد إلى الخرج ، حيث استقر فى دلم فى ضيافة عائلة عفيصان . وكان يصحبه هناك قوة من المناطق الجنوبية كافية للدفاع عن نفسها ثم أرسل فيصل أخاه جلوى إلى خورشيد باشا فى المدينة المنورة ، فى الرابع والعشرين من شباط ، مع بعض الهدايا والرسائل، ليقف على مايضمره الأتراك نحوه .

وفى الوقت ذاته ، اتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لتأمين الجنوب من الطوارئ. ويبدو ان فيصلاً كان محظوظًا آنئذ فى الشمال . فقد نجح ابن رشيد فى الاستيلاء على حايل من عيسى بن على منتخب الأتراك . أما شمالى الخرج ، فقد كانت البلاد تحت سيطرة خالد، الذى استقبل وفودًا من مقاطعات المحمل وضرمى، فطلب إلى جباته بأن يحصلوا الضرائب من البلاد التى كانت لاتزال ترزح تحت وطأة الجفاف والمجاعة.

ووصلت الإمدادات التركية من القصيم فى وقتها المحدد ، بقيادة القائد الكردى الملا سليمان ، وكان قد وقع عليه الاختيار، ليخلف إسماعيل أغا الذى عاد إلى مصر. وأرسل أحمد السديرى حاكمًا لإقليم السدير ومعه قوة من خيالة الأتراك . ثم صدرت إليه الأوامر

بتحصيل الضرائب المستحقة للحكومة وتحصيل غرامة من زعماء الأقاليم ، عقابًا لهم على الدور الذى لعبوه فى حصار الرياض قبل مدة . واستطاع أحمد أن يهدئ من عاصفة غضب الأتراك على بلاد أنهكتها المجاعة وقتلها الجفاف . وفى نفس الوقت كان حازمًا فى تحذيره للسكان من إبداء ميول عدائية نحو حكامهم الجدد (الأتراك).

وفى نهاية آيار وصل خورشيد باشا إلى عنيزة ، يصحبه جلوى. فاستقبل بحفاوة وإكرام بالغين وبتأكيد الولاء والإخلاص من قبل السكان . غير أن حادثا تافهًا وقع فى حزيران كان من أثره ، إثارة العداوة بين الشعب وضيوفهم . مما أدى إلى خسائر فادحة بين الطرفين . لكن الأمن أعيد إلى نصابه بعد ثلاثة أيام .

وقد أمضى خورشيد فى عنيزة زهاء الخمسة أشهر، قضاها فى تصريف شئون الأقاليم ، واستقبال الزوار والضيوف . وكان أعظم الزيارات تلك التى قام بها عبد الله بن رشيد، فثبته خورشيد أميرًا على حايل وقدم له الهدايا الكثيرة لدى رحيله . وكان من جملة الزوار البارزين الآخربن ، زعيم قبيلة مطير، محمد الدويش وأحمد السديرى الذى جاء معلنًا ولاء الإقليم وخضوعه ، فاستقبل بمظاهر الحفاوة الخاصة.

أما خطة خورشيد فى احتلال الجزيرة العربية احتلالاً دائمًا والاقتتال الذى لابد منه بينه وبين فيصل ، فقد بدأت تتضح وتنجلى. ولم يكن جلوى فى الواقع إلا أسيرًا لدى مضيفه ، فتمكن من النجاة بجلده بحيلة بارعة . إذا استحصل على إذن بزيارة بريدة ، ومن هناك هرب فانضم إلى أخيه فى الخرج . وكان خورشيد آنئذ منهمكًا فى إعادة بناء حصن الصفا الواقع فى واحة عنيزة وتزويده بما يلزمه من المؤن والعتاد .

وفى أواسط تشرين الأول من سنة ١٨٣٨ زحف خورشيد جنوبًا إلى الرياض عن طريق الوشم ، حيث انضم إليه خالد وجنود العارض ، للزحف على الخرج . فوصلت هذه القوات المشتركة إلى نجعان فى آخر يوم من تشرين الأول ، لتجد أن السكان جميعهم قد انضموا إلى فيصل فى دلم . فهاجمها خورشيد وخالد. وخرجت جماعة من حامية المدينة ، إلا أنها ردت على أعقابها بعد معركة ضارية تعرف باسم معركة الحزب ، على اسم خرائب قرية قديمة كان خورشيد قد اتخذها مقرًا لرئاسة أركانه .

اما فيصل ، فبعد أن حصن أسوار المدينة وحفر حولها خندقًا وأقام حصونًا للإشراف على المنبع الرئيسى للمياه خارج الأسوار، نظم جيشه وأعده لمواجهة هجوم العدو .. واستمرت المعركة بشراسة فى نقاط حيوية مختلفة . وخاصة حول حصن هنا ، الذى تبادلته الأيدى مرارًا كثيرة . غير أن الأتراك احتلوه آخر الأمر فأصبحوا يسيطرون على موارد المياه .

وفى هذه المرحلة الخطيرة من القتال وصل عمر بن عفيصان إلى قرية السليمية على رأس قوة من الإحساء ، وبعث إلى فيصل يقترح عليه أن تخرج من الحامية جماعة قوية تهاجم الأتراك ، كى يقوم هو بالهجوم من الخلف . . ونشبت المعركة فى ٢٥ تشرين الثانى .. وسيطر الموت من الفجر حتى العصر. وكان هجوم الأتراك عنيفًا بعد هجوم معاكس قاموا به واضطروا ابن عفيصان أن يتوقف عن هجومه ويرتد إلى السليمية . . ونظم ابن عفيصان كمينًا لقافلة تركية قادمة من الرياض ، عند حايل فى وادى حنيفة . غير ان خورشيد أرسل طابورًا من الجيش لانقاذ القافلة وصد الهجوم ، فوصلت بأمان إلى هدفها .

وانتقل ابن عفيصان بعد ذلك إلى قرية زميقة قرب دلم ، حيث كان قسم كبير من ذخيرة فيصل . لكن خيبة أمله فى النتائج البسيطة التى حصل عليها حتى الآن ، أدت إلى تزمر بين جنوده فرفعوا عقيرتهم بالشكوك . ثم انسحبت فرقتا الحواطة والحريق ومضتا إلى بلادهما . اما أهل زميقة فقد اعتراهم الذعر لدى حدوث هذه التطورات ففروا مع عائلاتهم إلى الصحراء.

وحينئذ انسحب ابن عفيصان إلى السليمية ومنها إلى آبار السدير ليكون بمنأى من مطاردة أعدائه له . فاحتل خورشيد قرية زميقة ، واستولى على مخازن المؤن ، فى الثانى من كانون الأول (١٤ رمضان) . وبعد أربعة عشر يومًا أرسل أهل الحوطة الهاربون وفدًا عنهم إلى خورشيد يطلبون العفو وعقد الصلح ، لا بالنسبة إليهم وحدهم بل بالنسبة إلى مواطنيهم الذين انضموا إلى فيصل أيضًا فمنحهم خورشيد ما طلبوا .

وهكذا وقع فيصل فى ورطة كبيرة . فما كان منه إلا أن وافق على طلب العفو العام عن الحامية بأكملها .. وكان ما دعاه إلى ذلك أنه شعر بأن فرقة الحوطة ستنسحب من جيشه أو تغدر به . وقد أبلغ خورشيد رسول فيصل أن الأتراك على استعداد لأن يوافقوا على طلبه ، شريطة أن يسلم فيصل نفسه ، ويذهب إلى مصر لينضم إلى بقية أفراد عائلة سعود هناك .

عندئذ توقف القتال بعد أن قرر فيصل الاستسلام للقائد التركى بعد ضمان سلامته وحماية ممتلكات الذين أخلصوا له وخدموه . وتم له ذلك وانقضت أربعة أيام ، أى فى العشربن من كانون الاول سنة ١٨٣٨ ، ثم بدأ فيصل السير إلى مصر بحراسة حسن اليازجى ومرافقه أخيه جلوى وأبنيه عبد الله ومحمد (قد كان سعوداً صغيرًا فلم يرافقهم)، وابن عمه عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد المعروف باسم سنيتان .

ولدى وصول فيصل إلى القاهرة أُعد له منزل يقيم فيه تحت الحراسة .ويبدو أنه كان يقضى أيامه ولياليه فى التهجد والصلاة ، حتى قيل أن المرضى كانوا يقصدونه ليتلو عليهم شيئًا من القرآن الكريم وليشفيهم ببركته .

أما عمر بن عفيصان الذى كان مخلصًا لقضية فيصل فلم يثق بوعد خورشيد بالعفو العام ، والتجأ إلى البحرين فترة من الزمن ، ثم استقر نهائيًا فى الكويت . إلا أنه أسدى النصح إلى أصحابه فى الإحساء أن يذهبوا إلى الرياض ويقسموا اليمين على الطاعة لإمامهم الجديد الذى أصبح السيد المطلق على إقليم نجد تحت نائب السلطان المصرى وممثليه المحليين .

وهكذا دام حكم فيصل أربع سنوات ونصف ، وأمضى عشر سنوات حرًا طليقًا قبل أن يعود ثانية إلى الأسر.

ونقل الأتراك أحمد السديرى من إمارة السدير إلى أقليم الإحساء الذى لم ينس أهله اعتداءات جيش إبراهيم باشا . وكان هذا النقل إشارة إلى أن العهد الجديد سيكون أرحم من القديم ، إلا أن تغيير الأسلوب كان مؤقتًا فقط . فما كاد أحمد يهدئ مخاوف الإحساءيين وينظم إدارة إقليمهم ومنطقة القطيف ، حتى نقل ليشرف بنفسه على الخزينة العامة ، بينما خلفه فى المنصب رجل تركى اسمه محمد أفندى صار يضرب المثل بطغيانه وقسوة معاملته .

وطبيعى أن الظالم قصير العمر، فقد قتل محمد أفندى على يد مجهولين بينما كان عائدًا من زيارة قام بها إلى عين نجم ذات المياه المعدنية . وخشى أحمد السديرى أن تسند إليه تهمة التحريض على مقتله ، فأعلن عن مكافأة سخية لمن يدلى بعلومات تؤدى إلى اعتقال القتلة وتنفيذ حكم الإعدام فيهم . واتجهت التهمة إلى ثلاثة رجال من قبيلة العوازم من أتباع أمراء بنى خالد، كانوا قد طلبوا إلغاء منصب الحاكم . ولكن خورشيد باشا لم يقتنع بصواب رأيهم فأرسل من الرياض حاكمًا آخر اسمه محمد أفندى أيضًا . وتابع الحاكم الجديد سياسة العنف

والطغيان التى انتهجها سلفه ، فسخط من ذلك أحمد السديرى على هذه التصرفات الرعناء، فطُرد من منصبه وعُيِّن مكانه عيسى بن على بن فايز، تعويضًا له عن منصب إمارة حايل الذى فقده من قبل . وكان مقتل محمد أفندى الأول فى تشرين الأول سنة ١٨٣٩، وطرد أحمد السديرى فى الشهر التالى.

كان خورشيد باشا فى هذه الأثناء منهمكًا بتخريب إقليم الخرج ، فدمر تحصينات دلم ووضع حامية فى السليمية ، ووكل إليها أمر الإشراف على الأعمال الزراعية والرى التى تعتمد على ينابيع منطقة سيح Saih المشهورة ، هذا كما فرض على الحوطة ووادى فرعة أن يدفعوا مقادير كبيرة من التمر والحنطة .

ولدى عودته إلى الرياض أرسل خورشيد إلى قائد الحامية ، حسن المعاون ، بتعليمات يطلب إليه فيها وجوب إحصاء المحاصيل الزراعية والواردات فى نجد بأكملها : من القصيم حتى الإحساء. ولم يكتف القائد التركى بكل هذا . ففى ١٨٣٩ ، نقل مركزه من الرياض إلى ثرمدة ، حيث بنى حصنًا كبيرًا لإقامة الحامية ، وطلب من سكان المدن والقرى أن يرسلوا نصف محاصيلهم إلى هناك بالرغم من أن الأحوال السيئة التى خلفتها المجاعة كانت لاتزال سائدة فى البلاد.

وفى آذار من سنة ١٨٣٩ علم خورشيد بوفاة السلطان محمود بن السلطان عبد العزيز، وارتقاء ابنه عبد المجيد العرش خلفًا له . وبعد سنة من استقراره فى ثرمدة ، وصلته الأوامر من مصر تطلب إليه العودة مع جيشه كله . فأصبح همه الآن أن يجمع عددًا كافيًا من الجمال ينقل عليه رجاله ومعداتهم إلى المدينة المنورة.

وقد كانت تلبية طلبه هذ تختلف من قبيلة إلى أخرى، فزودته ثرمدة فى الحال بسبعمائة جمل جمعتها من مناطق شمر، وأرسلها عبد الله بن رشيد الذى كان يستعجل رحيل (ضيوف) الجزيرة . وانتظر خورشيد وخالد الذى لحق به ، وصول الجمال . وفى هذه الأثناء نظم حملة على قبيلة Shamir شامر فى صحراء البياض جنوبى الخرج . فلم يكتب لها النجاح.

وتنحصر أهمية هذه الحملة فى أن قائدها خالدًا اصطحب معه عبد الله بن ثنيان الذى يذكر لأول مرة ، فى تاريخ نجد. وكان عبد الله هذا ، ابن عم بعيد لخالد. فقد كان جده الأعلى أخًا لجد خالد الأعلى محمد الأول ، أول أمير للوهابيين.

وفى نيسان سنة ١٨٤٠ أحدث خورشيد تغييرًا فى منصب حاكم الإحساء. فقد عين فيه حمد بن مبارك من أهل حريملة ، خلفًا لمحمد أفندى الثانى. ولكن خالدًا عاد فاستدعى حمد ، وعين موسى الحاملى، أحد زعماء بنى خالد ، بعد ذلك بعام . بينما عين عبد الرحمن بن مانع للإشراف على الشئون المالية خلفًا لعيسى بن على الذى توفى وهو على ظهر جواده . وكان هذا بعد رحيل خورشيد الذى بدأ سفرته فى آيار الماضى، جامعًا فى طريقه حاميتى: الشقراء وزلفى.

وقد توقف خورشيد فى منطقة السر ليتزوج امرأة أكره زوجها على طلاقها أو تخلص منه بشكل ما ، ثم وصل شنانة فى الوقت المعين ، فقام بوضع الترتيبات الأخيرة لانسحابه . وفى منتصف تموز سحب حامية ثرمدة : فأصبحت نجد خالية من القوات التركية فيما عدا بعض الجنود فى ثرمدة نفسها (عشرون جنديًا) وضرمى والرياض وأماكن أخرى.

وفى نهاية تموز، استدعى خالد إلى شنانة للمقابلة الأخيرة ، فزار عنيزة وبريدة فى طريق عودته إلى الرياض . وتبعه إليها أمير المدينتين . وفى الشقرا التقى بعبد الله بن رشيد الذى كان فى طريقه إلى زيارته .

وفى تشرين الأول (رمضان) أصدر أوامره لاجتماع جيوشه فى حشد عام فى الرياض . ويبدو أنه لم يكن هنالك غاية واضحة من عمله هذا غير تثبيت مركزه فى الأقاليم المختلفة التى يعتمد فيها على مساعدة الأتراك ، ضد الحكام المتقلبين فاترى الإخلاص ، وغيرهم من العناصر التى لايمكن الاعتماد على ولائها . فاحتشدت قبائل السديرى مع حاكم الإقليم محمد السديرى وأبيه الذى كان قد طرده خورشيد من الإحساء وأصبح مواطنًا عاديًا فى موطنه. وانتهز خالد فرصة تجمع القبائل ، فاتخذ يحقق فى الشكاوى التى كانت وردته عن سوء تصرف السديريين وغيرهم من الحكام المحليين . وكان من نتيجة ذلك أن طردهم جميعهم من مناصبهم ، وعين عبد الله الحسينى حاكمًا جديدًا على الإقليم . وصدرت إليه التعليمات بوجوب طرد عائلة السديرى من قلعة المجمعة ، ووضع جيش السدير تحت قيادة عبد العزيز بن الشيخ عبد الله أبى بطين ، ليقوم بحملة على بعض بطون قبيلة قحطان . بينما كانت قيادة الجيش العليا فى يد عمر بن عفيصان الذى قدم إلى الرياض لعقد الصلح مع خالد، بعد أن عاد من الكويت التى اختارها منفى اختياريًا مؤقتا له .

كان خالد قد ظل موضع شبهة وريبة فى نظر أهل نجد، لاعتماده الظاهر على الأتراك وتبعيته لهم . لكن رحيل خورشيد مع كامل جيشه محا هذه الوصمة وأزال تلك الشكوك فلم يكن هنالك مايدل على زوال حكم خالد وعدم بقائه .

ومع هذا فقد ظهر إلى الوجود مطالب جديد بالعرش يتحداه . أو نشب فى الأقاليم الشمالية كالقصيم وجبل شمر حربًا سرية ذات أهمية نسبيًا ، بين حاكم حايل وبريدة ، دون أن تحاول الحكومة المركزية أن تتدخل . فكان هنالك نفور بين عبد الله بن رشيد حاكم حايل ، وبين عبد العزيز بن محمد ، حاكم بريدة . وقد ظهرت بوادر هذا النزاع بعد وصول خالد من شنانه ، لكن حضور خالد أجبر كلا منهما على الانطواء .. أما حين عادا إلى بلديهما فقد كان الأمر يختلف عن ذلك . وساعدت حادثة طفيفة على الحرب المكشوفة بينهما . اذ أغار فريق من عنيزة كان نازلاً فى القصيم على فريقٍ من شمر يقوده طوالة واستولى على عدد من الجمال . فقام عبد الله بن رشيد بغارة معاكسة ، استعاد فيها الأسلاب واستولى على معظم جمال فريق عنيزة .

وقد وضح أن المعتدى هم فريق عنيزة ، إلا أن حاكم بريدة أخذ على عاتقه معاقبتهم . ولكنه فعل العكس. إذا استشار حليفه حاكم عنيزة وزعماء قرى القصيم ، بشأن حشد قوة كبيرة والقيام بهجوم شامل على حايل نفسها . ولما وافقوه فى الرأى سار حاكما عنيزة وبريدة ، على رأس جيش كبير يتألف من مجندى مدن القصيم وقراها ، وعربان عشائر عنيزة ، واحتشدوا فى البقعة .

ومن هناك سار الجيش لغزو عشيرة شمر. وحالف النجاح هذه الغزوة ، فاستولى العنيزيون على قدر كبير من الغنائم واقترح يحيى بن سليمان حاكم عنيزة على صاحبه القائد الآخر أن يكتفيا بالغنيمة . ويعودا إلى بلادهما . غير أن زعيم بريدة أبلغه أنه لن يفعل ، ولن يحمله شئ على العودة قبل أن يحارب ابن رشيد فى حوارى عاصمته وعقر داره .

وهكذا تابعت الحملة زحفها . .. وتقدم الحليفان إلى آبار البقعة ومزارعها ، للهجوم على رجال قبيلة عنيزة عند آبار ساعدة ، على مقربة من هناك . وعلى أثر الهجوم نشبت معركة ضارية مريرة تأرجح فيها النصر، حتى خف يحيى على رأس قوة لنجدة أصحابه من أهل

البقعة . وما أن رأس جيش كبير كان قد لحق به أخاه . وكان هجومه عنيفًا حاسمًا ، ففر رجال عنيزة على جمالهم لا يلوون على شيء .. وتبعهم فرسان شمر، تاركين يحيى ورجاله من المشاة يواجهون مصيرهم آخذين معهم رواحل يحيى نفسه .

أما يحيى ورجاله فقد قاوموا ببسالة ، ولكن ابن رشيد لم يكن حديث عهد بالقتال . ولما أدرك يحيى أن وصوله إلى الآبار مستحيل ، بدأ يشعر بوطأة العطش حين اشتدت الحرارة . فقتل معظم رجاله ، بينما نقل هو إلى خيمة ابن رشيد بناءً على طلبه .

كان يمكن أن تشفع الصداقة القديمة التى كانت قائمة بينهما وتحول دون قتله . غير أن عبد الله بن رشيد وصل فى تلك اللحظة وأخبره عن مقتل عبيد فى المعركة ولم يستطع ابن رشيد احتمال هذا الخبر ، فقتل يحيى فى فورة غضبه . إلا أنه فيما يبدو ندم كثيرًا على فعلته هذه لدى اكتشافه بأن عبيدًا كان لا يزال حيًا يرزق .

وقيل بأن قوات بريدة وعنيزة ، فقدتا مائةً وخمسين قتيلاً ، سبعين من بريدة وثمانين من عنيزة . هذا فضلاً عن خسائر البدو وأهل القرى من جيش قوامه ١٢٠٠ جندى . وكانت الغنائم التى استولى عليها ابن رشيد هائلة للغاية . وكان شقيق يحيى فى تلك الأثناء يقوم بزيارة لخالد فى الرياض ، فأسرع إلى عنيزة ليتولى الحكم فيها وأخذ يتشاور مع زعماء القصيم فى الوسائل الكفيلة بأخذ الثأر من ابن رشيد. ولما بدا القصيميون متحمسون للحرب ، حشد قوةً قوامها أربعة آلاف مقاتل للزحف على حايل . وما كادوا يصلون إلى حدود العدو عند كحفه حتى تخلى الرجل عن فكرة الغزو، لسبب غير معروف فتفرق الجيش . وربما كانت التطورات الخطيرة التى وقعت فى الرياض ، هى العوامل الرئيسية التى حملته على التخلى . إذ أن تلك الأحداث كانت تتطلب منه استعدادًا لمواجهتها . فقد أدرك عبد العزيز أن قيام أى تحالف بين الرياض وحايل ، سيقلب ميزان القوى ويضعف مركزه ، فلا يستطيع المضى فى القتال.

كان لخالد الحق كل الحق فى جعل ابن عمه عبد الله بن ثنيان تحت مراقبته الشخصية . وقد رأينا كيف أنه أخذه معه أثناء حملته على شامل وفى تموز سنة ١٨٤٠ ، دعاه عبد الله ليرافقه عند زيارته لخورشيد باشا فى شنانه ، ولكن ثنيان رد على ذلك معتذرًا بسوء صحته ، فرفض

خالد تعلله وعزمه على البقاء فى العاصمة . ومع ذلك فقد تمكن عبد الله أن ينسل من القافلة فى غفلة من رجالها ، والتجأ إلى عيسى بن محمد زعيم المنتفك بالقرب من الحدود العراقية . إلا أن خالدًا أرسل إليه لدى عودته من شنانه يدعوه إليه ويؤكد له علاقات المودة والصداقة ، ويطمئنه مما يخشاه .

ولكن عبد الله لم يطمئن .. فأرسل رجلاً إلى الرياض ليستطلع الأمور هناك ويعلمهم بمقدمه ثم يعود فيخبره جلية الواقع . ولابد أن الرسول عاد بأخبار سيئة ، لأن عبد الله فر إلى حاير السبيع فى وادى حيفة فور وصوله.

ويبدو أن رشيد بن جفران ، زعيم قبيلة سبيع ، عرض عليه المساعدة ، فلقد كانت تربطهما روابط المصاهرة .

ثم طلب عبد الله المساعدة من الحوطة والحريق ، وشرح لأهلهما سياسته الرامية إلى تخليص البلاد من سلطان الأتراك وحامياتهم . كما استخدم نفوذ الشيوخ الذين كانوا لاجئين هناك ، كرهًا منهم للبقاء فى الرياض تحت سلطة حاميتها التركية . وجاءت محاولة خالد استرضاءه عن طريق بعض الزعماء الموالين له من السبيع ، لتلقى نورًا على حقيقة الوضع فى البلاد . فأعلن عبد الله عزمه على المضى فى الحرب . وأصاب الذعر خالدًافأخذ يدعو إلى تجنيد أتباعه . غير ان أستجابة المناطق لدعوته هذه ، كانت مخيبة للآمال . فماذا يفعل ؟ لقد أمر أهل الرياض أن ينضموا إلى الحملة المزمع تسييرها ضد عبد الله ، وفر بنفسه وأهله إلى الإحساء تاركًا الحاميات التركية و المغربية مع أتباعه فى القلعة ، بقيادة حمد بن عياف أمير الرياض ، وعمر بن عفيصان قائدها.

كان هذا فى بداية تشرين الأول سنة ١٨٤١ . وهكذا انتهى حكم خالد الذى استمر أقل من ثلاث سنوات ، قضاها عميلاً وتابعًا للأتراك فى بلاد آبائه وأجداده . وبعد أن هجره أعوانه الواحد تلو الآخر، حين تلقوا أخبار الأحداث السيئة فى الرياض ، انسحب خالد من الهفوف إلى الدمام ، ومن هناك سار إلى حصن مكة الأمين ، عن طريق الكويت فالقصيم حيث مات بعد ذلك بعشرين عامًا .

وفى هذه الآونة ، رفع عبد الله بن ثنيان علم الثورة وأخذ يتتبع خطة تركى فى مطالبته بالعرش ، يساعده فى تلك قبيلة السبيع والمناطق الجنوبية . وقد زحف أولاً على ضرمة حيث

كانت لاتزال هناك حامية تركية صغيرة عرض عليها الاستسلام فرفصت ، مع أن قرية المزاحمية المجاورة لها رحبت به واعترفت بملكه . وبعد قتال طفيف وحصار قصير ، قبلت الحامية التركية أن تخرج من المدينة وتنضم إلى رفاقها فى ثرمدة . فاحتل عبد الله ضرمة وأعدم أحد زعمائها البارزين ، وصادر أمواله الطائلة ، كمقدمة لتطبيق أساليبه الجديدة فى الحكم . أما سكان حريملة فاختاروا سياسة الحياد ، عندما طلب مساعدتهم . بخلاف أهل العمارية وأبى الكباش الذين أرسلوا إليه فرقًا من المتطوعين . فسار عبد الله قدمًا صوب عرقة ، وأحلها قسرًا رغم المقاومة الضارية التى أبدتها حامية أقامها حمد بن عياف هناك . ثم توجه إلى منفرحة إثر اعترافها به.

ولنعد الآن إلى الرياض . كان أهل الرياض يطلبون إلى خالد مساعدة عاجلة بينما أخذ الذين كانوا يرافقونه يلحّون عليه فى إرسال النجدة المطلوبة أو السماح لهم بالعودة إلى بلادهم، وعقد الصلح مع الغاصب ، فأرسل قوة مؤلفة من ثلاثمائة هجّان وخمسمائة رجل . وسرعان ما اشتبكت هذه القوة مع العدو فى قتال نشب حول منفوحة ، تساعدها فى ذلك قوة أخرى خرجت من حامية الرياض ، ولدى عودتها إلى المدينة ، باغتها ابن ثنيان ورجاله تحت جنح الظلام ، وكان أعوانه قد مكنوا له التسلل إلى أحياء الدُخنة أثناء ما كانت القوات العائدة تحتفل بالأهازيج والرقص ، فرحًا بهزيمة العدو فى منفوحة.

ويبدو أن عبد الله كان يتمتع ببعض مزايا تركى العسكرية ، ومن ذلك أنه ظهر بين المحتفلين فجأة ، وقام سيفه فى يده ، فلعب دورًا بارزًا فى القتال الذى نشب إثر ذلك ، فتقهقر المغاربة إلى داخل القلعة وأغلقوا بابها فى وجه المهاجمين . إلا أن ثنيان كان قد وزع جنوده فى أماكن مختلفة من المدينة ، واتخذ من بيت أميرها حمد بن عياف مقرًا له ، فتقاطر إليه المواطنون ليعترفوا به حاكمًا عليهم ، وحتى عمر بن عفيصان ، لبّى هو الآخر دعوته وأقسم له يمين الطاعة ، ثم عرض عبد الله على الأتراك والمغاربة أن يستسلموا بشروط سخية مشرفة، أهمها أن يغادروا الرياض ويأخذوا معهم كل ما يملكون .

وفى اليوم التالى، أخذ عبد الله يحصن البيوت خوفًا من قيام الحامية بإطلاق النار عليه ، غير أنها عادت فقبلت بشروطه وخرجت من المدينة ، وهكذا أصبح عبد الله بن ثنيان سيد نجد بلا منازع .

وتقاطرت الوفود المعتادة على الرياض لتؤكد له ولاءها ، أما هو فأعلن بصورة واضحة أنه لن يتغاضى عن أى اضطراب أو قلاقل فى الإقليم ، وكان قبل استسلام الحامية قد أرسل يطلب حضور اثنين من أقوى أعوان خالد، وهما سعد بن دغيثر أحد أفراد عائلة بارزة ، والعبد زويد ، فأعدمهما فى الحال .

ثم وجه انتباهه إلى وفد السدير واختار منهم خمسة يعدمهم بسبب الدور الذى لعبوه فى نصرة خالد ومساعدته فى تنظيم إدارة الأقاليم ، غير أن اثنين منهم تمكنا من الإفلات فأعدم الثلاثة الآخرين .

وطلب من سكان المجمعة أن يعيدوا بناء قلعتهم التى دمرها خالد ، واحتفظ بخمسة منهم رهائن عنده فى الرياض حتى نُفذِّت أوامرُه ، ثم عَين عبد العزيز بن مشارى بن عياف حاكمًا على الإقليم .

وجاء دور وادى الدواسر ليدفع ثمن ما اقترف أهله من جرائم ، فعزل محمدًا بن جلاجل حاكم الإقليم ، وطرد الزعماء المحليين من وظائفهم ، وعين عبد الرحمن بن عبيقان أميرًا مطلق الصلاحية فى الوادى .

وفى مطلع سنة ١٨٤٢ أرسل عبد الله القائد عبد الله بن بطّال المطيرى ، وهو من عائلة محاربة مشهورة ، ليحتل الأحساء، فقام ابن بطال بالمهمة على خير وجه ، وحينئذ تعين عمر بن عفيصان ليتولى منصب الحاكم هناك ، وقد نقل عمر مركز قيادته إلى كوت الهفوف ، وأمر زعماء الإقليم أن يذهبوا إلى الرياض ، لتقديم فروض الطاعة لسيدهم الجديد، مرتهنًا أربعة من مشياخهم ، كى يضمن حسن سلوك البقية والإقليم بوجه عام . وكان لا بد لعمر من معالجة الأمور فى المنطقة الساحلية المحيطة بالقطيف ، إلا أن المشكلة بدت معقدة بسبب وجود بعض المصالح للعائلة المالكة فى البحرين .

وفى حزيران ، أمر ابن ثُنيان بحشد جيوشه على آبار رمحية ورماح فى منطقة عرمة ، حيث أقام مركز قيادته ، وأرسل من هناك جيشًا يقوده العبد بلال بن سالم الحرْق ، ليحتل القطيف نفسها ، وأمر عمر بن عفيصان أن يشخص إليها لتولى الأمور هناك فى حين يبقى ابن عمه ، فهد بن عبد الله بن عفيصان ، نائبًا له فى الإحساء أثناء غيابه .

ولقد سار عمر ، بصحبة فلاح هذلين زعيم العجمان ، وقوات ابن هاجر فأخضع المثناء . وقد توجه حاكم القطيف السابق واسمه على بن غانم لزيارة ابن ثنيان فحبسه هذا لاتهامه بالتجسس لحساب البحرين ، كما صادر أملاكه الكثيرة . وفعل ذلك أيضًا مع ابن مانع خزانة الإحساء وآخرين كثيرين . وألقى عمر القبض على حاكم سيهات ودمر أسوار المدينة ، وكانت من أملاك آل خليفة فى البحرين .

كان مرجل الاختلافات المهلكة والمنازعات القتالة يغلى بين حكام البحرين فى هذه الآونه بالذات . فقد ثار محمد بن خليفة ، على عمه عبد الله ، شيخ البحرين فاستدعى عبد الله قبيلة آل مرة لدخول البلاد ، فشرعت تنهب وتدمر مدن الجزيرة . ولم يتمكن محمد من السير قدمًا فى مطالبته بالعرش فما كان منه إلا أن لجأ إلى ابن ثنيان فى رحمية .

وفى الوقت ذاته ، تمكن حاكم سيهات من الهرب من سجنه فقصد البحرين . ولم يهتم ابن ثنيان من ذلك ، بل انصرف إلى تدبير ملكه ، فعين أحمد السدير أميرًا على القطيف ومنطقتها ، وأعاد عمر بن عفيصان إلى منصبه السابق فى الهفوف ثم انتهى من بحث شئون أقاليمه الشرقية ، فصرف قواته وأمرها بالعودة إلى بلادها بعد أن نفحها بهبات سخية . وتوجه إلى مقره فى الرياض . ومن هناك حاول ارضاء السلطات التركية فأرسل الهدايا إلى عمر باشا حاكم مكة . وإلى الشريف عون ، مع محمدبن جلاجل ، الحاكم الذى عزله من وادى الدواسر قبل حين . ومن هناك أيضًا أرسل ابن ثنيان شرذمة من جيشه وكّل إليها احتلال ميناء الفقير الذى كان لايزال فى يد سلطات البحرين . وبذلك أتم احتلال الإحساء .

وفى خلال النصف الأول من تشرين الثانى، (أى فى النصف الثانى من رمضان) توقف الجفاف الذى اجتاح البلاد طوال التسع سنوات التى تلت مقتل تركى. فقد هطلت أمطار غزيرة فى كافة أنحاء نجد، فامتلأت مسايل الأودية على صورة لم يشاهد مثلها من قبل. وحدثت فيضانات فى السدير التى لم تشهد ذلك منذ أربعة عشر عامًا غير أن البلاد بأسرها استفادت كثيرًا ، فأخضرت الهضاب وكثرت المحاصيل .

ومن الطبيعى أن يكون كل ذلك الخير فألاً حسنًا من ناحية سياسية .. فهل يتم ذلك ؟ لنرى ...

وفى شباط سنة ١٨٤٣، تمكن فيصل وابن عمه عبد الله بن إبراهيم ، وتمكن عبد الله وأخوه جلوى من الفرار من سجنهم فى قلعة القاهرة بالرغم من الحراسة المشددة ، وذلك بأن نزلوا من علوّ مائة قدم بواسطة الحبال ، ثم أمتطوا ظهور الجمال .

وجل ما يذكره المؤرخ النجدى ، من هذه القصة الرومانتيكية البطولية ، أن الفارين توجهوا إلى جبل شمر ، حيث استقبلهم عبد الله بن رشيد ، صديق فيصل القديم ، بكل حفاوة وترحاب ، واضعًا جميع موارده وجيشه ونفسه تحت تصرفهم . فأرسل فيصل إلى كافة المناطق طالبًا من زعمائها ولاءهم ومعونتهم . أما عبد الله بن ثنيان ، فأعلن الجهاد بناءًا على نصح أصدقائه ، وخرج لمجابهة الخطر مؤملاً أن خروجه إلى القتال سيحول دون الناس والانضمام لفيصل . ولكنه سرعان ما تأكد من أن فيصلاً يحظى بالتأييد العام ، فأرسل له بعض الهدايا مع أمير ضرمه ، موصياً رسوله بدراسة أوضاع فيصل .

وفى نفس الوقت سار هو إلى السدير عن طريق خفس Khafs حيث اتصل بأمير بريدة الذى سبق أن وجده أكثر حلفائه استعدادًا لمناصرته أثناء المعارك المريرة بينه وبين رشيد . واتجه بعد ذلك إلى بريدة ، فعاهده أميرها على الولاء والمساعدة . غير أن هذه التطورات الجديدة ، أوجدت اضطربًا فى عنيزة .

فعقد أميرها عبد الله بن سليمان بن زامل مؤتمرًا من الزعماء والشيوخ للبحث والتشاور فيما يجب عمله .

وكان قرارهم الأجمالى، وجوب مساندة فيصل . فأرسلوا عبد العزيز بن الشيخ عبد الله أبا بطين لينقل إليه قرارهم هذا ويدعوه للمجىء إلى عنيزة . وكان فيصل قد سار إلى الجنوب ، فقابله عبد العزيز عند كحفة وأبلغه رسالته . فشكره فيصل واتجه إلى عنيزة بينما أرسل أخاه جلوى وعبيد بن رشيد مع قوة صغيرة لزيارة زعيم مطير ، محمد بن فيصل الدويش، فى معسكره فى سهل حمدان .

ولدى سماع ابن ثنيان بخطط عدوه ، ترك معداته الثقيلة فى بريده ومضى سرًا ليباغت فيصلاً غير أن هذا كان قد سلك طريقًا منحرفًا فسبق ابن ثنيان . وكان أول ماسمعه هذا عند وصول فيصل إلى هدفه ، الغناء وإطلاق النار والأهازيج التى حيابها الناس مقدمه . .

وعاد ابن ثنيان إلى بريدة ، آسفًا على فوات الفرصة من يده . وهناك وجد أن معظم أتباعه قد انضموا إلى فيصل ، وأهل السدير والمناطق الجنوبية على الخصوص . فاشتاط غضبًا وأمر جيشه بالاستعداد لشن هجوم على عنيزة ، إلا أنه عاد فغيَّر رأيه وسار إلى مضنب لينعطف من هناك إلى الجنوب ، خوفًا من أن يهاجمه جلوى وحلفاؤه من بنى مطير. وكان هؤلاء قد اشتبكوا مع بعض الفارين فى مؤخرة جيشه فى منطقة الوشم .

وفى هذه الأثناء فى عدد كبير من جيش ابن ثنيان وعادوا إلى منازلهم ، فكان هذا زيادة فى مصيبته . وخاصة بعد أن علم أن جلوى وحلفاءه من مطير يتجهون شرقًا . استولى جلوى على واحة ثادق الهامة التى تشرف على الطريق من الرياض إلى السدير . وقد استولى جلوى على بغيته ، وأرسل عبد الله بن إبراهيم لتطهير الواحة . ثم كتب إلى فيصل يعلمه بأن الطرق إلى الرياض باتت آمنة خالية من الأعداء .

كان ابن ثنيان منهمكًا فى تحصين الرياض آنذاك وبعض المنازل القريبة من القلعه ووضع الحاميات فى الأبراج والحصون المختلفة على السور المحيط بها .

وفى نيسان سار فيصل إلى حريملة ، حيث انضم إليه جلوى مع قواته ، بينما زاره زعماء السدير ليعرضوا عليه ولاءهم . وبعد أن أمضى فى حريملة بعض الوقت ، كتب إلى ابن ثنيان مقترحًا عليه تسوية النزاع سلميًا ، تجنبًا لإراقة الدماء ، وواعدًا إياه بشروط سخية ، من جملتها أن له كامل الحرية فى الذهاب والاستقرار بأمان فى أى مكان يختاره فى نجد أو سواها . وأن له الحق فى أخذ أتباعه وأسلحته معه . وأن فيصلاً يتعهد بدفع راتب سنوى يكفيه ، ويسد حاجاته . ولكن ابن ثنيان رفض هذا العرض .

واتجه فيصل إلى سدوس عند ذلك ، ومن هناك كتب إلى أمير منفوحة يقترح عليه جعل مدينته قاعدة لعملياته الحربية كما كانت يوم حاصر خالدًا فى الرياض قبل خمسة أعوام . . فرضى أمير منفوحة بذلك ، واستقبلت المدينة فيصلاً المُطالب بالعرش من جديد . ولم يبادر فيصل إلى اتخاذ أى عمل عدوانى ضد الرياض ، فقد كان يتصل سرًا ببعض زعمائها البارزين.

وفى الثانى والعشرين من آيار ، أرسل أخاه جلوى ليدخل برجاله المدينة من بوابة الدخنة التى كان سيفتحها لهم حلفاؤهم من الداخل . وسمع ابن ثنيان بدخول جلوى المدينة فأسقط فى يده وهرع إلى القلعة .

واحتل جلوى البيوت العديدة المقابلة للقلعة ، وأخذ يحصنها ويضع فيها الحاميات . ثم دخل فيصل المدينة بنفسه فنشبت معارك استمرت بصورة غير منتظمة طوال ثلاثة أسابيع .

وفى أثناء ذلك اكتشف فيصل مؤامرة دبرتها عناصر من سبيع لاغتياله فأحبطها . وفى الحادى عشر من حزيران ، كتب ابن ثنيان إلى عبيد بن رشيد يطلب إليه التوسط من أجل تسوية سليمة . فزاره عبيد للبحث فى أمر هذه التسوبة المقترحة ، غير أن المفاوضات توقفت بسبب عدم التوصل إلى أسس للاتفاق .

وبعد ليلة أو ليلتين ، غادر ابن ثنيان القلعة لسبب مجهول . . وعرفته دوريات فيصل فألقت القبض عليه . وسُجن فى أحدى حجرات القلعة التى استسلمت آنذاك بعد هجوم قصير . وقد صادر فيصل جميع ممتلكاته ، وعفا عن أعوانه ، وأطلق سراح جميع الذين ألقى بهم ابن ثنيان فى السجن ، ثم عوضهم عما فقدوه من أملاك . فسارع أهل الرياض يهنئون (فيصلاً) بمناسبة توليه عرش أجداده بعد فترة تقل عن الخمس سنوات.

وكان أول ماقام به من أعمال إلغاؤه كافة الإجراءت التى فرضها ابن ثنيان فى الإحساء ووادى الدواسر . فعين عبد الله بن بطال المطيرى أميرًا على الإحساء ، وابن عثيمين أميرًا على وادى الدواسر . وصرف الجيوش التى ساعدته فى استعادة عرشه وأرسلهم إلى بلادهم . ولم يطل حبس ابن ثنيان ، فقد توفى فى سجنه فى الثالث عشر من تموز سنة ١٨٤٣ وحضر فيصل نفسه صلاة الجنازة عليه وشيع جثمانه إلى مثواه الأخير فى مقبرة المدينة . .

واستبشر الناس بعودة فيصل إلى نجد . وقد ظهر مُذنَّب فى الغرب بعد غروب الشمس فى الثانى من آذار سنة ١٨٤٣ ، وظل ظاهرًا للعيان حتى نهاية الشهر . ويقارن ابن بشر هذه الظاهرة بتلك التى ظهرت فى السادس عشر من كانون الأول سنة ١٦١٨ كما ذكرها الشيخ مرعى بن يوسف الحنبلى ، وإن لم يرافق ظهور المذنب الأول أى نشاط ملحوظ بين الناس .

ويشمل تاريخ ابن بشر الثمانى سنوات الأولى من حكم فيصل بعد استعادته عرشه . إذ يذكر المؤرخ أنه فرغ من تصنيفه فى شهرآيار سنة ١٨٥٤ غير أنه لا يشرح السبب الذى دعاه إلى التوقف عن التدوين . وبما أنه ظل حيًا يرزق حتى الخامس عشر من آب سنة ١٨٧٣ ، فلابد أنه كان شاهد عيان لجميع الأحداث التى وقعت أثناء حكم فيصل ، ومعاصرًا لنتائجها

المباشرة . وليس بوسعنا إلا أن نأسف لتوقف المؤرخ عن تدوين تعليقاته وملحوظاته عن العهد الذى عاصره ، والذى لابد لمعرفته من الاعتماد على المؤرخ إبراهيم بن صالح بن إبراهيم بن عيسى المولود فى عشيقير من إقليم الوشم سنة ١٨٥٤ .

تعتبر المرحلة الثانية من حكم فيصل ، مدخل تاريخ الجزيرة العربية الحديث . وجُلُّ مانعلمه أن الحاميات التركية الصغيرة الموزعة فى الصحراء ، قد انسحبت جميعها إلى الحجاز فى حكم ابن ثنيان . . . وهكذا لم يكن هنالك قوات أجنبية تزعج فيصل ، فاستأنفت نجد مجرى حياتها العادية . غير أن هذا لم يكن ليعنى الحياة السلمية الهادئة أو الانتعاش والانسجام بين الناس ، فقد كانت هذه بركات نادرة فى الصحراء. مع العلم أن فيصلاً لم يشر إلى هذه الحقيقة من قريب أو بعيد فى رسالته التى وجهها إلى رعيته فى جميع أنحاء مملكته ، بعد تسلمه العرش.

لقد كانت الرسالة فى معظمها تتعلق بالمسائل الفقهية الدينية . ويبدو أنها كانت ثمار وحى وتأملات روحية طويلة أثناء سجنه فى مصر ، كان إيمانه العظيم بالله وثقته الوطيدة فيه هما عزاء فيصل الوحيد فى كربته ومحنته . وقد وجه أنظار قراء رسالته والمستمعين إليها إلى هذه النقطة فتقوى الله ومخافته أساس الحياة السعيدة ، وأهم عناصر هذه السعادة الاعتقاد بوحدانية الله.ومن هنا جاءت فريضة الصلاة والتصدق بالمال أو الزكاة صفة لازمة للصلاة ويتبعها بالطبع تأدية الضرائب المستحقة للدولة . ومن واجب كل مسلم صادق مؤمن ، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ثم استطرد القول مستشهدًا بالحديث المأثور ، أن أعمدة الإسلام عشرة : فمنها الشهادتان - (الشهادة بأن الله واحد وأن محمدًا نبيه ورسوله ، والصلاة والزكاة ، وصيام شهر رمضان ، والحج ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، والشورى فى الحكم ، والطاعة لذوى الأمر والسلطان) وقد أضيف مبدأ جديد إلى هذه المبادئ ألا وهو الإحسان إلى الفقراء والمعوزين والرأفة بهم . وطلب إلى شعبه ألا يسيروا فى طريق الأشرار الذين يقترفون الذنوب ويطلبون الغفران ، لأن التمنى هو رأس مال المفلسين . ثم طلب إلى حكام الأقاليم فى مملكته أن يقرأوا هذه الرسالة فى جوامع البلاد وأن يعيدوا قراءتها كل شهرين . وفيما عدا هذه النصائح كان اهتمام فيصل الخاص منصرفًا إلى اختيار الموظفين الأكفاء للمناصب المختلفة فى الأقاليم والمقاطعات .

ويبدو أن فيصلاً شأنه شأن والده ، لم يكن يفكر فى استغلال الحماس الدينى لصالح النشاط الدنيوى فى دولته ، مثلما فعل أسلافه من قبل أيام « حشود الوهابيين المتحمسة »، ومثلما فعل حفيده بالإخوان فى زماننا الحاضر. فقد كانت ترتيباته العسكرية إدارية محضة . فالتعبئة العامة للجيوش تستند إلى قيود وسجلات تفرض على كل قرية ومدينة وقبيلة أن تقدم عددًا معينًا من الرجال والجمال والخيول . وكانت هذه النصوص جميعها مفهومة ومعروفة لدى كل من يعنيهم الأمر. وكانت الدولة تقوم بتزويد الجيش بالسلاح والذخيرة عند الضرورة . غير أن المجندين هم الذين كانوا يحضرون معهم جمالهم (فى بعض الحالات رحلين لكل جمل) أو يسيرون على أقدامهم ، بينما كان الخيالة يحظون بمعاملة خاصة . وكان كل موظف يتناول راتبه من نتاج دائرته . وإذا ما استولى جيش وهابى على غنائم ، خصص فائدة خمسها لخزانة الدولة ، ووزع الباقى بنسبة سهم واحد لذى الراحلة وسهمين للفارس.

أما مجرى الحياة العادية فى نجد فقد كان يتضمن الخروج للرعى أو الغزو ، خلال فصلى الشتاء والربيع من كل سنة ، وفترة استراحة خلال أشهر الصيف الحارة . ويلذ لنا أن نعرف كم من النشاط العسكرى امتد حتى أشهر الصيف الحارة وكم بدأ فى شهره الشديد الحرارة التى تكاد تجعل القيام بأية أعمال حربية متعذرة .

أما بخصوص الشتاء والحملات التأديبية التى كانوا يوجهونها ضد القبائل ، فلربما كان السبب أن القبائل تنتشر أثناء ذلك الفصل الممطر فى مساحات واسعة من الصحراء ، فتسهل الإغارة عليها . أما فى الصيف فإنها تتجمع قرب موارد الماء للسقاية .

ويبقى العمل ضد الأتراك ، وربما كان تأثير الطقس فى الأعداء يعتبر عاملاً ملائمًا للعرب فى حملات الصيف .

ويمكن تلخيص تاريخ الثمانى سنوات الأولى من المرحلة الثانية من حكم فيصل وبعض الأحداث الأخرى التى يفصلها ابن بشر بتوسع وإسهاب ، من وجهة نظره كمشاهد عيان : يمكن تلخيصها ، فى مجموعة لوحات تعطينا صورة عامة على الوضع فى نجد ، فى العقد الخامس من القرن التاسع عشر.

كان فيصل بادئ ذى بدء منزعجًا قليلاً بسبب الضغط على بلاده من الخارج والحادث الوحيد الذى حاولت فيه دولة أجنبية الإعتداء ، كان فى نيسان سنة ١٨٤٧ ، إذ زحف

محمد بن عون شريف مكة على القصيم . فقد قامت بعض العناصر من سكان القصيم الذين اختاروا النفى فى الحجاز من تلقاء أنفسهم ، بسبب كرههم للحكم الوهابى ، فأشارت على الشريف أن يهاجم نجدًا لمصلحة خالد بن سعود . .كان خالد لاجئًا فى مكة كما أسلفنا . . وأقنعته أن فيصلاً لن يعتبر الهجوم احتلالاً أجنبيًا لنجد ،و أن خالدًا سيحظى بمساندة السكان هناك . وسارت الأمور سيرًا حسنًا مع الغزاة الذين رافقهم خالد على رأس قوة من الجنود الأتراك . أما أهل القصيم فكانوا يؤمنون بفكرة الاستقلال تحت نوع من الحماية التركية . وكانوا يكرهون عبد الله بن رشيد المعروف بولائه وإخلاصه لفيصل ، فخضعوا لقوات الشريف دون إبداء أية مقاومة . وكذلك سارع زعماء مطير وغيرها من القبائل إذ ربطوا مصيرهم بمصير الغزاة.

أما رد فعل فيصل على هذه التطورات فلم يكن كما تصوره أعوان الشريف . . لقد أرسل ابنه عبد الله إلى المجمعة على رأس قوة جهزها عاجلاً من أهل الأقاليم الوسطى لحماية مناطق السدير والطويق ضد أى هجوم يقوم به الأعداء. وأرسل الشريف محمد بن عون ، رسولاً إلى فيصل يؤكد له حسن نواياه السلمية ، فكان جواب فيصل بالشكل التقليدى الذى اعتاده ، أن أوفد إليه أخاه عبد الله مع بعض الهدايا . إلا أن الشريف ، بناءً على نصح بعض الأشخاص ، رفض هداياه وطلب إليه أن يخبر أخاه فيصلاً أن يجيء بنفسه ، لكنه فى الوقت ذاته أكرم الرسول وزوده بهدايا ثمينة . فما كان من عبد الله إلا أن أعاد هدايا الشريف حالما وصل إلى مكان آمن فيه على نفسه ، وبعث معها رسالة يهدد فيها الشريف . وعندما وصل إلى شقرا أرسل يخبر فيصلاً بما حدث ، وبقى هناك فى انتظار أوامره.

أما فيصل فاعتبر مسلك الشريف هذا ، بمثابة إعلان حرب . . ولذلك سارع إلى شقرا بقوات حشدها فى الرياض وأصدر التعليمات إلى ابنه عبد الله فى المجمعة أن يوافيه إلى المكان المعين .

ويبدو أن الشريف تملّكه الذعر ، فأرسل رسولاً إلى فيصل فى قرية شمس Shams على حدود الوشم ، يقترح عليه سلما وصداقة دائمة . ووافق فيصل على مطلبه في هذا مشترطًا أن يتخلى الشريف من المطالبة بالقصيم أو أية منطقة من مناطق القبائل فى نجد بلا قيد أو شرط . وأرسل إليه بعض الهدايا ، ليخفف عليه و قع هذا المطلب . كذلك أرسل له مبلغًا من المال .

وربما عاد الشريف فقدم هذا المبلغ بدوره إلى الأتراك فى مكة ، على اعتبار أنه الجزية التى دفعها له تابعه فيصل .

وعلى كلٍ ، فقد رحل الشريف عن القصيم فى حزيران ، وأغار فى طريقه على أحد بطون عشيرة مطير فى الحيد ، وسمح للأتراك فى جيشه أن يأخذوا معهم بعضًا من نساء القبيلة . وفى نفس الوقت وقبل عودة فيصل إلى بلاده ليصرف جنوده قام بالإغارة على تجمعات من قبائل الشامل وغيرهم من البدو عند آبار البناء Alban-ma قرب قويعية .

أما العملية الحربية الوحيدة الأخرى ضد بلد أجنبى فكانت إجراءات تأديبية على نطاق محدود ضد آل خليفة حكام البحرين ففى سنة ١٨٤٣ قاد فيصل قواته إلى ساحل الخليج الفارسى قرب القطيف ونجح فى غاراته على عشيرة المناصرة ، وآل مرة وبنى حجير (Hajir عندما هاجم الدمام وقوات البحرين ، تحت إمرة عبد الله بن خليفة أحد أبناء العائلة المالكة . وبعد حصار دام أقل من أسبوعين استسلم المدافعون بلا قيد أو شرط فاستولى فيصل على الذخائر الموجودة فى الحصن ، ووضع فيه حامية من مائة رجل مع كافة مؤنهم وذخائرهم الكافية لصد أية محاولة من جانب البحرين لاستعادتها .

وفى هذا الوقت بالذات وقعت معركة ضارية بين العجمان وسبيع من جهة ومطير بزعامة الدويش من جهة أخرى . واندحر جيش محمد الدويش. فتوجه محمد إلى فيصل عند الدمام يطلب منه التعويض عن الخسائر التى تكبدتها قبيلته فى أراضى بنى خالد . ومع هذا فقد عرض فيصل على محمد ما لحقه من خسائر بكرم وسخاء ، ودفع إليه من حصة الدولة فى غنائم الدمام قدرًا كبيرًا .

ثم توجه فيصل إلى الهفوف فى زيارة طويلة زاره خلالها كثير من الناس ، وأحدث تغييرات موفقة فى إدارة مقاطعات الخليج . وكان من هذه التغييرات أنه عين أحمد السديرى أميرًا على الإحساء ، وعبد الله بن سعد المداوى حاكمًا للقطيف .

وبعد أن عاد فيصل إلى الرياض فى بداية صيف سنة ١٨٤٤ استدعى المداوى سلفه حاكم القطيف السابق ، عليًا بن عبد الله بن غانم ، وأمر بجلده ، لعدة مخالفات اقترفها ، منها أن الرجل كان شيعيًا ذا اتصالات سرية مريبة مع البحرين .

ولقد توفى ابن غانم نتيجة هذه المعاملة ، الأمر الذى أزعج فيصلاً وأسخطه فأوفد بلالاً ابن سالم الحارق ، شقيق عبيدة ، ليحل محل المداوى ، و يرسله مخفورًا إلى الرياض . وهناك أقنع المداوى سيده بأنه تصرف بنية حسنة ، فأعيد إلى منصبه ، ليقوم بأعمال عدوانية ضد البحرين وأهل عماير . ولا نعرف شيئًا عن هذا غير نشوب قتال مرير .

ثم وجه فيصل حملة أخرى إلى عمان بقيادة عبد الله بن بطال المطيرى . وقد رافقه قاض البريمى الذى كان قد عين حديثًا ، واسمه الشيخ ناصر بن على العرينى إلا أن المطيرى أعيد إلى الإحساء فى السنة التالية ، قائدًا لجيوش الأقاليم تحت إمرة أحمد السديرى .

وفى نهاية سنة ١٨٤٧ تقريبًا أرسل فيصل حملهأخرى إلى عمان بقيادة رجل من منفوحة اسمه عبد الرحمن بن إبراهيم واصدر إليه تعليمات خاصة تطلب منه أن يتخذ من البريمى قاعدة لقواته ، بعد أن يضم إليها حامية يسحبها من الإحساء .

ثم تلا ذلك قلاقل فى هذه المنطقة سببتها مؤامرات بعض الزعماء المحليين ، فاضطر فيصل إلى إرسال حملة أخرى بقيادة سعد بن مطلق المطيرى، وهو ابن عم عبد الله بن بطال ، ليعالج الوضع . أما ابن طحنون ، الرجل الوحيد الذى أخل بالأمن ، فجمع أنصاره و أراد أن يكمن للحملة فى الطريق . لكن بعض الزعماء المخلصين من مثل مكتوم من دبى وسلطان ابن مقر أحد أبناء الشارقة ، أرسلوا رسولاً إلى قائدها يحذرونه من الكمين.

وكان من سوء الحظ أن أخفق الرسول فى الاتصال فوقع جيش فيصل فى الشرك الذى نُصب له ، وانسحق تمامًا فى الاشتباك اليائس الذى تلا ذلك . أما الذين كتب لهم السلام من المعركة المريرة فقد قتلهم العطش أثناء فرارهم إلى دبى ، ومن هناك واصلت بقيتهم مسيرها حتى بلغت الشارقة .

وبعد معركة العانكة ، تآمر سعد المطيرى وأنصاره ، على مهاجمة البريمى فاحتلوا قلعة ابن طحنون وجميع المواقع المحصنة الأخرى فى الواحة ، واستعادوا جميع الأسلاب التى أُخذت منهم فى الكمين . أما بعد المطيرى فقد ألقى القبض عليه ليؤدى حسابًا عن هذه الكارثة ، وعُزل من منصب القيادة فى تشرين الثانى سنة ١٨٤٩ .

والآن . . لقد رأينا أن ساحل الخليج الفارسى كان أحد المناطق الرئيسية التى سبق أن احتلها فيصل فى تلك السنوات . فمن البريمى فى الجنوب إلى القطيف وأراضى بنى خالد شمالاً ، كانت الحاجة ماسة لأخذ الحيطة والحذر المستمر ضد من قد يعمدون إلى تعكير السلام .

وفى سنة ١٨٤٥ قام العجمان بقيادة فلاح بن هذلين فشنوا هجومًا فظيعًا غادرًا على قافلة من الحجاج كانت تعبر الإحساء فى طريقها إلى مكة ، بالرغم من أنها كانت فى حراسة حزام بن هذلين ، قريب فلاح نفسه .

واستنكر فيصل ذلك ، فسار بنفسه إلى حريملة التى عينها ملتقى لقواته ، بما فيها فرقة حايل ، بقيادة متعب بن عبد الله بن رشيد ، الابن الثانى لصديق فيصل القديم . وتمركز فيصل فى سلسلة الجزر فى الجناح الشرقى من الطريق ، مارًا بالكاظمة فزارته هناك عناصر كثيرة من قبيلة العجمان المعتدية وأظهرت رغبتها فى التبرؤ من جماعة فلاح وأعمالها . فأمَّنهم فيصل على أنفسهم مشترطًا عليهم مغادرة أراضى بنى خالد التى اتخذها قلاح مركزًا له استعدادًا للمعركة القادمة . ثم أرسل عشائر مطير بقيادة حميدى بن فيصل الدويش لاحتلال منخفض السر ، ففر فلاح لينضم إلى محمد بن هادى بن قرملة زعيم قبيلة قحطان فى معسكر فى خفس إلا أنه عاد ففر إلى عشيرة الملاعبة إحدى بطون مطير ، وطلب منهم ، الحماية والمساعده . ولكن منديل بن غنيمان زعيم العشيرة رفض هذا الطلب وأرسل يشرح الأمر لرئيسه حميدى الدويش ، فسارع حميدى بالحضور وأبقى فلاحًا فى حمايته إلى أن تتم المفاوضات مع فيصل بشأنه.

وقد أصر فيصل على تسليم فلاح إليه كى ينال عقابه على ترويعه قافلة الحجاج ، فأخذ أسيرًا إلى الهفوف وسُلم إلى أحمد السديرى الذى أعدمه هناك أما شريكاه الرئيسيان فى الهجوم على القافلة والاعتداءات الأخرى كقطع الطريق والسلب والنهب ، وهما مشعان بن هذال وهادى بن مذوذ فأُلقى القبض عليهما وأُعدما . وأما القبيلة كلها فخضعت للحكومة وأُجبرت على تسليم جميع ما بحوزتها من غنائم وأسلاب .

ويذكر ابن بشر فى هذه المناسبة بأنه تشرف بالمثول بين يدى فيصل أثناء هـذه العمليـات فى معسكره فى المجزل ويرسم لنا صورة شيقة عن النظم المتبعة فى الـبلاط آنـذاك ، وبـصورة خاصة عن ساعات الصلاة والمواعظ والخطب التى أعدت لمجابهة الفتور الدينى الذى ظهـر بين أفراد القوات المسلحة .

وبانتهاء هذه الحملة التأديبية الناجحة التى تمت سنة ١٨٤٦ . أخـذ فيـصل يعـد العـدة لتصفية الحساب مع حكام البحرين الذين ما فتئوا يقومون بنشاط عسكرى ويطـالبون علنًـا بحق السيطرة على مواقع مختلفة من بر الجزيرة العربيـة . وكانـت مطـالبهم المرفوضـة هـذه ، مصدر قلاقل واضطرابات وإزعاج فى المنطقة .

والواقع أن فيصلاً لم يوجه أنظاره إلى الشرق إلا فى مطلـع كـانون الأول سـنة ١٨٥٠ ، وذلك بسبب إنهاكه فى أنحاء مختلفة من البلاد . وكان ابنه عبد الله موجـودًا آنـذاك فى شـقرا يراقب التطورات فى القصيم ، فطلب إليه فيصل أن يلحق به فى الرمحية على الطـرف الغربـى من الدهناء وتم ذلك ، فقاد فيصل قوا ته إلى إقليم الإحساء مارًا بآبار النجبيه ثـم عـسكر فى حليون بين الواحة الرئيسية والقطيف ، حيث ازداد عدد قواتـه بانـضمام جيـوش الإحـساء والقطيف ، وقبائل بنى حجير مهاجمة جزر البحرين بسبب القلاقل الداخلية فيها ، وعدم دفع أهلها الجزية .

ورفض فيصل بشدة محاولة أمراء آل خليفة التخفيف من حدة غضبه بكلامهم المعسول ووعودهم الخلابة . فزحف فيصل على شبه جزيرة قطر التى كان قد أقام مخيمه عند طرفها فى مكان يدعى عريق السلوى . وكان هدفه حصن بدع فى ميناء الدوحة . وكـان هـذا فى حـوزة على بن خليفة ، شقيق شيخ البحرين الذى زوده بكل ما يحتاج إليه مـن طعـام وذخـيرة كـى يصمد فى حالة وقوع أى اضطراب .

وقد أرسل فيصل ابنه عبد الله لمحاصرة الحصن ، إلا أن قائـد الموقـع كـان يتوقـع هـذا الهجوم ، ففر فى القوارب التى كانت راسية فى الميناء . وعندما سارع أهل الدوحـة : فـأعلنوا خضوعهم لابن فيصل ، الذى اكتفى بالاستيلاء على المستودعات الزاخـرة بالـذخائر بقليـل من العناء : هذا بالإضافة إلى طرد آل خليفة من آخر حصن لهم على البر.

ويبدو أن فيصلاً لم يقنع بما أنجزه فاتجه على التو نحو آبار مسيمير بالقرب من الساحل ، واحتل أحمد السديرى حصنها ، فوجد ما لا يقل عن ثلاثمائة مركب سرعان ما جهزها للقيام بهجوم على جزر البحرين نفسها . وقد جعل هذه الحملة البحرية بقيادة أبناء آل خليفة المنفيين الذين كانوا معه . وفى هذه الأثناء طلب أمير البحرين المساعدة من سعيد بن طحنون أمير «أبو ظبى» فسارع طحنون إلى الاشتراك فى المعركة بأسطول قوى . ويبدو أنه لدى اقترابه من قطر ، فقد رباطة جأشه فتملّكه الفزع . فأرسل رسالة إلى فيصل يقترح عليه عقد صلح دائم بينه وبين آل خليفة.

غير أن فيصلاً أصر على حضوره بالذات ليقدم فروض الطاعة . وتم ذلك بكل سهولة بعد أن ضمن أحمد السديرى شخصيًا عدم اعتقاله ومعاقبته . وبعد إجراء بعض المفاوضات وافق فيصل على عقد الصلح مع البحرين بشرط أن يدفع أمراؤها تعويضًا . وهكذا سويت المشاكل بصورة أرضت جميع الأطراف المعنية وبدون سفك نقطة واحدة من الدم .

وعاد فيصل فى شهر حزيران أو تموز عبر الصحراء إلى بلاده . وكان من المحتمل أن تتكبد قواته إصابات فادحة لولا سقوط الأمطار الغزيرة المصحوبة بالفيضانات فى جميع الأودية الواقعة فى طريقه إلى الإحساء .

وكان الوضع فى القصيم من جملة المشاكل التى أدت إلى تأخير تسوية الأمور مع حكام البحرين . فبعد الغزو العقيم الذى قام به الشريف محمد بن عون سنة ١٨٤٦ ، غفر فيصل لسكان القصيم مساعدتهم للشريف ، غير أنه ظل يشك فى ولاء بعضهم . وها هو أمير عنيزة، إبراهيم بن سليمان بن زامل تثبت فيه الشكوك والريب . ها هو يقوم بخلق فتن فى المدينة . فقرر فيصل الآن أن يطرد الأمير ويعين ناصرًا بن عبد الرحمن السحيمى مكانه وقد أرسل الأمير الجديد أخاه مطلق الضرير إلى الحصن الكبير مع حامية كافية ، بينما قبل أهل المدينة بالنظام الجديد ولو فى الظاهر على الأقل .

أما عبد الله بن يحيى بن سليمان ابن أخى إبراهيم وأعوانه فلم يقبلوا الخضوع لهذه الإهانة التى وجهت لعائلتهم . فهاجم خدمهم السحيمى فى الشارع العام ذات ليلة وأطلقوا عليه ثلاث رصاصات أصابته بجرح بليغ . إلا أن قائدهم عبد الله وجد الحصن محروسًا

حراسة قوية ، فهرب إلى بريدة ، وأقام هناك فى حماية أميرها عبد العزيز آل محمد . وأرسل عبد العزيز هذا إلى فيصل يبرر الجريمة على أنها بسبب مسلك السحيمى الاستفزازى . إلا أن فيصلاً أصر على أرسال عبد الله إلى الرياض ، حيث ظل هناك فى انتظار بحث القضية .

وفى هذه الأثناء ، قام ضرير بجلد أحد أتباع زامل حتى الموت . أما ناصر الذى شفى من جرحه ، فاعتقل سلفه إبراهيم بن سليمان بن زامل وأعدمه . وأما شقيق ناصر فهرب إلى مذنب خوفًا من بطش السحيمى . وسخط الناس على ذلك . فأمر فيصل السحيمى بأن يمثل للمحاكمة أمام محكمة الشرع فى الرياض وكانت تحكم بدفع الدية . وما أن تمت المحاكمة حتى عزله فيصل وعين مكانه فى عنيزة عبد الله المداوى ، حاكم القطيف السابق . وذلك خشية من أن يؤدى النزاع إلى وضع خطير ربما كان آخره اللجوء لشريف مكة .

ورفض مطلق الضرير إخلاء الحصن ، فسار المداوى إلى بريدة ، ولما وصلت أخبار هذه التطورات إلى الرياض أقنع السحيمى فيصلاً بأن الحل الوحيد لمنع الفتنة هو أن يعيده إلى منصبه ويسنده فى القيام بعرض عسكرى عند حدود القصيم الجنوبى .

وقد قبل فيصل ذلك ، فتحرك السحيمى إلى عنيزة . وهناك وجد فى أهلها حالة من الثورة والهياج والاستعداد لتحدى سلطة فيصل . وكانوا يعلمون جيدًا بأن فرص نجاحهم ضئيلة للغاية ما لم يقنعوا جميع سكان الإقليم ، وعلى الأخص عبد العزيز آل محمد زعيم بريدة، أن ينضموا إليهم . ولهذا طلبوا إلى عبد العزيز أن يقود جميع قوات الإقليم ، فوافق على شرط أن لايكون هناك تراجع بعد إعلان الثورة . هذا من جهة معسكر الثائرين .

أما فيما يتعلق بفيصل فقد غادر الرياض على رأس جيوشه فى مطلع نيسان من سنة ١٨٤٩ ، يرافقه ابناه عبد الله ومحمد ، أما سعود ابنه الثالث الذى عين أميرًا على الخرج سنة ١٨٤٧ فقد أنضم إليه فى الطريق مع قواته الإقليمية . وكان يرافقه كذلك أخوه جلوى والشيخ عبد اللطيف ، وهو حفيد بعيد لمحمد بن عبد الوهاب ، بينما بقى أخوه تركى نائبًا عنه فى الرياض . وقد توجه إلى السدير والمجمعة عن طريق بنبان والحسا ، حيث أمضى بعض الوقت للتأكد من إخلاص أهل القصيم.

وهناك زاره مؤرخنًا ابن بشر الذى يذكر أنه كان فى خيمة فيصل بعد صلاة العصر ، حين جاء الخطيب وألقى درسًا عن موضوع الوثنية من كتاب التوحيد للشيخ ابن عبد الوهاب .

وفى اليوم التالى سار فيصل من المجمعة إلى الجريفة فى سهل حمادة ومن هناك سار إلى عشيقير ومنطقة السر ، ثم قضى بعض الوقت فى ساجر قبل أن يواصل زحفه إلى مذنب . ومن هناك أرسل جيشًا قويًا بقيادة محمد بن أحمد السديرى ، حاكم السدير لاحتلال واحة العوشزية على مسافة قصيرة من عنيزة . كما أرسل إلى أهل القصيم يحذرهم من مغبة إصرارهم على الاستمرار فى ثورتهم . وقد رد الثوار على تحذيزه هذا بأن أرسلوا مهنا بن صالح ، أحد أعيان بريدة لبحث الأمر معه .

كان فيصل متفائلاً ، يعتقد أن الأمور ستسوى دون اراقة الدماء. وبعد أن غادر منها ليحمل نتائج المحادثات إلى الثوار ، علم فيصل بأن هناك حشودًا من بدو الدهامشة (عنزة) فى طرفية Tanghiya إلى الشرق من بريدة . فأرسل ابنه عبد الله على رأس جيش قوى لغزوهم ، وحذره من الاشتباك مع أية عناصر من أهل القصيم ، وأبلغه أنه قد وعدهم فى رسالته التى بعثها مع مهنا أن لا يعتدى عليهم . وعلى أساس ذلك سمح لقافلة متوجهة إلى بريدة أن تمر بأمان .

غير أن أخبار حملة عبد الله وصلت إلى الطرفية ، فبارحها بدو الدهامشة قبل وصولها ، لكن مقدمة جيش عبدالله لحقت بهم فطاردتهم وقست فى معاملاتهم . ووصل بعض الفارين إلى عنيزة لينذروا أهلها . ولم يجد عبد العزيز آل محمد صعوبة فى إقناع أنصاره بأن فرصة مثل هذه فى سبيل الحرية قد لاتعود ثانية . وانطلق مع ألف وخمسمائة مقاتل ليتمركزوا فى تلال اليتيمة الرملية بين شماسية وتعمية فى قناة وادى ريما .

وفى هذه الأثناء أرسل عبد الله من الطرفية رسالة إلى أبيه يخبره فيها عن نجاح حملته الحربية ضد الدهامشة ، غير أن الرسول شاهد آثار جيش كبير متجة إلى الشرق فعاد ليعلم عبد الله بالأمر.

وقد نصح المستشارون عبد الله أن يتجنب الثوار فى طريق عودته إلى أبيه غير أنه أصر على الاشتباك معهم بالرغم من تفوقهم العددى الكبير، فساق الأغنام والجمال التى استولى عليها من الدهامشة باتجاه مراكز العدو، تغطية لفرقة خيالته، ثم قامت الخيالة بالهجوم فى الوقت المحدد، وأخذ الثوار يتقهقرون ويقاتلون، إلا أنهم انهزموا شر هزيمة.

وقد نجا عبد العزيز آل محمد ووصل إلى حصن نعمية. من حيث سار إلى عنيزة. عندما علم عبد الله أمر بايقاف المطاردة والعودة إلى المذنب. وكانت أخبار نصره قد سبقته إلى هناك، الأمر الذى أراح بال والده. فقد كان أصدر أمره بإرسال الإمدادات إليه، كما أراح بال الجيش الذى أخذ يهلل ويهزج حتى أمرهم عبد الله بالكف عن الغناء والرقص وطلب إليهم أن يشكروا الله على دلائل رحمته.

كانت كل قرية فى القصيم قد فقدت بطلاً عليها أن تبكيه وترثيه، أما بريدة فقد منيت بأفدح الخسائر وأعظمها، إذ بلغ عدد قتلاها مائة قتيل. دخل عبد العزيز مدينة عنيزة مع أنصاره بمظاهر الرقص والحماسة، لبث الطمأنينة فى نفوس حلفائه ولتشجيعهم على مواصلة القتال ولكنه أدرك أن أهل المدينة قد سئموا القتال، فصاروا على استعداد لأن يستسلموا لفيصل. فسار إلى بريدة، بينما فر السحيمى وتوجه إلى طلال بن رشيد الذى كان آنذاك فى قرارة، وفى طريقه ليساعد فيصلاً ضد الثائرين. وعلى ذكر طلال نقول: كان قد خلف والده عبد الله بن رشيد فى إمارة حايل بعد وفاة الوالد فى آيار سنة ١٨٤٧ حيث غزا شريف مكة والقصيم. فأخذ سكان عنيزة يتشاورون فيما يجب عمله فى المستقبل. ثم عرضوا على الشيخ عبد الله أبى بطين، قاضى الإقليم، أن يتوسل لدى فيصل للعفو عنهم. ووافق عبد الله، على شرط أن يكفل محمد ابن عبد الرحمن بن بسام، زعيم احدى العائلات الكريمة المحترمة فى المدينة عدم نكوصهم.

وهكذا سارت الأمور بسهولة، فدخل فيصل المدينة ليتسلم ولاء أهلها، وبعد أن غفر لهم دورهم فى ثورة الإقليم ثم كتب إلى عبد العزيز آل محمد يدعوه أن يختار بين السلم والحرب، وكان عبد العزيز قد قرر الفرار، إلا أن أقاربه وزعماء بريدة أقنعوه أن يسمح لهم بالتوسل إلى فيصل من أجل العفو عنه.

وبعد أخذ ورد ومباحثات طويلة ووساطة من ذوى النفوذ ، وافق فيصل على أن يتناسى الماضى بعجه وبجره وأن يسدل عليه ستار النسيان ، وثبته فى منصب حاكم المدينة . ثم عين جلوى حاكمًا عامًا للإقليم على أن يكون مركزه فى حصن عنيزة العظيم ، كى لا تتكرر مثل الأحداث السابقة فى المستقبل ، خصوصًا فى مثل تلك البيئة المعروفة بعدم استقرارها ، وبين أولئك السكان الذين لا يركن إليهم . وكان جلوى أول أجنبى وأمير سعودى يشغل هذا المنصب الذى كان مقصورًا على الزعماء المحليين .

ولا بأس بهذه المناسبة أن نذكر أن الجد الأعلى لعبد الله بن مساعد الحاكم الحالى ، ١٩٥٤ للإقليم ومن قبله عمه عبد الله بن جلوى المشهور، وأبوه عبد العزيز بن مساعد حاكم حايل الحالى ، كانوا يشغلون هذا المنصب .

وهكذا يكون فيصل قد أدخل مبدءًا إداريًا جديدًا فى الحكم سار عليه السعوديون بلا أنقطاع لأكثر من قرن .

كان الآن قد انتهى كل شئ . . . فتوجه فيصل إلى بلاده بعد أن أقام شهرًا فى عنيزة . وقابل أثناء عودته طلال بن رشيد فى المذنب . غير أنه سرعان ما عاد ليستأنف عملياته الحربية فى فصل الشتاء (سنة ١٨٤٩- ١٨٥٠) . فقد توجه شمالاً لمهاجمة تجمعات متنقلة من قبيلة عتيبه فى جراب . إلا أنهم كانوا على علم بنواياه فتراجعوا إلى قبة حيث احتشدت عناصر كبيرة من مطير . ولدى وصول فيصل زاره زعماء الدويش وقدموا له الهدايا فعفا عنهم وغفر لهم ما قاموا به فى الماضى . ثم سار نحو القصيم حيث انضم إليه جلوى مع جيش القصيم عند بئر «غأبو الدود» قرب من الحدود الشمالية . ويبدو أن عبد العزيز حاكم بريدة أوجس خيفة من هذه التحشدات فلاذ مع أولاده بالفرار إلى مكة تاركًا وراءه نساءه وأملاكه. ووصل فيصل

إلى بريدة فكان تصرفه غاية فى الحكمة حين لم يصادر أملاك الحاكم الفار بل تركها لأفراد عائلته الذين بقوا فى المدينة كما عين أخاه عبد المحسن آل محمد ، حاكمًا مكانه.

استقبل شريف مكة عبد العزيز آل محمد بالعطف والود . غير أن مظهره هذا سرعان ما تبدل عندما علم أن الهدايا الصغيرة التى أحضرها عبد العزيز كانت هى كل ما يملكه فى

العالم. فأخذ يكتب إلى فيصل بخصوص ضيفه غير المرغوب فيه . وكان رد الشريف على طلب عبد الله المساعدة ردًا يتسم بالغلظة ، إذ أجابه أن جنوده ليسوا من أولئك الذين يقاتلون دون أن تدفع لهم رواتب معقولة ، وبشرط أن تدفع سلفًا .

وفى هذا الوقت أى حوالى نهاية تشرين الأول سنة ١٨٥٠ سار عبد الله بن فيصل من الرياض إلى الحجاز للقيام بغزوة عامة ، وزحف على رأس قوة كبيرة كانت تظل تزداد عددًا بمن ينضم إليها فى الطريق . وبعد أن مكث فترة فى القويعيه شرع يبحث عن معسكر مرزوق الهيذال (من عتيبة) . فمر بآبار شبكة وبئر مطلوب فى مرتفعات نير ، واقترب من الخنابج دون أن يلتقى بأحد. غير أنه كاد يقع على فريسته عند آبارثعل فى الحزم ، لولا أن مرزوقًا وجماعته أركنوا إلى الفرار لدى سماعهم بزحفه ، ولجأوا إلى ابن ربيعان فى نيفى، وهو من زعماء عتيبة البارزين .

وقد ذعرت الحجاز من اقتراب الجيوش الوهابية من مران فى منطقة حرة الكشب البركانية . وخشى الشريف أن يحدث وجود عبد العزيز آل محمد فى مكة اضطرابًا ، فبدأ يرسم خطة لإزعاجه . أما عبد العزيز فثبت له أن آماله فى مساعدة الشريف له قد ضاعت .. فما كان أن طلب منه أن يتوسط لدى فيصل من أجل العفو عنه ، وألمح له بالعودة إلى بريدة . وكان فيصل آنذاك على ساحل الخليج الفارسى يهاجم سكان البحرين .

ولامندوحة من الاعتراف بأن فيصلاً كان رجلاً فذًا يتحلى بطول أناة وصبر نادرين ، فقد قبل وساطة الشريف فى العفو عن عبد العزيز، واشترط أن يشخص عبد العزيز إلى عنيزة لينضم إلى الحملة التى كان يعدها جلوى للزحف على سلوى. وحين وصل عبد العزيز إلى معسكر فيصل فى كانون الثانى من سنة ١٨٥١ عفا فيصل عنه ، وأعاده إلى منصبه حاكمًا لبريدة ، وذلك بعد أن اعترف بجرائمه فى حق سيده، وعبر عن توبته وندمه عليها.

وفى مطلع السنة التالية انتشرت الشائعات بأن هنالك غزوة أخرى لنجد ، أعدها نائب السلطان آنذاك عباس بن طوسون ، حفيد محمد على باشا ، وقال مُروِّج تلك الشائعة أن المصريين أرسلوا فعلاً عبد الله بن فيصل وحشوده قرب الحدود الحجازية .

وكانت العمليات الحربية التى تلت وصول قوات عباس ، ذات طابع متقلب وإن كانت إحداها قد وصلت حتى دفينة . وحينئذ عبأ فيصل جميع قواته ، كإجراء احتياطى لضمان مملكته ، وسار بها إلى المجمعة . وفى تموز وردت الأخبار أن عباسًا وجه جيشًا كبيرًا إلى إقليم عسير، وأمر قواته فى المدينة المنورة الانضمام إليه استعدادًا للعمليات المتوقعة فى تلك المنطقة . فتنفس أهل نجد الصعداء لدى سماعهم بهذا التطور الجديد، أما فيصل فأمر جنوده أن يتفرقوا ويعودوا إلى منازلهم ، بعد أن غزا بطنًا من بطون عشيرة مطير ، عند أم الجماجم وهو فى طريقه إلى بلاده .

ولم يلقَ الأتراك نجاحًا فى حملتهم على أهل عسير، الذين بادر زعيمهم عايض بن مرعى إلى ربط قضيته بقضية فيصل حين أرسل إليه وفدًا يحمل الأخبار السارة مع نصيبه فى الغنائم ، غير أن فيصلاً كان منهمكًا آنذاك بمشاكل الشرق فلم يأبه لأحداث الحجاز .

وقضى فيصل قسمًا من شتاء عام ١٨٥٢ - ١٨٥٣ فى الصحراء ، فأغار على أحد بطون مطير فى وفرة ، كما وكل إلى عبد الله أمر الاقتصاص من آل مرة.

وكان هؤلاء قد أخلُّوا بالأمن حين أستولت فئة منهم على قافلة ثمينة الأحمال كانت وافدة من عقير إلى الهفوف . فألحق عبد الله خسائر فادحة فى معسكرهم فى نعرية . ومن ثم سار إلى سلوى ، حيث غزا عشائر بنى نعيم القطرية ، وعشائر حجير والمناصير، وكان لهم ضلع فى سلب القافلة المذكورة .

وصرف فيصل الآن جزءًا من جيشه وسار بما تبقى منه إلى عمان ليرفع علمه هناك وليتأكد من أن كل شىء فى المنطقة يسير على ما يرام ، ولم يعد إلى بلاده من هذه الحملة إلا فى نهاية عام ١٨٥٢ . وفى هذا العام (أو فى مطلع السنة التالية) وردت إلى الرياض أخبار اغتيال عباس باشا وتولى سعيد باشا ابن محمد على منصب نائب السلطان خلفًا له .

وفى الأول من آيار سنة ١٨٥٤ ، استرعى أنتباه فيصل قيام الاضطرابات فى القصيم ، فقد ثار أهل عنيزة على جلوى وطردوه من المدينة ، فجاء إلى بريدة . ثم لحق به الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبو بطين الذى اشمأز من روح المشاكسة والشغب فى أهل تلك المدينة ، فقد اغتصب عبد الله بن يحيى بن سليمان الذى تشتهرت عائلته باسم آل سليم ، منصب إمارة

المدينة ، وما أن سمع فيصل بهذه الأخبار حتى حشد قواته وأرسل جيشًا قويًا إلى بريدة بقيادة عبد الرحمن بن إبراهيم ، وهو من مدينة منفوحة ، وأصدر إليه تعليماته بعزل عنيزة وقطع اتصالها بالعالم .

وفى أواخر آب أرسل فيصل ابنه عبد الله إلى شقرا ، حيث أصدر إلى الوحدات الإقليمية بالتجمع فيها ، وبعد قرابة الأسبوعين قام بغارة شديدة على قرى وادى ريما ونخيلها الذى يملكه سكان عنيزة ، واستولى على أملاكهم وماشيتهم وقتل منهم عشرة رجال ، ثم أمر بقطع نخيلهم وإبادته ، فخرجت من المدينة قوة حاولت منع إبادة النخل ، ونشبت بين الفريقين معركة ضارية انسحب عبد الله على أثرها إلى العوشزية ومن هناك توجه إلى رباعية ، واتخذ منها مقرًا مؤقتًا لعملياته الحربية .

وفى رباعية انضم إليه طلال بن رشيد مع قوات حايل ، وبدأ عبد الله مناوراته للقيام بهجوم شديد على عنيزة نفسها ، ولم تكد تبدأ المناوشات المعهودة ، حتى سارع عبد الله آل سُليم يطلب الصلح والعفو من فيصل مباشرة ، فأصر فيصل على حضوره شخصيًا إلى الرياض ، إلا أنه استبق ذلك فبادر إلى العفو عن جرائمه ورضى أن يظل فى منصبه ، حاكمًا فى عنيزة ، وعاد عبد الله وجلوى مع قواتها إلى الرياض لدى صدور الأمر بذلك ، بينما سار الشيخ أبو بطين معهما حتى شقرا مسقط رأسه .

وكان هذا سنة ١٨٥٥ .

ويبدو أن نجدًا بعد ذلك ، قضت عامين من حياتها دون حدوث ما يعكر السلام ، فلم يذكر المؤرخ ابن عيسى شيئًا ، عدا استمرار سقوط الأمطار الموسمية وقيام اضطرابات بين عشائر المنتفك العراقية التى أخضعها مصطفى باشا للحكم التركى المباشر، بسبب الشغب الذى كان يقوم به زعماء عائلة سعدون المتنافسون ، وكان كل منهم يحاول جاهدًا الاستئثار بمنصب زعامة القبيلة .

وفى سنة ١٨٥٦ - ١٨٥٧ نجد عبد الله بن فيصل فى طريقه لغزو عنيزة وعتيبة فى أنحاء مختلفة من الصحراء، وبعد سنة قامت عشيرة بُرَيْح إحدى بطون مطير فهاجمت تجمعات من أهل عنيزة عند آبار داث واستولت على قطعان أغنامها ، وفى شتاء هذا العام بالذات نزلت

بقبيلة مطير خسارة فادحة ، حين توفى زعيمها حميدى بن فيصل بن وطبان الدويش ، وفى أواخر سنة ١٨٥٧ توفى محمد بن عون شريف مكة فى السبعين من عمره تاركًا منصبه لأكبر أبنائه عبد الله .

وفى هذه الآونة تقريبًا اشتبكت قبيلتا عتيبة وحربٌ بالقرب من الساق ، شمال القصيم ، فدارت الدائرة على عتيبة ، وكانت خسائرها فادحة فى الغزوة التى شنها عليها عبد الله بن فيصل ، إذ وصل غربًا حتى أراضى البُقوم وسبيع بجوار ترابة وخُرمة .

غير أن أبرز أحداث هذه السنة ولا شك كان انتشار الطاعون الذى دخل نجدًا عن طريق البحرين والإحساء فقضى على عدد كبير جدًا من الأهلين فيها .

ولنرجع الآن إلى سنة ١٨٤٧ . ولا بد أننا نذكر مع أخبار ثروة القصيم سنة ١٨٤٧ ، كيف هرب زعيما الحركة ، عبد العزيز آل محمد وناصر السحيمى إلى بريدة . . لقد مر معنا ما قام به عبد العزيز من مجازفات ، إلى أن أعاده فيصل حاكمًا على بريدة ، أما جل ما نعرفه عن السحيمى منذ هربه ، فهو أنه قُتل فى شتاء سنة ١٨٥٨ فى ظروف غامضة تشير إلى الضغائن وعادات الأخذ بالثأر المستحكمة بين العائلات الحاكمة فى الدول المدنية الواقعة فى أواسط الجزيرة العربية حينذاك .

كان جد ناصر وابنه عبد الرحمن هما اللذان هاجرا من عشيقير فى الوشم واستقرا فى عنيزة مع فخذ من سبيع يعرف باسم آل بكر، كان يطمح إلى منصب زعامة المدينة الذى كان يشغله آنذاك سُليم ، وحين وفد ناصر السحيمى دخيلاً كان يحيى بن سليم أميرًا يسانده آل بكر بصفته أليق وأنسب المرشحين للزعامة .

وأصبحت الأحوال خطيرة بالنسبة إلى يحيى . . ولم ير بدًا من بحث الوضع مع المطالب بالزعامة ، فتكرم وعرض عليه أن يختار بين الإمارة أو النفى الاختيارى، مشترطًا بأنه إذا اختار الإمارة فإن يحيى سيترك له الأمر ويهاجر من المدينة ، وقال : هكذا كان العُرف السائد أيام الفوضى بعد سقوط الدرعية قبل استلام تركى زمام الحكم وتهدئة الأحوال فى نجد .

أما ناصر الذى كان فيما يبدو ذا كرم غزير فتأثر بهذه التضحية الذاتية فى سبيل سلام المجتمع وخيره ، ورفض الاقتراح ، وأعلن أمام الله والناس بأن يحيى صاحب الحق فى الإمارة ، وقدم له وفقًا لذلك فروض الطاعة والولاء .

وبقيت التنظيمات الإدارية فى عنيزة كما هى دون تغير، وعندما قُتل يحيى فى البقعة سنة ١٨٤١ خلفه أخوه عبد الله بن سُليم بحكم العادة ، وقُتل بدوره فى معركة مع ابن رشيد وقعت سنة ١٨٤٥ . فآلت الإمارة إلى الأخ الثالث ، إبراهيم بن سُليم الذى طرده فيصل بعد ثلاث سنوات وعين ناصر السحيمى مكانه فنتج عن ذلك أن عادت جذوة الثارات القديمة فاشتعلت من جديد ، وتحركت الضغائن العالية التى ظلت خامدة فترة من الزمن ، وحاول أولاد يحيى وعبد الله أن يقاتلوا ناصرًا فى شوارع عنيزة إلا أنهم أخفقوا ، كما حاولوا احتلال الحصن الذى فى حوزة شقيق ناصر (مطلق الضرير) فباءت المحاولة بالفشل أيضًا.وزاد الأمر سوءًا أن اعتدى ناصر على أحد أتباع عائلة سليم بالضرب المبرح فتوفى ، وذبح ناصرُ نفسُه إبراهيمَ بن سليم عندما اندمل جرحه ، ولا ندرى إن كان ناصر قد عاد إلى عنيزة أم لا ، غير أنه من المؤكد بأنه كان يعيش هناك كمواطن عادى مع أخيه مطلق فى أواخر سنة ١٨٥٨ ، تحت إمارة عبد الله بن يحيى الذى كان قد اغتصب المنصب بعد ثورته على جدوى ، وقد أيد فيصل وجوده فيه .

وفى أيام الشتاء ، خرج ناصر إلى الهلالية (الواقعة فى أعالى وادى ريما) لتفقد اسطبل خيوله، فتعقبه عبد الله الأمير وأبناء عمه (زامل بن عبد الله ، ومحمد بن إبراهيم) وقتلوه فى الصحراء انتقامًا منه لقتله إبراهيم بن سليم . وهرب مطلق شقيق ناصر إلى قرية عشيقير مسقط رأسه وبقى هناك حتى وافاه الأجل فى سنة ١٨٦١ .

ويبدو أنه لم يحاول أن يثأر لأخيه ولا اهتم فيصل بالأمر، وإن لم يكن راضيًا عن مسلك عبد العزيز آل محمد أمير بريدة عدوه القديم ، الذى أكرم فيصل وفادته فى أكثر من مناسبة فاستدعاه فيصل الآن إلى الرياض فى شباط سنة ١٨٥٩ ، وبعد أن واجهه بقائمة إساءاته ، اعتقله مع ولديه اللذين رافقاه إلى العاصمة ، وعين عبد الله بن عبد العزيز بن عدوان من عائلة عليان ، حاكمًا للمدينة بدلاً منه . إلا أن الحاكم الجديد قُتل فى شهر أيلول التالى على أيدى بعض الأفراد من عشيرته . فألقى فيصل القبض على سلفه وسجنه ، لارتيابه بأنه له ضلعًا فى المؤامراة .

ومن الغرابة بمكان أن يعود فيصل فيعين محمد بن غانم وهو وأحد القتلة (حاكمًا جديدًا للمدينة) وكانت شائعات احتمال قيام اضطرابات فى بريدة ، قد شجعت عبد العزيز آل محمد

الذى. كان فى السجن آنذاك ، على أن يعرض خدماته على فيصل لتسوية الأمور وإصلاح ذات البين . فوثق فيه ، وقبل عَرضه ، وأعاده إلى منصب الحاكم فى كانون الأول سنة ١٨٥٩ بعد أن ألغى تعيين ابن غانم .

وفى آذار من نفس السنة ، استقر فيصل فى معسكر الربيعى فى رماح فأوفد ابنه عبد الله للإغارة على عشيرة البريح أحد بطون مطير لاقترافها بعض المخالفات . فلحق بها عند دخنة جنوبى القصيم ، وعاملها معاملة قاسية فظيعة . وبعد أن قدمت العشيرة الاعتذارات المعتادة وعرضت ولاءها ، سمح لها عبد الله بالرحيل . ثم التقى رجال القبيلة بغزو من قبيلة قحطان قرب آبار شبيكة فكبدوهم خسائر أخرى، منها عدة شخصيات بارزة .

وقد تصرف المنتصرون بدون روية حين قاموا بزيارة لعبد الله ، الذى ماكان منه إلا أن أظهر سخطه عليهم وسجن أكثر من عشرين من رجالهم . هذا كما استولى على جميع رواحلهم وعلى مائة وأربعين فرسًا، وطلب إليهم دفع دية نقدية كبيرة ، أعطى جزءًا منها إلى عشيرة البريح المنكوبة ديةً للذين قتلوا .

وفى آذار من السنة التالية (١٨٦٠) كان دور العجمان فى التعريض لغضب فيصل وسخطه ، بسبب حماقتهم فى الإغارة على إبل العائلة المالكة فى مراعيها . وكان راكان بن هذلين زعيم العجمان آنذاك . وهو الذى خلف أباه بعد إعدامه فى الهفوف ، انتقامًا منه لإغارته على قافلة الحجاج . وكان فيصل قد ثبته فى الزعامة بعد أن قدم له راكان جميع التأكيدات والضمانات بعدم تكرار هذه الأعمال الإجرامية من قبل قبيلته ، ولكنه الآن لم يف بوعده فسخط عليه فيصل . . وندم راكان على ما فعل . . وما كان منه إلا أن فر إلى سبيحية فى إقليم الكويت . فأعلن فيصل الجهاد ، وأسند قيادة قواته الحربية كالعادة إلى عبد الله . .

اجتمع الجيش عند آبار دجانى ومن هناك سار عبد الله إلى وفرة ، حيث وجد أن قبائل العجمان قد تركت الحذر جانبًا فهاجمها وكسرها واستولى على معظم مقتنياتها ثم لحق بالفارين إلى سبيحية

فهاجمهم هجومًا شديدًا ، وساق الهاربين من وجهه وهم يحاولون اللحاق براكان فى معسكره فى جهر قرب مدينة الكويت نفسها .

وجمع عبد الله قواته عند ملح القريبة ، حيث قـرر زعـماء العجـمان أن يهـاجموه بـشدة . وحسب الطرق التقليدية المعروفة فى الصحراء، كان فى مقدمة قـواتهم الزاحفـة سـبعة جمـال يحمل الواحد منها امـرأة جميلـة سـافرة متحليـة بكـل زينتهـا لتـشجيع الرجـال عـلى حمايـة أعراضهم. ونشبت المعركة فى الثالث من نيسـان سنة ١٨٦٠ .. وكانت حامية الوطيس أبدى الطرفان فيها منتهى الشجاعة والعزيمة إلا أن العجمان لم يكونوا أكفاءًا لجيش عبد الله فدارت عليهم الدائرة وأنكسروا شر كسرة ، وهربوا إلى الكويت ينشدون النجاة . بينما سـار عبـد الله إلى جهرا لاحتلال معسكر العدو وتوزيع الأسلاب على الفائزين حـسب العـادة وقيـل : أن خسائر العجمان سبعمائة قتيل.

وكان لانتصار عبد الله كل الوقع الحسن على تخويـف العـراق والريـاض ، لأن تكـرار غارات العجمان على الزبير وضواحى البصرة أحدث رعبًا للسطات العربيـة والتركيـة عـلى السواء . فأرسل والى البصرة وأمير الزبير ، وفودًا تحمل هدايا قيمة إلى عبد الله لتهنئتة الصادقة على عمله الباهر.

ثم عاد عبد الله إلى الرياض ، حيث استقبل بمظاهر رائعة توازى ما أحرزه من انتصار .

أما قادة العجمان الذين كسروا ولم يسحقوا ، فقـد أخـذوا يتـشاورون بـأمر المـستقبل ، فليس بمقدورهم وحدهم أن يأملوا فى الصمود أمام قوات عبد الله المتكتلة . وكـان قـرارهم أن يتحالفوا مع قبائل المنتفك للقيام بسلسلة متعاقبة من الغارات المستمرة . وفى الخريف مـن ذلك العام بدأوا بإزعاج تخوم البصرة والزبير والكويت . فانتدب حبيب باشا (والى البـصرة) أمير الزبير لحشد قواته والرد على عملياتهم الحربية . وقام الوالى بتزويد تلك القوات الكبـيرة بالمال والسلاح والذخيرة والمؤن اللازمة ، وتجنيدها وإرسالها إلى الميدان .

كانت أول خطوة قام بها العجمان وحلفاؤهم ، أن أغاروا على مزارع نخيل شط العرب، واستولوا على محصول التمر لاختزانه من أجل حملة طويلة الأمد ضد نجد .

فهاجمهم جيش الزبير بمساندة الأتراك والمجندين من قبائل نجد ، وطردهم من مـزارع النخيل إلى الصحراء ، ثم طاردهم حتى لحق بهم واشتبك معهم وكسرهم مرة أخرى وحينئذ أضطر العجمان إلى الانسحاب إلى جهرا وكبدة .

أما حبيب باشا ، فأراد الانتقام من قبائل المنتفك الذين كانوا يملكون أراضي واسعة فى ولاية البصرة ، بتهديدهم بمصادرة أراضيهم ومزارع نخيلهم . وكان زعيم المنتفك ناصربن راشد بن ثامر بن سعدون ، فتملكه الرعب من تهديد الوالى وكتب إليه ملقيا اللوم فى الحوادث السابقة على العجمان ومبرِّئًا ساحة رجال قبيلته ، لأنهم كانوا مع العجمان فى البحث عن المراعى لماشيتهم فى صحراء نجد ، لا البحث عن الغارات والنهب والسلب . وبعد أن تبادلا الرسائل فى هذا الموضوع وافق الوالى على إلا ينفذ تهديده . ويبدو أن المساعدات الكاملة التى أمل فيها العجمان من قبائل المنتفك كانت مجرد عناصر غير منظمة من القبيلة تنزل معهم بالقرب من جهرًا .

ولاشك أن فيصلاً قد سمع بأن الثوار وحلفاءه عازمون على مهاجمة الكويت ونجد نفسها . فأعلن الجهاد مرة أخرى . وطلب من قوات المدن والأقاليم أن تتجمع عند آبار حفنه فى جهة عرمة ، حيث وافاها هناك فى نهاية آذار سنة ١٨٦١ ليتولى القيادة . ومن ثم زحف عن طريق وفرة ، حيث انضمت إليه مطير وبنى حجير . واتجه إلى جهرا حيث قام بهجوم قوى على الحلفاء عند الفجر .

ومرة أخرى انهزم العجمان شر هزيمة فطاردتهم القوات المنتصرة ودفعت بهم إلى موج البحر المنخفض المد آنذاك فغرقوا عند ارتفاعه . وقد نشبت هذه المعركة فى شهر رمضان مثل معركة وفرة ، وبعدها بسنة واحدة تقريبًا . وكانت الغنائم التى استولى عليها المنتصرون كبيرة جدًا . وقد شكر أهل الزبير لعبد الله صنيعه هذا ، وكانوا راضين كل الرضا عن النتيجة ، فقدموا إليه الهدايا الثمينة تقديرًا منهم لنصره على الأعداء .

وصادف أن رافقه فى هذه الحملة أخوه محمد ، الذى استحق الإعجاب والتقدير لاشتباكه مع حمدى Hamdi بن سكيان زعيم مطير المشهور وقتله إياه أثناء إغارة عبد الله على عناصر من القبيلة كانت مخيمة عند منسف Mansif ، بالقرب من زلفى. وكانت هذه الغارة ، مقدمة لزحفه على القصيم ، حيث عسكر عبد الله عند روضة رباعية فأحدث وصوله رعبًا فى قلب عبد العزيز آل محمد (حاكم بريدة) وكان هذا غير مطمئن على نفسه فهرب فى الحال إلى عنيزة مع ثلاثة من أولاده وجماعة صغيرة من خدمه وأتباعه ، ومن ثم واصل هربه إلى مكة ، إذ لم يجد تشجيعًا فى عنيزة.

ولدى سماع عبد الله بهذه الحادثة ، أرسل قواته فى الحال ، بقيادة أخيه محمد لمطاردة الهاربين . فلحق بهم عند آبار الشكيكة Shukaiyika وذبح الجند عبد العزيز وأبناءه الثلاثة ، وأخذ أبناء عمه وخادمين من خدامه . إلا أنهم سمحوا لبقية الجماعة أن تمضى بسلام.

ثم سار عبد الله إلى بريدة لتنصيب حاكمًا عليها . ، فوقع اختياره على عبد الرحمن بن إبراهيم من منفوحة ، وكان هذا قد قاد حملة على القصيم بعد طرد جلوى سنة ١٨٥٤ وأمره بأن يشرف بنفسه على تدمير منازل عبد العزيز وأبنائه.

ويوم سمح عبد الله لعبد العزيز آل محمد بأن يستعيد منصبه كحاكم لبريدة ، كان هنالك ولد من أولاده اسمه عبد الله ، معتقلاً فى الرياض كرهينة . وكان هذا الابن قد رافق عبد الله فى حملته على العجمان فهو معه الآن فى رباعية عند قتل والده وإخوته الثلاثة : فبقى مع الجيش وعاد معه إلى الرياض ، غير أنه انسل وهرب قبل وصوله مشارف المدينة فطورد فى الصحراء وسجن فى القطيف حتى توفى هناك .

وهكذا تم القضاء على بطن مشبوهة من بطون عائلة قديمة مشهورة لاقى أفرادها حسن المعاملة والاحترام من لدن سيدهم الذى لم يتورعوا عن خيانته مرارًا وتكرارًا .

وقام طلال بن رشيد (الذى لم يشترك فى الحملة على العجمان) بزيارة لعبد الله فى بريدة جالبًا من بعض القوات للانضمام إلى جيشه ، فيما إذا دعت الأحوال فى القصيم ، وكان إذلال عدوه الألد فى بريدة مصدر سرور له ، فقد كان ولاء إقليمه لحكومته المركزية يختلف اختلافًا كليًا عن قوة الخيانات الدائمة فى القصيم فما كادت سنة ١٨٦١ تنتهى حتى أصبح مركز القلاقل فى الجزيرة العربية يتمخض عن اضطربات جديدة .

كان موت أحمد السديرى فى مطلع هذه السنة خسارة مفجعة لفيصل الشيخ المهدم . فعين مكان السديرى ابنه محمدًا بصورة مؤقتة وكان ذا خبرة سابقة بالإقليم . غير أن الأحداث الجسام التى سنأتى على ذكرها فى القصيم جعلت من الضرورة تعيينه أميرًا فى بريدة. ولكنه لم يعين هناك إلا فى أواخر سنة ١٨٦٣ وبناءًا على الحاح أهل الإحساء وافق فيصل بأن يعود محمد إلى ذلك الإقليم أميرًا أصيلاً .

وفى الأثناء (فى شباط سنة ١٨٦٢) ولسبب لم يُعرف ، ثار أهل عنيزة وربما كانت ثورتهم هذه بسبب سياسة عبد الرحمن بن إبراهيم الذى عُين مؤخرًا حاكمًا لبريدة . وكان رد فيصل السريع على هذه الثورة ، أن سمح للبدو بأن يهاجموا المدينة وينهبوا الأراضى القريبة منها . ثم جهز جيشًا قويًا لإرساله مع صالح بن شلهوب إلى بريدة لمساعدةعبد الرحمن بن إبراهيم فى عملياته ضد السكان الثائرين وفى نيسان من ذلك العام استولت هذه القوات على جمال العنيزيين وأغنامهم فى مراعيها . غير أن أهل عنيزة كالوا للمهاجين الصاع صاعين ، فقاموا بهجمات كثيرة اضطر صالحًا إلى إيقاف الهجوم .

وحوالى هذا الزمن (وفى شهر آيار) ، عاد محمد بن غانم (أحد قتلة عبد الرحمن بن عدوان وخلفه فى بريدة لمدة وجيزة) إلى القصيم وكان ابن غانم هنا قد اختار النفى فى المدينة المنورة حيث كان منفيًا أثناء وجود ابن إبراهيم فى منصبه وبما أنه من عائلة عليان ، ومُطالِب بمنصبِ حاكم بريدة ، فقد أنضم إلى الثوار فى عنيزة وشجعهم على مهاجمة المدينة المنافسة . وقد نجحت الحملة فى الدخول إلى المدينة تحت جنح الظلام إلا أنها أخفقت فى أن تشق طريقها إلى القلعة التى تمركز فيها ابن إبراهيم وجنود صالح بن شلهوب ، كما فشلت فى الوصول إلى المنازل المحصنة التى كانت تملكها عائلة « أبو الخيل » المنافسة أما سكان بريدة فخرجوا إلى الشوارع وطردوا الغزاة وكبدوهم خسائر فادحة.

وأرسل فيصل فى ذلك الحين إمدادات قوية إلى بريدة لتساعد فى استمرار الضغط على عنيزة . إلا أن أهل عنيزة هم الذين أخذوا بزمام المبادرة فى الهجوم فهزموا المدافعين فى أراضيهم بالقرب من رواق . وكانت خسارة جيش فيصل زهاء العشرين قتيلا ، منهم عبد الله بن عبد العزيز قائد الإمدادات التى وصلت مؤخرًا . وقد غضب فيصل من فشل ابن إبراهيم المستمر فى إخضاع الثوار ، فاستدعاه بصورة مذلة ، وأمر بمصادرة أملاكه فى بريدة وأبقى صالح بن شلهوب قائدًا للحامية فيها .

وبعد فترة الراحة والاستجمام فى الصيف ، وعدم قيام أى من الطرفين بأى نشاط حربى يذكر ، قرر فيصل اتخاذ إجراءات أكثر شدة وعنفًا ففى الخريف عبأ جيشه مرة أخرى وأرسله بقيادة ابنه محمد إلى القصيم ، وهناك انضمت إليه قوات السدير والوشم ، بالإضافة إلى

جيش حايل الكبير تحت إمرة عبيد بن رشيد وابن أخيه محمد بن عبد الله ، الذى كتب له أن يكون الشخصية البارزة فى الجزيرة العربية .

ولقد احتشد هذا الجيش القوى عند بريدة . . ومن هناك انطلق إلى مدينة الأعداء إلى عنيزة واشتبك مع طليعة جيش العدو فى ممر وادى ريما الذى كان يشكل الحد الفاصل بين المدينتين المتنازعتين . فانكسر الثوار وتكبدوا بعض الخسائر . وخيم محمد فى الوادى ؛ كى يشرف بنفسه على عمليات تقطع خيل العدو فانبرت فرقة معادية لمنع ذلك . . ونشبت معركة ضارية فى العاشر من كانون الأول أُدحر فيها جيش محمد وهرب إلى مخيماته فى الجسر . غير أن هطول الأمطار الغزيرة حال دون نقل المعركة إلى هناك . وكان الدور لقوات محمد أن يقوم بهجوم معاكس على أهل عنيزة فقتلت منها قرابة الأربعمائة قتيل ، ولاذ الباقون بأذيال الفرار .

واستمرت تقطيع الأشجار . . وأصبح الثوار محاصرين فى مدينتهم ثم جاءت إمدادات جديدة تستحق الثناء ، فقد وصل طلال بن رشيد شخصيا على رأس بقية جيش حايل . كما أرسل فيصل ابنه عبد الله (فى كانون الثانى من سنة ١٨٦٣ وأصبحت عنيزة الآن مطوقة تطويقًا تامًا ، وتعرضت لقصف شديد من المدفعية استمر ليل نهار . . حتى اضطر سكان المدينة إلى طلب الصلح .

وكان قد سبق لفيصل أن أصدر تعليماته لعبد الله بقبول أى عرض للاستسلام بشرط واحد : هو وجوب ذهاب الأمير المعتدى ، عبد الله بن يحيى إلى الرياض لتأدية فروض الطاعة والولاء فتوصل الفريقان لعقد الصلح على هذا الأساس .

وقد عفا فيصل عن الأمير الثائر بمجرد وصوله إلى الرياض ، وطلبه العفو والمغفرة وسمح له بالرجوع إلى بلاده . وأرسل محمدًا السديرى إلى بريدة وعينه أميرًا على الإقليم كله . بعد مدة وجيزة استدعى السديرى كما ذكرنا أنفا وأعيد تعيينه حاكمًا على الإحساء . بينما آلت إمارة بريدة إلى سليمان الرشيد ، وهو من عائلة عليان . وكان هذا التعيين يعنى ازدياد حدة التوتر فى المدينة . فعزله فيصل بعد حين وعين بدلاً منه مهنًا آل صالح من عائلة (أبا الخيل) المنافسة لعائلة عليان.

وفى خلال سنة ١٨٦٣ توفى فى مصر نائب السلطان سعيد باشا وخلفه إسماعيل باشا ، وهو ابن آخر من أبناء محمد على باشا . وفى أثناء حكم إسماعيل تم فتح قناة السويس ،

وأحداث أخرى أقل حظًا من ذلك العمل الباهر ، جعلت الفرص مواتية ، وفتحت للاحتلال الأجنبى للبلاد ، وقد توفى فى هذا الزمن تقريبًا الشيخ تركى بن حميد ، أحد زعماء عتيبة البارزين ، وفى خريف سنة ١٨٦٤ كان عبد الله فى طريقه للحرب فى إقليم الإحساء ، حيث صادف حشدًا من العجمان فهزمهم وألحق بهم بعض الخسائر . ويبدو أن السلام قد ساد أرجاء الجزيرة العربية بعد ذلك .

وفى غضون هذه السنة توفى الشيخ عبد الله أبو بطين المشهور فى شقرا (موطنه الثانى) وله من العمر خمس وثمانون سنة . فقد ولد هذا الشيخ فى روضة السدير فى تشرين الثانى من ١٧٧٩ . وكان أول منصب شغله هو منصب القضاء فى الطائف . إذ عينه فيه الأمام سعود نفسه سنة ١٨٠٥ بعد احتلاله للحجاز .

إلا أنه أصبح مجرد مواطن عادى عندما تم طرد جلوى من عنيزة سنة ١٨٥٥ .

فيكون بهذا قد شغل مناصب قضائية رفيعة طيلة نصف قرن كامل .

ومن الغريب أن المؤرخ ابن عيسى لا يذكر شيئًا عن الزيارة التى قام بها الكلونيل لويس يلى ، المندوب السامى الإنجليزى المشهور فى الخليج الفارسى ، ومن أجل إجراء مباحثات سياسية مع فيصل . وأقل من ذلك مدعاة للاستغراب أن يصمت المؤرخ فلا يأتى على ذكر زيارة وليم جيفورد بلجريف التى قام بها إلى العاصمة الوهابية قبل ذلك بسنتين . وكم يكون شائقًا لو أننا وقفنا على انطباعات الوهابيين المعاصرين .

آنذاك حول هذه الزيارات التى كانت أشبه ما تكون بقصص خياليه وعلى كل فأولى هاتين الزيارتين أدت إلى توقيع اتفاقية عربية إنجليزية بقصص خيالية . لم يعثر على نصوصها فى سجلات الرياض . غير أن الكولونيل بللى ترك لنا تفصيلات رائعة حقًا وقيمة للغاية عن النشاط والجو السائدين فى البلاط الوهابى آنذاك ، أى فى العام الأخير من حكم الإمام فيصل فقد أناط فيصل (لسنوات عدة خلت) تصريف شئون البلاد وإدارة العمليات الحربية الكثيرة على الخصوص ، إلى ابنه عبد الله بالاشتراك مع أخيه الثانى (محمد) إلا أنه كان يحتفظ لنفسه بالسلطة العليا فى الدولة .

ويبدو أنه لم يفكر يومًا من الأيام فى التنازل عن العرش . ومع هذا كان واضحًا أنـه بـدأ يفقد شيئًا من حيويته ونشاطه مع كر الأيام . وتوفى فى الثـانى مـن شـهر كـانون الأول سـنة ١٨٦٥ ، بعد أن مارس الحكم واحدا وثلاثين عامًا ، تخللتها فترة خمس سنوات قضاها أسيرًا فى مصر .

الفصل الثامن

عبد الله الثانى وسعود الثالث ابنا سعود

كان لوفاة الإمام فيصل فى كانون الأول سنة ١٨٦٥، أعظم الأثر فى التعجيل بعهد من الفتن والمنازعات، بلغت أوجها فى زوال البيت السعودى المالك، وكسوف شمسه كسوفًا كليًا، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر. فقد كان واضحًا تمامًا منذ الزيارة التى قام بها الكولونيل لويس بلى - المندوب السامى البريطانى فى الخليج الفارسى، إلى الرياض فى شهر آذار، من سنة ١٨٦٥ - أن صحة الإمام فيصل فى تدهور. وفى حزيران من نفس السنة عين ابنه عبد الله وارثًا للعرش بشكل رسمى، وبصفته هذه أخذ عبد الله على عاتقه تسيير دفة الحكم فى الدولة.

وقد سبق لعبد الله هذا أنه كان ساعد والده الأيمن قرابة العشرين عامًا فى مجالس الشورى وفى الحرب. فى حين لم يترك سعود - أخوه الأصغر - أى أثر فى نفوس مؤرخى هذه الحقبة إلا بعد وفاة والده. إذ طفق يُبدى شيئًا من الحسد والعداوة نحو أخيه: فأناة عبد الله وفضائله الراسخة لم تكن لتقارن بكياسة أخيه المطالب بالعرش ولا ظرفه الذى لا يعرف الحدود. وكان من إجراء هذا التناحر بين الأخوين أن تسببا فى إنهيار بيتهما ودماره.

وكان أول عمل قام به عبد الله بعد تسلمه العرش أن شيد لنفسه قصرًا ذا حصون وقلاع أسماه (السماك) فى الجهة الشمالية الشرقية من قلعة تُرك الأصلية التى قنع فيصل باتخاذها مقرًا له ثم وسعها وفقًا لمقتضيات حاجته وظروفه حتى قدر له أن يعيد للحركة الوهابية سؤددها ومجدها حينذاك. وهى نفس القلعة التى أزال آثارها العهد الحاضر، ليقوم مكانها قصر حديث يفى بمتطلبات العصر الحديث.

وخرج عبد الله فى الربيع للإغاره على قبيلة الظافر عند الحدود العراقية ، إلا أنه لم يتوصل إلى نتيجة تذكر فيما عدا استيلائه على بعض الجمال والأغنام . وسرعان ما وجَّه أنظاره إلى أمور أشد خطورة من غزو قبيلة قصيَّة الديار. إذ يبدو أن سعودًا رأى من الأوفق له أن يظل بعيدًا عن متناول يدى أخيه ، فنزح إلى إقليم عسير الجبلى الوعر . وهناك طلب إلى أمير المنطقة واسمه محمد بن عايض أن يساعده فى مطالبته بالعرش.

وتدبر عبد الله أمره .. ثم قرر أن يرسل وفدًا إلى أبها ، يحذر حاكمها من أن تداعب الثورة خياله ، ويطلب إلى سعود العودة إلى الرياض ، وهو فى مأمن على حياته .

أما سعود فلم يجب وفد عبد الله إلى طلبه ، بل رفض العودة . وأدرك أنه لا أمل فى إغراء أمير عسير على الانتقاض ، فقصد مكرم زعيم نجران . وهناك كان حظه فى النجاح أفضل ، وكان لعلائق المصاهرة والزواج التى تربط بينه وبين قبيلة العجمان النازلة فى الإحساء، عن طريق والدته ، أثرها فى التقدير والحفاوة التى لقيها ، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى من البدو يسوقه صوب سليَّل فى وادى الدواسر. إذ كان قد وعده زعيمها بالمساعدة .

وهكذا تهيأ المسرح .. وبقى على كل من الآخرون أن يبادر إلى اختبار قوته فيضعها فى كفة الميزان ، فسارع عبد الله إلى إرسال أخيه محمد إلى الجنوب على رأس جيش قوى جنّده من حضر نجد وقبائلها . وكانت حواضر وادى الدواسر المهمة قد ظلت على ولائها له .. وكان سعود هو البادئ فى الهجوم ، فالتحم الجيشان فى معتلى ، إحدى قرى الدواسر ، وتكبد الجانبان خسائر فادحة فى الأرواح ، إلا أن النصر كان حليف الموالين للملك ، حتى أن سعودًا فرَّ من ميدان المعركة وهو يعانى آلام جراح بليغه فى أماكن عديدة من جسمه .

وما أن اندملت جراحه أثناء إقامته فى الصحراء بين أفراد قبيلة مرة ، حتى ارتحل إلى البريمى وتخوم عمان واستقر هناك ضيفًا على تركى السديرى ، الحاكم الوهابى للمنطقة ، وكان هذا فى أواخر سنة ١٨٦٦ .

وبعد أربعة أعوام من ذلك التاريخ استطاع سعود أن يعكر صفو أخيه من جديد . وفى هذه الأثناء قتل تركى السديرى فى الشارقة وهو يحاول تجنيد قوة لمساعدة سالم بن ثوينى، سلطان مسقط ، الذى خلع من العرش .

أما أهل البريمى الذين لم تطب لهم أساليب تركى الإدارية الصارمة ، فقد دعوا الغاصب الجديد عزّان بن قيس من مسقط وعمان لأن يحتل الواحة ، وسواء كان هذا التغيير فى الحكم أثر فى خطط سعود أم لم يكن، فقد قام فى السنة التالية بزيارة للبحرين ، ضمن مساعدة حكامها من آل خليفة ، ثم قام بهجوم عقيم على قَطَر، شلَّته المقاومة الضارية التى أبدتها حامية كانت متمركزة هناك تابعة لأخيه عبد الله .

ثم عاد سعود إلى البحرين وشمَّر عن ساعديه للقيام بمجازفة أكبر وأشد خطورة فى الخريف القادم ، فبعد رسائل عدة تبادلها مع العجمان ، نزل فى عقير وزحف على واحة الحسا. وقد احتل سعود جميع القرى ومزارع النخيل المنعزلة ونهبها ، وخرج قائد القوات الموالية للملك لمقابلة جيش سعود فى قناة الوجّاج بناءً على نصيحة شيوخ قبيلة العجمان الموالية لعبد الله فى الظاهر .

لكن هؤلاء الشيوخ ورجالهم تخلوا عن قوات عبدالله وهاجموها ، فاندحر جيش الملك وانهزم هزيمة نكراء ، إلا أن الهفوف العاصمة ، قاومت الحصار مقاومة ضارية طيلة أربعين يومًا .

وكان عبد الله فى الرياض يحشد قواته على أمل أن تصمد المدينة حتى يصلها المدد . وانفصلت رواحل الجند .. إلا أن سعودًا قرر أن يواجهها فى الصحراء فاحتل آبار جودا المهمة ، قبل أن يصل إليها جيش الرياض الذى كان بقيادة أخيه محمد . ونشبت معركة فى الأول من كانون الأول سنة ١٨٧٠م ، وأبدى فيها الجانبان استماتة فى القتال ، وأزهقت أرواح كثيرة . إلا أن النصر كان حليف جيوش سعود .

وقد أخذ سعود أخاه محمدًا أسيرًا فحبسه فى قلعة القطيف ، وبعد ذلك استسلمت الإحساء دون كبير عناء ، وأصبح سعود سيد الجزء الشرقى من الجزيرة العربية فسيطر على جميع طرق تموين الرياض نفسها.

وفى الوقت الذى كان فيه سعود منفيًا بملء اختياره فى واحة البريمى (كما أسلفنا) حدثت هنالك تطورات كثيرة فى نجد ، وكان أول ما قام به عبد الله بعد معركة معتلى أن

حاول تأديب الذين ساعدوا أخاه فى الثورة ، فأرسل عمه عبد الله بن تركى إلى الإحساء ليؤدب العجمان ، فطرد عبد الله حاكم الإقليم ، محمدًا السديرى (شقيق تركى الأكبر حاكم البريمى) من منصبه وعين مكانه ناصر بن جبر الخالدى ، وسرعان ما أرسل الملك بعد ذلك حملة كبيرة كاسحة إلى وادى الدواسر ليعاقب العناصر الخائنة فى الواحة ومن البدو ، ثم لحق بها فتسلم قيادتها بنفسه وظل فى الأقاليم المجاورة إزاء الشهرين ليرسخ سلطانه فى البلاد ، ولدى عودته إلى عاصمته ، استرعى انتباهه الأحداث فى جبل شمر ، وكان هذا الإقليم مستقلاً فعلاً إلا أنه خاضع للعائلة السعودية المالكة اسميًا .

أما أحداث شمر فذات شجون .. ففى سنة ١٨٦٦ أصيب الأمير طلال بن عبد الله بمس فى عقله فانتحر وخلفه فى المنصب شقيقه متعب . إلا أن هذا قتل بدوره بعد عامين فى إمارته فى حايل ، على يد أبناء سلفه ، فآلت الإمارة إلى بَنْدرَ بن طلال ، وفى هذا الوقت بالذات صدف أن كان محمد بن عبد الله شقيق طلال متغيب فى زيارة للإمام عبد الله فى الرياض ، فرأى من الحكمة أن يبقى حيث هو فترة وجيزة من الوقت ، ليراقب أثناءها تطورات الوضع فى حايل . وفى السنة التالية قام بندر بنفسه بزيارة إلى الرياض كى يقدم احترامه للإمام وليقنع عمه بالعودة معه إلى بلاده متعهدًا له بأن يلقى كل معاملة كريمة هناك.

وهكذا بدا أن بيت آل رشيد على عتبة مأساة مريعة قُدّر لها أن تعجل فى مجىء أبرز آل رشيد طرًا، وأحد أفذاذ الرجال المشاهير فى تاريخ الجزيرة العربية .

يتوقف المؤرخ النجدى عند هذه النقطة (١٨٦٩) ليدوّن بداية أعمال الحفر فى قناة السويس ، والتى تمت حسب قوله سنة ١٨٧٤ ، فيقول : « أن الحكومة الفرنسية والإنجليزية والخديوى إسماعيل باشا هم الذين أسسوا المشروع وأنجزوه وبعد أن فرغوا من مهمات الحفر أنثنوا ليفرضوا الرسوم على البواخر المارة فى القناة حسب حمولتها ، أما من ناحية حفر القناة ليتم التقاء البحرين ، فقد كان هارون الرشيد يريد أن يقوم به منذ زمن طويل لتسهيل عملياته الحربية ضد البيزنطيين ، إلا أن يحيى البرمكى نصحه بألا يفعل ذلك خوفًا من أن يطرد الفرنجةُ المسلمين من حرم مكة ، ولذا امتنع هارون عن القيام بالمشروع . إذن كانت سياسية الدول العظمى فى القرن العشرين أشد دهاءًا من مثيلتها فى السابق .

ولنعد الآن إلى الملك فى الرياض ....

كان رد فعل هزيمة جودا مريعًا بالنسبة لعبد الله ولبلاده بالدرجة الأولى. فقد كان يتوقع هجومًا صاعقًا يقوم به سعود على العاصمة ، ولهذا سارع إلى الهرب منها قاصدًا الالتجاء فى حايل ، وفى أثناء مسيرته إلى هناك أرسل وفدًا إلى باشاوات البصرة وبغداد يطلب إليهم المساعدة الملحة لمواجهة ثورة أخيه وكان من حسن حظه أن زاره آنئذ زعيم قبيلة قحطان محمد بن هادى بن قرملة .

وكان محمد هذا قد قام بزيارة سعود إلا أنه اعتبر البرود الذى استقبله به مهينًا لكرامته . فتشبث عبد الله بعرض مساعدته واستقتل ، وغير رأيه وعاد إلى الرياض فى الوقت المناسب ليثبط همة سعود عن مهاجمة المدينة .

وعقب ذلك هدوء قصير الأمد ، انتشرت فيه المجاعة التى قُدّر لها أن تمتد لأكثر من سنتين عمتهما فظائع الفوضى الضاربة أطنابها .وكان الجائعون يلتهمون حتى جثث الحمير الميتة حين يجدونها .. ويموتون إن لم يفعلوا ..

وفى نيسان سنة ١٨٧١ زحف سعود على الرياض ، فهرب عبد الله من هناك مرة أخرى إلى بلاد قحطان فى الجنوب ، وكان قد أرسل قوة كبيرة بمؤنها ومدافعها وذخيرتها لتقابله فى مكان معين فى الطريق ، غير أن سعودًا التقاها فوقعت غنيمةً باردةً فى يده بعد قتال شديد فى جِزْع على مرأى من العاصمة تقريبًا .

وبعدئذٍ دخل سعود الرياض دون أية مقاومة ، فأعمل فيها يد النهب والسلب ، وكذلك جرى فى القرى المجاورة ، وأصبح سعود الآن هو الحاكم الفعلى فى نجد بدلاً من أخيه الهارب ، خصوصًا حين لبى زعماء المدن والقبائل دعوته فى الحضور لتأدية اليمين على الطاعة والولاء لنظامه الجديد .

وفى حزيران كان سعود متأهبًا على رأس جيش كبير من البدو والحضر، لمطاردة عبد الله وحلفائه من قبيلة قحطان ، الذين نزلوا عند آبار أنجل ، ثم انتقلوا إلى واحة برة ، بعد أن مر بها سعود فى طريقه لاحتلال إقليم الوشم ، ونَمى الخبر إلى سعود ، فعهد إلى عمه عبد الله

بن تركى لحمايه شقرا وكر راجعًا لمقابلة العدو فى بُرَّة فكسر عبد الله شر كسرة وهرب مع حلفائه إلى الرويضة فى منطقة العارض ، ومن هناك توجه إلى الإحساء ؛ لينضم إلى الحملة التركية ، التى كانت قد انطلقت من البصرة فى حزيران ، ووصلت إلى الهفوف عن طريق القطيف ، حيث أطلق قائدها فاروق باشا ، محمدًا بن فيصل من السجن ، وفى القطيف طرد الأتراك الوالى الذى عينّة سعود وأعلنوا أنهم جاءوا بطلب من عبد الله لمساعدته ضد أخيه المتمرد. وقد جاءوا فى الواقع ، ليبقوا فى البلاد ، وكان عبد الله أسيرهم ، وإن كان يلقى على أيديهم التجلة والإحترام .

كان مقدم الأتراك بلا ريب السبب فى عودة سعود إلى الرياض بعد معركة بُرَّه ولم يكن أهلها قد نسوا المعاملة الفظيعة التى كانوا يلقونها على يديه ، قبل بضعة أشهر، فشجعهم وجود أتراك على مقربة منهم ، على أن يثوروا على ملكهم الجديد ، حالما صرف جنده الذين رافقوه إلى بره . فحاصره المواطنون في القلعة بضعة أيام ، إلى أن قبل إنذارهم النهائى بمغادرة الرياض مع أتباعه.

وقد خرج سعود من القلعة ذليلاً، فتوجه إلى دلم حاضرة إقليم الخرج ، بينما سيطر عمه عبد الله بن تركى على الرياض ، وما كان سعود ليظل عاطلاً عن العمل ، فها هو يصل أصدقاءه من القبائل فى الإحساء ويأخذ فى الإغارة على القرى المنعزلة ومزارع النخيل ، وقد هاجمه الأتراك حين علموا بأفعاله وهزموه شر هزيمة فى معركة خُويرة ، وكان عبد الله نفسه حاضرًا فى هذه المعركة . .

وأخذت الشكوك فى نوايا الأتراك تساور عبد الله ، إذ وصلت إلى عقير إمدادات كبيرة جدًا لجيش الإحساء ، كما أخبره ضابط تركى بوجود مؤامرة للقبض عليه ، وطرده من البلاد مع بعض أفراد عائلته ، كى تخلو الطرق لإعادة الإحساء إلى الأمبراطورية العثمانية ، وكان هذا يتفق مع سياسة مدحت باشا الصريحة فى العالم العربى ، ومن المؤكد أن المؤرخ النجدى لا يخالفه التوفيق حين يذكر أن مدحت باشا قد جاء بنفسه على رأس إمدادات كبيرة لتحقيق مآربة ، فالواقع أنه لم يفعل .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجد عبد الله نفسه واقعًا فى شرك يصعب عليه الخلاص منه، غير أنه وابنه واخاه تمكنوا من الفرار رغم الحراسة ، بواسطة حيلة بارعة أثناء فسحة الظهيرة. وقد واصلوا الليل بالنهار فى سيرهم . سالكين دروبًا ومسارب غير مطروقة ، حتى وصلوا إلى الرياض نفسها ، وسط هتاف الشعب وتهليله .

وها هو يعود الأن ولم يمر على فراره من العاصمة بعد معركة جودا سنة واحدة دارت فيها الدوائر على أخيه ، بفضل سلسلة من الظروف التى لم يعمل لها ولم تكن له يد فيها .. هاهو عبد الله يعود بعد أن قامر بأهم أقاليم دولته فخسره .

ومرة أخرى وجد سعود نفسه شريدًا ناشطا فى إثارة اللأقاليم الجنوبية ، علـه يحظى بالمساعدة من أهلها . فانضمت إليه الدواسر والأفلاج بأعداد كبيرة . وأخذ عبد الله يفكر فى منع زحف من جانبه على الرياض ، فأرسل أخاه محمدًا وعمه عبد الله بن تركى على رأس قوة كبيرة لإحتلال دلم . لكن سعودًا بادر إلى محاصرة المدينة ، فاستسلمت له بسبب خيانة أهلها الذين أنهكهم الضيق والحرمان ، وتمكن محمد من الهرب .

أما عبد الله بن تركى فقد أُخذ أسيرًا وتوُفى فى إحدى زنزانات سجن دِلَم بعد بضعة أيام من أسْره .

لم يكن هنالك انسجام بين عبد الله وبين سعود ، إلا أنه فيما يبدو كان العامل الوحيد ذا النفوذ فى غضون سنوات الفوضى التى تلت وفاة فيصل .

جرت هذه الأحداث فى كانون الثان سنة ١٨٧٣ على ما يظهر .

وبعد زهاء الشهرين كان سعود فى طريقه إلى الحرب فأنزل بضرمى وحريملة ما تستحقانه من عقاب ، ثم سار نحو الرياض نفسها . وقد خرج عبد الله لمقابلته فكان النصر حليف سعود فى معركة الجزْع الثانية ، مما جعل عبد الله يهرب مع حرسه باتجاه الكويت ليقضى فترة أخرى من النفى بين قبائل قحطان عند آبار الصبيحيّة ، وملَك سعود بدلاً منه فى الرياض حيث تقاطر عليه أعيان الرياض وزعماء المناطق المجاورة ليجددوا له الطاعة والولاء للمرة الثانية .



معركة الجزع الثانية

وقد وجد سعود نجدًا كلها مليئة بالفوضى والاضطراب ، فكان عليه أن يجاهد كثيرًا فى سبيل استقرار الأوضاع القلقة التى ماكان أسهل على أى عدو أن يعكر صفوها فتنقلب على سعود .

ولا بد أنه أدرك خطورة الأحداث التى جرت فى حايل فى أواخر عام ١٨٧٢ عندما قام محمد بن رشيد فثأر من قاتل أخيه ، وتفصيل ذلك أن بندر بن طلال . وفاءًا منه لعهد على نفسه فى الرياض ، قد عين محمدًا فى منصب المشرف على قوافل الحجاج بين العراق ومكة ، وكان هذه المنصب مهمًا ومربحًا ، وقد حدث بينما كان محمد عائدًا من الحدود العراقية بعد أن

سلم ما كان بعهدته إلى السلطات التركية ، فخرج بندر بنفسه مع أمراء العائلة الحاكمة لمقابلته، وسخط بندر وأرعبه العدد الكبير من رجال قبائل الظافر الذين كانوا يواكبون محمدًا.

وقد ساد الاجتماع الذى يتم بين العم وابن أخيه شيء من الفتور ، فلم يطمئن أى منهما للآخر .. وهاهما الآن يتواجهان . كان زمام المبادرة فى يد محمد فحمل عليه وقتله بسيفه محافظًا بقدر إمكانه على قواعد الفروسية العربية . لقد قُتل القاتل بيد الشخص الوحيد الذى يحق له أن يثأر للضحية ، وكان لبندر خمسة إخوة ، فتم البحث عنهم وقُتلوا جميعًا ، عدا طفل اسمه نايف ، فقد أبقى على حياته مع طفل آخر من أبناء بندر من أرملة متعب التى تزوجها بندر بعد أن قتل زوجها .

وكان هذا الطفل واسمه عبد العزيز بن متعب هو الذى خلف محمدًا فى الإمارة إذ ظلّ محمد عقيمًا ، هكذا زالت اللعنة التى حلت بعائلة رشيد لانتحار طلال ولكن بإقصاء جميع أبنائه عن الحكم .

لقد قال لشارلزدوتى أثناء سياحته بعد ذلك ببضع سنوات : «صحيح أن محمدًا قد اقترف جرائم لم يسبق لها مثيل فى العالم ، ولكنه حكم بشدة وحزم لم تعرفها الدولة من قبل» ، ولقد أبرزت هذه الحادثة التقدير المبكر لمزاياه ومواهبه ، إذ كان مقدّرًا لحايل أن تصبح حاضرة لإمبراطورية عربية فترة من الزمن .

وفى حزيران من سنة ١٨٧٣ كان سعود فى طريقه إلى الحرب يبحث عن قبيلة عتيبة فى مرتفعات نجد ، فوجدهم نازلين عند آبار طلال ، وكانت المعركة بادئ الأمر فى صالحه ، إلا أن رجال القبائل شعثهم وتلقوا إمدادات كثيرة ، فدارت الدائرة على سعود ، وتكبد خسائر فادحة فى الأرواح والأموال . وقد استعاد أنفاسه فى الخريف من ذلك العام ، فعاد إلى أراضى عتيبه حينذاك ، إلا أن المؤرخين لا يذكرون شيئًا عن نشاطه هناك .

وفى هذه الأثناء بدأ الاضطراب يذرُ قرنْه فى الإحساء حيث وصل إليها عبد الرحمن بن فيصل الأصغر ، قادمًا من بغداد فى تشرين الأولى سنة ١٨٧٤ . ويجوز أنه قصد الأتراك كمندوب عن عبد الله بعد هربه للمرة الثانية من الرياض إلى الكويت ، إلا أن هذه الحقيقة ليست مذكورة فى كتب المؤرخين .

ومهما يكن فإن عودته كانت ذات أثر فى إحداث ثورة عامة ضد الحامية التركية فى الهفوف ، حيث قتل حرس الأبواب واستولى عنوة على حصن خزام الجديد .

غير أن القوة التركية الرئيسية تحصَّنت فى (قلعة) الكوت وصمدت للمحاصرين ثم وصلتها من العراق قوة مؤلفة من الجنود النظاميين والبدو ، بقيادة زعيم المنتفك ناصر السعدون الذى كان يتولى منصب حاكم الإقليم آنذاك ، فخرج عبد الرحمن لمحاربتهم .. وكسروه شركسره ، فتعرضت الهفوف لموجة عربدة من النهب والسلب والتقتيل ، أما العناصر الشيعية فى المدينة فلم يحدث لها أذى، إذ هاجم الأتراك والبدو كلَّ من اشتبهوا أن له علاقة بالوهابيين .

وكان ذلك انتقامًا منهم للأتراك الذين لاقوا حتفهم من قبل .

وقد قُتل فى تلك الأيام عدد كبير من الناس . أما الغنائم فكانت هائلة لا يمكن إحصاؤها ، وقد نجا زعماء المدينة وأعيانها بفرارهم إلى البحرين بعد المعركةبساعات ، بينما هرب عبد الرحمن وأتباعه إلى الرياض ، فوصلوا إليها فى الوقت المناسب لاستقبال سعود الذى عاد مريضًا بعد غارة قام بها على جوار حريملة وكان ذلك قبل وفاته فى السادس والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨٧٥ .

وهكذا إنتهت مرحلة مؤسيةٌ مضطربةٌ فى تاريخ العائلة المالكة السعودية هذا مع العلم بأنه قد قُدِّر لأبناء سعود وآبائهم من بعدهم أن يعانوا البلاء الكثير من جراء الكوارث والمؤامرات التى شهدتها تلك الفترة لعدة سنوات .

واستولى عبد الرحمن على الحكم فى العاصمة ، باسم عبد الله الذى كان غائبًا مع أخيه محمد فى جهات الكويت ، وكان عبد الله قد أرسل محمدًا للاستيلاء على إقليم الوشم فأمضى محمد هناك بضعة أيام أقر فيها الأوضاع فى شقرا ، ثم توجه إلى ثرمدة ويبدو أنه أسىء فهم هذه التحركات فى الرياض ، لذا سارع عبد الرحمن ومعه سعود ، وخرج من الرياض على رأس قوة من الأهلين والبدو، فحاصروا محمدًا وحلفاءه فى ثرمدة حتى نشب بين الجماعتين قتال خسر فيه الطرفان بعض الأرواح .

وبعد مدة قصيرة تم عقد هدنة بين الطرفين وعادت العلاقات الودية إلى مجراها ، حين وضع محمد نفسه تحت تصرف أخيه الأصغر، بعد أن سلم إليه أسلحته ورواحله ، ومن

الممكن فى هذه المرحلة أن يكون عبد الرحمن قد بدأ يفكر فى جلب الناس إليه فرصة للعمل لمصلحته ، إذ كانت خطوته التالية هى السير نحو دوادمى ، إلا أنه التقى فى طريقه بزعماء عتيبه الذين كانوا قد عزموا على أن يثبتوا أقدامهم هناك وكان النصر حليفهم فى الميدان .

ولدى عودته إلى الرياض وجد عبد الرحمن نفسه فى متاعب مع أبناء سعود ولم يكن من تلك الطينة التى يبرز منها الأبطال فى التاريخ أو رجال الحكم ، وأن وجد فيها ابنه فيما بعد مستشارًا صائب الرأى فقد دفعته تصرفات أبناء سعود إلى ربط مصيره بمصير عبد الله . فلحق به فى الطرف الشرقى من الصحراء تاركًا الرياض تحت رحمة أبناء أخيه .

وحينئذ سار عبد الله بصحبة عبد الرحمن على رأس قوة كبيرة من البدو إلى الرياض ، وهاجمها . فانسحب المطالبون بالعرش بدونه إلى دِلمْ . وجلس عبد الله فى بلاطه للمرة الثالثة ليتقبل التهانى وفروض الولاء من رعاياه . وكانت هذه هى المرة الثامنة التى تنتقل فيها السلطة العليا فى الرياض منذ وفاة فيصل ، قبل أحد عشر عامًا .

أما تاريخ بداية وانتهاء هذه المتقلبات فليست مدونة بضبط فى جميع الأحوال ، إلا أنها تبدو كما يلى :

عبد الله الثانى ابن فيصل	٢/ ١٢/ ١٨٦٥	إلى ٩/ ٤/ ١٨٧١
سعود الثالث ابن فيصل	١٠/ ٤/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ٨/ ١٨٧١
عبد الله بن تركى	١٥/ ٨/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ١٠/ ١٨٧١
عبد الله الثانى ابن فيصل	١٥/ ١٠/ ١٨٧١	إلى ١٥/ ١/ ١٨٧٣
سعود الثالث ابن فيصل	١٥/ ١/ ١٨٧٣	إلى ٢٦/ ١/ ١٨٧٥
عبد الرحمن بن فيصل	٢٦/ ١/ ١٨٧٥	إلى ٢٨/ ١/ ١٨٧٦
أبناء سعود الثالث ابن فيصل	٢٨/ ١/ ١٨٧٦	إلى ٣١/ ٣/ ١٨٧٦
عبد الله الثانى ابن فيصل	٣١/ ٣/ ١٨٧٦	إلى

كان بين الزوار الذين وفدوا على عبد الله بهذه المناسبة إبراهيم بن عبد المحسن بن مدلج من عشيرة عليّان فى بريدة ، جاء يطالب بترضية منصفة وتعويض معقول عن اغتصاب زعامة المدينة من يدى عائلته لصالح عائلة « أبى الخيل » المنافسة لها . ففى السنة المنصرمة كان زعيم هذه العائلة مهنا الصالح أبا الخيل أميرًا على المدينة ، فاستغل منصبه وطرد بعض أفراد أسرة عليان لاشتباهه إنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله . ولجأ المطرودون مؤقتًا إلى عنيزة ، ثم عادوا إلى بريدة ، حيث كمنوا لمهنًا وقتلوه عند مغادرته بيته إلى المسجد يوم الجمعة . ثم استولى القتلة على قلعة الحكومة ، فهاجمهم أنصار الأمير المغدور بقيادة ابنه حسن وحاصروهم وضيقوا عليهم الخناق ، وتولى حسن الإمارة فى الحال .. فقتل زعيمين من أسرة «أبا الخيل » رميًا بالرصاص ، وتابع هجومه على المحاصرين بعناد ، وقد نجح رجاله فى وضع لغم تحت البرج الرئيسى، فانفجر اللغم ودمر البرج ، ودُفن معظم الذين كانوا فيه تحت الأنقاض أو أسروا فقتلهم المهاجمون.

وهكذا ثأر حسن لقتل والده وانتقم من قاتليه .

وكان إبراهيم ضيف عبد الله غائبًا عن بريدة فلم يشترك فى الثورة . ومع هذا فقد ألقى حسن آنذاك القبض على والده وأخويه وسجنهم بتهمة اتصالهم بعناصر من عنيزة ، إلا أنهم فروا ليلاً من سجنهم ، وما كادوا يفعلون ذلك حتى لحق بهم حسن وذبحهم جميعًا فيما عدا مدلج (الأخ الأصغر) الذى كتب له النجاة ليروى القصة .

وقد وافق ملك الرياض عبد الله ، على مهاجمة حسن المهنا للاقتصاص منه . فوصل فى الوقت المناسب إلى عنيزة على رأس قوة كبيرة لينفذ قراره. وفى هذه الأثناء لجأ حسن إلى محمد ابن رشيد طالبًا إليه مساعدته فى صد هجوم الرياض ، فسارع ابن رشيد إلى مد يد المعونة إلى حسن .. ودخل بريدة . وكان هذا ما أطفأ حماس عبد الله وجعله يقفل راجعًا إلى عاصمته دون أن ينجز شيئًا. ومن شأن هذا الحدث أن يظهر نوعية التحالف القائم بين حايل والرياض وخططهما ، لقد كانتا على غير وئام .

وسرعان ما قام حسن بن مهنا بموافقة حامية ابن رشيد وتشجيعه بالهجوم على الأراضى السعودية ، فداهم مدينة شقرا إلا أنه انكسر على أبوابها ، وكان ذلك خلال أشهر

الربيع سنة ١٨٧٧ . ولكنه فى زمن لاحق من نفس السنة انضم إلى محمد بن رشيد فى إغارته عتيبة فى نفس المواقع ونهبوا محاصيل قرية عشيقير (أشيْقِر) التى سبق أن اضرت بها غزوة الجراد . واستولوا على التمور الناضجة فى مزارع النخيل الواسعة فيها .

وجاء دور عائلة عليان لتجرب حظها مع ابن رشيد بعد أن فشلت فى مسعاها مع الرياض ، إلا أن أعضاء وفدها الثلاثة الذين قاموا بزيارة ابن رشيد ، ومنهم إبراهيم بن عبد الحسن نفسه ، وقعوا فى كمين نصبه لهم حسن المهنا فى أبقارية فى طريق عودتهم من حايل إلى عنيزة .

أما الحدث البارز الوحيد الذى وقع فى سنة ١٨٧٧ . فكانت موت شريف مكة عبد الله ابن محمد بن عون ، وتولى أخيه حسين مكانه بعد أن استبعد ولديه عليًا ومحمدًا من الحكم . ولا يذكر ابن عيسى شيئًا عن زيارة شارلز دوتى للقصيم خلال هذه السنة ، ويقول : إنه لم يحدث فى نجد أى شئ مهم خلال الأربع سنوات ما بين ١٨٧٨ إلى ١٨٨٢م .

ولنعد الآن إلى عبد الله فى الرياض .. فلم يكن بمقدوره أن يفعل شيئًا لإعادة أمجاد عائلته المتضائلة بعد أن ضاعت منه الإحساء للأتراك ، وتستقل القصيم فى ظلال حماية محمد ابن رشيد هذا بقطع النظر عن وجود أبناء سعود والساخطين فى إقليم الخرج .

أما من ناحية ابن رشيد ، فقد كان مهتمًا بتثبيت نفوذه وتوسيعه إلى الشمال ، حتى واحة الجوف ووادى سرحان . وكان الأتراك قد بدأوا يدخلون إليها بمساعدة ظاهرة من عشيرة الرُوَلة وزعيمها سام بن شعلان ، وقبل هذا الزمن كانت قوة تركية صغيرة قد تمركزت فى الجوف ، وفقًا لاتفاقية صورية مع محمد بن رشيد . إلا أن سوء تصرف هذه القوات ، أثار السكان المحليين فأجبروها على التراجع ، وعلى العموم بقيت الواحة موالية لحايل فوسّع محمد نفوذه شيئًا فشيئًا إلى وادى سرحان ، وحتى حدود حوران .

* * *

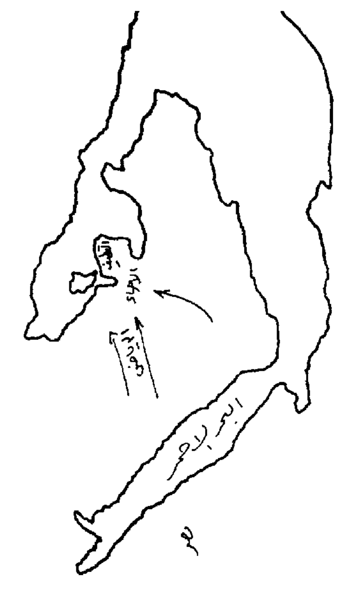
كان محمد بلا شك رجل الجزيرة العربية القوى فى هذه الفترة . فبعد أن أوقف التوسع التركى فى الشمال منع كل تدخل للأتراك فى شئون الإحساء والحجاز ، وكان فى الإقليمين تذمر شديد من صرامة الحكم التركى ، وكان من سوء حظ الشريف حسين أن يقع ضحية

ضحية التذمر ، فقد قتل ذلك الرجل سنة ١٨٨٠ بسبب رضاه عن الوضع فى البلاد ، وانتهز الأتراك فرصة هذا الحدث لإجراء تغيير عائلى فى تولى إمارة مكة فاستدعوا عبد المطلب ابن غالب ، من عائلة ضاوى زيد الذى كان قد تولى المنصب من سنة ١٨٥١- ١٨٥٦، ونصبوه أميرًا . إلا أنه سرعان ما ثبت عقم هذه التجربة فى إرضاء الحجازيين ، فخلعه الأتراك من الإمارة سنة ١٨٨٢ وعينوا مكانه عون آل رفيق ، وكان هذا أخًا آخر للشريف حسين الذى قتل . وقدر له أن يشهد بداية مد الخط الحجازى فى أوائل القرن العشرين وإن لم يشهد إنجازه. فقد حكم حتى وافته المنية سنة ١٩٠٥ تاركًا ورا ءه سمعة طيبة لظرفه وكفا ءته .

أما من ناحية عبد الله فقد أخذ محمد بن رشيد يلعب به كما تلعب القطة بالفأر قبل أن تجهز عليه وتلتهمه . وكان جل ما فعله محمد أن ترك فريسته المقضى عليها بالفناء تشق طريقها إلى حتفها بظلفها . وليس يعنى هذا أن محمدًا أطلق لخصمه العنان فى الاستفادة من مكائده السياسية ، كلا، لقد أحسن محمد تقدير قوته الحربية وتوصل إلى تفاهم مع الشخصيات البارزة فى معظم الأقاليم الواقعة فى دولة عبد الله المتصلة ، وذلك لمواجهة أيه أزمة قد تنشأ فى المستقبل.

وخير مثال على ذلك ما تمّ فى إقليمى المجمعة والسدير اللذين ثارا لتحقيق استقلالهما سنة ١٧٧٢ . فحشد عبد الله عشائره فى العارض ، وجنود عتيبه للزحف على إقليم المجمعة . وطلب المجمعيون المساعدة من ابن رشيد وفقًا لوعد قطعه لهم فى السابق ، فأجاب محمد طلبتهم فى الحال ، وجلب قوة كبيرة إلى بريدة ، وهناك انضم إليه حسن المهنا وجيش القصيم، فتقدم مع حلفائه حتى وصل إلى زلفى، و كان من نتيجة ذلك أن تراجع عبد الله إلى الرياض لدى سماعه بخبر قوات محمد ، بعد حصار عظيم ضربه على المجمعة طوال أربعين يومًا . وأمضى محمد بضعة أيام فى المجمعة يُصرِّفُ أمورها ، ثم عين أحد سكان حايل واسمه سليمان بن سامى (صامى) حاكمًا على المدينة نيابة عنه وعاد إلى بلاده ، وهكذا أضاف محمد دون تفاخر ولا استعلاء إقليمًا آخرًا إلى دولته .

وقد كان يجب أن تكون هذه الحادثة إنذارًا كافيًا إلى عبدالله ، ولكن هذا تجاهلها فى سبيل لقاء آخر مع القدر فى حينه ، كما سنرى .



موقعة مطير «تركز العمليات العسكرية فى الجبهة الشرقية من شبه جزيرة العرب»

وصدف أن تحدى فرع من عائلة سعود ، سلطان ابن رشيد المتزايد فى نجد ، وقدمتا قبيلة عتيبة معظم القوات التى حشدها محمد ، أكبر أبناء سعود لهذه الغاية وتمركزت هذه القوات على آبار أروى فى مقاطعة العارض . فهاجمتها قوات مشتركة من جيش ابن رشيد وحسن المهنا ودحرتها. فانسحب محمد إلى الخرج ليعد حملة أخرى فى نفس الفصل (ربيع سنة ١٨٨٣). ولكنه لم يهاجم ابن رشيد بل قبيلة مطير فى الصحراء الشرقية ، فكأنه أراد أن يعوض عن الخسارة السابقة بالغنائم الكثيرة من الجمال والمؤنة التى استولى عليها الآن . وقد

قتل أخوه عبد الرحمن فى موقعة مطير هذه ، فزاد ذلك من أستقرار الأوضاع فى ديار ابن رشيد .

كان شتاء ١٨٨٣ - ١٨٨٤ غزير الأمطار ففاضت الوديان وانتعش الناس وسار عبد الله إلى الميدان فى أول كانون الثانى محاولاً إخضاع أهل المجمعة ، ومن قاعدته المتقدمة فى شقرا أرسل يستدعى العشائر الموالية له كى تحتشد فى سهل حمادة ، فى مراعى أم العصافير المرعة ، وحينئذ برز إلى الوجود ذلك التحالف المعهود بين حايل وبُريدة ، للدفاع عن محميّتهم .

وقد انتهت المعركةالتى نشبت باندحار عبد الله وحلفائه وهزيمتهم هزيمة منكرة ، وبقى محمد بن رشيد فى حمادة ليعيد تنظيم إدارة المناطق فى كلا الجانبين . فأصدر أوامره إلى المواطنين البارزين فى مدن الوشم والسدير وقراهما للاجتماع إليه وتنفيذ أوامره ، ويقال : بأنه عين حاكمًا لكل قرية من قرى كلا الإقليمين . وكان هذا أول اصطدام مسلح فعلى يقع بين السيد وتابعه . وتدل أعمال محمد بعد هذه المعركةعل أنه كان يتوقع تغير فى الأوضاع والمركز بينه وبين عبد الله ، ويذكر المؤرخ النجدى (الوهابى) فى هذه الآونة أن ابن رشيد بدأ يطمع فى مملكة نجد ، يشجعه فى ذلك أصحاب المصالح والمنافع .

وفى أواخر شهر آب سنة ١٨٨٤ انتبه صاحب الرياض لما يجرى وراء ظهره ، فأرسل أخاه محمدًا إلى حايل يحمل رسالة ودية إلى ابن رشيد ، فاستقبله هذا الأخير بالإجلال والاحترام وأعاده إلى الرياض فى الحادى والعشرين من تشرين الأول وهو يحمل هدية تليق بالأمراء ، كما أعاد إلى عبد الله فى الرياض كلاً من الإقليمين اللذين كان ضمهما إلى أملاكه فى السنة السابقة .. فقد كان ابن رشيد موقنًا أن هديتّه ستعود إليه بالفائدة المركبة فى حينها.

وكانت الخلافات والمنازعات قد بدأت تفعل فعلها فى الأراضى التى يحكمها عبد الله ، لقد لاحت النهاية فى الأفق ، وبدت تباشير انتصار ابن رشيد تُفصح عن نفسها . ومن سوء الحظ أن المؤرخ إبراهيم بن عيسى قد توقف عند هذه النقطة فلم يدوّن شيئًا. وقد ذكر أحد الكتاب فيما بعد ، أن قصة الثمانية والثلاثين عامًا التالية قد مُنع تدوينها رسميًا . فمن الآن وصاعدًا لا بد أن نتبع دليلاً آخر فى معمّيات التاريخ الوهابى المعقد ، وإن كان هنالك من الأسباب المعقولة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن مصنَّف عبد الرحمن بن ناصر، المسمى «السعد والمجد» يؤلف الجزء المفقود من قصة سلفه ، وإن كان ذلك التصنيف قد تعرض لتحريف

وتغيير سطحيين وتصحيحات هامشية على الحواشى ، فالأسلوب واحد ، والأجزاء الملغاه التى من السهل قراءتها فى الخطوط ، تنمُّ عن حقيقة أسلوب ونمط مؤلفه بالرغم من الذى بذله الكاتب الجديد لتغيير معالم الصورة . ومع ذلك فلدينا المخطوطان وبإمكاننا أن نختار منهما ما نشاء .

ومهما يكن من أمر ، فبعد أن ينقل المؤلف الجديد حرفيًا سجل سلفه للأحداث التى جرت خلال سنوات عديدة سابقة وحتى النقطة التى وصلنا إليها ، يبدأ ملحقه بسنة ١٣٠٣ هجرية التى بدأت (فى العاشر من تشرين الأول سنة ١٨٨٥) بإلقاء القبض على عبد الله وسجنه فى الرياض على أيدى أولاد أخيه أبناء سعود الذين استلموا زمام الحكم فيها.

وكانت هذه فرصة محمد بن رشيد لإظهار صداقته لعبد الله ، وبسط سلطانه على ما تبقى من الدولة الوهابية . وهذا ما هدف إليه حين توجه إلى الرياض على رأس جيش كبير. وقد انسحب أمامه أبناء سعود إلى الخرج فدخل ابن رشيد المدينة وأطلق سراح عبد الله من سجنه وأخذه إلى حايل لتأمين سلامته ، وعيّن سالم الصَّبحان حاكمًا للرياض ، وهو ضابط من أكثر ضباطه إخلاصًا وكفاءة وإقدامًا ، وتختلف الكتب التاريخية بصدد ما إذا كان عبد الرحمن بين الذين نقلوا إلى حايل فى الوقت نفسه ، ومن المحتمل أنه لم يزرها إلا بعد ستين عندما قصد لزيارة أخيه ، ولا تذكر تلك السجلات التاريخية شيئًا عن مكان إقامة محمد بن فيصل فى هذا الوقت . ولا نسمع عنه شيئًا حتى الربع الأخير من سنة ١٨٩٠ عندما ظهر فى الرياض . وربما أنه ظل هناك طوال مدة غياب عبد الله فى حايل .

وفى غضون خريف عام ١٨٨٦ الذى جاء بعد ربيع غزير الأمطار ، حدثت اضطرابات فى الخرج بين أبناء سعود والسكان المحليين ، فلجأ الأهلون إلى سالم الصَّبحان لإنصافهم ، وقد أرسل سالم فرقة من الجيش بقيادة شُنَيْف لمعالجة الوضع ، فقتَل الأخيرُ ثلاثةً من أبناء سعود ، وهم : محمد وعبد الله وسعد حسب خطة مرسومة وتدبير مسبق ، وكان عبد الرحمن، (وهو ابنٌ آخر من أبناء سعود) قد قتل سابقًا فى معركة أم العصافير ، أما عبد العزيز خامس أولئك الإخوة فقد كان فى زيارة لحايل ، حيث زج به ابن رشيد فى السجن بصورة مؤقتة ، أما ابن سعود وهو طفل كان فى الثانية من عمره آنذاك ، فقدر له أن يضايق ابن عمه ، الملك الراحل ، (الملك عبد العزيز) بمطالبته بالعرش فى مطلع القرن العشرين مع أنه أصبح من أقوى مؤيديه فيما بعد .



خريطة امتداد الحكم الوهابى وسيطرته على مناطق شاسعة من شبه الجزيرة فى هذه الفترة سنة ١٨٩٩

كانت الأمطار غزيرة أيضًا فى السنة التالية فخرج ابـن رشـيد للغـزو فى أراضى قتيبـة ، وصادف القبيلة محتشدة بكثرة وقوة عند أروى ، أى نفس المكـان الـذى جـرت فيـه المعركـة السابقة سنة ١٨٨٣ .

ويبدو وصول حسن المهنا مع جيش قوى من القصيم مكّن ابن رشـيد مـن أن يـسحق البدو ويستولى على قطعان ماشيتهم وخيامهم .

وجاء الخريف التالى سنة ١٨٨٧ أيضًا وافر الأمطار خصب المراعى ، فوجه ابـن رشـيد غزواته الرسمية المعتادة على قبائل العجمان مصطحبًا معه حسن المهنّـا أ يـضًا . وكـان تـاريخ السنة التالية مشابهًا لسابقتها مع فارق واحد ، وهو أن عتيبة كانت ضحية غاراته فى هذه المرة.

وقد طرد ابن رشيد نائبه على الرياض من منصبه بناءًا على شكاوى مفجعة وردت بحقه من أهالى المدن ، واختار مكانه فهّاد بن راخص الذى كان يمتاز بالرصانة والمرونة .

وفى خلال فصل شتاء سنة ١٨٨٩ - ١٨٩٠ كانت غارات ابن رشيد تتميز بطابع الطموح ، فأوغلت حتى نفذت إلى أراضى بللى وجهينة فى الحجاز ولدى عودته من هذه الحملة وجد ضيفه عبد الله بن فيصل فى مرض الموت فوافق فى الحال على طلبه العودة إلى الرياض مع أخيه عبد الرحمن . ولم يسمح بعودته فقط بل أعاد إليه جميع حقوقه فى حكم بلاده. إلا أن كرم محمد لم يكن ذا نفع للأمير المريض ، فقد توفى بعد وصوله إلى الرياض بقليل ، فى الرابع والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨٨٩ . وكان قد انقضى عشرون عامًا منذ خلف والده الفذ على عرش بلاده كوارث شرعى للدولة الوهابية التى امتدت من جبل شمر حتى ساحل عُمان . ومن الخليج الفارسى حتى الحجاز وحدود اليمن ، وقد بدد بعجزه وعدم جدارته هذه التركة الواسعة ، فلم يتورع عن طلب المعونة الأجنبية لتثبيت عرشه المتداعى، وكانت النتيجة أن ضم أولئك الأجانب لبلادهم المقاطعات التى جاءوا من أجل إنقاذها ، ولم يبق فى يد المستنجد بهم غير منطقة العارض ، وسلطة اسمية على الوشم والسدير عندما نقل إلى حايل لتطول سنواته الأخيرة فى المنفى .

ولقد قضى عبد الله ثلث مدة حكمه لاجئًا لا وطن له ، أثناء ما حكم الآخرون مكانه فى وسط دولة متفككة منحلة ، ومع كل هذا كان عبد الله رجلاً يمتاز بسحر ودمائة خلق ، وإن كان تاريخه يشهد على أنه كان امرءًا تنقصه الحكمة والدهاء .

وكان من حظ أخيه الأصغر البالغ من العمر الأربعين عامًا أن يرأس مأتم إمبراطورية والده ويشرف عليه . فلم يتردد لدى موت أخيه فى أن يحل محله بالرغم من وجود أخيه الأكبر محمد ، الذى كثيرًا ما لعب دورًا بارزًا فى الحملات العسكرية التى جرت فى زمانه . غير أن محمدًا فيما يبدو ، لم يكن ذا مطامع سياسية ، ونقل عبد الرحمن فى الحال نبأ وفاة أخيه لابن رشيد وأعلمه عن تسلمه زمام السلطة طالبًا إليه فى نفس الوقت إبعاد (فهاد بن راخص) ممثل آل رشيد فى الرياض ، ووافق ابن رشيد على هذا الاقتراح الذى لم ينص على عدم استبدال رجل بآخر، وأعاد تعيين سالم الصَّبحان - الشرس الطباع - ليمثله فى حاضرة الوهابيين ، ويعتقد الرواة أنه لم يعمد إلى ذلك إلا ليراقب الحاكم الجديد مراقبة شديدة .

ولا تورد السجلات المتوفرة تاريخ وصول سالم ، ولكنها تذكر مع وصفها احتفال عيد الأضحى الذى تلا مراسم الحج فى عرفات (٢٩ تموز ١٨٨٩) أن سالمًا طلب المثول بين يدى عبد الرحمن وأفراد العائلة المالكة الآخرين الموجودين فى الرياض لينقل إليهم تحيات سيده المعتادة . وهذه ترتيبات رسمية تغاضى عنها عبد الرحمن ، إلا أنه لمح من تصرفات سالم ما جعله يرتاب بوجود نية الغدر. فما كان منه إلا أن أخذ بزمام المبادرة ، فهاجم سالمًاوضباطه . وذبح البعض منهم حال دخولهم قاعة الاجتماع . غير أن سالمًا فيما يبدو تمكن من النجاة .

لقد وقع الصيد فى الشرك ، وتحدى داوودُ الصغير خصمه جالوت الجبار . أما الذى فاز بالربح فكان الشيطان .

وبادر عبد الرحمن يفحص تحصيناته ويبحث عن الذخيرة وملح البارود وكان الحظ فيما يبدو حليفه بسبب التطورات الجديدة التى حدثت فى القصيم ، فقد أساء ابن رشيد إلى أهل الإقليم لسبب غير واضح يجوز أنه ما كان قائمًا بين بُريده وعنيزة من تنافس مستمر، فأخذ القصيميون يبحثون عن حلفاء لمواجهة ما قد يلحق بهم من متاعب ، فكتبوا إلى عبد الرحمن يعدونه بالولاء ويطلبون إليه العون والمساعدة .

لكن ابن رشيد شرع فى العمل قبل أن يتم التحالف ، فزحف فى الحال على الرياض ، هدفه الرئيسى ، ووجه رسلاً إلى عنيزه يؤكد نواياه الودية تجاه زعمائها وسكانها ، ولدى وصوله إلى الرياض وجد المدينة محصنة تحصينًا قويًا . ليس بمقدوره أن يقتحمها ، فضرب خيامه حولها محاصرًا، ثم أخذ يغير على طرق تموينها وأهالى القرى المنعزلة المحيطة بها مزارع نخيلهم . ويقال : أن جيشه قطع ما لا يقل عن ثمانية آلاف شجرة نخيل .

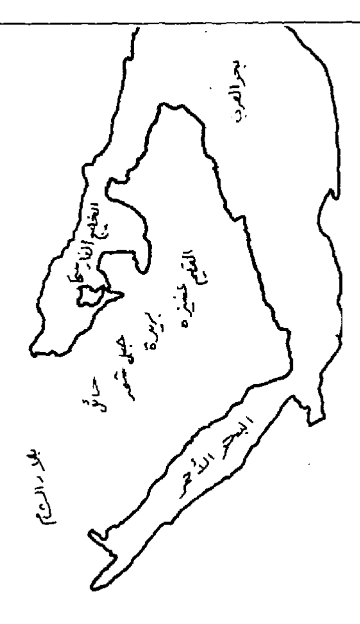
وبعد أربعين يومًا قضاها ابن رشيد فى مثل هذه العمليات العقيمة ، اقترح على عبد الرحمن أن يتفاوضا لعقد الصلح وتسوية الخلافات بالحسنى. فوافق عبد الرحمن على ذلك ، وأرسل وفدًا برئاسة أخيه محمد وعضوية آخرين من بينهم الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قاضى القضاه، وعبد العزيز بن عبد الرحمن البالغ من العمر عشر سنوات ، وهذه أول مرة يظهر فيها الفتى (عبد العزيز) على مسرح قدر له أن يسيطر عليه سيطرة تامة آلت إليه ملكيته .

وقد سُوِّيت المسائل المتنازع عليها بسهولة .. وتم الاتفاق على أن يفك ابن رشيد الحصار عن الرياض ويعود إلى بلاده بسلام ، بينما يستمر عبد الرحمن فى تسلم عرش أجداده.

ومن المشكوك فيه أن يكون أى من الجانبين قد اعتبر الاتفاقية دائمة ونهائية ، فقد أضاع صاحب الرياض جزءًا كبيرًا من بلاده ، فلا بد من استعادته . بينما كان ينقُص الطرف الآخر شيء منها ليصبح حلمه فى الإمبراطورية حقيقة واقعية . وكان عبد الرحمن البادئ فى الإخلال بالهدنة .

قرر ابن رشيد أن يُصفِّى حسابه مع أهل القصيم بعد أن خاب أمله فى الرياض ، وكان حسن المهنا قد اتفق مع زامل السليم زعيم عنيزة ، على تحطيم نير حايل ، لأنه فيما يبدو قد فقد شيئًا من نعومته ، فزحف ابن رشيد على جهات مُليدة وما يجاورها من رمال الضاحى ، الشاسعة (وسط القصيم) بجيش قوى كبير حشده من قبائل شمر وظافر وحرب ، وحتى عشائر المنتفك فى العراق . بينما اتخذ الأحلاف لهم مراكز حول مزارع النخيل فى القراعة (قرعَة) ، واستمرت المناوشات بين الطرفين بضعة أيام تكبدت فيها قوات حايل خسائر أكبر مما تكبد الأعداء ، ثم انتقل ابن رشيد غربًا إلى سلسلة جبال الصُّلْفعَة ، مستدرجًا قوات القصيم إلى أراضٍ منبسطة مكشوفة حيث أصبحت تحت رحمة خيالته المتفوقة . فقُتل زامل بن سُليم فى المعركة التى نشبت هناك مع عشرة أشخاص من وجوه بريدة ، وبلغت خسائر الأحلاف ستمائة قتيل . وهكذا كان انتصار ابن رشيد ساحقًا حاسمًا بكل معنى الكلمة ، وغدا إقليم القصيم تحت رحمته ، فنزل عند آبار الرَّفيعة ليتقبل خضوع المدن والقرى ، واستسلم حسن المهنا الذى جرح فى المعركة فاستاقه وعائلته ابن رشيد أسرى إلى حايل ، حيث توفى حسن بعد ذلك بخمس سنوات ، ثم عين سالم الصبحان حاكمًا على بريدة بدلاً منه، كما عين شخصًا آخرًا من عائلة سليم يدعى عبد الله بن يحيى حاكمًا على عنيزة تحت إشراف سالم ، بدلاً من زامل المتوفى .

كانت معركة مليدة هذه فى الحادى والعشرين من كانون الثانى سنة ١٨٩١ .



معركة مليدة سنة ١٨٩١م

وهكذا بقى محمد بن رشيد ، بلا منازع ، الحكم الفصل فى مقدرات نجد ، وإن كان يفضل العودة إلى بلاده والإخلاد إلى الراحة قبل أن يعالج مشكلة الرياض البسيطة .

لقد أظهر عبدالرحمن نواياه باستعداداته الكبيرة ونشاطه الهائل فى مساعدة حلفائه من أهل القصيم ، إلا أنه تأخر كثيرًا عن المعركة التى طرقت أخبارها مسامعه لدى وصوله إلى جُريفه فى سهل حمادة . فعاد مسرعًا إلى الرياض بعد أن أدرك أنه ليس من صَيْدٍ بعد ، وأخذ يعدُّ العدة للهرب من عاصمته مع عائلته وفى أثناء ذلك راح عبد الرحمن يتجول فى الصحراء

الشرقية فى انتظار جواب عيسى شيخ البحرين على طلبه السماح لنسائه وأطفاله بـاللجوء إلى الجزيرة ريثما ينجلى الموقف . وكان جواب الشيخ بالموافقة فمكن ذلـك عبـد الـرحمن مـن أن يبعد نساءه وأولاده عن مسرح النزاع والاضطراب .

ويبدو أنه جمع أتباعًا من البدو وعاد فعلاً إلى الرياض وإن لم يقصد البقاء هناك .. إذ أنه سرعان ما التجأ إلى حرملة ، وما كاد ابن رشيد يسمع بهذا حتـى سـار إلى بـرّة بجـيش لجـب باغت به اللاجئين إلى حريملة بهجوم عنيف . وكان من حسن حظ عبد الرحمن أنه تمكن مـن النجاة بجلده ، ليهيم على وجهه فى الصحراء من جديد .

وقد كاتب الأتراك فى الإحساء وشيخ الكويت طالبًا الـسماح لـه بالإقامـة فى بلادهـم ، ولكن الأتراك والشيخ رفضا ذلك ، فسار عبد الرحمن فى نهاية هذا العام إلى قطَر حيث أمضى شهرين اتصل خلالها بالأتراك . ووافقت الحكومة التركية أن تعين لـه راتبًـا شـهريًا مقـداره ستون ليرة ذهبية وسمحت له بالإقامة فى أى مكان يختاره فى البلاد الخاضعة لها ، وكـان هـذا بفضل مساعى حافظ باشا متصرف الإحساء. فاختار عبد الرحمن الكويت علّه يـستطيع مـن هناك مراقبة تطورات الأحداث فى نجد ، ويكون بمنجاة من حقد حاكمها الجديد .

سار ابن رشيد لاحتلال الرياض بعد حادثة حريملة .. فدمر سورها الدائر وتحصيناتها، إلا أنه ترك محمدًا بن فيصل أميرًا عليها نيابةً عنه ، غير أن ذلك كان ترتيبًا مؤقتًا لا أكثر ، فلـم تنقض عليه سنة واحدة حتى عين مكانه رجلاً من حايل يسمى عجلان ، وخوّله أمر الـدفاع عن أهل المدينة ، وكان هذا التخويل بناءً على شـكوى الأهلـين مـن أن مـدينتهم قـد غـدت معرضة لغارات البدو بعد هدم السور ، ومن جراء عدم وجود وسائل دفاعية فيها.

والأن أصبح إقليم نجد الوهابى غُفلاً خاملاً لا أهمية له . أليس يسيطر عليه بيتُ مالكٍ أجنبـى ؟ وحتـى تـاريخ ذلـك الإقلـيم أصـبح مجـرد سـجل ديـن يـسرد أسـماء الأمـوات من«الرعيان» وبذكر التعيينات فى الوظائف الصغيرة لحكومة ابن رشيد ، ويبـدو أنـه لم يكـن هنالك ما يشغل ابن رشيد غير الإغارة على القبائل المختلفة . أما ما عدا ذلك فقـد بـدا جـوُّه صحوًا ، ورياح الطمأنينة تهب على بطاح الجزيرة.

ومع ذلك فقد حدث فى الكويت سنة ١٨٩٤ ما جعله يفكر بقلـق .. فقـد قـام مبـارك الصباح فقتل محمدًا بن صباح مضيف عبد الرحمن ، وأخاه « جراح »، وتـولى زعامـة المدينـة وقبائلها . وهو مبارك الذى قدر له أن يمارس نفوذًا واسعًا فى شؤون الجزيـرة العربيـة خـلال السنوات العشرين التى تلت . إذ سرعان ما أدرك أن وجود أمـير سـعودى منفيًا فى مدينتـه عاملاً لا تقدر قيمته فى مجال نشاطه السياسى ، وعلى يديه تلقى عبد العزيز الصغير تدريبـه فى شئون السياسة والحنكة ، وبفضل ذلك التدريب استطاع أن يستعيد مجد آل سعود القـديم فى الرياض والجزيرة .

وهكذا تستمر سلسلة أحداث الصحراء البسيطة مع كر الأيـام ، ومحمـد بـن رشـيد فى مركزه لا ينازعه منازع .

وكان لخسوف الشمس الكلى الذى وقع فى الحادى عشر من تموز سنة ١٨٩٧ أثر فى حمل الناس على توقع كارثة تنزل بهم ، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث ، إلا إذا اعتبرنا وفاة إبراهيم آل عسكر أمير المجمعة بمرض الكوليرا من هذا القبيل !

وفى كانون الأول سنة ١٨٩٧ توفى ابن رشيد العظيم بعد أن عاش عمرًا طويلاً ونال فيه الكثير من المجد ، فخلفه ابن أخيه عبد العزيز ابن متعب بن رشيد وكان هذا أبـا فى الثلاثـين من العمر آنذاك ، وكان مقدرًا له أن يبدد خلال عقد واحد من الزمن تلـك التركـة العظيمـة التى آلت إليه بوفاة عمه .

الفصل التاسع

عبد العزيز الثانى بن سعود

بوفاة محمد بن رشيد أصبحت إمارة الكويت الصغيرة محور سياسة الصحراء وبؤرة للتنافس والتوتر الدولى فى المنطقة . فقد خسر الأتراك بموته حليفًا قديرًا لهم فى أواسط الجزيرة العربية وأدركوا أنه لايمكنهم الاعتماد على خلفه فى حايل . فليس عبد العزيز بن متعب بن رشيد فى مكانة زعماء السعدون فى قبائل المنتفك العراقية أو الشيخ مبارك الصباح ، فى الكويت ، إلا أنه بالمساعدات المناسبة من السلاح والمال يصير قوة نافعة فى المضايقة والإزعاج . وليس من المحتمل أن يكون سعدون باشا قد طمع يومًا ما فى حكم أواسط الجزيرة العربية ، فقد كان فيما يبدو قانعًا بسيادته على القسم الأدنى من العراق ويعتبر الصحراء بؤرة للغارات المعتادة ومسرحًا للمبارزة فى ذلك الزمن .

وكانت هذه النظرة مغايرة لنظرة مبارك ، الذى أخذت تراوده الأحلام فى أن يحتل مكان محمد المتوفى (بانتعال حذائه) ، ووجود أفراد سعود البارزين ضيوفًا عليه فى بلاده . . لقد كانت فى يده الورقة الرابحة ، لكنه لم يستطع التنبؤ بنتيجة المقامرة ووجهتها ، إلا أن ملف ابن رشيد وتجبره على رعاياه شجعا مباركًا وحملاه على التفاؤل ، وكان مازاد فى تفاؤله أن تعهدت الحكومة البريطانية بحماية الكويت ضد أى اعتداء خارجى عليها . فقد أرعب بريطانيا ما شهدته من تحالف تركى ألمانى يستهدف الكويت لمصلحة سكة حديد برلين بغداد .

عندئذ أصبح مبارك طليق اليد يستطيع أن يقوم بمجازفات فى الصحراء ، خصوصًا وأن مفتاحها كان فى حوزته آنذاك ، هذا علاوة عن إمكانية اعتماده على مساعدة عشائر المنتفك له فى الإغارة على أراضى ابن رشيد ، مصدر الغارات على التخوم العراقية .

والواقع أن ابن رشيد هو الذى ابتدر العدوان ، حين قام فى خريف ١٨٩٨ ، بزيارة إلى ضواحى الرياض ليتعرف على سير الأمور فى البلاد ويتقصى رغبات السكان فيها . وليس من عجب فى ذلك ، فقد ظل عمه حاكمًا نافذ الكلمة فيها طوال اثنتى عشرة سنة . وقد وفد أعيان المدينة وزعماؤها الروحانيون لتأدية فروض الطاعة والولاء لسلطانهم الجديد. وبعد أن تحقق لديه أن عجلان حاكم المدينة يسيطر على الوضع فيها ، باشر الإغارة على قبيلة الدواثر فى مقاطعة مروطة .

وفى الخريف التالى وجه أنظاره إلى الشرق فقام باتصلات مع بعض أهالى الكويت الساخطين الذين اختاروا المنفى فى البصرة ، ليمهد بذلك إلى ما كان فى نيته . ولم يتمهل فى الإفصاح عن نواياه تلك ، إذ أنه سرعان ما قام بغارة عادية على بدو الحدود العراقية ثم زحف بجيشه القوى إلى الكويت . وقد قابله حلفاء الكويت من عشائر المنتفك فى الطريق ، فاشتبك معهم ودمرهم .. ثم طاردهم حتى سماوة الواقعة على نهر الفرات ، وتمركز هناك بعض الوقت . وبعدها عاد إلى حايل لقضاء فصل الصيف .

وشهد الخريف الأول من القرن الجديد (العشرين) تطورات أخرى فى الوضع بعد أن كان كل من الجانبين على أتم الاستعداد للمعركة ، فقد نظم عبد الرحمن غزوة على قبيلة قحطان ، وتغلغل حتى إقليم السدير ، ثم عاد يقول بأن الأحوال ملائمة للقيام بعمليات حربية خطيرة أخرى ، بينما عاد ابن رشيد من جانبه فاتجه نحو التخوم العراقية مرة أخرى ، وأمضى فصل الشتاء فى صحراء حجرة ليستفيد من أى تطور قد يحدث . وهناك علم بأن مبارك الصباح قد غادر الكويت واتجه إلى وادى الشوكى وراء رمال الدهناء ، على رأس قوة فيها سعدون باشا وقبائل المنتفك ، وجموع عشيرة الظافر، والأمراء السعوديون أيضًا . وقد انضم إليهم قبائل العجمان ومطير بقوات كبيرة ، ومن هناك وصل إلى بريدة حاضرة القصيم.

فأخذ ابن رشيد زمام المبادرة بلا تردد وارتحل مسرعًا إلى الغاب .

أما الشاب عبد العزيز ، فبعد أن سمح له والده ومبارك ، سار شوكى على رأس جيش قوى أراد به أن يجرب حظه فى الرياض . فدخلها من خلال خرائب أسوارها المهدمة . إلا أنه لم يستطع أن يؤثر فى الحصنين اللذين لجأت إليهما حامية ابن رشيد لتقاوم الحصار . وقد

دارت المعركة الفاصلة فى الواقع فى ميدان صريف بالقرب من بريدة ، حيث ألقى الحلفاء بكل قواتهم وثقلهم ضد ابن رشيد ، إلا أنه كسرهم كسرة ، فتواثبوا أمام جيشه دون نظام .

وحينئذ تتبعتهم قواته ، ولم يجدوا عند أفرادها رحمة ولاشفقة (ومن وقع منهم فى أيدى خصومهم الظافرين على الخصوص) وقد انسحب عبد العزيز بن سعود من الرياض ، عندما بلغته أخبار الكارثه . وبقى ابن رشيد ليحتفل بالنصر بالانتقام من بريدة ومدن القصيم الأخرى انتقامًا وحشيًا ، فى حين أوفد سالم بن الصُّبحان المعروف بشراسته ، ليلقن سكان الرياض درسًا مما ثلاً.

وعاد ابن رشيد إلى خطته القديمة فى الإغارة أثناء فصل الخريف . ويبدو أنه توصل إلى تفاهم مع الأتراك حول مهاجمة الكويت التى تضعضعت مواقعها بعد معركة صريف . فسار الآن على رأس قوة كبيرة إلى حفار البطين . ثم سرعان ماوجد نفسه أمام أسوارجهرا ، وهى قرية فى الطرف الداخلى لخليج الكويت . أما مبارك (الشجاع) فلجأ إلى البريطانيين الذين شرعوا فى قصف معسكر العدو. فانسحب ابن رشيد إلى قاعدته فى حفار البطين بعد حصار عقيم دام أسبوعين . ومن هناك سار إلى حايل لقضاء العطلة الصيفية المعتادة . وها هو قد ثبت له الآن أن انتصاره فى صريف لن يعود ، فقد برزت فى الميدان سفن حربية ، وانتقل زمام المبادرة من يديه إلى أعدائه .

ويبدو أن مبارك وعبد الرحمن بن سعود ، اللذين ملأهما اليأس بعد الهزيمة التى أصيبا بها قبل حين ، لم يجدا فى نفسيهما شجاعة كافية للقيام بأية مجازفات فى الصحراء ، فى الوقت الحاضر على الأقل . ولكن عبد العزيز الشاب ، وهو فى الحادية والعشرين من عمره آنذاك ، كان يتحرق شوقًا لينشط . كما شجعته خبرته السابقة فى الهجوم على الرياض على التفكير بمهاجمتها من جديد. فوافق مبارك وأبوه على خططه الرامية إلى غزو الصحراء فى خريف سنة ١٩٠١ ، ولكن بشىء من الريبة والشك .

وهكذا غادر عبد العزيز الكويت فى أربعين من أصحابه ، وأخذ يحشد أمدادات بدوية فى الطريق .

وكان يغير على القبائل العادية حتى حدود الإحساء (التركية آنذاك) ومشارف السدير. وفى كانون الأول وصل الشاب السعودى إلى مياه حَرَضْ (وهى الأن منطقة بترولية مهمة) حيث استقر هناك طيلة شهر رمضان . وما كاد يفرغ من أيام عيد الفطر الثلاثة حتى شمَّر عن ساعده للمقامرة الكبرى التى بلغت أوجَّها بعد خمسة أيام ، أى فى الخامس عشر من كانون الثانى سنة ١٩٠٢ ، وحينئذ تم احتلال الرياض .

أما تفاصيل تلك القصة الخيالية فقد كررها المؤرخون فى أكثر من تصنيف واحد ، فلا حاجة لروايتها من جديد .

وقد ذبح المهاجمون الحاكم الرشيدىّ عجلان مع عدد كبير من أفراد حاميته فاستولى الذهول على أهل المدينة ، ودهمتهم المفاجأة وخافوا سوء العاقبة فسارعوا إلى تقديم الولاء لفرد من بيت سعود مرة أخرى ، كما فعلوا فى الأيام السالفة .

وفى خلال شهر واحد أعيد بناء الأسوار التى دمرها محمد بن رشيد لتمدَّ أذرعها مطوّقةً الحاضرة الوهابية فتحميها وتدفع عنها العدوان .

كان هم عبدالعزيز الآن أن يؤمن نقل والده وبقية البيت السعودى من الكويت إلى الرياض حيث أعد احتفال فخم لاستقبالهم . وحضر الوالد وأخذ يبحث مع ابنه كبريات المشاكل التى تواجه نظام الحكم الجديد ، فوصلا إلى وضع الترتيب التالى بكل سهولة : وهو أن يحتفظ عبدالرحمن بلقب الإمام ، رأس الأسرة المالكة ، بينما يكلل ابنه رأس الحكومة الفعال وقائد جيشها .

ولم يشكل هذا الوضع الشاذ أية متاعب ، لأن عبدالعزيز كان دائم الرجوع إلى والده فى المسائل الرسمية بينما لم يتدخل الأب فى شئون الدولة وإن ظلت آراؤه مبذولة لابنه بدون تحفظ على الدوام .

هكذا نشأ ذلك التعاون السحرى العظيم الذى يعتمد على المحبة الأبوية والاحترام البنوى ، والذى قدِّر له أن يدوم ، لا يشوبه أى احتكاك أو اختلاف إلى أن توفى الإمام عبدالرحمن سنة ١٩٢٨ وله من العمر ٧٨عامًا . وبما أن عبدالعزيز قضى هذه المدة فى ميدان القتال فقد كان من نصيب الولد أن ينوب عنه فى جميع الأمور الخاصة بالإدارة المركزية فى العاصمة .

لقد أصبح ابن سعود الآن طليقًا بمقدوره أن يأخذ على عاتقه مهمة إستعادة مركز أسرته فى الإقليم ، واثقًا تمامًا من أن كل شىء ، سيسير على خير صورة أثناء غيابه . فسار بنفسه لإعادة السلطة فى الأقاليم الجنوبية ، ثم فى المناطق القبلية التى لم تستمرئ حكم ابن رشيد فى أيامه . فزار الخرج والأفلاج والحوطة والحريق ، الواحدة تلو الاخرى ، وتقبل فروض الولاء من شيوخ أهلها . كما أستقبل وفدًا أرسله وادى الدواسر. أما قبيلة قحطان التى استنكفت عن إرسال وفدًا للتهنئة ، فقد هوجمت ونُهبت ديارها فى حالِيان . وذلك لإظهار تصميم السلطان الجديد على أن يحكم بالفعل والاسم معًا .

أما الأقاليم الشمالية فقد تركها عبدالعزيز لمناسبة أخرى فى المستقبل ، إذ كان الموالون من أهلها ليسوا فى وضع يتمكنون معه من تحدى السلطة الواقعية للحكام الراشدين .

وقد تباطأ ابن رشيد فى الرد على الوضع الجديد فى الجنوب . ولم يكن فى موقف يمكنّه من الزحف إلا فى خريف سنة ١٩٠٢ ، وبعد أن جعل من رغبة الواقعة فى سلسلة الطويق قاعدة له . أرسل دورية إستكشافيةً لتتحرى إخلاص قبائل الإحساء: عجمان ومرّة . إلا أن ابن سعود قابل هذه الحركة بإرسال أخيه محمد وابن عمه عبدالله بن جلوى لقطع الطريق على دسائسه وإحباطها . فبانضمام قبيلة مرة إلى القضية الوهابية يمكننا أن نسقط من الحساب وضع العجمان الغامض فى المعركة القادمة ونأمنه .

وبعد أن عسكر ابن الرشيد فى رغبة كان ابن سعود حرًا فى وضع خططه لجرّه إلى المعركة. وكانت حركته الأولى أن يترك الرياض فى حماية أسوارها وحاميتها المحلية بينما يزحف على حاير فى وادى حنيفة ومن ثم يتقدم نحو الحوطة لتعبئة أهلها الجبابرة . وفى نفس الوقت أرسل محمدًا السديرى بجيش قوى لإحتلال دلم ، حاضرة الخرج بينما ذهب أخوه إلى الحريق ليحشد الإمدادات .

ويبدو أن هذه الخطط العسكرية حيرت ابن رشيد . ولذا سار قُدمًا نحو آبار الحاسى Hassi عند مدخل ممر الحيسية . وقد اضطربت إقامته بسبب الحمى التى انتشرت بين قواته . وبعد التأخر القصير الأمد الذى اعتبره أخطر من الإصابات المَرَضية التى لحقت بقواته ، توجه ابن رشيد إلى بنبان . وبحركة سريعة عبر وادى سُلَىّ ، وصل إلى الخرج ، وكان عازمًا

الهجوم على دِلِمْ فما لبث أن وصل إلى مزارع نخيل نعجان Najan فاحتلها ، إلا أن الوقت كان متأخرًا فى النهار فلم يستطع القيام بأى هجوم فعّال .

ولم يعلم ابن رشيد حينئذ أن ابن سعود نفسه قد وصل إلى دَلَمْ على رأس جيش قوى فى الليلة السابقة . وعندما دفع صاحب حايل قواته للهجوم فى صباح اليوم التالى تعرضت لنيران حامية شديدة من لدن المدافعين المختفيين جيدًا بين أشجار مزارع النخيل . فأكرهت على التراجع فى شيء من الفوضى ، وخصوصًا حين أرسل السعوديون الخيالة وراءهم فى المنطقة المكشوفة الواقعة بين الواحتين . وقد جمع ابن رشيد رجاله وأعاد تنظيمهم ، فاستمرت معركة ضارية من الظهيرة حتى غياب الشمس . غير أن الانتكاسة الأولى الرئيسية كانت عاملاً حاسمًا ضد وقوف ابن رشيد فى وجه قوات أكبر مما كان يتصورها . فتقهقر خلال الليل إلى السليمية فى الطرف الأقصى من الإقليم . ولدى رؤيته السعوديين ، زحف بسرعة فى وادى سُلَيّ حتى يصل بسلام فى الوقت المعيَّن . فوصل بأمان إلى آبار حفار العتكْ القصيّة .

وبعد هذه المعركة الفاصلة بعدة سنوات . كان ابن سعود يقول كلما أعيدت ذكراها: «لو أن ابن رشيد كان على علم بعامل حيوى واحد لتغّير التيار بالنسبة لقضيته ». ولا ينكر ابن سعود أن رجاله كانوا كافيين للقتال إلا أن ذخيرته قد استُهلكت بالمعركة ، أما مطاردة خيالته لاعدائه فقد كانت عبارة عن البدء بالتحدى. ومع ذلك فقد أدت واجبها.

لم يفزع ابن رشيد من هزيته فى دلم . وهكذا بقى هناك فى حفار العتك بأمان واطمئنان ، وأمضى الأشهر الباقية من فصل الحملات والغارات لسنة ١٩٠٢-١٩٠٣ فى الإغارة على جهات مختلفة ، وقد أغراه مالاقاه من ظفر على عشائر عتيبة بالقرب من أرطاوية ، وضد السبيع والسهول فى رمال الدهناء ، بأن يغير على الكويت .

هذه هى الغارة التى وقعت على رجال قبائل العريبدار القريبة من مدينة الكويت نفسها، والتى أرعبت الشيخ مبارك وملأته فزعًا . وهى التى جعلته يوصل رسالة إلى ابن سعود يطلب منه المساعدة . وبعد مدة وجيزة ظهر ابن سعود أمام المدينة على رأس قوة كبيرة، (يقال أنها عشرة الآف جندى) . ولاشك أنه كان مدفوعًا إلى هذا العمل بحاجته الملحة لسد

النقص فى خبرته . وهنا انضم إليه جابر ابن الشيخ مبارك على رأس قوة تقدر بأربعة الآف مقاتل لإظهار القوة الفعالة فى الصحراء الشرقية . فهاجمت حلفاء ابن رشيد من قبائل مطير بقيادة عماش الدويش ، ونهبتها فى مقاطعة الصمان .

وفى أثناء ذلك قرر ابن رشيد القيام بهجوم على الرياض نفسها بعد عودته السريعة إلى معسكره فى حفار العتك وسماعه بزيارة ابن سعود إلى الكويت . فوصل تحت جنح الظلام إلى تل أبى مخرومة القريب من المدينة ، دون أن يشاهده أحد. ونزل هناك بانتظار طلوع الفجر.

ولكن بدويًا راجعًا إلى المدينة رأى جيشه أثناء ذلك ، فاتخذ المدافعون مراكزهم فى الحصون بعد أن حذرهم البدوى، وأخذوا يوزعون عليها الجند ، ولما رأى ابن رشيد أن الهجوم المباغت لم يعد مجديًا، وجه غضبه إلى مزارع النخيل المحيطة بالمكان ، فقتل بعض المزارعين الأبرياء وأوقع فى البساتين أضرارًا كبيرة جدًا .

وكان هم ابن رشيد الوحيد الآن أن يجعل الأقاليم الشمالية (الوشم والسدير والمجمعة) فى حالة ملائمة للدفاع ضد أية محاولة يقوم بها ابن سعود ليستعيدها فبنى حصنًا فى ثرمدة من الوشم ، ووضع فيه حامية قوية للدفاع عنها . كما وضع حاميات أخرى مثلها فى المجمعة وروضة السدير . ومن ثم عاد إلى إقليم القصيم فى انتظار ما يطرأ من تطورات ، بعد أن ضم شقرا عاصمة الوشم إلى جانبه ، ولدى عودة ابن سعود من الكويت إلى الرياض ، وجد نفسه يسيطر على العارض ، وعلى الأقاليم الجنوبية النجدية بلا منازع ، وكانت أول الأخبار التى تلقاها من الميدان لدى وصوله عاصمته ، أن مساعدًا بن سويلم الذى أوفده الإمام عبد الرحمن لاحتلال المقاطعات الشمالية فى أثر الجيش المتقهقر لم ينجز مهمته فحسب ، بل تجاوز تعليماته بالهجوم على شقرا . وأن القائد الرشيدى صويغ Suwaig لم يحاول الدفاع عن المدينة بل هرب إلى حصن ثرمدة الجديد فتبعه مساعد بعد أن احتل عاصمة الوشم بلا أدنى مقاومة وحينذاك هرعت الإمدادات إلى إقليم الوشم بقيادة عبد الله بن جلوى . إلا أن حامية حصن ثرمدة فيما يبدو كانت قد جلت عنه تحت جنح الظلام . وفى هذه الأثناء وصلت قوات أخرى من الرياض إلى إقليم السدير حيث كانت روضة السدير هى المكان الوحيد الذى قاوم الاحتلال إلا أن السعوديين سرعان ما تغلبوا عليها ، وهربت الحامية الرشيدية إلى المجمعة .

ويبدو أن ابن سعود قد وصل إلى الشمال فى هذه الفترة ليدير العمليات الحربية بنفسه ، بينما وصل ابن رشيد إلى عشيرة عن طريق زلفى فى الحدود الشرقية من السدير فى محاولة لتعديل الموقف . وكان كل ما استطاع فعله أن دمر بعض القرى غير المحصنة قبل أن ينجو بنفسه ويغادر المكان وعندها بادر أهل المجمعة يطلبون لأفة ابن سعود ليغفر لهم زلاتهم الماضية وكفرانهم بنعمته . ثم استسلمت مدينة زلفى .. وهكذا انهار ذلك النظام الدفاعى المرتجل الذى أقامه ابن رشيد قبل تراجعه إلى القصيم .

وقد واجه قائد الجانبين مشاكل خطيرة فى المعركة نشبت فيها بعد من أجل الاستيلاء على إقليم القصيم الحيوى ويبدو أن ابن رشيد بدأ يدرك أن مركزه كان حرجًا وخطيرًا ، من جراء تخلى القرى والقبائل عن مناصرته بعد أن كانت فى يده . ومع ذلك كانت لاتزال لديه موارد يغذى جيشه بها طالما بقى هناك ، غير أنه لم يكن يثق بقبيلة القصمان المعروفة بمشاكستها ، أن تقف إلى جانبه فيما إذا ساءت الأمور ويبدو أن أمله الوحيد فى مجابهة زحف ابن سعود كان فى لجوئه إلى الأتراك ، الأمر البالغ الخطورة وإن كان لا مناص منه . وحينذاك سيبادر الأتراك لتثبيت أقدامهم فى أواسط الجزيرة العربية بانطلاقهم من الإحساء ، الإقليم الذى يسيطرون عليه نتيجة لتدخلهم ومبادرتهم لمساعدة عبد الله بن سعود قبل ذلك بثلاثين عامًا .

وقرر ابن رشيد أن يقامر ويتمسك بهذه القشة الأخيرة . فأرسل رسائل إلى الوالى التركى فى بغداد وباشر فى اتخاذ إجراءات مؤقتة للدفاع عن القصيم فى انتظار مجيء قوات السلطات المتوقعة ، فوضع حاميات قوية فى عنيزة وبريدة . وكانت حامية عنيزة تحت إمرة حاكمها المحلى. أما حامية بريدة فقد كانت تحت إمرة ابن عمه ماجد بن حمود لسبب شكّه فى ولاء أهله . وقد أقام مركزًا لقواته فى إقليم السر ، زوده بإمدادات من قبيلة حرب بقيادة حسين بن حراد ليقوم بالمراقبة وليصد أى تقدم تقوم به قوات ابن سعود إذا اقتضى الأمر .

أما ابن سعود فوجد نفسه فى ورطة تختلف عن السهولة التى تم بها احتلال جميع الأقاليم حتى حدود القصيم . وقد رأى الأمراء البارزرن المعروفون بولائهم له أن من الحكمة أن يرحلوا عن القصيم خوفًا من انتقام ابن رشيد ، وكانوا فى الكويت بعد أن بحث

التطورات فى نجد . وعليه قرر ابن سعود أن يعود إلى الرياض آنئذ ، بعد أن بعث إلى الشيخ مبارك رسالة يطلب فيها توجيه أنصاره الموجودين هناك لينضموا إلى قواته .

وكان هؤلاء يتحرقون شوقا للفرصة التى ستمكنهم من المساهمة فى تحرير أرض الوطن من نير ابن رشيد . فوصلت إلى الرياض جماعة منهم مؤلفة من مائتى مقاتل ومنهم عبد العزيز السليم وصالح المهنا ، زعيما عنيزة وبريدة .

وانتهز ابن سعود الفرصة فاستأنف عملياته الحربية . وفى أوائل آذار سنة ١٩٠٤ اشتبك مع قوات حسين بن جراد فى مقاطعة السر ، وألحق به وبأنصاره من قبيلة حرب هزيمة منكرة عند فيضان السر فى آخر الشهر دخل مدينة عنيزة ليلاً بعد أن تجنب مراكز ماجد بن حمود الأمامية فقتل الحاكم فهيد بن صبحان نائب ابن رشيد ، وذبح عبد العزيز ابن سعود بنفسه عبيدًا شقيق ماجد ، إلا أنه لم يقنع بالاستيلاء على إحدى المدينتين الرئيسيتين فى القصيم ، فسار فى نفس الليلة يبحث عن قوات العدو الرئيسية ، التى يقودها ماجد نفسه ، وسط مزارع النخيل فى وادى ريما . وكان هجومه مباغتًا للعدو بحيث أدى القتال المضطرب الذى نشب فى الظلام إلى هزيمة ماجد والاستيلاء على معسكره ، مع جميع ذخيرته وعتاده .

أما الناحية المدهشة فى هذه القصة فهى أن ابن سعود وجد أبناء عمه الثلاثة أحفاد عمه سعود فى معسكر وادى ريما فى عنيزة نفسها . وكان هؤلاء قد ربطوا مصيرهم بمصير ابن رشيد أملاً منهم فى إستعادة عرش الرياض بمساعدته فعفا عنهم بفضل شهامته التى أصبحت فيما بعد من خصاله التقليدية ولم يفرض عليهم شرطًا واحدا . ثم عرض عليهم البقاء معه أو الانضمام إلى ابن رشيد فقبلوا (مؤقتًا) الصلح الذى عرضه عليهم . و قد ظل هؤلاء مصدر إزعاج له لكثرة مطالبهم وادعاءاتهم . . فأطلق الناس عليهم لقب العرايف من هذه الحادثة وكان هذا اللقب يستعمل للجمال التى فقدت فى إحدى الغارات ثم استعيدت فيما بعد .

لقد أصبحت طرق بريدة خالية الآن .. ولم يجد ابن سعود أية صعوبة فى إحتلالها ، وإن كانت الحامية الرشيدية هناك قد رفضت الاستسلام وتمركزت فى القلعة العظيمة لتقاوم الحصار ، على أمل أن يهب ابن رشيد إلى إنقاذهم فى الوقت المناسب إلا أن هذا الأمل

لم يتحقق . فبعد شهر من إطلاق الرصاص والقتال غير المنظم استسلمت الحامية بشروط . فسمح لرجالها بأن يخرجوا بأسلحتهم ويلحقوا بزعيمهم فى حايل . وهكذا أصبح ابن سعود الآن سيد الجزء الغربى من القصيم بينما بقى الجزء الشرقى مع رس العاصمة ، مواليًا لابن رشيد .

وفى هذه الأثناء أثمرت جهود ابن رشيد فى الحصول على مساعدة من الأتراك قوامها كتائب من الجند النظامى، جاء جزء منها من المدينة المنورة بقيادة صدقى باشا وانطلق الجزء الآخر من بغداد بقيادة فيضى باشا القائد العام للحملة .

لقد استسلمت بريدة فى أوائل حزيران سنة ١٩٠٢.. ولم تكن تمضى بضعة أسابيع حتى أخذ ابن رشيد يتحرك . فبعد أن زوده الأتراك بالسلاح والمال والذخائر استطاع أن يجند قوات كبيرة من قبائل حرب وعتيبة وقبيلته شمر . فسار إلى القصيم على رأس القوات ، والمجندين المحليين ، والكتائب التركية ، ووصل فى شهر آب حتى ضواحى القراعة (قَرْعة) فقبل ابن سعود التحدى وقاد جيشه إلى البصار ، إحدى واحات المنطقة الصغيرة المعروفة باسم الجنوب ومن وراء التلال الرملية التى حمته من خيالة العدو فاستطاع أن يرقب مناورات ابن رشيد بدون أن يقوم بأى عمل إيجابى أو اشتباك .

وقد ظلت المناوشات المنظمة طابع الأعمال اليومية إلى أن سار ابن رشيد باتجاه الغرب إلى رمال الشيحيات المتماوجة ، حيث بإمكان جنوده أن يجدوا لهم مأوى أثناء النهار فى بساتين غراس نخلها المتناثرة ، بينما يستطيع فرسانه أن يقوموا بعمليات حربية بكل سهولة إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وكان رد ابن سعود على هذا أن تقدم بجيشه ناحية بساتين نخيل البكيريه حيث أقام مشاتهُ فى أمن نسبى وراء سلسلة التلال الرملية العالية التى تفصله عن الأعداء . فلم يقع الهجوم المتوقع حدوثه عند الفجر .

ولازمت القوات السعودية مراكزها بين أشجار النخيل يستظلون بها من حرارة الشمس فهاجمهم العدو عند العصر فجأة ، واستمرت المعركة مستمرة حتى المغيب . وقد تمكنت القوات السعودية التى بوغتت بهجوم كامل من قوات العدو من تكبيد المهاجمين إصابات فادحة ، مستغلة فى ذلك وفاء البستانيين ، غير أنها لم تستطع البقاء فى مواقعها بعد أن

أرخى الليل سدوله ، إذ قد تتعرض لهجوم الأعداء الذين يفوقونها عددًا ويدحرونها . فشقت طريقها بين أشجار النخيل تدريجيًا إلى الوهاد الرملية بينما عهدت إلى مؤخرتها أن تحارب لتغطية خروج المقدمة والقلب فيها . وما أن تملص السعوديون حتى أخذوا يتقهقرون بلا نظام وبالسرعة الممكنه فى الظلام الدامس .

أما جيش ابن رشيد فقد ظل سيد الميدان ينتظر مغيب الشمس كى يستفيد من عامل المباغتة . ولكن ذلك ما لم يقدر له أن يحدث إذ أن جيش القصيم الذى وصل متأخرًا جدًا للاشتراك فى المعركة . وكان لا يعرف شيئًا عن تراجع حلفائه السعوديين ، هاجم العدو وهو يقوم بجمع أسلاب المعركة . فدارت الدائرة على ابن رشيد وتكبدت قواته إصابات خطيرة ، عندما استدارت لتنسحب من الواحة .

ويبدو من الروايات المتضاربة التى وصلت إلينا عن هذه الواقعة ، أن اشتباكًا وقع خلال اليوم أو اليومين التاليين . إلا أن القتال الرئيسى كان قد انتهى ، وقد توقف القمصان حين علموا بانسحاب الجيش السعودى الرئيسى ، توقفوا عن القتال وانسحبوا إلى قاعدتهم ، خوفًا من وصول الإمدادات الرشيدية .كما سحب ابن رشيد قواته إلى معسكره فى الشيحيات بعد أن ترك قوة فى البكيرية التى وصلتها الإمدادات .

وسار الجيش السعودى إلى عنيزة ليعيد تنظيم نفسه ، وهناك انضم إليه جيش القصيم . وبعد أيام قلائل أصدر ابن سعود أمره بالزحف على البكيرية ، حيث تعرض معسكر ابن رشيد لهجوم مباغت مع غياب القمر فاندحر . وتراجع خصم ابن سعود ولجأ إلى البكيرية فنشأ عندها قتال عنيف استمر بقية الليل وإلى أن توقفت قوات ابن رشيد عن القتال وفرت باتجاه خَبْرَة . ولكنها أخفقت فى الاستيلاء على تلك القرية حتى بعد عدة أيام من الحصار جلبت فى غضونها بعض المدافع لقصف أسوارها .

واتجه ابن رشيد إلى رس .. فوجد خيالة ابن سعود بقيادة أخيه محمد فى انتظاره . ولما فشل فى الوصول إلى هدفه ، غير وجهة الزحف إلى قرية شنانة المجاورة التى أصبحت قاعدته معظم أيام الشهر ، وفى خلال هذا الشهر لم يحدث أى نشاط حربى باستثناء بعض المناوشات بين خيالة الجانبين . ونفذ صبر جنود ابن رشيد الإضافيين بسبب صعوبة إيجاد مراع لجمالهم ،

بالنظر لغارات العدو المتكررة فاضطر للقيام بهجوم مبكر فى شبه تراجع إلى واحة صغيرة تسمى قصر ابن عقيل على مسافة إلى الغرب من شنانه ، فتبعه ابن سعود وهاجمه بشدة . وبعد عدة أيام من القتال المرير قرر التراجع نتيجة ضغط قواته البدوية .

ونقلت معداته على ظهور الجمال فانطلقت فى سفرتها الطويلة إلى حايل .

أرسل ابن سعود خيالته لتطارد قافلة ابن رشيد الهائمة على وجهها بينما أخذ جيشه الرئيسي يضغط ضغطًا شديدًا على مشاه شمر والقوات التركية فى مجرى الوادى . وفى الأثناء وقعت قافلة ابن رشيد بما تحمله من ذخائر وكنوز ومعدات فى أيدى خيالة ابن سعود . وما كاد ابن رشيد يعلم بهذا الخبر حتى قرر التراجع غير أن الضغط المتواصل من قوات ابن سعود على قواته حول هذا التراجع إلى هزيمة وتحولت الهزيمة إلى تجاه كل واحد بنفسه .

ويذكر المؤرخ النجدى هذه الوقائع بإيجاز فيقول :

وسار بعضهم فى أثر البدو ونجو بأنفسهم واتجه آخرون صوب الصحراء فهلكوا ، بينما استسلم الباقون للإمام فآواهم وأحسن معاملتهم .

لقد شغلت معركة البكيرية معظم أيام أيلول وتشرين الأول ، وبعد تناوب فى الخطوط انتهت ساحة الميدان بنصر ساحق لابن سعود . ومن الصعب أن نصدق كيف أن قوة تركية تتألف من ثمانية كتائب قد دحرت فى المعركة ! ولكنه ينبغى علينا أن نذكر أن الأتراك كانوا يقاتلون فى بيئة غير مألوفة لديهم وأحوال غير ملائمة لهم . . كانوا يحاربون فى صحراء جدباء بصورة ممتازة وقد عانوا الهزيمة على يدى عدو شجاع ماهر ، موارده تقل كثيرًا عن مواردهم.

ومهما كان الحال ، فلقد تراجع ابن رشيد نفسه إلى كهفة ، وهى قرية فى أول حدود جبل شمر . ومن هناك أرسل إلى السلطات فى بغداد يعلمها بالكارثة ويطلب مساعدات أخرى .

وصدف فى هذا الوقت بالذات أن وردت أخبار عن ثورة خطيرة قامت ضد الحكم التركى فى اليمن بقيادة الإمام يحيى حميد الدين ، فاضطرت الحكومة العثمانية أن تقصر عملياتها الحربية فى العمل على إعادة الوضع فى الجنوب . فصدر الأمر لفيضى باشا بالتحرك فورًا إلى اليمن لقيادة القوات المرسلة إلى هناك . أما قيادة الجيوش فى الجزيرة العربية فكانت

بيد صدقى باشا . وقد صدرت إليه التعليمات فيما يبدو بالتفاوض مع ابن سعود لإيجاد تسوية ما ، لإنقاذ جنود الحملة التركية من ورطتهم فى الصحراء .

وفى هذه الأثناء أرسلت السلطات العراقية رسالة إلى الإمام عبد الرحمن القيم فى الرياض ، بواسطة شيخ الكويت ، تقترح عليه الدخول حالاً فى مفاوضات سياسية عالية ، ولقد وافق الإمام على هذا الطلب ، فسار بنفسه إلى الكويت كى يبحث الأمور مع والى البصرة بحضور الشيخ مبارك ، وقد اقترح الأتراك أن تصبح القصيم دولة حيادية ، على أن يكون فيها قوة عسكرية تركية لحمايتها وحكمها إلى أن يتوصل إلى تسوية نهائية لجميع المسائل المتنازع عليها بين ابن سعود وابن رشيد ويبدو أن الإمام وافق على هذا الحل ، ولم يشترط إلا أن يحال الأمر إلى أهل نجد لإقراره . ويقول المؤرخ بخبث : « لقد كان موقنا أن أهل نجد لن يوافقوا على ذلك الترتيب ».

وعاد الإمام إلى الرياض وعلم أن ابنه كان عائدًا من القصيم ، فذهب لاستقباله فى الحاسى . وبعد أن بحث الوالد وابنه قضية مفاوضات الكويت ، قررا العودة معًا إلى القصيم.

والواقع أن عبد الرحمن لم يذهب إلى أبعد من الشقرا ، حيث بقى هناك كى ينظم الإدارة فى المنطقة ويجند الجنود لحين الحاجة بينما سار ابنه إلى عنيزة لمقابلة صدقى باشا وفيضى باشا اللذين كانا لم يبرحا المدينة بعد . فكرر الأتراك اقتراحهم الأول بشأن : إيجاد منطقة حيادية ، وتمركز القوات التركية فى بريدة وعنيزة . إلا أن عبد العزيز رفضه ، بالرغم من موافقة صالح بن مهنا . وكان هذا قد وجد نفسه فى دور الزعيم للقصيم حين يكون تحت حماية الحكومة العثمانية مستقلاً عن حايل والرياض على السواء . وكل ما توصل إليه المتفاوضون هو اتفاقهم على ضرورة جلاء القوات التركية إلى بغداد والمدينة المنورة بضمان من ابن سعود ضد أى اعتداء تقوم به القبائل على الطريق . وعلى سبيل الاحتياط من غدر الأتراك ، اشترط ابن سعود أن تعبر قوات بغداد الحدود العراقية قبل أن يسمح لقوة المدينة المنورة بمغادرة القصيم فنفذت هذه الاتفاقية فى حينها فيما يبدو وبدون أية موانع أو عقبات .

وهكذا غادرت القوات التركية أواسط الجزيرة العربية بأمان .

كان ابن سعود الآن فى وضع يمكنه من فرض إرادته فى القصيم إلا أنه كان يهدف إلى تسوية ودية لمصلحته . ولما كانت دسائس الإضراب المتنافسة فى الإقليم قد أسخطته ، فأتنا

نراه يغادر القصيم فجأة إلى الرياض تاركًا تلك الأحزاب تصرف شئونها بنفسها ولماذا لا يفعل ذلك ! لقد اطمأن إلى عدم إمكانية رجوع الأتراك ، كما حذر زعيم بريدة صالح بن مهنا الذى اختاره لهذا المنصب ، من أن ابن رشيد سيعود عما قريب ليقضى الحساب معه .

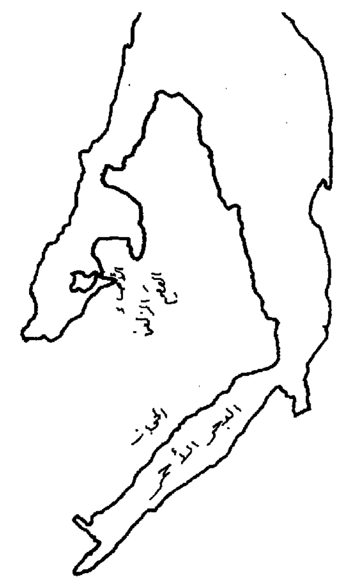
وكان الباعث الحقيقى لهذا السفر المفاجئ ورود أخبار من قطر تفيد بأن أحمد قد ثار على أخيه قاسم بن ثانى (الشيخ الحاكم) بمساندة عشيرة مرة وأن نتيجة النزاع كانت فى مصلحته فسارع ابن سعود بالذهاب إلى مكان الاضطراب ، ولم يجد صعوبة فى القضاء على الثورة وإجبار أحمد على الفرار إلى البحرين .

وما كاد ابن سعود يغادر القصيم حتى جدد ابن رشيد نشاطه الحربى ضد الإقليم كما تنبأ ابن سعود . فأرسل جيشًا قويًا يغير على رس ، فاحتلها بكل سهولة بينما فر سكانها إلى شقة فتبعهم ابن رشيد. إلا أن القرويين تمكنوا من صد المهاجمين بيسر. وقام بغارة أخرى بالقرب من طرفيه حيث ذبح أربعين شخصًا من الحصّادين العُزَّل وهاجم عشيرة حمادين الفقيرة واستولى على أغنامها وجمالها .

وكانت هذه الغارات تافهة أشبه بوخزات الإبر ، إلا أنها تركت شيئًا من الشعور بعدم الطمأنينة فى الإقليم . ولما لام أهله صالحًا بن مهنا على عدم تعاونه مع ابن سعود ، أرسل أخاه مهنا إلى عنيزة ، كما بعث رسولاً إلى الشيخ مبارك فى الكويت ، وكان الشيخ مبارك آنئذ على اتصال بابن رشيد يقترح عليه مفاوضة ابن سعود بشأن تسوية عامة . وكان ما قصده زعيم بريدة من إرسال المرسلين أن يصرف الأنظار عن تآمره مع ابن رشيد .

أما ابن سعود فلم يتجاهل غصن الزيتون .. إلا أن رده كان ينطوى على الحذر . وأرسل أخاه محمدًا ليغزو قبيلة حرب فى الغرب بينما زحف بنفسه على بريدة . وهناك انضم إليه صالح المهنا وجيش بريدة ، وسار الجميع إلى سهل أسياح الرملى على حدود أراضى ابن رشيد. إلا أنه لم يكن مطمئنًا لمظاهر الولاء الذى أبداه صالح ، فرأى من الحكمة أن ينسحب إلى زلفى ، ثم إلى المجمعة تاركًا جيش بريدة فى طريق العودة إلى بلاده . وكان ابن رشيد فى هذه الأثناء مايزال يقوم بغاراته المتفرقة فى الصحراء الشرقية ، من معسكره فى روضة المهنا .

وقرر ابن سعود أن يضرب .



معركة سنة ١٩٠٦، التى على أثرها زال كل أثر للقلق فى نفس بن سعود
وطمأنه على استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم

وبعد أن وصل السهل بجيش قوى أنضمت إليه عشيرة مطير بقيادة زعيمها فيصل الدويش الذى كان مسلكه مبهمًا حتى ذلك الحين . ثم عبر المنطقة الرملية التى تفصله عن العدو مشيًا على الأقدام تحت ستار الليل ووقع الهجوم فى الغسق فى الثالث عشر من نيسان سنة ١٩٠٦ .. واستمرت المعركة بشراسة . وأخذ ابن رشيد يشجع رجاله ويدير هجماتهم وبجانبه حامل العلم وفيما هو يقوم بهذا العمل عرفه العدو فأطلقوا النار عليه وقتلوه .. وكان

فى ذلك نهاية المعركة . إذ ما لبثت أن اندحرت قوات ابن رشيد وفرت ، بينما أسرع قادتها فى الفرار إلى حايل لا يفكرون إلا فى النزاع على العرش الذى خلا بموت صاحبه .

حينئذ استولى ابن سعود على معسكر ابن رشيد وعلى غنائم كبيرة وجدها هناك ، إلا أنه لم يضع الوقت فى إحصائها ، بل سرعان ما زحف وداهم بطنين من بطون قبيلة حرب فى Raha وابو مغير على التوالى . ثم ظهر أمام بريدة حيث ألقى القبض على صالح بن مهنا وأرسله مخفورًا إلى الرياض ليبقى رهن الاعتقال ، وعين ابن عمه محمد العبد الله أبا الخيل أميرًا على المدينة .

* * *

أزال موت عبد العزيز بن رشيد كل أثر للقلق فى نفس ابن سعود وطمأنه على استقرار حكمه حتى الحدود الشمالية للقصيم ولم يطمع فى امتداد سيطرته إلى أبعد من ذلك . كما قوى عزله لصالح بن مهنا من سيطرته على القصيم نفسها .

وخلف متعب بن عبد العزيز بن رشيد أباه على العرش ، وأخذ يفاوض بشأن إيجاد تسوية عامة فوافق ابن سعود فى الحال على استقلال جبل شمر بحدوده الطبيعية ، فى حين تعهد متعب أن يعيد إلى الرياض جميع الباقين من أمراء عائلة سعود المتمردين . وكان هؤلاء قد لجأوا إلى حايل مؤملين استخدام الوضع لمصلحتهم . بيد أن انسحاب سامى باشا الفاروقى ، القائد التركى الذى خلف صدقى باشا ، لم يكن قد تم بعد فرأى ابن سعود أنه طالما كان الأتراك موجودين فى البلاد سيظل الباب مفتوحًا لحبك المكائد والمؤامرات .

والواقع أن متعبًا نفسه كان يراسل السلطات فى بغداد ويتآمر معها دون نظر إلى التسوية التى عقدها مع ابن سعود . ويبدو أنه لم يستطع أن يقنع الأتراك بوجهة نظره الخاصة ، وإن كان سامى باشا قد حاول أن يرشو ابن سعود ليسمح ببقاء قواته فى القصيم . فرفض عبد العزيز ذلك المطلب بسخط ، وارتحلت القوات فى النهاية .

وعند ذلك سار ابن سعود عائدًا إلى بلاده . وتوقف عند شقرا حيث وافاه وفد من المجمعة ليؤكد له ولاء المدينة وإخلاصها . وفى أثناء إقامته هناك وردته أخبار فيصل الدويش زعيم مطير واتصاله بالأتراك فسارع ابن سعود إلى القضاء على المؤامرة بأن أرسل حملة تأديبية

إلى أراضى مطير. ومن ثمة قفل إلى الرياض لاستقبال الوفد الذى أرسله السلطان عبد الحميد ليقدم له شكره على الحفاوة التى لقيها قواده وجيشه أثناء إقامتهم فى الجزيرة العربية .

لم يسترح ابن سعود طويلاً على أكاليل غاره . فقد دهمته أخبار من حايل عن مقتل متعب واثنين من أشقائه الثلاثة . أما الأخ الأصغر فقد هربه عبد مخلص من عبيده ونجا بجلده . وخلفه فى إمارة حايل سلطان بن حمود ، الذى قام بهذه المذبحة المريعة ، لمدة سنة واحدة فقط . ففى كانون الثانى سنة ١٩٠٨ اغتيل بدوره على يد شقيقه سعود فيصل . وأصبح سعود الحاكم الجديد بينما غدا فيصل حاكمًا فى الجوف والمقاطعات الشمالية التى كان نفوذ حايل فيها يتعدى نفوذ نورى الشعلان زعيم قبائل الرولى وكان ذلك بلاشك بتشجيع من الأتراك الذين ما فتئوا يتلمسون طريقهم إلى الحجاز عبر شمال الجزيرة . وقد سبق لواحة خيبر أن ألفت نير الخضوع لسلطان بن حمود الذى أدى عدم كفاءته إلى تحويل قوافل الحجاج العراقية والإيرانية عن طريق حايل إلى تلك التى تمر بالقصيم ، غير أن السلطان لم يكن ليرضى بفقدان القصيم بصورة نهائية . كان لا يزال يعتمد على قبيلة مطير وحكومة بريدة لبقاء الوضع مائعًا .

وكان فيصل الدويش زعيم مطير ، هو أول من رفع علم الثورة فى شهر آيار سنة ١٩٠٧ . إلا أنه دحر وسحق سحقًا . وأصيب هو نفسه بجرح بليغ فى المجمعة ، أما حكاية الاستسلام الاعتيادية والعفو فلم تحدث تغيرًا دائمًا فى مسلكه فها نحن نجده فى الخريف معسكرًا فى الطرفية لمساعدة سلطان ومحمد أبى الخيل البريدى ، مقابل القصيم . ولقد بادر ابن سعود بالذهاب إلى مقاطعة السر حتى طلب إلى قبائل عتيبة وقحطان وسبيع والسهول أن ينضموا إليه بكامل قواتهم . ومن ثم تقدم نحو عنيزة مغيرًا على مراكز سلطان الأمامية ، الموزعة هنا وهناك ، بعد أن أرسل قوة لقمع قبيلة مطير فى الطرفية . ومن هناك زحف بنفسه ليوقع هزيمة ساحقة بفيصل ويستولى على معسكره . أما سلطان وأهل بريدة فحاولو أن يباغتوا ابن سعود فى مكانه هذا فى العشرين من أيلول ، غير أن المعركة التالية انتهت بهزيمتهم التامة وفرارهم إلى بريدة . ومن ثمة عاد سلطان إلى حايل تاركًا أخاه فيصلا لمساعدة محمد أبى الخيل فى حالة حدوث اضطراب . وفى هذه الأثناء أرسل ابن سعود قوة من الخيالة لمراقبة بريدة ، ثم قام بسلسة من الهجمات فى شتى الجهات حتى البكيرية والرس وبلاد حرب بجوار النبهانية وبعدئذ عاد إلى الرياض ليستجم فترة من الزمن .

لكنه سرعان ما كر إلى القصيم لدى سماعه أخبارًا كاذبة عن أن سلطانًا كان يزحف على بريدة فتقدم حتى بلغ إلى كهفة فى انتظار هذا الزحف ، ولما لم يجد أثرًا للعدو أغار على معسكر طوالة شمر فى فيد . من ثم أنسحب إلى البكرية حيث بلغه خبر قتل سلطان فى كانون الثانى سنة ١٩٠٨ .

أما سعود الحاكم الجديد فانتهز الفرصة وأخذ يبحث عن تسوية مع ابن سعود الذى غدا الآن حرًّا فى أن يوجه نضاله إلى بريدة للوصول إلى تسوية نهائية مع أهلها . كان البريديون قد أنهكهم الخوف الدائم الذى وجدوا أنفسهم يعانونه من جراء سياسة محمد أبى الخيل الأنانية ، فاتفقوا على أن يتصلوا بابن سعود سرًا ليفتحوا له أحد الأبواب ذات ليلة أثناء صلاة العشاء . وقد تم ذلك بالفعل ، فاستولى الرجال المخصصون لهذا الغرض على أبراج السور الدائرى بكل سهولة . وحجبت المساحة الواسعة التى أمام الحصن عن بقية المدينة بقوة قوامها ثلاثمائة رجل بينما قرأ الناس فى الجوامع والأمكنة العامة إعلان ابن سعود بإعطاء الأمان لكل المواطنين الموالين بعد أن يسلموا ما معهم من الأسلحة . وكان تأثير ذلك سريعا حتى لم يبق أمام ابن سعود من يقاومه سوى محمد نفسه ، وعدد ضئيل من رجاله الذين أغلقوا القلعة عليهم وتحصنوا فيها ليقاوموا الحصار . لقد كان وضعهم يائسًا .

وبعد بضعة أيام من المناوشات العقيمة طلب محمد عرض شروط التسليم . وتم الاتفاق على أساس تسليم جميع الأسلحة وضمان سلامة محمد الشخصية وعائلته وخدمه الذين تركت لهم الحرية فى الرحيل فى سوق الشيوخ . وكان محمد أبو الخيل آخر حاكم وطنى فى بريدة . ولم يعد بإمكان ابن سعود أن يغامر بترك العائلات الرئيسية تعكر السلام فى مواطنها بفعل التنافس على إمارة الإقليم .. كانت الحاجة ماسة إلى يد حازمة تبقى روح القصيم المتوقدة فى نطاق السيطرة عليها . ولهذا كان الحاكم السعودى الجديد هو ابن عم عبد العزيز (عبد الله بن جلوى) الجبار . فظل مسؤولا طيلة السنوات الخمس التالية ، وإلى أن أحتيجت خدماته للقيام بمسؤوليات أخطر فى مناطق أخرى .

وهكذا لم تعد القصيم بؤرة الإضطراب فى الجزيرة العربية ولا مصدر القلق فيها كما كانت خلال السنوات الحرجة من سنى كفاح ابن سعود للسيطرة على نجد .

لقد استسلمت بريدة فى التاسع والعشرين من آيار سنة ١٩٠٨ ، فسارع سعود حاكم حايل الجديد إلى البحث عن تسوية مع ابن سعود الذى كان على استعداد للاعتراف باستقلال جبل شمر على شرط ألا تكون مصدر تعكير لصفو بلاده بعد الآن . وأرسل سكان المجمعة وفدًا برئاسة زعيمهم عبد الله إلى العسكر Al-Askar لتقديم الاعتذار عن موقفهم المبهم ، والإعلان عن ولائهم للنظام الجديد . ويبدو أن الفيضان العظيم فى مكة كان خاتمة بركات الماء فى هذه السنة التى شهدت إنجازات باهرة . فدخلت المياه المتدفقة رحبة الجامع الكبير (الحرم) وشكلت بحيرة عمقها عشرة أقدام حول الكعبة نفسها .

كان ابن سعود يأمل فى فترة سلام الآن .. ولكن آماله قد تحطمت بانتكاس الحالة فى حايل وحدوث إضطراب فيها ، إذ أن الأهلين فى المدينة كانوا يرغبون فى إعادة الإمارة الشرعية إلى سعود بن عبد العزيز البالغ من العمر عشر سنوات و الذى نجا بفضل أحد عبيده حين اغتصب سلطان بن حمود الحكم ، وهرب إلى المدينة المنورة وفتحت الأبواب من قبل الموالين فى حايل ، وقتل سعود بن حمود فى المعركة التى نشبت بعد ذلك بينما تخلصوا من بعض أعضاء العائلة الآخرين بقتلهم إلا أن اثنين منهم وهما ضارى وفيصل تمكنا من الهرب، وحلا ضيفين على الرياض . وقد أعلن تعيين سعود بن عبد العزيز الرشيدى أميرًا تحت وصاية حمود بن صبحان الذى كان ابنه عبد العزيز زوج أخت الأمير الرشيدى الوحيدة . وكان زامل ساعده الأيمن فى حكم الدولة وقد خلفه فعلاً فى منصب الوصى على العرش لبضعة أشهر عندما توفى حمود مسمومًا . ومن أجل تقوية سيطرته على أمور الدولة تزوج زامل أم سعود الأمير ، وكان زوجها الرابع فقد كانت سابقًا وعلى التوالى زوجة محمد بن رشيد العظيم ، وعبد العزيز بن رشيد ، وسلطان ابن حمود قاتل ابن زوجها (متعب) ومع أن أحتجاب النساء فى الجزيرة العربية لم يحل قط دون أن يكن ذوات دور هام فى تقرير الأمور السياسية (فى لعبة شطرنج الدولة)

وكانت خطوة حمود الأولى محاولته تأمين رضا صاحب الرياض عبد العزيز ابن سعود . إلا أن هذا ولسبب مجهول فى كتب التاريخ التى بين أيدينا ، رفض تقرب وصى حايل بأن هاجم قبائل شمر فى جوار شعيبة بينما راح يبحث عن زامل فى النفود ، وكان معروفًا أن (ابن سعود) يقوم بمناوراته هذه مقدمة للهجوم . ثم انتقل إلى مكان يسمى الأشعلى ونصب

خيامه كالمعتاد مع جميع عتادها وانسحب بعض المسافة ليرقب التطورات أما زامل فسار ليلاً حتى واجه المعسكر وقام ببعض الاستعدادات للهجوم . فأعلمته إحدى دورياته بأنه كان خاليًا . وكان هنا فشلاً ذريعًا لا يستأهل ما أجراه من ترتيبات ، فاتجهت القوة بكاملها صوب المعسكر ونهبوا ودمروا جميع معدات الأعداء الذين وقفوا يرقبون ما يجرى منتظرين أن تحين ساعة هجوم مباغت .. وحانت الساعة . . فتلت ذلك المعركة المحتومة ثم عقبها الفرار .

وسار ابن سعود مارًا فى طريقه من القبة وإلى القصيم ثم الرياض .

وفى تلك الأيام كانت أواسط الجزيرة العربية تعانى ضيقًا شديدًا من جراء الجفاف العظيم الذى دام عدة سنوات وأصبح يعرف باسم الساحوت فى أخبار البلاد وتاريخها وبالرغم من هذا الجفاف أو بسببه حل عهد من السخط وعدم الاستقرار وتحملت موارد ابن سعود الضئيلة أقصى ما يمكن أن تكلف به فف خلال غياب ابن سعود فى الشمال بلغت والده عبد الرحمن أخبار مزعجة عن احتكار محلى فى منطقة الحريق ، حيث قتل أمير حزَّان على يدى اثنين من أبناء عمه الصغار فأرسل الإمام قوة لوضع حد للاضطرابات ألقت القبض على القتلة وسلمتهم إلى أشقاء ضحيتهم فذبحوهم .

وما كادت القوة تغادر المنطقة حتى وقع حادثًا قتل آخران . فشخص عبد العزيز بنفسه إلى المدينة ليعالج الموقف هناك . ولكن الزعماء المتمردين رفضوا طلبه بتحويل القضية إلى المحكمة الشرعية ، ولجأوا إلى حصنهم واستحكموا فيه ليجابهوا حصارًا استمر خمسين يومًا . وفى نهاية هذه المدة وضع ابن سعود لغمًا تحت الحصن وهددهم بنسفه بكل من فيه مع الأطفال والنساء فاستسلم الزعماء ونقلوا إلى الرياض ، حيث زجَّ بهم فى سجن الملك مدة سنتين وعند انتهائها أطلق سراحهم على أثر وساطة قاسم آل ثانى أمير قطر .

وكان فى هذه الأثناء أن نشب خلاف بين مبارك شيخ الكويت ، وبين سعود باشا زعيم قبائل المنتفك العراقية . وقد زحف ابن سعود إلى مقاطعة حجيزة بالقرب من الحود العراقية تلبية لنداء تلقاه من الشيخ مبارك ، وسار على رأس قوة قوامها سبعة الآف مقاتل معظمهم من الكويت بقيادة جابر .

وسرعان ما اشتبكت هذه مع قوات سعدون باشا التى كانت تساويها فى العدد ولكنها ترجحها فى القوة بفضل المدافع .

وتجاهل جابر نصيحة ابن سعود له بوجوب هجوم قواته البدوية على معسكر العدو ، وابتداء معركة « هادية » في السادس عشر من حزيران سنة ١٩١٠بهجوم من الخيالة . أما سعدون فكان قد احتفظ بخيالته ولم يأمرها بالاشتراك في القتال إلا بعد أن توقف هجوم العدو وأندحر في فوضة وهكذا أختفت القوات المتحالفة في الصحراء هاربة إلى الكويت بينما أحتلت قوات المنتفك معسكرهم ونهبته .

كانت هذه المعركة جزءًا فقط من حركة شاملة ، الغاية منها الحد من جهود زامل ابن صبحان في سبيل استعادة شيء من أمجاد حايل الماضية . وفي الوقت الذي كان فيه سعدون باشا حليفًا لزامل ، كان نوري الشعلان الذي انتزع الجوف ومقاطعة وادي السرحان من سلطة حايل ، قد انضم إلى قبائل عمارات وعنزة للضغط على زامل في الشمال والشمال الشرقي بينما فعلت قوات ابن سعود والكويت نفس الشيء من الجنوب . وقد رأينا كيف أن فقرة من فقرات هذا البرنامج لم تنفذ يوم هادية .

وفي نفس الوقت تقريبًا هاجم زامل الحلفاء الشماليين فهزمهم هزيمة ساحقة وفي تلك الأيام الحرجة ثارت واحة تيماء في الغرب فاحتلها الأتراك الذين قدموا من المدينة المنورة ، بناء على دعوة من أهلها مما أضطر زامل إلى الهجوم عليها حيث كان النجاح حليفه مرة أخرى. فأكره الحامية التركية على التقهقر وتعرض السكان إلى إنتقام مريع لعدم ولائهم .

وفي نفس الوقت انتهز سعدون وزامل الجفاف الذي كان يسود البلاد فتآمروا مع العجمان في الصحراء الشرقية لاستمرار الضغط على جناح ابن سعود وتعقد الوضع أكثر فأكثر بسبب انضمام أحفاد سعود بن فيصل إلى قبيلة العجمان المعادية بعد أن غادروا الرياض إثر إستيلاء ابن سعود على عنزة سنة ١٩٠٤ كما ذكرنا .

كان هذا تطورًاسيئًا بسبب نتائجه الوخيمة المباشرة . فقد كانت معاملة ابن سعود لأبناء المنشقين كريمة بالرغم من كونهم أقل مرتبة بين أعضاء الأسرة المالكة ، مما جعل في غير مقدروه استخدامهم في مناصب الإقليم المهمة ، بدون مجازفة ولا غرابة أن يجد أشخاصًا في ربيع العمر يغضبون للبطالة التي فرضت عليهم في زمن يعج بالأحداث والمغامرات المثيرة .

ومع أن هذه العوامل كانت كافية لابن سعود إلا أن كأس مرارته وآلامه لم تمتلىء بعد. صحيح أن زامل قدم عرضًا للصلح فى سنة ١٩١١ ، وقبلت على أساس محدود هو الاعتراف باستقلاله فى جبل شمر فقط .. إلا أن هذا الاتفاق لا يدوم إلا إذا كان ملائمًا للأطراف المعنية.

وفى هذا الوقت ظهر عدو آخر فى الغرب . فإن الأتراك لم يتخلوا قط عن فكرة إرساء سلطانهم وتثبيته فى أواسط الجزيرة العربية ، ولما كانت اختباراتهم لابن رشيد مخيبة للآمال نراهم يتجهون الآن إلى الشريف حسين ، الذى عينوه أميرًا على مكة سنة ١٩٠٨ وهى السنة التى أنجز فيها مد الخط الحديدى الحجازى حتى المدينة المنورة .

وكان هذا الشريف قد قضى طفولته بين البدو قبل نفيه الطويل فى الأستانة (أسطبول)، والآن وهو فى الستين من عمره كانت لديه الفرصة لإظهار ما يمكن أن يفعله فى سبيل تدعيم مركزه كعامل له خطورته فى سياسة الصحراء .

وعلى العموم ، بدون عمل إيجابى من لدنه ، واصل الشريف سياسة أسلافه فى منع امتداد الخط الحديدى إلى مكة . ومن ناحية أخرى أظهر حِكمًا ومزايا قيادية فى أثناء الحملة التى وكلها إليه الباب العالى ضد الثائر إدريس زعيم قبائل محمد ، الذى احتل مرتفعات عسير وأبها فى الوقت الذى كان فيه الأتراك منهمكين فى قمع ثورة الإمام يحى الخطيرة فى اليمن ، فاستعاد حسين إقليم عسير لأسياده وعاد إلى مكة عن طريق واحة بيشة ورنيا وترابة ، رافعًا علم النصر . وشجع نجاحه هذا الأتراك على أن يستخدموه فى توطيد نفوذهم فى الصحراء .

وفى نهاية عام ١٩١١ ، وأوائل السنة التالية . زحف بقوة كبيرة إلى بلاد عتيبة : فوصل القويعية فى اللحظة التى وصل فيها سعد شقيق ابن سعود المحبوب ليجند المقاتلين للقيام بحملة ضد العراق الذين خرجوا فى ثورة سافرة ، وتمركزوا فى مقاطعتى الحوطه والحريق فأُلقى القبض على سعد ، وأخذه حسين رهينة . ثم دعا ابن سعود أن يفتديه بقبوله السيادة التركية ودفعه جزية سنوية أسمية عن القصيم .

ترك ابن سعود الطالبين بالعرش (العرايق) وشأنهم بصورة مؤقتة وتتبع حسين فى أثناء تراجعه إلى الغرب مع غنائمه الكثيرة . إذ كان حسين يحرص دائمًا أن يكون بعيدًا عن أى أذى

قد ينشأ . وفى الواقع لم يكن لابن سعود أقل خيار فى الأمر، فقد كان مستعدًا لأن يذهب إلى أقصى لإنقاذ أخيه من براثن العدو. وبعد محاولات ناجحة للتفاوض بشأن أمور أخرى ، اضطر ابن سعود إلى التوقيع على وثيقة قدمها حسين ، الذى استمر فى سيره يهلل ويرقص طربًا. عندما أطلق سراح سعد وانضم إلى أخيه .

لقد كسب أمير مكة نصرًا عسكريًا لقضية الأتراك . إلا أن خصمه لم يقصد كما يبدو، أن ينفذ بنود الاتفاقية . فلم يدفع جزية على الإطلاق . وسرعان ما أخل بوعده الشفهى بالخضوع لسيادة السلطان ، بقيامه بإجراء لم يترك مجالاً لسوء الفهم .

عاد ابن سعود مع أخيه إلى الحريق ، واحتل المدينة .وكان قد فر منها المطالبون بالعرش ليطلبوا مساعدة أهل الحوطة لدى اقترابه منها . فرفض أهل الحوطة أن تكون لهم أية علاقة بالثورة مما اضطر الأمير سعودًا بن عبد العزيز وأبناء عمه الآخرين ، إلى متابعة هربهم إلى إقليم الأفلاج حيث تمركز أخوه فيصل مع بعض من زعماء حزان فى السيح . أما بقية الإقليم فقد كان يسيطر عليه ابن سعود بواسطة الحاكم أحمد السديرى الذى أبلغه أن معظم المطالبين قد هربوا والتجأوا إلى الشريف .

وحينئذ وقع سعود بن عبد العزيز وجماعة Hazzan أسرى فى يد صاحب الرياض فى ليلى. ولدى وصول ابن سعود استعرض الأسرى أمامه وحكم على زعماء حزان بالموت ، فنفذ فيهم الحكم فى نفس المكان . أما سعود قائد الثورة فى الغريب أن خصمه أطلق سراحه وخيره بين اللحاق بأبناء عمه فى الحجاز أو البقاء معه. فاختار البقاء معه ، وظل مواليًا لرئيسه على الدوام .

وبعد أن تخلص ابن سعود من أبناء عمه الثائرين قام بغارة على العجمان الذين . آواهم فكانوا بذلك مصدرًا دائمًا للمتاعب . وفى أثناء وجوده فى الصحراء الشرقية وصلته رسالة من الشيخ مبارك يطلب فيها مساعدته ضد قبائل المنتفك والظافر عند العراقية . إلا أنه بعد ما رآه من جابر يوم هادية لم يكن ميالاً للتعاون على الإطلاق ، لولا أن ورود رسالة أخرى أكثر أهمية من سابقتها حملته على تغيير رأيه . فسار على رأس قوة كبيرة إلى حفار البطين حيث وافاه حمود بن سويط وعقد معه الصلح . كما أعلمه فى نفس الوقت أن مباركًا نفسه قد أنذره

مستبقًا بالحملة لأنه ؛ فيما يبدو كان يحاول إيجاد توازن فى القوى فى الصحراء. فأغار ابن سعود على قبائل المنتفك فى كبدة وظهر فجأة فى صموان بالقرب من البصرة والزبير .

ومهما كانت الدوافع فى هذه التظاهرة التى قام بها ابن سعود والأتراك على أحر من الجمر بسبب اشتداد الحركة العربية الوطنية فى سوريا والعراق بعد ثورة ١٩٠٨ فقد بادر إلى الانسحاب لدى وصول الوفد السلمى الذى يمثل والى البصرة وسكان الزبير. ثم سار إلى جهرة بالقرب من الكويت حيث قام بغارة أخرى على العجمان فى منطقة الإحساء وذلك بعد أن أوضح له مبارك الأمر معتذرًا شديد الاعتذار عن مسلكه المبهم الأخير .

وكان دور الأتراك الآن ، تحت ضغط اتساع سلطان ابن سعود فى شؤون الصحراء ، أن حاولوا جره إلى جانبهم ليكون القوة المرجحة ضد الحركة الوطنية فى البلدان الواقعة على الحدود . لذا أرسل سليمان شفيق باشا والى البصرة ليتأكد من وضع الزعيم الوهابى، ولطلب مشورته بصدد أفضل الطرق فى معالجة الوضع العام .

وكان جواب الأمير الوهابى المدون شيقًا بلا شك ، لأنه كان أول أطروحة له فى ممارسة السياسة . فبعد مقدمة خاصة أنحى فيها باللوم المحق على الأتراك أنفسهم ، معتبرًا إياهم السبب فى المتاعب التى ضيقت عليهم فى كل جزء من الإمبراطورية العربية ، قال : لقد كانوا قانعين بأن يكونوا حكامًا دون أن يعرفوا مسؤولية الحكام فى التفكير بمصلحة رعاياهم . فإذا نشدوا السلاح فى الجزيرة العربية ليتفرغوا لمعالجة متاعبهم الداخلية يكون عليهم أن يتوصلوا إلى تفاهم مع العرب على أسس من الحرية والرضا . كما يجب عليهم أن يجمعوا جميع زعماء العرب : صغيرهم وكبيرهم ، بدون تمييز فى مؤتمر عام ، وفى مكان لايخضع للإدارة العثمانية ، حتى يكون هناك مجال لحرية الكلام المطلقة .

والغاية من هذا الاجتماع إيجاد توافق وانسجام فى البلاد العربية . ويجب أن يكون للزعماء الخيار: فإما أن تشكل الدول العربية مجموعة واحدة يرأسها حاكم يختارونه بأنفسهم ، أويبقى الترتيب الحالى القائم على كيانات سياسية منفصلة تتمتع كل منها باستقلال محلى تام ، وتظل الواحدة منها تحت سيادة حاكمها الذى يشبه الوالى فى الإقليم التركى. وإذا لزم الأمر، يجرى تخطيط حدود معرفة وثابتة بواسطة مساعى الأتراك الطيبة . وفى أى حاله ستبقى البلاد

العربية تحت سلطة السلطات العليا الذى سيكون مسؤلاً عن تنظيم الدفاع وتطويره أيضًا، بينما يتوجب على أهل كل وحدة حاكمة أن تتعاون مع جيرانها فى حماية الصالح العام وتشجيع العمل له ، مع ضمان تعاون الجميع لدفع العدوان من أيٍّ كان .

ثم أنهى كلامه قائلاً :

وبهذه الطريقة فقط يمكن لمصالحكم ولمصالحنا أن تتفق وتنجح ، كما يمكن ضمان حمايتها ضد أى عدو خارجى.

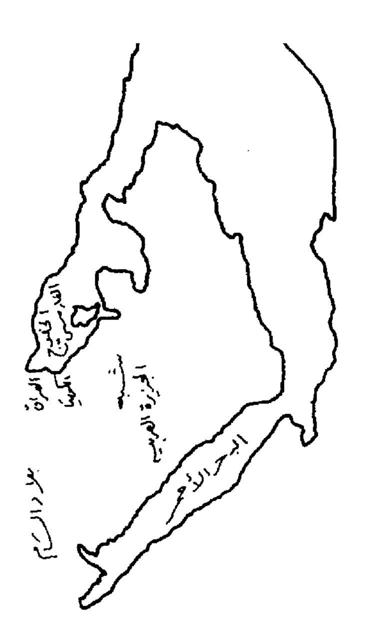
ويذكر أن متصرف البصرة قد تأثر بهذا الخطاب ، فأرسله إلى الباب العالى لإمعان النظر فيه . ولا بد أن الباب العالى اعتبر هذا الجهد من جانب ابن سعود محاولةً لبسط نفوذه على كامل الجزيرة العربية بمساعدة الإمبراطورية العثمانية وعلى حسابها . ومع ذلك كان الأجدى بالباب العالى أن يختار فترة الهدوء النسبى هذه ، لتعد الدولة العثمانية شراعها للعاصفة القادمة.

أما ابن سعود ، فبعد أن ثبت لديه أن مقترحاته لم تلق آذانًا صاغية ، لم يجد بدًا من أن يحمى نفسه بترتيبات أخرى. وكان قد حاول عبثًا طوال السنوات الاثنى عشرة السابقة أن يثير اهتمام الحكومة البريطانية ، بصفتها الدولة الوحيدة ذات المصالح الحيوية والقوة الكافية فى الخليج الفارسى ، لضمان مركزه فى الجزيرة العربية ضد أى اعتداء من أية ناحية . إلا أن بريطانيا لم تكن ميالة لزج نفسها فى مغامرات فى الصحراء. بل كانت مهتمة أشد الاهتمام بإرضاء تركيا سياسيًا ، ترضية تتلائم وحماية مصالحها فى الخليج الفارسى .

وهكذا وبسيطرة الأتراك على إقليم الإحساء سنة ١٨٧١ واستيلاء بريطانيا على جميع منافذ ساحل الجزيرة العربية من الكويت حتى مسقط ، وجد ابن سعود نفسه سجينًا فى الصحراء ، ومكشوفًا من الشمال والغرب لهجمات أعداء يتمتعون بمساعدة الأتراك وتشجيعهم ، بينما كان هو يعتمد على ولاء القبائل ، ومدن بلاده ، غير المضمون .

كان هذا مصدر ضعف خطير. ولابد أن ابن سعود أمضى ساعات وساعات خلال سنوات الكفاح السابقة وهو يفكر فى الوسائل الكفيلة بمجابهة أهواء القدر وتعقباته ، هذا القدر الذى أذل أسلافه بين الحين والآخر خلال تاريخ الحركة الوهابية التى بوأت البيت

السعودى مكان السيادة فى الجزيرة العربية . وقد شاهد هو بنفسه انهيار دولة محمد بن رشيد (ولعب دورًا بارزًا فى هذا السبيل) حالما توفى صاحب اليد القوية وزالت قبضته عن دفة السفينة . وحتى الإمبرطورية العربية فى أيام الإسلام الأولى تبددت بفعل القيادة الضعيفة والانحطاط الذى ولدته ثروة الأقاليم التى فتحها المسلمون .



بلاد الشام

ويبدو أن هناك ضعفًا فى جوهر المجتمع الصحراوى. فإنه وأن كان أهلاً للأعمال البطولية بدافع قضية كبرى أو تحت تأثير شخصية عظمى ، فهو فطريًا يعجز عن الحفاظ لأمد غير محدود ، على النظم الضرورية لتطوير ثمار النصر للصالح العام . فالقبائل الصحراوية والدول الدينية كانت على السواء واقعة تحت تأثير شعور من الولاء المحلى أو القبلى الذى تغلب على شعور الوطنية ، والمشاعر العامة الضرورية لإقامة دولة يسودها النظام .

هذا هو الضعف الذى وجد ابن سعود نفسه مضطرًا لإيجاد علاج له . فتاريخ أسرته جعل من الدين العنصر الأساسى لهذه الدولة . ولاشك بأنه وأباه كانا وهابيين صادقين مخلصين إلا أنه فى اوار القتال الضارى الذى دار فى تلك السنين الخوالى يعوزنا أى تاريخ مسطور يدل على الناحية الدينية فى عملياتها الحربية .

ومع ذلك يمكن الافتراض أن فكرة نهضة وهابية أخرى كانت تختمر فى رأس ابن سعود كعامل سياسى يستفيد منه ..

لقد تأثر بفكرة جديدة من النوع العادى لهذه النهضات ، وقد ركز جهود دعاته وحاملى رسالته بين البدو ، تلك الجهود التى بدأت ثمارها فى الظهور سنة ١٩١٢ . ففى تلك السنة اجتمعت جماعة مختلفة من قبائل حرب ومطير فى حرما بالقرب من المجمعة متأثرة بتحذيرات الدعاة من العقاب الأبدى، وأخذت تبحث عن معلومات أوفى حول هذا الموضوع ومن مصادر أوثق . وقد ساعدهم فى هذا الأمر المتحمسون من السكان المحليين . إلا أن تعصبهم وشدة تمسكهم وتزمتهم لمظاهر التقوى الشخصية سرعان ما أسخطت عليهم السكان الآخرين .

وقد قررت هذه الجماعة التى عرفت باسم الإخوان ، البالغ عددها خمسون شخصًا وعائلاتهم ، الهجرة إلى بيئة يكونون فيها أقل تعرضًا للخطر. فوقع اختيارهم على آبار أرطاوية الواقعة على طريق القوافل بين الكويت والقصيم ، لتكون بمثابة مستعمرة نساك ، وسرعان ما أصبح هذا المهجر نموذجًا للتجمعات العسكرية الدينية التى ظهرت تباعًا بسرعة مدهشة فى جيع أنحاءالبلاد التى تتوفر فيها الأحوال الملائمة للحياة الاجتماعية فى هذا المهاجر التعاونية .

أما ابن سعود الذى بدأ عملية التجديد بين البدو بواسطة دعاته ومرشديه ، فقد وضع جميع التسهيلات الضرورية تحت تصرفهم ، المال والحبوب والأدوات الزراعية وعلماء الدين، وكل ما هو ضرورى لبناء الجوامع والمدارس والمساكن . وأخيرًا زودها بالذخيرة والسلاح اللازم للدفاع عن مذهب كان أهم مبادئه الأساسية نبذ جميع العادات الوثنية والتقاليد القبلية الموروثة . فالأخوة القائمة بين جميع الناس الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، بغض النظر عن أنسابهم القبلية ومراكزهم الاجتماعية . وجهت شوق العرب للحرب ، إلى خدمت الله ووكيله على الأرض . وأصبحت الغارات المتبادلة والسرقة على قارعة الطريق ، والتدخين وترف الحياة وطراوتها محرمة . وتركز جل الاهتمام فى هذه التعاونيات (المستعمرات) فى التفكير والعمل لحياة أخرى .

أما نشاط الخمسين رجلاً من الإخوان وأعمالهم ، فقد كانت مدار بحث واسع فى القبائل التى هجروها ، فوفد المتطوعون من كل ناحية لينضموا إليهم . وسرعان ما أصبحت أرطاوية مدينة مزدهرة تضم عشرة آلاف من السكان . وتبعتها غطغط فى مقاطعة ضرما فتأسست فيها نواة من عتيبة ، اعتنقوا المذهب الجديد. ومع مرور الزمن أصبحت فى المرتبة الثانية بعد أرطاوية فى حماسها وأهميتها . ثم أنشئت القرى فى كل مركز بسرعة مدهشة . فنالت كل منها جزاءها فى الدينا والآخرة .

هذا مع العلم أن حماسهم البالغ مبلغ التعصب فى القضاء على الوثنيين المشركين (كلمة ضمنوها غير المسلمين ، والمسلمين الذين لم يعتنقوا مذهبهم فى الدين القويم) كان يستلزم الضبط والتقيد فى ساعة النصر والسلم على السواء. ولهذا كان جيش ابن سعود يضم أيضًا قوة من الإخوان ، يسيرون تحت أعلامهم الخاصة يرافقهم البدو الذين لم يعتنقوا المذهب بعد والحضر من الجيش الوطنى القديم . فكل فصيلة لها مهمتها الخاصة التى تقوم بها فى العمليات الحربية الأتية . وكان الإخوان هم خميرة المجموعة كلها بحكم شراستهم واندفاعهم العظيم الذى كثيرًاما أفاد ابن سعود فى التغلب على أعدائه .

وفى السنوات التالية أزداد عدد هجرالأخوان مع انتشار الحركة فى أقصى نواحى ديار البدو. غير أن المنزلة الرفيعة فى سجل الشرف يجب أن تكون من حظ الهجرة الأولى التى

اتخذت نموذجًا للأخرى. فاعتنقوا المذهب من قبيلة مطير واستقروا فى أرطاوية ، عاصمة المذهب الجديد ، وامتدت فروعهم إلى مبيض وبوضا وفريتان Furaithan ومليح والقريتان The two Quariyas . أما بطن برقة من قبيلة عتيبة فكان صاحب غطغط ذات الصيت البعيد، والروضة وأروى وسنام . بينها . أسس بطن رقة هُجرًا له فى داهنة وسوح والعرجا وساجر وعسيلة وكبشان ونيفى. أما هُجَر حرب فكانت دخنة وشبيكة والدليمية وقرين وساقية وحليفًا . وحنيظل ، وبارود وخصيبًا وقبا وفراره . ونزل المهتدون من شمر فى بنوان وفطيم وقصير وحفيرة وبلازبة وخبة واليتم والأجفر وكهفًا وبيضة نائل . أما عناصر عنيزة فاستوطنت فى شعبية والقلبان وشقيق . بينها قصدت قبيلة هتيم المتواضعة إلى خريفات والمسعى ومرير. وأما قحطان فهى صاحبة هيائم وجعفر وحصاة Alhasat (حفيرية) فى حين أن أهل وادى الدواسر استوطنوا مشيرفة ووسيطة من جملة أماكن أخرى. وسكن العجهان فى صرار Sarar حنينا Hanina وصحاف Sahaf والعقير وعريره ونطاع Nata أما العوازم فاستوطنوا الحاسى وتج والحنات وعتيق . وكان هناك مستعمرات مختلطة فى شباك وأبيرق وعين دار: أما الإخوان من سبيع والسهول فاستوطنوا ظبيع وبدع ، وسنيسف وأخضر وطسم والرويضة .

وهكذا كانت القبائل ومهاجروها .. وهى التى كونت الناموس الجديد. وسرعان ما وضعها ابن سعود موضع العمل فى حملات المرحلة الثانية من مراحل زحفه لقيادة الجزيرة العربية وسيادتها . وقد بدا أن حملات تلك المرحلة قد تعدت بصورة ما نوعية الحروب الضيقة المحدودة إلى مستوى أعلى فى الصراع الدولى ، لتواجه مجازفات خطيرة أعظم من أى مجازفة واجهتها من قبل .

وقد نجح ابن سعود فى حروبه هذه . وكان مدينًا بهذ النجاح إلى قوات الإخوان على الخصوص . غير أنهم ما لبثوا أن وضعوا سياسته فى مأزق حرج ، عندما أصبحت مسؤولياته الدولية تصطدم مع المعتقدات الدينية لرعاياه فالمؤرخ النجدى - الذى كتب بعد الحادثة - يوضح كيف أن ابن سعود الكريم اختص المستعمرات ومكنها من الوقوف على أقدامها فعين أميرًا وكل إليه تطبيق العدالة بين الضعيف والقوى من أبنائها كما زود كل واحدة منها بفقيه يعرف أهلها بحدود الشرع ويهديهم إلى مافيه منجاتهم فى الدنيا والآخرة .

هذا علاوة على أنه وفر للمهاجر الطعام بسخاء ويسر لهم الآلات الزاعية والسلاح والذخيرة .

ويقول المؤرخ : ظلت هذه الهجر ثابتة الإيمان مدة خمسة أعوام حتى ملأتهم الثروة والرخاء بالكبرياء وجعلتهم يفاخرون بقولهم : أن انتصارات ابن سعود كانت ثمرة بسالتهم وشيمهم الكريمة .

ويضيف قائلاً : هذا ما كانوا يعتقدونه .. وسأفصل فيما بعد ما ترتب على مسلكهم هذا من نتائج .

الفصل العاشر

التثبيت والاستقرار

فى نهاية عام ١٩١٢ تأصلت حركة الأخوان بصورة حاسمة ، وضمنت سرعة تعبئة هذه القوة الضاربة المستوحاة من المثل المتعصبة وأصبح ابن سعود السيد المعترف به فى أواسط الجزيرة العربية ونجد ، من إقليم وادى الدواسر جنوبًا إلى حدود جبل شمر شمالاً ، ومن الحدود الغربية للإحساء الواقعة تحت الحكم التركى إلى الحدود الشرقية للحجاز الذى كان أيضًا جزءًا من الامبراطورية التركية .

وكان هذان الإقليمان متصلين ببعضهما البعض بواسطة قوس يحوش العراق وسوريا.

أما جبل شمر الذى كان يعترف بالسيادة العثمانية ، فشكل دولة مستقلة تمثل مقاطعة داخلية من العراق وسوريا ، والقسم الشمالى من الحجاز ، ما فوق خط عرض ٢٧ . كانت الدولة الوهابية لم تبلغ أية نقطة على البحر ، بينما تحيطها من كل ناحية مراكز أمامية توسعية لدول عدوة تقليدية تقوى مركزها باحتلالها اليمن وعسير .

هذا فيما عدا الجنوب ، حيث صحراء الربع الخالى الواسعة التى ظلت تشكل خطًا دفاعيًا طبيعيًا ضد المناطق الواقعة على ساحل المحيط الهندى . ففى الطرف الجنوبى من اليمن كانت محمية عدن المستعمرة البريطانية ، وأراضى الكويت التى تعتبر عنصرًا فعالاً فى أنشطة الممتلكات التركية الشاسعة التى تحد الدولة الوهابية من ثلاث جهات ، كانت قد التجأت إلى الحماية البريطانية . أما البحرين والساحل المهادن ، وطرف عمان الساحلى ، ومداخل حضرموت فهى خاضعة للسلطة البريطانية بصورة أو بأخرى .

ومما زاد فى متاعب ابن سعود أن جميع البلاد التى كان يحكمها محرومة تمامًا من أية موارد طبيعية مهما كان نوعها . فمحصول التمر فى دولته لا يكاد يكفى حاجات سكان البلاد ، لا بدوهم ولا حضرهم .

وأما محصول القمح فقليل يحتاج إلى إمدادات من الحبوب تستورد من الخارج مثل الأرز. وكان ابن سعود أول من عمم استعماله كطعام رئيسى للطبقات الثرية .. وكان السكان الحضر يعتمدون كلية على مصادر ما وراء البحار فى لباسهم ، بينما اكتفى البدو بما يحيكونه محليًا من أدثرة . وكانت اللحوم والحليب والسمن وافرة فى سنوات الخير . ولكن أكل اللحوم كان يعتبر نوعًا من الرفاهية بين البدو على الرغم من أنهم يربون الأغنام . أما بيع الحليب فهو فى نظرهم عار وسبة فهم يمخضونه ليعرضون السمن وحده للبيع فى السوق . وكانت تربية الجمال مهنة البدو الوحيدة ، يبيعونها أو يؤجرونها للركوب وحمل الأثقال أو يبيعونها للجزار .

هذا فى البادية . أما فى المناطق الحضرية فقد اقتصر الأهلون على ممارسة الزراعة ووجهوا أنظارهم إليها أما النشاط المعمارى، ولنقل مهنة بناء الأكواخ ، فكانت مهملة جل أمكانياتها موجهة إلى تزويد السكان الفقراء بما يأوون إليه .

وهكذا . كان الوضع الاقتصادى متأزمًا حالكًا للغاية . أما الوضع السياسى فلم يكن مشجعًا أبدًا . فماذا يفعل عبد العزيز ؟ لقد بلغ أوجه . ولكنه كان يدرك جسامة ما يواجهه من مشاكل حتى بعد أن أتم ما استطاع من إنجازات باهرة . ولا ريب أنه كان يلجأ إلى العزاء والتشجيع فى النص الكريم الذى اتخذه فيما بعد ، دستوره . ومعناه : « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

وعلى كل حال ، عان ما أصبح ابن سعود على استعداد لتنفيذ الفصل الأول من مخططة للمستقبل . وقد يظن البعض لأول وهله أن مثل هذه الظروف ستضطره إلى الاتجاه نحو ضمان الاستقرار لحكمه فى الصحراء العربية بالقضاء على بيت آل رشيد فى حايل إلا أن عبد العزيز لم يكن يرى هذا الرأى .

ولربما فطن إلى أن ضمه جبل شمر إلى دولته سيزيد من أعبائه الاقتصادية .

ومهما يكن من أمر فقد أصدر ابن سعود أمره فى شباط سنة ١٩١٣ ، لإحتشاد قواته كلها . ثم غادر الرياض متجها إلى برك الخفس فى الطرف الغربى من هضبة عرمه ، حيث كانت تتوفر المراعى لحيوانات القوات المحلية التى يتألف منها جيشه وبينما هو ينتظر تكامل تعبئة جيوشه هناك ، أرسل فصيلة للإغارة على قبيلة مرة فنهبوها . وكان تغطية لخططه الحقيقية ولصرف الأنظار . إذ أنه بعد مسيرة قصيرة وصل إلى مشارف الهفوف ، عاصمة الإحساء . وهى المدينة التى زارها السائح الانكليزى الكابتن ج . ليشمان فى أواخر سياحته الصحراوية التى بدأها فى بغداد وانتهى منها إلى الرياض مارًا ببريدة بعد مغامرات عديدة وقعت له فى الإحساء .

وقد وجد الرحالة الانجليزى القوات التركية متذمرة فى منفاها القصى، وغير راضية بتمضية بقية أيامها فى تلك البرارى . . كانت ما أكثر أحلامها بالخلاص من الخدمة العسكرية فى الجزيرة العربية . وها هى فى أقل من خمسة أشهر بعد زيارة السائح الانكليزى تغادر البلاد إلى الأبد .

كان عدد الحامية التركية فى الهفوف ١٢٠٠ جندى . وكان فى القطيف فصيلة صغيرة تساندها أربابًا متفرقة موزعة فى عرض الإقليم . فماذا كان ينتظرها جميعًا ؟

قضى ابن سعود مساء الثامن من آيار فى الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم ، مصدرًا تعليماته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ خطته . وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع بعض أشجار النخيل فى واحة صغيرة قريبة ، وأخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق ، بينما وزعت حبال الآبار ، التى كان يحملها جميع المسافرين فى الجزيرة العربية، على أفراد فرقة المتسلقين كى يدلوها من أعلى الأسوار ، حين يبلغون أول هدف من أهدافهم .

وبدأ الزحف مشيًا على الأقدام فى منتصف الليل .. فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الأسوار . فقد تمكن المتسللون من إخراس بعض الحرس النيام إلى الأبد . وقبل أن تتمالك الحامية نفسها من الذهول الذى أصابها فى الظلام كانت قلعة الكوت الكبيرة فى أيدى الوهابيين . فانسحب الأتراك إلى جامع إبراهيم باشا بسرعة ، وتحصنوا هناك فى انتظار ما يجد من تطورات .

وفى هذه الأثناء استولى الوهابيون على إحدى بوابات المدينة فتدفقت قوات ابن سعود للداخل ، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية لتزيد من قدر الذعر الذى تملك السكان، وتحمل العدو على الإعتقاد بأن لا أمل له فى النجاة .

ثم أن السعودين أسروا تركيًا ، فأرسلوه إلى قائده ليطلب منه الاستسلام ، ويبلغه ابن سعود بصحة سلامة أرواح الحامية التى ستنقل بأمان إلى البحرين وأعدوا العدة لوضع لغم تحت البنايات التى لجأت إليها قوات العدو الرئيسية ووجهوا للمحاصرين تحذيرا بتفجير اللغم اذا تأخر استسلامهم عن موعد مقرر.

وحينئذ أعمل القائد التركى فكره .. فلم يجد بدًا من الاستسلام . وقد وافق على إلقاء سلاحه بالشروط التى عرضها ابن سعود.

وفى الوقت المعين خرجت الحامية كلها من الهفوف ، تحت الحراسة الوهابية وقيادة أحمد بن سنيان ، وهو ابن عم بعيد للقائد الوهابى . ومن هناك سافروا فى المراكب التى أوجدوها إلى البحرين ، حيث شرع القائد التركى يحاول جاهدًا إعادة الوضع السابق . فقام بإرسال قوات جديدة إلى عقير إلا أن بعضها أسر حال نزوله إلى اليابسة بينما عاد البقية إلى البحرين على متون سفنهم .

وسار ابن سعود بنفسه إلى عقير فأطلق سراح الأسرى وأعادهم إلى سفنهم ومن ثم توجه إلى القطيف فأخضعها بلا صعوبة وخرج السكان زرافات ووحدانا لتحية حاكمهم الجديد ، ومن هنا ومن مدن الإحساء وقراها استطاع ابن سعود أن يسد النقص فى مخازن مؤنته عاد ابن سعود فرحًا إلى عاصمته راضيًا عما أنجزه من أعمال خلال شهر واحد . وكان قد وضع الترتيبات اللازمة لإدارة إقليمه الجديد .

ووجه انتباهًا عظيًا لتعليم السكان الشيعيين المبادئ الجديدة التى ستسود من الآن فصاعدًا . فوضعت تصاميم بناء مدارس وجوامع ، وعين موظفون أكفاء فى الوظائف الخاصة بالجباية والإنفاق ، وأدخل الإصلاح إلى المحاكم كى تعمل وفق أمر الشريعة.

وأخيرًا وليس آخرًا عين ابن سعود حاكمًا جديدًا بقى فى منصبه حتى وافاه الأجل بعد ربع قرن ، فأصبح أسطورة فى حياته ، وهو عبد الله بن جلوى الذى رافق ابن عمه سنة

١٩٠٢ فى هجومه الجرئ الذى إستعاد به الرياض . كما ظل الحاكم العام فى القصيم منذ احتلها الوهابيون مرة أخرى . ولا شك أن ابن سعود استشاره فى خطة الهجوم على الإحساء فغادر بريدة معه ليشترك فى تلك الحملة قبل مجيئ ليشمان إلى المدينة فى كانون الأول سنة ١٩١٢ . وكان الحاكم آنذاك فهيد بن معمر . ثم عين ابن سعود صديقه عبد الرحمن بن سويلم الذى قاد القوة المرسلة لاحتلال القطيف أميرًا على الميناء تحت إشراف ابن جلوى بينما جعل عقير تابعة لإدارة عبد الرحمن بن خير الله الذى قدر له أن يبقى هناك ما بقى رئيسه فى الهفوف .

وهكذا وبقليل من الجهد ، وصل ابن سعود إلى ساحل الخليج الفارسى وكسب جبهة واسعة ، تمتد من اراضى الكويت فى الشمال إلى شبه جزيرة قطر فى الجنوب .

وفى قطر هذه توفى صديق ابن سعود وحليفه ، قاسم بن ثانى ، الذى بادر لنجدته سنة ١٩٠٥ أى نفس السنة التى انتصر فيها فى الإحساء . وكان قاسم قد شاخ وبلغ عمره ١١١ سنة . وكان هذا الرجل ذا سمعة أسطورية فاحتفظ بقدرته العقلية والجسمانية حتى النهاية . وكثيرًا ما كان يشاهد وهو يمتطى جواده مع فرقة من الخياله كلها مع أبنائه وأحفاده، وقد خلفه ابنه عبد الله ، فظل يحافظ على العلاقات الودية مع جاره العظيم الذى كان حكيمًا فلم يتدخل قط فى استقلال شبه الجزيرة.

أما رد الفعل الذى أحدثه فقدان الإمبراطورية العثمانية للإحساء فكان غير طبيعى . فبدأت المفاوضات مع ابن سعود بواسطة سيد طالب النقيب من البصرة ، بينما أرسل والى البصرة ، سليمان شقيق كمال باشا . للبحث مع زامل الصبحان ، الممثل لحاكم حايل (واسمه سعود بن رشيد) فى خطة لتزويده بالمال والسلاح اللذين يستخدمهما ضد ابن سعود . وبلغ الأمر ابن سعود فاحتج على زامل لإخلاله بنصوص اتفاقية الهدنه السارية المفعول بين الدولتين ، حين قبل اثنى عشر ألف بندقية ، وكميات مماثلة من الذخيرة والمال للإنقضاض عليه .

وحينئذ أعلن زامل صراحةً أنه فى جانب الأتراك ، بصفتهم الدولة ذات السيادة . وأبدى أنه سيعمل لمصلحتهم فيما إذا اصطدمت رغباتهم بعلاقاته مع الرياض . فقبل ابن سعود ذلك التحدى الضمنى وانتهت بذلك الهدنة .

ولما كان ابن سعود يدرك حرج مركزه ، نراه التزم جانب السلام أثناء مباحثاته مع سيد طالب فى الصبيحية القريبة من الكويت . فانتهت بإعطاء وعد شفهى بالاعتراف بسلطة السلطان فى الإحساء مقابل الأسلحة التركية والمال الكافيين لتأمين سلامة الإقليم . فعل ذلك ابن سعود وهو يعلم أن الإحساء أثمن جوهرة فى تاجه لما تنتجه من محاصيل زراعية وفيرة وتدره جماركها من واردات كثيرة ولم يحدث أن أضيف شىء جديد إلى هذه الإتفاقية . إلا أن الحرب التى نشبت بين بريطانيا وتركيا سنة ١٩١٤ قضت على آمال الأتراك فى إستعادة الإقليم إلى الأبد.

وعلى ضوء هذ التطور الجديد قام ابن سعود فى الوقت المناسب بتوطيد مركزه فى الإحساء خشية أن تقع فى يد قوات الحملة البريطانية المحتشدة فى البحرين وقد عمل جهده لتأمين عطف البريطانيين ومساعدتهم له فى الاستقرار ، بالنظر لانضمام تركيا إلى جانب ألمانيا حينذاك .

لكن السياسة البريطانية كانت لاتزال تحاول أن تمنع مثل هذا التطور . فعندما قام المندوب السامى البريطانى فى البحرين بزيارة مجاملة لابن سعود فى عقير بعيد سقوط الإحساء ، لم يكن يحمل عزاء ملموسًا يقدمه للأمير الوهابى وحين مر الكابتن هنرى شكسبير الذى كان قد زار ابن سعود من قبل فى إحدى مخيماته فى الرياض (أثناء رحلته العظيمة عبر الجزيرة العربية من الكويت إلى السويس) لم يبحث معه أكثر من المشاكل العامة الناجمة عن الوضع الجديد.

ولم يستطع أن يسرى إليه ببعض المعلومات التى لديه . وقد تعمد تلك التعمية فعلا . ثم ظل الأمر كذلك طيلة سبعة عشر عامًا .

أما فى سنة ١٩٣٠ فقد فاجأت بريطانيا الناس حين أبرزت مستنداتها كوارثة لبقية تركة الإمبراطورية العثمانية فى أراضٍ لم تملكها هذه قط ، ولم يجرؤ تركى واحد أن يغامر بالوصول إليها . وقد أصبح هذا الادعاء السخيف معترفًا به دوليا الآن . وقد لاحقت الحكومة البريطانية مطالبها الجديدة لعدة سنوات بعد كشفها ولا تزال أصداؤها تدوى منذرة بالسوء فى بعض أجزاء الصحراء الشرقية.

كانت المعلومات التى لم يشأ شكسبير أن يميط عنها اللثام تشير إلى أن السير إدوار جراى ، وزير الخارجية البريطانية قد عقد معاهدت مع إبراهيم باشا ممثل الحكومة التركية فى ٢١ حزيران ، أى قبل استيلاء ابن سعود على الإحساء بمدة شهرين . وأن هذه المعاهدت تتعلق بوضع مصالح بلديها فى بعض الممتلكات الواقعة على الخليج الفارسى : كالكويت والبحرين والإمارات الساحلية .

تقع جميع هذه الأماكن على حدود الإحساء بشكل من الأشكال ، الأمر الذى لم يذكر فى المعاهدة .. وإن ساد المفهوم بأنها تعتبر جزءًا من الإمبراطورمة العثمانية . وقد نص على ضرورة المصادقة على هذه الاتفاقية فى خلال ثلاثة أشهر ، غير أنه لسبب ما أجل التصديق عليها إلى الحادى والثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩١٤ ، اليوم الذى أعلنت فيه الحرب على الإمبراطورية العثمانية . ثم تبع ذلك ما هو أسوء . فلابد أن المفاوضات الخاصة بهذا الشأن قد تقدمت على الزمن الذى كان فيه شكسبير يتبادل المشاعر الودية مع ابن سعود أثناء زيارته له فى الرياض .

وعلى كل حال ، فما كان شكسبير يصل إلى السويس حتى كان المفاوضان نفسهما يوقعان فى لندن معاهدة أخرى فى التاسع من آذار سنة ١٩١٤ ، صدقا عليها حسب الأصول فى الثالث من حزيران . سواء كان الأتراك يأملون فى إستعادة الإحساء بمساندة البريطانيين وموافقتهم ، أم أنهم فعلوا ذلك بدافع الحقد على ابن سعود ، أو أن السفير البريطانى قام بهذا مدفوعًا بمقصد دنئ فى نفسه فلا يمكننا أن نعرف ذلك الآن .

أما بنود المعاهدة فكانت تنص على تقسيم شبه الجزيرة العربية باكملها بين الحكومتين ، على أن يتم ذلك حسب خط مستقيم يمر من أسفل شبه جزيرة قطر عبر الصحراء ويلتقى بالطرف الشرقى للحدود المعينة سنة ١٩٠٢ لتفصل بين اليمن وبين محمية عدن . وكان من أثر ذلك أن غدا كل ما هو شمالى هذا الخط ملكًا للأتراك بما فى ذلك نجد نفسها . بخلاف ما يقع جنوب هذا الخط فهو من أملاك بريطانيا.

ولهذا لا غرابة فى أن الحكومة البريطانية كانت حريصة على ألا يعلم ابن سعود بدسائسها مع أقوى أعدائه .

والأنكى من هذا أن تأخير إفشاء هذه المكائد أوجد شعورًا مازال سائدًا . حتى الآن بأن الحكومة البريطانية قد أخذت على نفسها دور تركيا ، كألد أعداء الحكومة الوهابية . وأنه ليكن القول بأن هناك عوامل أخرى نشأت فى غضون الحرب العالمية الأولى ثم بعده ، أخذت تثبت صحة هذا الشعور وتقويه .

عندما نشبت الحرب فى تشرين الأول سنة ١٩١٤ ، استدعى شكسبير من أجازته وأرسله السير برسى كوكس الضابط السياسى الأعلى فى قوات الحملة فى العراق ، ليمثل مصالح بريطانيا فى الرياض . وكان الرجل سفيرًا مثاليًا ، ذا ثقافة عسكرية وإدراك وبداهة سياسية فى تعامله مع العرب ، كما كان مبعوثًا إلاهيًا لابن سعود وربما كان خطأه الوحيد أنه لم يتنازل أن يرتدى الملابس العربية أثناء وجوده بين ظهرانى البدو فى الجزيرة . وقد تطور ذلك مع الزمن إلى شعور بالكراهية للأجانب ، أثاره التعصب الدينى وعند وصوله كانت الحرب المتوقعة بين حايل والرياض قد بدأها ابن رشيد بوحى من أصدقائه الأتراك . فقد وصل فى أواخر شهر كانون الثانى إلى الحدود السعودية فاتخذ ابن سعود الترتيبات وأعد الخطط لمقاومة هجومه ، وقد رافق شكسبير مضيفه فى هذه الحملة واشترك إلى جانبه فى المعركة التى نشبت فى موقع قريب من زلفى. وكان النصر حليف المشاه الوهابيين فى أحد الجناحين بينما كانت الغلبة لخيالة جبل شمر فى جناح آخر . أما شكسبير الذى كان يشرف على مدفعية الوهابيين فقد قتل . وانسحبت القوات المتحاربة ، وكل منها يدعى النصر لنفسه فى حرب أشبه بالمداعبة والمزاح .

وكان موت شكسبير فى كانون الثانى سنة ١٩١٥ كارثة لبلاده كما هو لابن سعود فظل الأخير متجهمًا فى خيامه لا يؤثر فى التطورات الجارية فى الأنحاء الأخرى من الجزيرة العربية، والتى جعلته الآن فى مركز ثانوى فى السياسة العربية . هذا علاوة على أنها زادت أعداءه وضخمت قوتهم . ونخص بالذكر من هؤلاء أمير حايل ابن رشيد ، الذى إنحاز إلى الأتراك ، وكان أهم من غيره إذا قورن بالشريف حسين فى الحجاز أو بالزعماء الآخرين من حلفاء الأنجليز .

وزاد الأمر سوءًا أن السير برسى كوكس لم يكن مستعدًا باى حال من الأحوال أن يجازف بحياة أحد من موظيفه فى مهالك الصحراء مع أنها آنئذ كانت فى الواقع أعظم الأماكن

أمنًا فى العالم غير أنه هو نفسه أخذيهتم بأمر ابن سعود ، فقد كانت بينهما اتصالات وعلاقات رفيعة أحسن حبكها عبد اللطيف بن قنديل ممثل ابن سعود فى البصرة .

وفى هذه الأثناء فوضته الحكومة البريطانية أن يسير فى الخط الذى قترحه شكسبير بعد مباحثاته مع ابن سعود . فأرسلت مسودة معاهدة صداقة إلى ابن سعود لدراستها وترقيمها ، وأعيدت إليه موقعه حسب الأصول مع بعض التعديلات وقد اقتضت هذه التعديلات دراستها من جديد . ولم يتمكن السير برسى كوكس من مقابلة ابن سعود فى القطيف إلا فى نهاية سنة ١٩١٠ . وهناك وقعا على معاهدة نصت على الاعتراف باستقلال ابن سعود وضمان بلاده ضد أى اعتداء خارجى عليها ، شريطة أن تكون حدودها حسب ما تتمخض عنه الحرب . وذلك مقابل تعهد ابن سعود ألا يهاجم الحاميات البريطانية فى الخليج الفارسى. ونصت المعاهدة كذلك كالمعتاد على عدم نقل ملكية الأراضى إلى أية دولة أجنبية ، وعلى إدارة العلاقات السياسية مع أية دولة مثل هذه .

أما إظهار المشاعر الطيبة نحو ابن سعود فقد تم سلفًا فى الصيف الفائت ، إذ قدمت له السلطات البريطانية ألف بندقيه وعشرين ألف جنيه انجليزى . كما سهل له وكيلها السياسى استيراد الذخيرة لحسابه الخاص من البحرين . وكان هنا يفى بحاجات الحملة التى سيرها فى ذلك الحين ضد العجمان فدحرهم فى شهر أيلول وألجأهم إلى الكويت .

ومن الجدير بالذكر أن السير برسى كوكس ظل أثناء هذ المفاوضات متحفظًا فلم يذكر أمرًا بالغ الأهمية كان يمكن أن يثير اهتمام ابن سعود أن لم يشر قلقه أنه لم يشر إلى المفاوضات الجارية بين السير هنرى مكماهون والشريف حسين شريف مكة ، للقيام بالثورة العربية فى حزيران سنة ١٩١٦ . ولم يورد أى ذكر للحدود الغربية لمملكة ابن سعود فى المعاهدة ، الأمر الذى كان مصدر متاعب كثيرة فيما بعد.

وقامت ثورة الحجاز .. وبلغ الخبر ابن سعود ، فاحتفظ لنفسه مسلكًا سليمًا وإن كان لم يخف قلقه من أن مطامع الشريف حسين (الملك) قد تتصادم مع مصالحه أما الحكومة البريطانية التى قررت أن تدعم الثورة العربية بأى ثمن آنذاك فقد ألقت على عاتق السير برسى كوكس أن يلعب دور المعزى لصديقه فى محنته غير أن تأكيداته لابن سعود لم تقتلع غضبه أو تحد من قلقه .

وفى نهاية عام ١٩١٥ توفى الشيخ مبارك ، شيخ الكويت ، الذى أخذ منه الحسد مأخذه، فبدأ يساوره القلق فى شيخوخته من طموح رجل دربه فى شؤون السياسة على يده . وذلك نقيض ابنه وخليفته جابر ، فقد كان هذا يكن الصداقة لابن سعود إلا أن حكمه باء قصيرًا فلم يؤد إلى نتائج ملموسة فيما يتعلق بالخطر على أمن ابن سعود ، وهو الخطر المتأتى عن وجود اللاجئين من العجمان فى الكويت وما أن خلفه أخوه سالم سنة ١٩١٦ ، وكان هذا معاديًا لابن سعود بشكل سافر ، حتى اتجه ببلاده نحو خصوم الرياض .

والحق أن ابن سعود كان فى وضع يحسد عليه ، بسبب النزاع القائم فعلاً أو المتوقع سريعًا بينه وبين كل من الحجاز وشمر والكويت ، بالإضافة إلى البرود المتزايد فى علاقاته مع الإنكليز ولهذا نراه الآن يلح فى طلب اجتماع ثان بينه وبين السير برسى كوكس ، فتم الاجتماع فى عقير . وكان فى الظاهر من أجل البحث فى الوسائل التى ستمكن ابن سعود من السير قدمًا فى حملته ضد ابن رشيد ، إلا أنه فى الواقع ، ومن وجهة نظر ابن سعود على الأقل كان نوعًا من محاولة جلاء موقف بريطانيا فيما يتعلق بالتدابير التى اتخذتها مع الشريف حسين خصوصًا وأن الشريف كان قد أعلن أن الأنكليز اعترفوا به مَلِكًا على العرب .

وقد أكد السير برسى كوكس لابن سعود أن استقلاله لن يمسه بشكل من الأشكال ، ودعاه للاشتراك فى مؤتمر لزعماء العرب فى العشرين من تشرين الثانى سنة ١٩١٦ ، يتم عقده لتقديم النياشين والأوسمة له ولجابر وفى الاجتماع تبادلا المشاعر المهذبة وتمكن برسى كوكس من تهنئة جميع الحاضرين على علامات الوحدة العربية التى أخذت تظهر فى ذلك الحين . ولم يطل عمر جابر بعد الوسام الذى ناله .. بينما قبل ابن سعود دعوة السير برسى لزيارة البصرة ضيفًا عليه وعلى القائد العام . وكانت هذه أول مرة يسافر فيها إلى بلد أجنبى وقد تأثر لدى رؤيته ذلك العدد الوافر من المعدات الحربية الحديثة ، وربما استخف بواقع أن أعظم مضيفيه فى مكانه كانت مجرد امرأة تدعى جرترودبل .

وعلى كل حال فإن النتيجة العملية لتلك الاتصالات كانت التوصل إلى اتفاقية سيتقاضى ابن سعود بموجبها منحة شهرية مقدارها خمسة آلاف جنيه ، بالأضافة إلى أربعة رشاشات وثلاثة آلاف بندقية ، وكمية كافية من الذخيرة كل ذلك من أجل الاحتفاظ بقوة

قوامها أربعةالآف رجل فى الميدان تظل جاهزة لشل يد ابن رشيد بصورة دائمة ومهاجمة عاصمته إلا أن التفاؤل البريطاني الرسمي بشأن مدى اتحاد العرب فى دعم قضية الحلفاء قد أسئ فهمه بصورة تبعث على الأسى . ففى خلال اثنى عشر شهرًا بدأ التشكك والحسد يذران قرنهما فى السياسة العربية . وكانت أولى الرصاصات التى اطلقت فى الحرب ستؤدى إلى سقوط الحسين وضم الحجاز ومدنها المقدسة إلى الدولة الوهابية .

كان هم السير برسى كوكس الوحيد منذ مطلع عام ١٩١٧ وما بعدها حصار المراكز التركية الواقعة وراء العراق المحتل ، بقطع النظر عن الحاجة إلى صرف أنتباهه عن عمليات الحلفاء فى الحجاز بتشجيع على اتخاذ إجراء ضد ابن رشيد ومهاجمته . إن ندرة المؤن واختفائها فى سورية وارتفاع مستوى أسعار المواد الغذائية والسلع ، أوجد سوقًا رائجة للمهربين . فقد كان الحمالون يجلبون البضائع الممنوعة ، عبر الصحراء العربية إلى دمشق من العراق نفسها ومن موانئ الخليج الفارسى . وقد كان الشيخ سالم شيخ البحرين يغض الطرف عن هذه العمليات التى كانت تجرى فى بلاده وكان يتقاضى ضريبة على الأرباح مقدمًا فيما كان تجار القصيم والأجزاء الأخرى من البلاد السعودية ينقلون بضائعهم إلى حايل ، ومن هناك كانت تنقل إلى الأتراك .

كان المنتظر من ابن سعود أن يوقف هذه الحركة باعتبار أنها جزء مهم من حملته على ابن رشيد ، وكان هناك ولا ريب بعض القوافل التى استطاعت أن تمر.

وكان الحاكم المدنى فى بغداد مهتمًا بالعلاقات غير الودية القائمة بين الكويت والرياض ، وذلك لأنها أوجدت قلقًا فى البلاد الداخلية ضمن نطاق العمليات الحربية فى العراق بشكل جزئى ، ولأنها أوجدت تسهيلات كبيرة فى عمليات التهريب . وقد وعد أيضًا بأن يتخذ أجراء يرضى ابن سعود بشأن قبائل العجمان الموجودين فى الأراضى الكويتية ، التى كانوا يستخدمونها (دون خوف من عقاب) فى الإغارة على قبائل نجد .

وكان هناك أيضًا أمور أقل شأنًا مما مضى : مثل نسبة الرسوم الجمركية التى تحصل فى الكويت والبحرين على البضائع المصدرة إلى نجد ، وإمكانية إيجاد عملة نقدية تفى بحاجات البلاد اليومية . وقد بلغت هذه الأضرار ذروتها فى خريف عام ١٩١٧ ، حين طفق السير

ريجنالد وينجيت المندوب السامى البريطانى فى مصر . يطلب الإلحاح على ابن سعود لحمله على الضغط على حايل فى الوقت الذى فقدت فيه الثورة العربية زخمها وأصبحت مهددة بالتوقف التام . فأرسل الكولونيل لورنس إلى جدة ليبعث الحياة فى هذه الحركة ، بينما بعث المستر ستورز وهو ممثل آخر للسير ريجنالد وينجيت (فيما بعد سير) إلى بغداد للبحث فى الوضع العام مع السير برسى كوكس . فاقترح الأخير أن يذهب ستورز إلى ابن سعود ممثلا شخصيًا له لتقديم اقتراحات مدروسة لإزالة أسباب الجفاء القائمة بين الصديقين العربيين الرئيسيين لبريطانيا .

وكان لسوء الحظ لم ينجح هذا المشروع لأن ستورز أصيب بضربة شمس فى الطريق ، فبادر إلى مغادرة الجزيرة العربية بسرعة . أما السير برسى كوكس فلم يفقد الأمل فى القدرة على حل المشكلة المعقدة ، وإن كان قد شعر باليأس متذكرًا اختباراته أثناء بعثته الثانية إلى ابن سعود .

وبعد مشاورات طويلة بين بغداد والقاهرة تقرر أن ترسل بعثة صغيرة إلى الرياض ، وينضم إليها ستورز هناك عن طريق الحجاز .

أما الجزء الأخير من الاتفاقية فقد حال دونه الملك حسين منذ البداية . فلم يقبل أن يتحمل مسؤولية سلامة ستورز ، بسبب الحالة المضطربة التى كانت تسود الصحراء . وفى تشرين الثانى عام ١٩١٧ وصل ممثلو السير برسى كوكس إلى عقير . وساروا عن طريق واحة الإحساء حيث أمضوا أيامًا فى ضيافة عبد الله ابن جلوى المشهور ، فوصلوا الرياض فى نهاية الشهر للبحث مع ابن سعود فى الوضع كله . وبعد أن أتموا هذا ، وأرسلوا بتقريرهم إلى بغداد، سارت البعثة إلى الحجاز بعد أن شملها ابن سعود ببركته ، فوصلت الطايف يوم عيد الميلاد دون أى حادث يذكر الأمر الذى أدهش الملك حسين وأغضبه ، إذ اضطر لوضع الترتيبات اللازمة من اجل استمرار سفرها إلى جدة .

كان من المؤمل انضمام ستورز إلى البعثة ، غير أن القدس سقطت فى أيدى جيش الجينرال اللنبى البريطانى ، فأصبح ستورز أول حاكم لها ، ووصل إلى جدة الكوماندر د . ج . هوجارث بدلاً عنه وحضر الملك حسين من مكة فى الوقت المعين لاستقبال ضيوفه من

الغرب والشرق . وكانت المباحثات التي تلت ذلك عقيمة ، رفض الملك حسين الاعتماد كلية على ابن سعود ، وعلى الأخص فى قضية ملكية خرما التى هاجمتها حملة من مكة فى شهر كانون الأول ، فلجأت إلى ابن سعود ليقوم بواجب الدفاع عن رعاياه .

ولقد عادت البعثة إلى ابن سعود عن طريق البصرة . أما السير برسى كوكس فغادر العراق إلى طهران ليصبح سفيرا لبريطانيا فيها . بينما عين ارنولد ولسن مبعوثًا سياسيًا مكانه . ولم يكن ابن سعود ليتحمل استفزازات الملك حسين بشأن خرما التى أصبحت الآن محك إخلاص بريطانيا وصداقتها هذا مع العلم بأن مكة هاجمت الواحة مرتين خلال فصل الصيف ولم يحرك هو ساكنًا أكثر من إعلانه أنه سيزحف على الشريف فى حالة وقوع أى اعتداء آخر .

وفى هذه الأثناء وجهت البعثة جهودها كلها إلى الإلحاح عليه بضرورة مهاجمة حايل إذا رغب فى استمرار العون البريطانى.

فوعد ببدء الحملة فى آب وقد صدق فى وعده : فتغلغل إلى قلب جبل شمر ودمر بعض مراكز ابن رشيد البدوية الأمامية . ثم ظهر أمام حايل نفسها . وكانت على درجة من القوة تجعل القيام بالهجوم عليها دون مدفعية مستحيلاً وعاد ابن سعود إلى بريدة حيث أعلمته البعثة أن بريطانيا لم يعد يهمها مصير ابن رشيد ، لأن تركيا خرجت آنذاك من الحرب . ولم تكن هذه أخبارا سارة لابن سعود الذى أصبح الآن حرًا فى أن يتبع أساليبه الخاصة أثناء ما كان الحلفاء المنتصرون منهمكين جدًا فى تخاطف الانتدابات والامتيازات الأخرى ، فلم يأبهوا للتوتر الذى كان يسود العالم العربى آنذاك .

إلا أن ابن سعود استطاع بعد مرور أشهر معدودة ، أن يحملهم (أو يحمل بريطانيا على الأقل) على أن يفهموا واقع الجزيرة العربية : هذه الأشهر التى كانت مأساة بالنسبة إليه ، فقد قضى وباء الأنفلونزا الأسبانية فى أوخر فصل شتاء ١٩١٨ - ١٩١٩ على ولده البكر تركى ، وعلى ولدين آخرين ، وعلى زوجته الأولى جوهرة .

أما الملك حسين فهو الذى أخذ يجرجر ذيله مزهوًا أمام الأمير الوهابى الساخط .. فقد أرسل ابنه الثانى عبد الله على رأس حملة قوية ، مصدرًا إليه التعليمات باحتلال خرما بأى

ثمن. فوصل عبد الله إلى ترابة حيث مكث فترة فى معسكر محصن تحصينًا قويًا ، وأخذ يعاقب بعض أهالى الواحة المشكوك فى ولائهم ، قبل أن يسير إلى هدفه الرئيسى من هذه الحملة .

وفى هذه الأثناء وصلت قوة وهابية كبيرة إلى خرما وفاءً من ابن سعود لوعده فى الدفاع عن الواحة عند قيام الشريف بهجومه الرابع عليها . فبادر بعض المواطنين الساخطين وأعلموا خالدًا بن لؤى أمير خرما عن مواقع معسكر عبد الله . وفى جنح الظلام قام الإخوان المتعصبون بمهاجمة المعسكر من جميع الجهات ، وأخذوا يذبحون المدافعين الضعفاء ، بينما نجا عبد الله وأركان قيادته بفرارهم على ظهور الخيل عند أول إنذار بالخطر . وكذلك نجا بعض المجندين من البدو الذين رافقوا قواته وخيموا خارج محيط مخيمه .

وكانت الهزيمة ساحقة ، إذ استولى الوهابيون على مدافع الحملة وبنادقها وذخيرتها وعلى جميع معداتها ومخازن مؤنتها . ووصل ابن سعود إلى مكان المعركة بعد يوم أو يومين فتوج النصر الساحق بضم الواحة إلى ملكه .

ومن العدل بالنسبة للملك حسين أن نذكر بأنه كان فى أوائل السنة قد قام بإعلام الحكومة البريطانية عن عزمه على إحتلال خرما وطلب منها أن تبارك مشروعه .

وفى منتصف شهر آذار عقد اللورد كيرزن مؤتمرًا مع موظفيه للبحث فى المشروع وتوصل المؤتمر إلى قرار إجماعى تقريبًا فحواه أنه : بالنظر لتأكدهم من أن قوات الشريف المدربة تدريبًا جيدًا والمجهزة تجهيزًا كاملاً تستطيع أن تلحق الهزيمة بالجيش الوهابى. وبالنظر للسياسة البريطانية الراسخة فى مساعدة قضية الشريف ، إذا تم ذلك بدون المجازفة بزج الحكومة البريطانية فى أية مغامرات فى الصحراء ، لذلك يقرر المؤتمرون أن خرما جزء من المملكة الحجازية وأنه يجب أن يسمح للشريف باتخاذ الخطوات التى يراها كفيلة بإثبات حقوقه فيها .

وفى نفس الوقت استقر الرأى على إبلاغ هذا القرار إلى ابن سعود مع التحذير المناسب من مغبة التدخل فى الأمر خشية أن يخسر ثقة الحكومة البريطانية ومنحه الخمسة الآف جنيه الشهرية .

ولقد تجاهل ابن سعود الإنذار وتصرف كما رأينا ، وحشد قوات الإخوان وانطلق إلى خرما . وما كاد يصل إلى آبار سخا ، حتى هاجمت طليعة جيشه جيش عبد الله وأبادته .

لقد وقع الشحم فى النار .. ومرة أخرى عقد اللورد كيرزن لجنته الإدارية للبحث فى نتائج القرار الأول . وفى هذه الأثناء أبلغت أوامر توقعت الدفعات الشهرية برقيًا وبشكل أتوماتيكى إلى أرنولد ولسن من قبل موظف متحمس . ولحسن الحظ أنها سلمت إليه شخصيًا من قبل ساعى بريد ، وهو فى طريقه لنزهة فى سيارته . ولدى اطلاعه على محتوياتها ، وضع الرسالة فى جيبه ونسى كل شىء عنها .

أما من جهة لجنة اللورد كيرزن فأجمعت مطمئنة إلى أن أفرادها قد قاموا بشئ ما لإثبات وجود السلطة البريطانية ولأن يُفهموا ابن سعود أنه لا يستطيع أن يتجاهل رغبات وإنذارات حكومة صاحبة الجلالة . إلا أن الهيئة المذكورة دعيت للبحث فى أمور أكثر خطورة، فلقد أبلغتهم السلطات البريطانية فى جدة ، بأن مكة فى أمور أكثر خطورة وجدة فى حالة فزع من وصول الوهابيين . وأن أحد عشر ألفًا من الحجاج قد لجأوا إلى المياه ومعظمهم من الرعايا البريطانيين الذين لا يمكن تركهم يلاقون مصيرهم بدون إلحاق الأذى بسمعة بريطانيا وشرفها . وسبب الحاجة الماسة إلى وسائل النقل فى تلك الأيام صدرت التعليمات إلى مندوب الأميرالاى بإبلاغ تلك الهيئة أنه لا يمكن إرسال أية سفينة لهذا الغرض . كما أبلغهم مندوب وزارة الحربية أنه لا يوجد لديه جيش للدفاع عن اللاجئين !

أما الرأى القائل : بأن ابن سعود لن يزحف على كلٍ من جدة أومكة . فقد لاقى الازدراء لسخافته ، ولم يؤكده العراقيون المطلعون على خفايا الأمور .

وبد أنه لاعلاج للوضع .. إلا أن مندوبًا أرسل فى طائرة ليسترضى ابن سعود ليصرفه ، إن أمكن عن احتلال الحجاز. كما أرسلت ست طائرات إلى جدة لضرب الوهابيين من الجو إذا دعت الحاجة لذلك . إلا أنها لم تستخرج من صناديقها مطلقًا . وعندما وصل المندوب إلى مكر قيادة الجنرال اللنبى الذى كان آنذاك مندوبًا ساميًا فى مصر ، أعلم بأن ابن سعود قد سحب جيوشه المنتصرة من ترابه إلى الرياض .. لقد ضم ترابة فقط إلى ملكه فتغاضت الحكوت البريطانية عن ذلك ووافقت عليه .

ودعت بريطانيا ابن سعود لإرسال ممثل عنه إلى لندن لبحث الوضع كله .

وتمت الزيارة خلال أشهر الشتاء سنة ١٩١٩ حين وصل الأمير فيصل ، آنذاك وعمره أربعة عشر عامًا ، مسؤلاً عن البعثة الوهابية التى تركت أثرًا حسنًا فى لندن . فقد اعتبر البريطانيون أن مشكلة خرما قد انتهت حسبما تشير الأوضاع الراهنة . فقد اعتبر البريطانيون أن مشكلة خرما قد انتهت حسبما تشير الأوضاع منذ آيار الماضى . وأنه لا مجال لإعادتها بدون مقابل . إلا أن القدر كان يطوى مفاجأة للهيئة الإدارية ، فلقد اعترض فيها على الادعاء القائل بأن المنحة المالية قد أوقفت ولكن ربما أن قابضى المنحة البريطانية كانوا فعلاً فى لندن فلم يكن من الصعب التثبت من الأسرة أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم حتى ذلك التاريخ ولقد أوجد هذا شعورًا حسنًا فلا مجال للتفكير فى قطع المنحة.

وفى هذه الأثناء أخذ الوضع فى العراق يصبح دقيقا . . فقد أصبح الشريف فيصل ملكًا على سوريا وأخذ يعمل سرًا وجهرًا على تقويض تدابير الإمبراطورية البريطانية التى كان السير أرنولد ولسن يسعى لترسيخها فى العراق . وفى أوائل عام ١٩٢٠ نشبت الثورة ، وأصبحت الأحوال السياسية فى تلك المنطقة تستدعى استعراضًا محرجًا . فقررت الحكومة البريطانية أن تستدعى السير برسى كوكس من طهران ، للتداول معه فى سياسة أكثر تساهلاً فى العراق يضعها هو بصفته مندوبًا ساميًا .

وقد منحته الرحلة البحرية إلى البصرة فرصة لتجديد الاتصال بابن سعود فجاء لمقابلته فى عقير . وكان جل اهتمام ابن سعود آنئذٍ منصرفًا إلى ما كان يشاع عن عزم الحكومة البريطانية تقديم تاج العراق إلى الشريف فيصل بعد أن فقد عرشه فى سورية يوم ميسلون فى تموز عام ١٩٢٠ . واستطاع كوكس أن يهدئ من قلق الوهابيين من هذه الجهة لأنه قرر نهائيًا ألا يتخذ إجراء حاسمًا فى العراق إلا بعد دراسة الوضع درسة دقيقة شاملة ، ولم يكن السير برسى راضيًا بأى شكل من الأشكال ، عن فكرة جعل مرشح لورنس حاكمًا للبلاد ، لمجرد أنه ساهم فى الثورة وحين بحثت قضية ابن رشيد بصورة عامة كان من الواضح أن كوكس يعتبره عاملاً مفيدًا فى المحافظة على توازن القوى فى الصحراء . ولقد استنتج ابن سعود بلا شك ، أن مركزه سيصبح حرجًا بسبب تحدى حاكم شمر ، منافسه القديم بتشجيع من الإنجليز .. لأن مبعوث ابن رشيد كان فعلاً فى بغداد يتفاوض مع جوترودبل آنذاك .

ويبدو أنه قرر الدفاع عن نفسه ضد أعدائه الفعليين الأقوياء الذين شكلوا حلقة حول حدود بلاده الشمالية . مع ذلك كانت خطوته الأولى إرسال الأمير فيصل الشاب على رأس جيش قوى لاحتلال مرتفعات عسير والواحات التى تحدها من جهة الصحراء . وكان الهدف من هذه الحركة أن يدعم الفوائد التى جناها فى خرما وترابة . وهكذا أصبح خط دفاعه الغربى يمتد إلى خميس مشيط مارًا ، ببيشة وغدا فى وضع يتمكن معه من السيطرة على قبائل المرتفعات حتى حدود الطائف .

ودفعته حركته الثانية إلى الدرجة التى لابد منها كى يصل إلى مطامعه الكبرى بصورة حاسمة .

وكان سعود ابن رشيد قد قتله ابن عمه عبد الله بن هلال أثناء نزهة لهما عام ١٩٢٠ ، غير أن القاتل قتل فى الحال على يد عبيد المغدور ، كما سجن عبد الله بن متعب الذى تسلم العرش ، أخاه محمدًا بن طلال ، وهو حفيد عبد العزيز بن متعب ابن رشيد ، عدو ابن سعود القديم . وقد ظهر ضعف عبد الله كحاكم ، فى ضعف الدولة العام ، التى أصبحت العناصر الشريفية تتودد إليها بشدة وبدأ القدر يشير إلى الشريف فيصل على أنه الملك المقبل للعراق .

أما ابن سعود فلم يكن باستطاعته أن يتمهل فى مسألة حايل ، فالسيطرة عليها ستمكنه من السيادة على الصحراء كلها ، بينما يغدو مركزه فى الجزيرة العربية فى منتهى الحرج والخطورة إذا سيطرت عليها أية عناصر شريفية . ولهذا أرسل أخاه محمدًا إلى الشمال على رأس قوة من الوهابيين كان يساعدها فيصل الدويش فى الشرق ونورى الشعلان زعيم عشائر الرولى السورية ، بالضغط على واحات الجوف .

وكانت هذه العمليات مجرد جس نبض واختبار ، أثناء ما كان ونستون تشرشل يعقد مؤتمرًا فى القاهرة لوضع مخطط عام لمستقبل الشرق الأوسط .

وجاء القرار الرئيسى للمؤتمر تنصيب فيصل ملكًا على العراق . إلا أن بطل معركة ترابة، الشريف عبد الله ، أربك المؤتمرين بحضوره إلى عمان على رأس جيش كبير لمهاجمة الفرنسيين فى سوريا ، وقد تمكنوا من حمله على التخلى عن هذا المشروع بأن عرضوا عليه إمارة شرق الأردن .

وكان هذا الأمر بالإضافة إلى ثبوت تولى فيصل الحكم فى العراق ، حافز لابن سعود على العمل . أنه لم يعد بإمكانه التريث عن أن يفكر جديًا بالحملة على حايل ، فتولى قيادة الجيش بنفسه وظهر أمام حايل فى طريف ، بعد تتويج فيصل فى بغداد بمدة يسيرة . وهناك طلب أن تتنازل أسرة ابن رشيد ، وأن يضع أعضاؤها البارزون أنفسهم تحت تصرفه ، إلا أن وفدًا من الأهلين قابله فى معسكره وأبلغه رفض طلبه وكذلك فعل عبد الله بن متعب . غير أن عبد الله بن متعب هذا كان على وشك أن يقع فى عقاله ولمواجهة الوضع البائس فى الشمال، حيث كان الجوف فى خطر الاحتلال من قبل نورى الشعلان ، أطلق ابن متعب محمدًا بن طلال من السجن ليقود جيشًا لإنقاذها . ولدى عودة محمد بن طلال إلى حايل ، دبر ثورة على ابن عمه الضعيف المتقلب ففر هذا والتجأ إلى ابن سعود حيث عاش ضيفًا مكرمًا إلى أن وافته المنية سنة ١٩٤٧.

ويبدو أن ابن سعود عاد إلى عاصمته قبل حدوث التطورات .

إلا أن تسيير الأمير محمد بن طلال لدفة العمليات الحربية بعنف وشدة واتخاذ موقف الهجوم على قطعات جيش الوهابيين التى كانت تطوق حايل على مسافة قريبة اضطرت ابن سعود لاستئناف أخذ زمام المبادرة فوصل إلى البقعة شرقى حايل فى الثامن من أيلول . أى بعد أن أحبط فيصل الدويش وجنده من الإخوان هجومًا قويا قام به محمد الذى احتفظ بقواته الرئيسية هناك . وقام ابن سعود بهجوم شديد على مراكز محمد فى البقعة ، وسقطت الحصون الواحدة تلو الأخرى ففر محمد إلى حايل عن طريق جبل أجا ويبدو أنه أدرك بأن وضعه أصبح باعثًا على اليأس ، فعرض على ابن سعود الاستسلام شريطة أن يبقى أميرًا على جبل شمر ، تحت سيادته إلا أن ابن سعود رفض العرض ، وأعد العدة للتشديد فى الحصار ، وهيأ مدافعه لقصف المدينة ، ولكنه بناء على طلب بعض عقلاء المواطنين البارزين الذين طلبوا إليه التوقف طلبًا إلى السلطات البريطانية والملك فيصل لمساعدته . وبعد صبر دام بضعة أسابيع أرسل ابن سعود إنذارًا أخيرًا إلى أصدقائه فى المدينة يطلب إليهم التسليم فى غضون ثلاثة أيام ، وإلا فأنه سيعمد إلى قصفها بالمدفعية . وكان هذ أنذارًا كافيًا لهم جميعًا سوى محمد فقد تحصن فى القلعة ليحارب حتى النهاية ، بينما فتحت أبواب المدينة فخلتها قوات ابن سعود فى الثانى من تشرين الثانى سنة ١٩٢١ . وسرعان ما أقنعوا محمدًا

بالاستسلام ففعل ، وسار إلى الرياض حيث عاش فيها مكرمًا حتى أصبح فيما بعد حمى الملك العظيم وكان هو آخر الأسرة التى حكمت حايل مدة تزيد عن التسعين عامًا . وقد قتله أحد عبيده فى الرياض عام ١٩٥٤ .

قبل حملة حايل . كان ابن سعود قد عقد فى الرياض مؤتمرًا ضم زعماء القبائل والممثلين البارزين من علماء الدين والفقهاء لبحث وضع البلاد ، ووافق المؤتمر على اقتراحه الرامى إلى إعلان نفسه سلطانًا على نجد وما يتبعها لإعطائها كيانًا دوليًا كما هو الحال بالنسبة لجارتها . وأرسل نص هذا حينه ثم جاء احتلال حايل مزيدا لكيانه الجديد ومجنبا أى تدخل فى شؤون نجد من قبل العناصر الشريفية المتاخمة له، سواءًا كان ذلك بتشجيع من البريطانيين أو بدونه.

وهكذا أصبح ابن سعود الآن فى وضع يستطيع معه أن يسير قدمًا فى الخطوة التالية من برنامجه الهادف إلى توسيع حدوده الفعلية حتى أطراف الصحراء .

وانطلاقًا من ذلك دفع سلطان نجد عام ١٩٢٢ بجيش الإخوان إلى مقاطعتى الجوف ووادى سرحان ، اللتين ظلتا متممًا لإمارة جبل شمر حتى عام ١٩٢٠ وكان مقتل سعود بن رشيد وما نتج عنه من انهيار سلطان آل رشيد هو الذى أغرى نورى الشعلان زعيم الرولى ، بتشجيع من الشريف عبد الله فى الأردن ، وموافقة السلطات البريطانية التى كانت ألهمته فى ذلك الوقت بفكرة مد خط حديدى استراتيجى يربط العقبة ببغداد ، وحمله على احتلالها، غير أن الإخوان لم يجدوا أية صعوبة فى تثبيت أقدامهم فى مقاطعة سكاكة بفضل حمد بن مويشر والأعيان المحليين الآخرين ، الذين كانوا قد اعتنقوا المذهب الوهابى . وأرسلت حملة لجس النبض إلى شرق الأردن نفسها ، فوصلت حتى الخط الحديدى وقتلت بعض الأهلين قرب زيزا ، إلا أن قوة الطيران البريطانية ومصفحاتها قامت من عمان فهاجمتهم وطردتهم من البلاد بعد أن كبدتهم خسائر فادحة .

وكان هذا فى آب .. فعاد الإخوان فى الخريف وهاجموا الرولى فى منوى بمنطقة قريات الملح وحول كاف ، فاستسلم سكانها بدون جلبة وتبرأوا من إخلاصهم لنورى الشعلان وبالطبع حذت قرى وادى سرحان حذوها فقبلت بهذا (المذهب الجديد) .

وفى هذه الأثناء احتلت القوات الوهابية واحتى خيبر وتيماء بالقرب من الحدود الحجازية ، وكانتا من قبل خاضعتين لسلطة حايل منذ عهد محمد رشيد وهكذا أصبح

ابن سعود عام ١٩٢٢ يسيطر سيطرة فعلية على جميع الواحات الصحراوية فى شبه الجزيرة العربية، من تخوم الهلال الخصيب حتى الربع الخالى . مع وجود طوق من الدول الشريفية حول الجزء الشمالى .

وقد ساعد على أنفجار الوضع تحدى الملك حسين السافر ، وما كان يكنه ، ولداه فى العراق وشرق الأردن الواقعين تحت الانتداب البريطانى من عداوة عميقة هذا بغض النظر عن مطامع ابن سعود الظاهرة الأمر الذى لم يعد بوسع الحكومة البريطانية أن تتجاهله ففى نهاية عام ١٩٢١ قام السير برسى كوكس الذى لم يكن يضمر لابن سعود مشاعر عدائية ، وإن كان مهتمًا بصورة رئيسية بأمن العراق ورخائه وأخذ يحث ابن سعود على إرسال بعثة إلى بغداد للبحث فى قضية الحدود ، أما قضية الكويت فحلت بسهولة وتم تخطيط حدودها مع نجد ، بالاضافة إلى تعيين منطقة حيادية بينهما للحيلولة دون حدوث المنازعات الطارئة . وبعد جدل حامى الوطيس ، تمكن الجانب العراقى من حمل البعثة الوهابية على توقيع معاهدة « المحمرة » التى اوضحت فيها الحدود الفاصلة بين نجد والعراق .

غير أن ابن سعود أبطل توقيع ممثليه بحجة أنهم تجاوزو التعليمات التى صدرت إليهم ، وأعلن أن لن يقبل بالحدود المقترحة . إذ أنها لم تتضمن حقوق الرعى المكتسبة من عهد بعيد للقبائل النجدية النازلة فى المنطقة التى ألحقت بالعراق ولذا اقترح إعادة النظر فى القضية برمتها أثناء مباحثات شخصية دارت بينه وبين السير برسى كوكس . الذى دعاه إلى عقير فى خلال شتاء ١٩٢٢ - ١٩٢٣ فقبل الدعوة ، وفى الزمن الذى عقد فيه الاجتماع ، كان ابن سعود فى اوج قوته وسلطته كحاكم شبه الجزيرة العربية الصحراوية ، ولم يكن مقتنعًا بمثالية السير برسى كوكس عن الحدود الثابتة .. بسبب وضع البدو التقليدى فى المنطقة المعينة لكن السير برسى قطع فى النهاية شوطًا بعيدًا بإصداره بيانًا فيه تنازل جوهرى فى القضية فتم الإتفاق فى « بروتوكول عقير » على أن يضم هذا إلى معاهدة المحمرة .

وينص هذا البيان على عدم إقامة حصون أو أبنية ثابتة من قبل أى من الطرفين المتنافسين ضمن مساحة معينة من الحدود أو فى المنطقة المحايدة وذلك بغية تسهيل الوصول إلى الآبار ومناطق الرعى وجعلها مرافق عامة للفريقين .

أما الخط الفاصل الثابت الذى يحمى العراق والكويت من إعتداءات الوهابيين ، ضمان سلامة دول الخليج الفارسى الأخرى ضد أى تدخل من جانب ابن سعود ، بموجب نصوص المعاهدة فقد كان نصرًا لمهارة السير برسى كوكس السياسية إلا أن ذلك ترك شعورًا مريرًا فى نفس ابن سعود .. لأن مصالحه فى الغرب والشمال لم تؤخذ بعين الاعتبار حيث كان له أوضاع إقليمية هامة ومطالب بحاجة إلى التثبيت والاستقرار .

وكان من نتائج الحد من مطامع ابن سعود فى الشرق أن وجه الرجل انتباهه إلى جهات أخرى . فاضطرت الحكومة البريطانية عام ١٩٢٣ أن تأخذ بعين الاعتبار مختلف المخاطر المتوقعة التى تمكن هذه الأوضاع وعلى الأخص فيما يتعلق بشرق الأردن حيث كثرت الحوادث لعدم وجود حدود ثابتة بين البلدين . وكانت الحكومة البريطانية مسؤلة أدبيًا عن الحجاز إلا أن اهتمامها بالملك حسين وبمطامعه التى لا حد لها بدأ يتضاءل وذلك عندما أدار أذنًا صماءَ إلى جهود لورنس الذى حاول إقناعه بإقرار السياسة البريطانية فى فلسطين عام ١٩٢١ فالحكومة البريطانية لم تقبل أن تقر باية مطالب إقليمية فى الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز . وكان من المشكوك فيه فيما إذا كان بمقدورها أن تخلق وضعًا سياسيًا ذا أثر فعال لمجابهة مسلك الملك حسين المتطرف ، إلا أنها كانت قد حصلت على ما تريد فى بلدان الهلال الخصيب من أبناء الملك المسرفين .

ولقد كان للمنح التى تدفعها الحكومة البريطانية إلى الدول العربية المختلفة أثرها فى صد جماح إعتداءات أى منها ومنعها ، مع ذلك لم يكن البريطانيون يتوقعون استمرار دفع هذه المنح إلى الأبد . وكان من الأهمية بمكان إيجاد تسوية سياسية لجميع مشاكل شبه الجزيرة العربية أقصر وقت ممكن وبدون تأجيل .

وعلى ضوء هذه الظروف اقترحت الحكومة البريطانية عقد مؤتمر فى الكويت فى تشرين الثانى عام ١٩٢٣ برئاسة موظف بريطانى كبير ذى خبرة قضائية واسعة (كان الموظف المنتخب هو الكولونيل س . ج نوكس الذى كان موظفًا سابقًا فى الكويت ومسقط والعراق) بينما يجرى تمثيل الأطراف المعنية بمندوبين موظفين فوافق العراق وابن سعود دون تردد أو شروط مسبقة .



وهكذا أصبح بن سعود عام ١٩٢٢م يسيطر سيطرة فعلية على جميع الواحات الصحراوية
فى شبه الجزيرة العربية : من تخوم الهلال الخصيب حتى الربع الخالى
مع وجود طوق من الدول الشريفية حول الجزء الشمالى

ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن ابن سعود فى بداية ذلك العام ، بناءًا على اقتراح من السير برسى كوكس ، منح أمتيازًا للتنقيب عن البترول فى كل الجزء الشرقى من الجزيرة العربية إلى شركة بريطانية تسمى « ايسترن جنرال سنديكات » بأجرة اسمية مقدارها الفاجنيه فى السنة .

أما الملك حسين فعارض فكرة المؤتمر المذكور ، على اعتبار أنه غير ضرورى على الا[illegible] التي ستبحث فيه واضحة لكل شخص عاقل . كما رفض الأمير عبد الله إرسال أى مندوبين عنه ما لم يرسل والده . وبعد نقاش طويل اتخذ المؤتمر طابعًا دراماتيكيًا، وأعلنت الحكومة البريطانية مقدمًا أن جميع المنح المالية التى كانت تدفعها إلى الدول العربية ستقطع اعتبارًا من الحادى والثلاثين من آذار سنة ١٩٢٤ ، بينما تدفع جميع المبالغ المستحقة حتى ذلك التاريخ وبعد أن تم هذا اجتمع مندوبو الدول العربية يخامرهم شعور الارتياح بأنهم لن يخسروا سلفًا .

وكانت الحكومة البريطانية هى التى أضاعت الفرصة التى سنحت فى المؤتمر قبل ابتداء اللعب فقد لخصت للرئيس البريطانى تفاصيل النتائج التى توقعها رؤساؤه من أبحاث المندوبين . وكانت إحدى هذه النتائج التى توقعها كافية لتؤكد أنه لن يكون هنالك نتائج ما فقد طلبت الحكومة البريطانية من ابن سعود أن يتخلى عن خرما وترابة للملك حسين ، مقابل وادى سرحان وقريات الملح التى كان يسيطر عليها فعلاً منذ احتلاله الجوف ، كما يمكنه إحتلالها متى أراد .

وبعد أن أمضى المؤتمر ستة أشهر فى أبحاث وأعمال عقيمة ، قرر الملك حسين أن يظهر سلطته على أبنائه فقدم إلى شرق الأردن فى موكب رسمى سنة ١٩٢٤ وتظاهر بتسلم زمام الأمور بوجود أبنائه الثلاثة ، الأمر الذى أذهل السير هربرت صموئيل المندوب السامى لفلسطين والأردن وأغضبه . أما الشريف على ابن الملك البكر فتسلم إدارة الخط الحديدى الحجازى ، وأصدر إليه والده تعليمات بإعادة إنشاء الاتصال التام بالمدينة المنورة . وكان الوالد يفكر جديًا باستبدال عبد الله بعلى أميرًا على الأردن .

إلا أنه وقع آنذاك حادث غيَّر مجرى التاريخ العربى . لقد قرر مصطفى كمال باشا فى أنقرة أن الوقت قد حان لإلغاء منصب الخلافة التاريخى ، وخلع السلطان عبد المجيد خان وخلافته . هذا رغم أنه كان قد سمح لعبد المجيد أن يحتفظ بمركزه الدينى عندما ألغى منصب السلطنة العثمانية فسارع الملك حسين الذى كان يتمنى انتزاع هذا اللقب منه ، وأعلن نفسه خليفة باحتفال رسمى مناسب . وبقى ينتظر خضوع الأردن والعراق والعناصر

الأخرى ، التى تكون الهلال الخصيب ، هذه العناصر التى كان مظهرها شريفيًا منذ الحرب العالمية الأولى ، ثم سارع بالاستعداد للرجوع إلى مكة . أما قضية عبد الله وشرق الأردن فأجل موضوع تنفيذها وأنهت الحكومة البريطانية أعمال مؤتمر الكويت الذى شارف على الاحتضار .

وهكذا لاح فى الأفق أن المسرح قد أعد للمأساة القادمة .. ففى غضون أقل من ستة أشهر بعد توقف محادثات الكويت ، أزيح الستار فى الثالث من أيلول على مذبحة الطايف . لقد أمضى ابن سعود الصيف كله فى إعداد تسوية نهائية مع ملك الحجاز ، إلا أن الأخير باغتصابه الخلافه ، برّر الحرب المقدسة التى حشد لها عدوه كل ما لديه من قوات وأرسل ابن سعود فرقة إستطلاعيه لم يقصد منها غير إظهار القوة ، علّه يمنع الملك فيصل من القيام بأى عمل من جانبه فتمركزت هذه على طول التخوم العراقية ، إلا أنه لم يقع أى حادث ، ولم يعبر الوهابيون الحدود . هذا كما أرسلت إلى الشمال قوة قوامها ألف مقاتل من الإخوان فتغلغلت مسافة بعيدة فى شرق الأردن وذبحت سكان قرية صغيرة قرب الخط الحديدى ، إلا أن الطيران البريطانى قام بطردها وكبدها خسائر فادحة . وما كاد العالم يبدأ التفكير بهذه الأمور المعقدة حتى حملت الأخبار نبأ آخر مرعبًا . وهو سقوط الطايف بعد مذبحة شاملة . أما هذه الأنباء التى كان مصدرها شريفيًا فقد بولغ فيها عن قصد ، إلا أنها كانت تستند إلى شىء من الواقع .

لقد سار سلطان بن بجاد زعيم غطغط Ghatghat الشرس ، على رأس جيشه المؤلف من الإخوان وحدهم ، عبر الصحراء وهاجم القوات الحجازية ، فلم يلق الجيش مقاومة تذكر وهرب على وجيشه إلى هدا Hada على المنحدر المشرف على تلال مكة وسهلها . وقد فر معهم الألاف من سكان الطايف أو المصيفين مما أربكهم . وكان هؤلاء الفارون لا يرغبون فى رؤية الوهابيين . وطارد بعض الوهابيين القوات المتقهقرة واللاجئين الآخرين فقتلوا جميع الشاردين منهم ، واشتبكوا مع قواعت على فى Hadaومن هناك فرَّ جند ابن الشريف فى حالة من الفوضى والاضطراب عبر المنحدر الجبلى العميق . وقد سار على إلى جدة ، مخلفًا مكة وراءه معتبرًا الحكمة فوق شجاعة الشجعان . وذلك ليتجنب رؤية والده الغاضب .

أما سلطان بن بجاد مع بقية جيشه ، فقد أعمل السيف فى سكان الطايف وأخضعهم للحكم الوهابى ، قاتلاً المشركين ونهب جيشه كل بيت وإنسان .

والواقع أن عدد القتلى لم يتجاوز الثلاثمائة بما فى ذلك الذين قتلوا أثناء فرارهم فى معركة هدا ، ولكن هذا كان كافيًا لبث الرعب والذعر فى مكة البعيدة ، وفى جدة ، إلا أن ابن سعود أرجأ الهجوم على هاتين المدينتين بموجب أوامر مشددة أصدرها إلى قائده المتحمس . لقد أصدر إليه تعليماته بتجنب الأعمال الحربية فى المنطقة المقدسة ، وأن ينتظر قدومه قبل إحتلال مكة ، حيث أعلن الملك حسين عن عزمه البقاء فيها مستهينًا بالأخطار التى قد تحدث له . إلا أنه فقد السيطرة على الوضع . وما كان من أهل جدة ، الذين كانوا يواجهون خطرًا أشد من غضب الملك ، إلا أن أستأسدوا وتشجعوا فطلبوا منه التنازل عن العرش لابنه على الذى قد يسعده الحظ بالوصول إلى أتفاق مع الوهابيين أو مع ابن سعود .

وهكذا غادر الملك حسين مكة بعد حكم دام ستة عشر عامًا ، قضى الشطر الأخير منه ملكًا مستقلاً فعلاً ، فأبحر من جدة إلى العقبة ، مصطحبًا معه نساءه ، وكنوزه ، ومن ثم أخبرته السلطات البريطانية بضرورة مغادرته العقبة إلى قبرص لئلا يغرى وجوده بالعقبة الوهابيين فيندفعون إلى الشمال قبل أن تتمكن بريطانيا من التمركز فى العقبة ، ذلك التمركز الذى تم فيما بعد فى صيف عام ١٩٢٥ .

خلف الشريف على والده على الحجاز .. فلم يطالب بمناطق أوسع مما طالب بها الأخير ولا بالخلافة التى انتهى بحثها أو المطالبة فيها من جديد ، وإلى الأبد .

أما ابن سعود فلم يتعجل تطوير الوضع ، ولم يصل إلى مكة إلا فى أوائل شهر كانون الأول . وقد دخلها فى لباس الحج ، لأن سعدا آخر أفراد أسرته والمثل الوحيد لها والذى زار مكة للمرة التاسعة والأخيرة فى عام ١٨١٢ ، فعل مثل ذلك .

وقد استولى سلطان بن بجاد على المدينة كلها بدون مقاومة ،بعد هرب حسين وهدأ من روع سكانها الخائفين وأمنهم على أرواحهم وأملاكهم مع أن قصور الملك تعرضت للنهب والسلب ودمرت جميع مقامات وأضرحة أئمة الإسلام الأولين فى مقبرة المعلى والأماكن الأخرى ، كما دمرت من قبل على يد سعود الثانى .

أما ابن سعود فقد كان مشغولاً جدًا باتخاذ التدابير لاحتلال ما تبقى من الحجاز ، وقد أخذ يلقن قبائلها المتمردة بعض الدروس القاسية لإقناع عقولهم الملحدة المتشككة بأن السلام الوهابى لا يمكن مقارنته بحالة الفوضى التى كانت سائدة أيام الشريف . وكان هنالك مشكلتا المدينة المنورة وجدة البارزتان اللتان يتوجب عليه معالجتهما . مشكلتان تتطلبان مزيجًا من الحكمة والحزم مع القوة . حتى لا يثير العنف الجامع مع ما يصاحبه من إستفزازات المتاعب مع الدول الأجنبية أو يجرح مشاعر بعض الطوائف الإسلامية وفى هذه الأثناء أخذ على ومستشاروه يبنون سياجًا من الأسلاك الشائكة الضعيفة حول المدينة . وقد عزوها بحقول الألغام ، المشكوك فى جدواها والتى زرعوها على أبعاد متفاوته .

* * *

حشد ابن سعود قواته ومدافعه ضد هذه المراكز فى ثنايا التلال الساحلية البعيدة عن المدينة مسافة عشرة أميال ، ثم بدأ القصف الوهابى فى الثالث من كانون الثانى عام ١٩٢٥ ، واستمر بشكل متقطع حتى نهاية آذار . وبعدها سحب ابن سعود جيشه إلى مكة ليقضى العطلة الصيفية التى شملت صيام رمضان فى نيان من تلك السنة وابتداء الحج فى تموز وكان هذا هو الحج الأول الذى يحتفل فيه بحماية الوهابيين منذ أكثر من قرن من الزمن ، وقد حضرته جماهير غفيرة من سكان نجد والعناصر الأجنبية التى استطاعت أن تسافر عن طريق مينائى ليث ورابغ اللذين كان ابن سعود احتلهما واستخدمهما من أجل هذه الغاية . وقد قام بتأدية الحج ألدن رتر ELdon Rutter وهو إنجليزى مسلم كتب فيما بعد وصفًا شيقًا عن مشاهداته فى الحجار فى أول سنة من سنى الاحتلال الوهابى .

وفى خلال الصيف بدأت الاستعدادات من أجل استئناف الأعمال العدوانية فى الخريف وعندها قدم الأمير فيصل من نجد على رأس جيش كبير مجهز جيدًا فاتجه قسم منه إلى المدينة المنورة بقيادة شاب آخر من أبناء السلطان اسمه محمد وقد أصبح الوضع فى كلتا المدينتين بائسًا لا أمل فيه ، فالطعام والماء لم يكونا كافيين لطوائف ازداد عددها إلى حد كبير بالإضافة إلى العديد من اللاجئين الذين جاءوا من المناطق المجاورة وفى كلتا الحالتين منع ابن سعود بشدة القيام بأى هجوم على المراكز الدفاعية الضعيفة بينما أمضى جزء من الخريف فى اجتماع عقد مع السير جلبرت كلايتون G Clayton فى وادى فاطمة للمفاوضات بشأن معاهدتى

هدا وحره Hdda, Bahra لتسوية المشاكل بين السلطنه الوهابية والعراق والأردن الخاضعتين للانتداب البريطانى وتشمل حدود الأردن نقط لم يتوصل إلى اتفاق بشأنها بسبب رفض ابن سعود بعناد الاعتراف باحتلال الإنجليز لميناء العقبة ومقاطعتها خلال الصيف ، ومازال الخلاف بشأن العقبة قائمًا لم يحل حتى يومنا هذا ، مع أن هنالك خطًا فاصلاً احترمه كلا الجانبين ، بموجب الأمر الواقع .

واستمر حصار جدة والمدينة المنورة جنبًا إلى جنب مع هذه المفاوضات بشكل غير منظم. أما المدينة المنورة فرفضت الاستسلام للجيش الوهابى الذى يقوده إبراهيم تشمى ويسنده فيصل الدويش مع قوات الإخوان وطلب أهلها إلى ابن سعود أن يرسل ممثلاً عنه ليقبل خضوعهم ويضمن سلامتهم من إجراءات الإخوان .

وما كاد محمد يظهر أمام المدينة حتى استسلمت فى الخامس من كانون الأول ، بينما أرسل فيصل الدويش وقواته المتعصبة إلى شمال الحجاز للقيام بعمليات التصفية .

وأما الملك على فخضع لحكم القدر ، واستسلم ، بناءًا على مشورة كبار موظفيه ، بعد أن لم يبق فى يده إلا جزء بسيط من الأراضى . وطلب إلى الوكالة البريطانية أن تستخدم وساطتها لتأمين رحيله وسلامته ، واحتلال المدينة المنورة احتلالاً سلميًا منظمًا وقد تمت هذه الإجراءات بكل سهولة ، ودخل ابن سعود جدة فى ٢٣كانون الأول بعد أن رحل الشريف على بحرًا إلى العراق.

والآن ، وجد ابن سعود نفسه لأول مرة يحتك بعدد من الدول الكبيرة والصغيرة ويواجه مجموعة من المشاكل المربكة التى آلت إليه من نظام تسوده الامتيازات . وبصفته وارث الديار المقدسة . فقد كانت هذه الامتيازات تهدف فى الأصل إلى حماية الذميين فى البلاد الإسلامية ، غير أنها أصبحت تدريجيًا مبررات للتدخل فى شؤون البلاد الإسلامية ، أما ابن سعود فقد أوضح منذ البداية أنه لن يتحمل نقدًا يوجه إليه أو تدخلاً بشريعة الله على الأرض، وكان عليه كذلك أن يتعرض إلى الراى العام للدول الإسلامية بخصوص طريقة إدارة الأراضى المقدسة إلا أنه لم يجد صعوبة فى التخلص من البعثات التى جاءت بمحض

اختيارها أو أنبثقت عنها بأن وعدها بأن يهيء فى الحج القادم فرصًا ملائمة لبحث جميع الأمور التى تهم الشعوب الإسلامية عند إلتقائه بممثليها فى مؤتمر يعقد لهذه الغاية .

وبعد أن أوضح ابن سعود عزمه أن يجعل مصلحة الديار المقدسة على رأسى الأمور السياسية التى سيعالجها واستعداده لتقبل أى نصيحة توجه إليه من أيه جهة من أجل هذه الغاية ، قام بإجراء حكومى أفزع حمائم الغرب وأحدث أثرًا سيئًا فى بعض البلدان الإسلامية التى أعتادت منذ عهد طويل ، حكم الدول الأجنبية وتقبلت ثقافتها مع الاحتفاظ بإخلاصها للمبادئ الإسلامية التى كان زعماء تلك البلدان يفسرونها وفق مشيئتهم ذلك أنه فى يوم الجمعة الثامن من كانون الثانى سنة ١٩٢٦ أعلن الملك سعود نفسه ملكًا على الحجاز بعد صلاة الجمعة فى جامع مكة الكبير ، وبالاحتفال التقليدى الذى نصت عليه التقاليد الإسلامية وكان هذا عملاً دينيًا وتحديًا للعالم فى نفس الوقت . غير أنه أصبح فى حينه خيرًا يحول دون الانحراف عن المبدأ الذى قام عليه ابن سعود لمجد الله ، الذى ما فتئ يعترف بمساعدته له فى جميع الأحوال تلك الأحوال التى قادت شعب الجزيرة فيما بعد بفضل إرشادات ملكه الجديد ، من التيه إلى أرض الميعاد التى تفيض لبنا وعسلا فلقد انتهى القتال الذى أستمر زهاء الأربعة والعشرين عامًا كأنها يوم واحد . وكان إمام المنتصر فترة أربع سنوات تقريبًا ليجعل ثمار نصره خيرًا على الأجيال المقبلة . هذه الأجيال التى لم تعرف يوسف الصديق ولا صيحة الإخوان الجريئة .

الفصل الحادي عشر

بلاد العرب السعيدة

انتهت الحرب ، وبلغ ابن سعود أوجه .. وأصبحت الجزيرة العربية (التي قدر له أن يحكمها قرابة الثلاثين عامًا) متحدة كما لم تكن من قبل ، وضمن أقصى الحدود العملية فى الظروف الدولية السائدة آنذاك . أنها تزيد على أى رقعة سيطر عليها أسلافه سيطرة فعالة .

ضمن هذه الحدود الجديدة لن يتحداه أحد مرة أخرى ، فالدولة التى أنشأها وشق حدودها بسيفه وإيمانه ستؤول إلى خلفه فى حالة سليمة . وكان العامل الحيوى فى تلك الآونة اشتهاره بالعدل والحزم والتصميم التى لم توضع موضع الاختبار إلا وتتحقق كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

ولأول مرة فى التاريخ يحكم الجزيرة العربية حاكم فرد جدير بما أبدى له الكل من احترام .

ولما بلغ عبد العزيز الخامسة والأربعين من عمره كان فى أوج رجولته ، مخلفا وراءه فى حياته سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال . غير أن النصر أنعشه وأعاده ماردًا مستعدًا للكفاح مرة أخرى . ومرة أخرى كان يصعب عليه وحده الانتقاد مع وجود العديد من المتفرجين ، وفى ظروف مختلفة . لقد كان الرجل أرستقراطيا قلبًا وقالبًا وتربية ومؤمنا الإيمان الكامل بحق الملوك الإلهى ، وبالواجب الملقى عليهم فى إن يحكموا رعاياهم ، غير أنه كان بطبعه ديمقراطيًا، ألف الشورى فى أعماله تلك الشورى التى كانت جزءًا لا يتجزأ من حياة العرب.

وربما كان الفضل على شخصيته التى وفقت بين هاتين السجيتين إلى خلقه فقد مكنه هذا من سهولة تقلد المركز القيادى : هذه الزعامة التى اعتاد تفسير مهمتها الحقة باستشهاده بالآية القرآنية لا ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ ثم .. اذا استخرت فتوكل على الله ، إن الله يحب التوكلين .

لقد كان هذا المنهاج يقوّمه فى مواقف كانت آنذاك تتطلب استخدام الحذق الغريزى الذى هو من مزايا الخبراء . إلا أن مكانته الجديدة كشخصية عالمية كانت تجابهه بمشاكل من نوع لم يألفه ، ولم تفده خبرته الماضية فى معالجتها وكان الحمل الذى ألقى على عاتقه ثقيلا ، حتى أنه لم يكن بمقدوره حمله دون مساعدة من أحد ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالأمور الفنية: كالاقتصاد والمالية .

كان يشعر بقصور خبرته فى مثل هذه المجالات، إلا أنه لم يتردد قط فى تحمل مسؤولياته.

أما عظمته المعروفة ، واعتماده الكبير على نفسه فكانا من العوائق التى حالت بينه وبين تجنيد نفر من الأكفاء لتسيير شؤون الدولة السياسية والإدارية . وبمساعدة ستة من الشخصيات المعروفة بمزاياها وقدراتها ، كان بإمكان المملكة العربية السعودية ، المؤلفة من نجد والحجاز ، أن تصبح مثلاً رائعًا وفذًا فى السياسة العالمية . فقد جمعت بين الحكم الروحى والزمنى القائمين على أسس راسخة من الإيمان والعدالة ، اللذين كان الملك يهدف إلى إرسائهما فى ربوع بلده مهما عز الثمن .

وفى سبيل تحقيق هذا ، كانت إرادة الشعب ضرورية مثلما كانت إرادة السلطات ولسوء الحظ لم تجتمع هاتان الصفتان اللازمتان فى نفوس الرجال الذين انتدبوا لمساعدته فى مهمته العلوية تقريبا هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى فقد كان هنالك العديد من هؤلاء بين صفوف النجديين ، الذين جازفوا بحياتهم لخلق مثالية روحية . وكانوا يتوقون بكل إخلاص إلى أن يطبقوها فى البلدان الفاسدة التى فتحوها . إلا أنه لسوء الحظ كان القلائل منهم هم الذين يتحلون بالمعرفة الإدارية والخبرة الضرورية لتطوير الأوضاع الجديدة التى وجدوا أنفسهم يجابهونها .

ومن حيث الكفاءة والمقدرة فأنها لم تعوزا أهل الحجاز ، إلا أن هؤلاء كانوا قد فقدوا الفضيلة إبان الجو الفاسد الموبوء الذى عاشوه تحت الحكم التركى الطويل . ففى أثناء خدمة

الأتراك أتقن الأهلون الأساليب الملتوية فى جمع الثروات والتوصل إلى أرفع الوظائف الحكومية .

وعلى كل حال ، كان ابن سعود حَذِرًا للغاية فى استخدام هذه الفئة من الموظفين المدنيين المتوفرين آنذاك والمشكوك فى إخلاصهم وولائهم له .. فاضطر تحت وطأة هذه الظروف . إلى أن يرجع إلى مصدر القوى الآخر المتوفر لديه وكان هذا فى البداية على نطاق محدود جدًا ، غير أنه فيما بعد أصبح على نطاق واسع جدًا فاستحالت السيطرة عليه .

ولقد كان ابن سعود محقًا منذ البداية فى عدم قبوله استخدام غير المسلمين فى أية وظيفة عنده لئلا يكرر فى بلاده ما حدث فى البلدان الإسلامية الاخرى.

وعلى كل فقد أوضح بنفسه أن الحجاز على الأقل ستبقى وديعة لكل المسلمين فى العالم ، وأنها ترحب بجميع المسلمين ، سواء جاؤوها حجاجًا أو طالبى معاش ، على شرط أن يقبلو الشريعة الإسلامية نبراسًا لحياتهم ومعاملاتهم المشروعة فى كل شىء. وعلى هذا الاساس اضطر لأن يطلب الموطفين اللازمين لإدارة البلاد من الغرب غير السعوديين ، والمواطنين المسلمين الآخرين . وقد قسم هؤلاء إلى فئتين منفصلتين فى بداية الأمر : لأن نجدًا والحجاز ربطتا برباط الملكية فقط فلم يعهد ابن سعود بسلطته إلى أى شخص آخر غيره.

هكذا كان الوضع المحلى الذى وجد ابن سعود نفسه فيه أيام بداية حكمه فى الحجاز والطريقة التى بادر بها الرجل إلى معالجة المشكلة فى إيجاد كادر إدارى أساسى ، تتمثل أفضل ما تتمثل فى حقيقة أن جميع الرجال الذين جمعهم حوله خلال السنتين أو الثلاث سنوات الأولى بعد احتلال الحجاز ، للقيام بفاعليات مختلف الإدارات نيابة عنه - لم يظلوا جميعهم فى خدمته فحسب ، بل ظلوا يقومون بنفس الوظائف وفى نفس الدوائر تقريبا منذ ذلك العهد حتى نهاية حياته .

وإذا لم تثبت هذه الحقيقة صدى حدسه الذى لا يخطىء فى اختيار الرجال الصالحين الأكفاء لمختلف وظائف الدولة - فإنها عل الأقل ، توضح لنا أن من مزاياه الخلقية نوع رقيق من الكراهية للاجانب : كراهية كان من أعراضها وعلائمها عدم إظهار الحماس للمجتمع الغريب ، إلا أنه يخفيها بسهولة عن طريق الكرم الزائد ، وإظهار المودة ، وتفضليه الأجنبى فى

أن يكون حوله فى جميع الأوقات : ليلاً ونهارًا وسنة بعد سنة ، ونفس الأشخاص دائمًا سواء أكانوا من أفراد عائلته أو الموظفين أو الرفاق الفكهين أو الحشم والخدم . ففى وجود هؤلاء فقط كان يجد الراحة بلا تحفظ ، ويظهر روح الكياسة واللطف والنفس الطيبة التى جعلته يصمد أبدًا تحت عبء التاج الثقيل .. كان ابن سعود يثق بهؤلاء الناس لأنه كان يعرفهم معرفة صحيحة ، يعرف فضائلهم وأخطاءهم فشد وثاقهم إلى نفسه وخدمته بسخائه الذى لا حد له ، والذى كان يزداد بازدياد موارده.

وهنالك مثال نادر شاذ فى طول الخدمة تجلى فى شخص خدمه أكثر من غيره وهو عبد الله الدملوجى العراقى الأصل والموصلى المولد . التحق هذا الرجل بخدمة ابن سعود سنة ١٩١٥ كمستشار صحى . وقد رفعته معرفته باللغة الفرنسية إلى تحمل مسؤليات سياسية تجاه الزوار الأجانب فى بلاط الرياض . وبعد احتلال الحجاز عين ممثلاً خاصًا للملك ، فى جده ، ثم أصبح بعد ذللك نائب رئيس الخارجية ، عندما عين الأمير فيصل ، الابن الثانى للملك ، فى هذا المنصب .وبعد بضع سنوات من التجربة ، والاختبار فى هذا المنصب . تخلص ابن سعود بأسلوب لبق : بإعطائه أجازة غير محدودة سنة ١٩٤٠ والسماح له بالاستقاله . أما خلفه فؤاد حمزة ، فكان قد وصل إلى السعودية كلاجئ من فلسطين سنة ١٩٢٨ ، وأثبت جدارة فى وزارة الخارجية السعودية إلى أن توفى وهو على رأس عمله سنة ١٩٥١ . وقد كانت وفاته خسارة كبرى لوطنه الثانى . وفى خلال الحرب كان سفيرًا للعربية السعودية فى فيشى ، ومن ثم فى أنقرة ، حيث خلفه فى هذا منصب أخوه توفيق.

أما العضو البارز فى سرب موظفيه ومستخدميه فقد كان بلا شك ، عبد الله سليمان الذى عين وزيرًا للمالية سنة ١٩٢٩ ، بعد تجربة السيد شرف رضا فى هذا المركز ، وهو شريف لم يكن لديه من الأسباب ما يدفعه ليكون مواليا لأسرة الأشراف . وكان عبد الله سليمان هنا يمتاز على زملائه بكونه ولد فى نجد وتمرس فى مهنة المحاسبة . وقد سبق أن كان أخوه الأكبر السكرتير الخاص الأول لابن سعود لعدة سنوات قبل وفاته . وكان عبد الله نفسه قد رافق سيده فى هذه الوظيفة تقريبًا خلال حملة الحجاز . وقد وضح أنه اختير ليشغل وظائف مهمة.

وكان نحيف البنية واسع الإطلاع والحكمة إلا أنه أنهك جسمه فى أداء مهمة اغتصاب قدرة الأرملة بيده ، لمواجهة جميع المطالب التى كانت تنصب عليه والتى كان معينها لاينضب. وكانت شجاعته لا يعتريها النصب فى معالجة مشاريع الإعمار والتطوير المتعددة . لقد سار بعضها فى طريق منحرف إلا أن معظمها أدت إلى نتائج ثابتة أفادت البلاد فائدة قيمة. فقد أدار مرافق ثروتها النامية بدهاء البرامكة وذكائهم فى خدمات مدنية خاصة به ، مع تعيين أفراد من عائلته فى المناصب المهمة الأساسية فيها . ومع أنه كان يتمتع فى جميع الأوقات بثقة ملكيه تامة ، إلا أنه كان الوحيد بين أعضاء السلك الإدارى الذى يعمل عادة حسب مشيئته الخاصة وسلطته ، مبررًا ذلك باعتقاده بأن أعماله سوف تحظى بتأييد جلالة الملك وموافقته .

وبين الموظفين الإداريين الذين شغلوا مراكز إدارية منذ تلك الأيام حتى يومنا هذا : حافظ وهبة ويوسف ياسين . أما حافظ وهبة فكان مصريًا قد أُعتقل فى مالطة لعلاقته بالاضطرابات التى حدثت فى الإسكندرية فى حادثة سعد زغلول سنة ١٩١٩، إلا أنه بعد أن شغل منصب مدير المعارف أصبح فيها بعد ممثلاً لابن سعود فى البلاط البريطانى ، كوزير مفوض ، سنة ١٩٣٠ ومنذ عهد قريب عين سفيرًا وهو مازال يشغل منصبه هذا بعد ربع قرن قضاه فى الوظائف السياسية . ونتيجة لذلك كان أشهر ممثلى العربية السعودية السياسيين وأكثرهم عملاً وإرهاقًا فقد كان ابن سعود يستدعيه مرارا وتكرارًا للتشاور معه ومع يوسف ياسين ، سكرتير جلالته الخاص . ومن ثم رقى حافظ إلى منصب وزير دولة.

كان يوسف ياسين فى خلال تلك السنين حلقة الاتصال بين سيده وشبكة المراكز السياسية الواسعة المنتشرة من الصين حتى بيرو ويوسف ياسين سورى الأصل من اللاذقية ، اشترك فى شبابه فى حوادث الاضطرابات التى جرت أيام الانتداب فى بلاده . ووصل إلى الجزيرة العربية حوالى عام ١٩٢٣ حيث ربط مصيره بمصير الوهابيين وسرعان ما فاز بثقة ابن سعود فرافقه فى حملة الحجاز ، وبعدها أصبح محررا فى الجريدة الأسبوعية الرسمية «أم القرى » ، وكان يشرف على محتوياتها كجزء من المهام الملقاة على عاتقه كسكرتير سياسى . (وبدون أجر) . ولاشك أنه كان من أبرز موظفى ابن سعود فى أكثر من ناحية من نواحى نشاطه . وكان عمله يتضمن القيام بسفرات إلى الخارج لغاية أو أخرى .

ويجيء في المرتبة الثانية ، مساعده رشدي ملحس . وهو لا جيء من فلسطين حالت واجباته الرسمية دون تطوير ذوقه الأدبي والعلمي ، وهو المجال الذي كان يمكن أن يختاره لاريب لوكانت الأحوال عادية .

وبين الأشخاص الذين أسهموا إلى حد كبير في تطوير حكم ابن سعود يجدر بنا أن نأتي على ذكر خالد الكركني الذي هجر وطنه في ليبيا ، بعد أن احتله الإيطاليون وجاء إلى جده في أوائل الحكم الجديد في الحجاز ، وفي نيته أن يمارس الأعمال التجارية هناك إلا أنه سرعان ما اجتذبته وظائف الملك الخاصة فعين في وظيفة استشارية مع الأحتفاظ بجنسيتة التركية . ولم يكن بشكل من الأشكال أقل أفراد حاشية الملك السياسيين والإداريين تأثيرًا .. ففي أواخر أيام حياته ، التي فقد فيها شيئًا من نشاطه لتقدمه في السن ، حظي بمركز قيادي مرموق وكان موضع ثقة وتقدير .

ولنكتف بما قدمناه عن الجانب الوظيفي للصورة . ويجب أن نذكر أن ابن سعود في أول مراحل حكمه ، رفض بشكل قاطع ، تدخل أبنائه أو أي فرد من أفراد عائلته في الشؤون الإدارية للدولة صحيح أنه عين ولديه سعودًا وفيصلاً نائبين له في نجد والحجاز ، ثم عين فيصلاً وزيرًا للخارجية بالنظر لخبرته الواسعة التي أكسبته إياها سفراته إلى الخارج واتصاله بالحكومات الأوروبية المتعددة ، إلا أن مثل هذه التعيينات طبيعية ومناسبة بالنظر للمسؤليات التي ستلقى على عاتقهما في حينها . وكان مفهومًا لديهما أنهما سيمارسان مهام منصبيهما في جميع الأمور الهامة تحت إشراف والدهما وبموافقته . وعلى الأخص حين يكون موجودًا في أحد هذين الإقليمين المعنيين .

ومن ناحية أخرى ، كان ابن سعود يحذر من تعرض العائلة المالكة للنقد أو اللوم بسبب إختياره بعض أفرادها لتحمل مسؤوليات ليسوا أكفاء لتحملها ، لا من ناحية الخبرة ولا التدريب . وقد اعتاد كلما ازدادت ثروتة وكثرت ذريته أن يحذر الناس في مجالسه ويحذر نفسه ضمنا مستشهدًا بالآية القرآنية : ﴿ **إن من أموالكم وأولادكم عدو لكم ...** ﴾ وحسب تجاربه كثيرًا ما نجد أن هذ الخطر لا يقاوم وعندما شكل ابن سعود مجلس وزراء في وقت متأخر جدًا ليحمل عنه أعياد الحكم الذي أثقل القوى ، وإن كان الأن قد حناه السن والجهد المتواصل ، نال الأمراء نصيبًا من المناصب الوزارية لم يسبق له مثيل في أي عصر أو إقليم منذ خليقة

العالم. ومن المزايا الشيقة الجذابة فى العائلة المالكة السعودية نظام الأولوية المرعى بين أعضائها . هذا النظام الذى لا ينص عليه أى تشريع . إلا أنه أصبح مفهومًا ، ويجرى تطبيقه بكل حكمة من قبل الجميع . فالعامل الأول فى نظام الأسبقية هو السن . فالأبناء والأحفاد وأولاد الأحفاد لا يتقدمون على أعمامهم وأبناء عمهم الأكبر منهم ، إلا حين يكونون قد ولدوا قبلهم . ويبدو أنه لم يكن هنالك أى استثناء لهذه القاعدة . وحتى سعود نفسه حين أعلن وليًا للعهد سنة ١٩٣٣ استمر فى التقدم فى البلاط على غيره بعامل السن فقط . وكان هذا الترتيب مربكًا للأجانب حين يجدون أفرادا من العائلة متقدمين فى السن لا يعرفونهم .

وفى الواقع كان الأبناء وأبناء الإخوة فى أيام الحجاز الأولى يجلسون فى المقاعد الخلفية فى الجلسة التى يحضرها الملك . إلا أن هذا النظام أخذ فى الزوال لعدم ملائمته الواضحة بسبب بلوغ عدد كبير من الأمراء سن الرشد . وربما كانت نسبة هؤلاء واحد لكل خمسة آلاف من مجموع السكان فى العربية السعودية.

غير أن الامتياز الوحيد الذى كان يتمتع به سعود كولى للعهد أو نائب للملك أو وارث للعرش ، هو الحرس العسكرى والحاشية المسلحة التى ترافق سيارته . ومع مرور الأعوام منح الامتياز الملكى فى ترأس الحفلات الملكية والاجتماعات الرسمية الأخرى : هذه المهمة التى كان ابن سعود يقوم بها بدقة ولكن بدون لذة . وربما كان هذا بسبب كون الأطعمة اللذيذة وعادات المائدة البسيطة فى العهد القديم ، قد زالت تلك العادات التى أخذت تحتل مكانها تدريجيا وبلا هوادة عادات المطبخ و المائدة فى العالم الجديد مع مرور الزمن ففى عشق الماضى الذى بعثت يومنا الحاضر لابد للمرء أن يجد العذر للأجيال المتأخرة التى لم تعرف الشقة والضنك التى رافقت تطورها ، هذه الأجيال التى لها ملء الحق فى سلوك أسهل السبل والتمتع بأوفر الحظوظ والملذات التى يوفرها لها نظام آخر مختلف ، سيظل ميراثًا للأجيال القادمة من بعدهم .

ولكن لقد وقع الاختيار فلا يمكن النكوص إذ لا يمكن العودة إلى الأشياء التى مضت وانقضت . هذه الأشياء التى أخذ بطلها العظيم المرحوم يتخلى عنها ليرتاح من أعبائه.

* * *

قد يعزى المرء أن يتنبأ عن الاتجاه المحتمل لمستقبل الجزيرة العربية الغارقة فى يانع يقظتها، لو لم يكن ذلك حمقا من المرء أن يتنبأ عن مشيئة العناية الالهية كما يعترف بذلك حالم اليقظة فى Eothem فهل يسع المرء إلا أن يقف اليوم كما فعل قبل أكثر من قرن مضى على ذروة جبال لبنان الشاهقة ويقول : لقد علقت عيناى بشاطئ البحر الداكن الذى لا يتغير ، لقد اعتدت منذ حين على السكان الصامته والسهول المهجورة . لقد اعتادت عيناى رؤية الرجال الصامتين والنساء المحجبات التاعسات ، وما أن أبصرت شاطئ البحر حتى قفزت بكل سهولة إلى شواطئه البعيدة ، فرأيت جميع ممالك الغرب فى الطريق الجميل الذى سيبعدنى عن هذه الأراضى الصامته . لقد خلفت ورائى عالمًا قديمًا هرما .. ديانات ميتة وأخرى على وشك أن تموت ، طغيانًا هادئًا يلفظ أنفاسه فى صمت وسكون ، أين هى المماليك الغربية الآن إنى أشاهد الماليك الشرقية فى صفوف متراصة تسير يدًا بيد مع الجمهوريات الجديدة النشيطة . وكذلك المدن الكبرى التى نشأت قديمًا فى الصحراء وطبقت شهرتها الآفاق فى العصور الخوالى تعود اليوم فتولد من جديد لتصبح شهيرة كما فى الماضى . أنها لتكاد تكون الصورة التى توقع كنجليك أن يشاهدها خلفه اليوم فإذا كان قد أصاب نجاحًا

فى التنبؤ عن امتداد نشاط الاستعاريين البريطانيين إلى مصرف فأنه يستطيع أن يتنبأ كذلك عن انحلال الإمبراطورية نفسها فى خلال قرن بعد صدوركتابه . ومن ذا الذى يستطيع أن يخبرنا عما يمكن أن يحمله فى طياته قرن آخر للعالم العربى ، أو للعالم بأجمعه ؟ فقد نشهد نهاية المدنية ، وربما عادت إلى حمى البلدان الشرقية كما كان الأمر فى الماضى ، حيث نشأت وترعرعت فى العصورالخوالى.

* * *

ولنعد الآن سد هذا البحث الشامل فى العوامل التى كان لها الأثر فى إيجاد الإطار الذى يمكن أن تقام عليه نماذج المستقبل إلى إعلان ابن سعود نفسه ملكًا على الحجاز : أن رد الفعل العالمى على هذا التطور غير المتوقع كان أعظم فى البلاد الإسلامية منه فى الغرب ، الذى لم يظهر للأمر .. وكان أول العازفين هى الحكومة الروسية التى كانت لا تزال مخلصة للمبادئ المناوئة للسياسة الإستعمارية : تلك المبادئ المتمثلة فى الثورة البلشفية . فقد سارعت إلى الاعتراف قانونيًا بالنظام الجديد فى البلاد الإسلامية المقدسة . واعترفت بريطانيا وهولندا

تباعًا . ثم جاء بعد دور تركيا وبلجيكا وسويسرا ، وفى سنة ١٩٢٩ انضمت المانيا إلى الـدول المعترفة .

وفى عام ١٩٢٩ قامت إيران التى تأخر اعترافها بسبب تدمير مقامات الأولياء فى المدينة المنورة ومكة ، وأضرحتهم ، فبادرت إلى فتح المفاوضات التى أدت إلى اعترافها هى الأخرى. غير أن مصر لم تعترف بحكم ابن سعود ، بسبب خلاف خطير نشب بين الحجـاج المـصريين والوهابيين خلال الحج الذى حدث فى سنة ١٩٣٦ . وقد سحب المحمل من جـدة فى الـسنة التالية بسبب رفض ابن سعود السماح له بالذهاب إلى مكة وعرفات ، خشية أن يؤدى إلى فتنة ونزاع .

ولم تعد العلاقـات الـسياسية بـين البلـدين إلا فى سـنة ١٩٣٦ ، بـسعى مـن مـصطفى النحاس باشا رئيس وزراء مصر آنذاك ، وبعد موت الملك فؤاد الـذى وضـعت وفاتـه حـدًا لمطالبه التى لا تستند إلى أساس بالخلافة . ومنذ ذلك الحين أصبحت العلاقات بـين البلـدين ودية ووثيقة . وكان فى ذلك فائدة للمملكة السعودية التى استفادت طويلاً من الخبرة الفنيـة التى كانت لجارتها المتقدمة عليها فى هذا المضمار .

Amantynm irae Amoris integratis ast

لم تكن أمريكا بالطبع مهتمة بشؤون الجزيرة العربية آنذاك . ويفسر اختفاء اسم إيطاليـا من بين الدول المعترفة بكل بساطة ، باهتمامها الأفلاطونى باليمن تلك الـبلاد التـى حـددها السنيور موسولينى على اعتبار أنها أرض ملائمة للاستعمار الإيطالى أما إخفاق السير جلبرت كلايتو فى أن يتابع المفاوضات المرضية بشأن معاهدتى جدة ومحرة ، ومعاهدة ابن سعود نفسه سنة ١٩٢٥ ، لتسوية جميع القضايا البارزة بين بريطانيا والإمام يحيى فى الربيع التالى عند زيارته صنعاء فكان من نتائجه أن ألقى الإمام نفسه فى أحضان إيطاليا .

وفى نهاية عام ١٩٢٦ تقريبا ، عقد السنيور جاسيزينى حاكم أرتريا الإيطالية . معاهـدة صداقة وتجارة مع اليمن . وقد اعترفت إيطاليا فيهـا بالإمـام يحيـى ملكًـا عـلى دولـة الـيمن المستقلة ضمن حدودها الحالية . وكانت هذه العبارة تتضمن اعتراف إيطاليا بمطالـب الـيمن الإقليمية التى كانت مدار نزاع بين الإمام من جهة ، وبين بريطانيا والملكة السعودية من ناحية أخرى .

ولقد شهدت جدة فى الأشهر الثلاثة قبل سقوطها ، زيارة مالا يقل من ثلاث بعثات أجنبية تهدف إلى بحث أمور ذات أهمية خاصة ، بالنسبة للدول التى أرسلتها أما بعثة السير جلبرت كلايتون فقد بحثناها سابقًا .. وسمح لبعثة رسمية إيرانية أن تمر من الخطوط الدفاعية الشريفية إلى مكة ، حيث وضع ابن سعود تحت تصرفها جميع التسهيلات اللازمة لتقديم الخسائر التى لحقت بالقبور من جراء الاعتداءات . ثم أنها لحقت بجيش الأمير محمد إلى المدينة المنورة لنفس الغاية . ذلك أن ابن سعود قد تعهد بأن يعيد (وفقًا للشعائر الدينية) بناء أى ضريح يستحق العناية . وقد ذكرنا نتيجة هذه الزيارة آنفا.

وكانت أكثر هذه البعثات الثلاث إرباكًا وإزعاجًا للبعثة الهندية غير الرسمية الممثّلة لهيئة الخلافة . إذ وصلت هذه إلى جدة عازمة على أن تندد بأعمال الوهابيين ، متذرعة بهذا السبب وبأسباب غيرها ، كى تضغط على الحكومة الوهابية لتسليم إدارة الديار المقدسة إلى لجنة ديمقراطية تمثل جميع البلاد الإسلامية . وقد ظل ابن سعود صابرًا إلى أن أصبح مسلكها لا يطاق . فنفذ صبره ولم يأمرها بمغادرة البلاد فحسب ، بل عمد إلى إجراء الترتيبات لتسفيرها بحرًا إلى الهند ، وتحت الحراسة العسكرية .

وفى هذه الأثناء واجه ابن سعود الانتقادات التى وردته من شتى البلدان بالإعلان التالى:

أولاً : أنه لا يستطيع أن يتخلى عن مسؤولية المحافظة على الأمن والسلام فى الديار المقدسة التى تشكل القبائل البدوية الجزء الأكبر من سكانها ، هذه القبائل التى تحدت ، منذ أمد طويل الأتراك والحكومة الشريفية ، فأضرت بالحج ضررًا بالغًا .

وثانيًا : أن يقترح عقد مؤتمر من جميع الأطراف والعناصر المعنية بمستقبل الحجاز ، فى مكة ، بعد الحج القادم .. أى فى أوائل سنة ١٩٢٦ ذلك لأن عدد الحجاج القادمين من وراء البحار كان فى حد ذاته كافيًا ليثبت بأن الثقة بسلامة الحج قد أعيدت إلى النفوس تحت حمايته . ومتى تم عقد المؤتمر فيسمح له ببحث الأمور المتعلقة وغير المتعلقة بالموضوع على أوسع نطاق ، وبإصدار قرارات دينية تتسم جميعًا بصحة المعتقد واستقامة الرأى .

وبالنسبة للمسألة السياسية الرئيسية التى لم تكن قط على الهامش ، بل فى رأس قائمة القضايا التى جرى بحثها ، فلم يكن لها إلاجواب واحد فيما يبدو.. لقد عزم ابن سعود على أن يستمر فى حكم الحجاز لمنفعة المسلمين عامة ، وهو على استعداد لأن يأخذ على عاتقه المسؤولية الكاملة للقيام بالحكم على أكمل وجه .

ولقد انفرط عقد المؤتمر على هذه الأسس الواضحة ، فأصيب الكثيرون ممن حضروا المؤتمر بخيبة الأمل .

وأقل ما يقال أن الحجاج الذين زاروا الحجاز آنذاك ، وفيما بعد ، خلال السنوات القليلة التى سبقت التدهور الاقتصادى المريع فى أوائل سنة الثلاثين لم يجدوا أى سبب يدعوهم للشكوى أو التذمر من الأخطار أو عدم تأمين سلامتهم .

هذا علاوة على أن الإجراءات التى اتخذت تحت إشراف ابن سعود شخصيًا فى المحافظة على صحة الحجاج ، جديرة بالتقدير ، خصوصًا إذا عرفنا أنه خلال السبعة والعشرين حجًا التى احتفل بها فى عهده لم تقع أية حادثة كبيرة على الإطلاق .. وبالإضافة إلى هذا فإن قرار ابن سعود أن يمنح الحجاج مختلف التسهيلات التى كانت ممنوعة عليهم ، قد زادت فى راحتهم إلى حد كبير جدًا فتشجيعه استعمال وسائل النقل الآلية ، قد قلب الأحوال رأسًا على عقب ، هذه الأحوال التى يواجهها آلاف الحجاج الوافدين من الخارج . فاليوم وبعد أن استعملت الطائرات كوسيلة جديدة من وسائل نقل الحجاج ، لم يعد الحج بالعملية المتعبة على الإطلاق.

وحتى هذا التحول المدهش لم يكن كل ما تميزت به إدارة ابن سعود ، واستحقته من تقدير فى الحرص على راحة الحجاج ومصلحتهم ، بعد أن كانوا يجأرون بالشكوى بسبب الرسوم الكبيرة التى كانت تجمعها الحكومة منهم . مع العلم أن الاحتياطات المتخذة لتأمين سلامتهم وراحتهم تكلف الدولة كثيرًا من المال .

كان الرسم الذى يدفعه كل حاج خمسة جنيهات إنكليزية .. وكان هذا فى الزمن الذى كان فيه الجنيه الإسترلينى والجنيه الذهب من نفس القيمة . وليس الذنب ذنب الحكومة السعودية فى أنهما لم يعودا متساويين فى القيمة .

أما الاستمرار بدفع الخمسة جنيهات الذهبية أو قيمتها فى الأسواق العالمية فكان يبدو عبئًا ثقيلاً على عاتق الحجاج من وجهة نظرهم ، إلا أن هذا جرى فى جميع أنحاء العالم . ومهما يكن من أمر ، فليس للحجاج اليوم ما يشكون منه . فقد ألغيت رسوم الحج بأمر من الملك ، حالما ازدادت عائدات الحكومة من البترول والموارد الأخرى التى جعلت بالإمكان منح الامتيازات : تلك الامتيازات التى مكنت الحكومة من تحمل كافة تكاليف التسهيلات المتزايدة التى خصصت لمنفعة جميع قاصدى الحج ، (كطارق لسيارات الشحن الكبيرة التى تسير على المازوت . وعلى شبكة من الخطوط كتلك التى بين مكة وعرفات) .

وبعد أن تخلص ابن سعود من المؤتمر الإسلامى ، أرسل ابنه فيصلاً على رأس بعثة صغيرة ، إلى كل من حكومات بريطانيا ، وفرنسا ، وهولندا ، لشكرها على اعترافها بكيان حكومته الجديد . وقد بحثت البعثة جميع الأمور المتعلقة بالمصالح المتبادلة للدول الثلاث التى زارتها . ، إلا أنه لم يكن لدى هذه البعثة أى هدف تسعى إلى تحقيقه . ولدى عودتها إلى الجزيرة العربية ، فوض المستر س . ر . جوردن الممثل والقنصل الإنجليزى فى جدة ، أن يبدأ المفاوضات مع ابن سعود . وكان هذا آنذاك فى المدينة المنورة . وكان الهدف المنشود فى المفاوضات هو تسوية شاملة للأمور الهامة المتعلقة بين البلدين .

ولقد كان واضحًا للجميع بأن معاهدة القطيف القديمة المعقودة سنة١٩١٥ ، لم تعد تعبر عن العلاقات الحقيقية القائمة بين بريطانيا العظمى والمملكة السعودية ، وأن الحاجة ماسة إلى معاهدة جديدة تتضمن اعتراف بريطانيا باستقلال ابن سعود وسيادته ، وأن له ملء الحرية فى إقامة علاقات مع الدول الأخرى ، والحق فى تزويد بلاده بالأسلحة والذخيرة من أى مصدر كان ، دون أية قيود . بينما لم يكن هنالك مجال للاعتراف بنظام الامتيازات التى نشأت تحت الحكم التركى واستمرت بشئ من التعديل خلال الحكم الشريفى الذى لم يدم طويلا .

أما الحكومة البريطانية فقد تمسكت . بشدة ، بحقها القديم فى حماية العبيد الهاربين الذين يلجأون إلى قنصليتها ، وأما ابن سعود فلم يشأ أن يسجل رسميًا اعترافًا بانتداب الحكومة البريطانية على العراق وفلسطين وشرق الأردن ما لم تعد إليه منطقة معان

العقبة - الحجاز . وقد اهتم الطرفان جل الاهتمام فى إعادة تسيير الخط الحجازى الذى حاولت الحكومة البريطانية جاهدة أن تدمره خلال الحرب . إن هذه المشكلة مازالت حتى يومنا هذا موضع أخذ ورد ومباحثات شتى .. دون أى احتمال لإيجاد وسيلة عملية طالما أن الجزء الخارب المعنى يقع ضمن الحدود السعودية وقد رفضت الدول المنتدبة فى بادئ الأمر أن توزع القاطرات الموجودة والعربات وما إلى ذلك حسب عدد الكيلو مترات أو أى أسس أخرى معقولة بينها لم تتوصل حكومات سوريا والأردن دون حكومة فلسطين وحكومة السعودية إلى إتفاقية مرضية بهذا الشأن الذى أصبح الآن موضع البحث مرة أخرى .

كانت المباحثات بين ابن سعود والمبعوث البريطانى غير مجدية . فتوقف ابن سعود عن القيام بأية مباحثات أخرى حتى يقوم بزيارة الرياض ، عاصمته التى كان غائبًا عنها طوال ستتين . فقد حان الوقت لتجديد الاتصال بشعبه وشيوخ القبائل والعلماء بشكل خاص . وكانت الشائعات عما يجرى فى الحجاز تصلهم ، فكانوا على ما يبدو قلقى الأفكار خشية أن يعود الحجازيون بدورهم فيأسروا الفاتحين .

والحق أنه كان لهم العذر فى هذه الشكرك . فالواقع أن لجنة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد أنشأت تعمل منذ البداية على تطهير اسطبلات الحجاز التى طهرها هرقل بنهر الفيس فقد أمحت الدعارة وكل ما يمت إليها بصلة. أو أصبحت تمارس سرّا على الأقل . وكذلك اعتبرت معاقرة الخمر والتدخين من المخالفات التى تقترف تحت وطأة العقوبات الشديدة بأمر من اللجنة . وكانت يهمها بالطبع أن تتأكد من أن كل فرد مواظب على تأدية الصلوات المفررضة فى الجوامع .

ولم يكن هنالك تساهل أو حل وسط فى ذلك الزمن ، وتحت تلك الظروف أما فى قضية التدخين ، فإن إنسانية ابن سعود قد تبدت فى الأمر الذى أصدره طالبًا بوجوب مصادرة كل المخزون من الدخان فى الحجاز ، ثم حرقه وقد عرف التجار أن لاسبيل للاعتراض على هذا الأمر ، غير أنهم قرروا الارتماء على أقدام الملك يطلبون منه الرحمة وادعوا بأنه إذا وضع الأمر موضع التنفيذ فسيؤدى ذلك إلى خراب بيوتهم .

وقد اهتز ابن سعود وصُدم عندما علم أن قيمة المخزون من هذه النبتة الشريرة يقدر بمائة ألف جنيه . ولم يرض بأن يصاب هؤلاء المدعون التعساء بمثل تلك الخسارة الفادحة . فأمهلهم مدة كافية ليتخلصوا من بضاعتهم هذه ، بحسن تقدير وحكمة وبدون إخلال بالقانون ، على أن يعلموا أنه لن يسمح لهم باستيراد التبغ فيما بعد .

إن تأخير تنفيذ الحكم كان كافيًا للأخذ بالاعتبارات الأخرى .فالواردات الهائلة من رسوم التبغ أدت إلى النتيجة الراسخة بأن الدخان ليس محرمًا فى نظر الشريعة . ومع أن عادة التدخين مكروهة ، فإنه لا يمكن اعتباره أحدى الكبائر ذلك لأن التبغ لم يكن معروفًا إلا بعد الشريعة بزمن طويل . ومنذ ذلك الحين أخذت رسوم التبغ تشكل أهم موارد الدولة الوهابية.

وكان هناك نقاط أخرى أخذ الوهابى الحنيف يتحدى بها الوضع الجديد فقد كان سابقوه ينظرون إلى السيارة شزرًا باعتبار أنها من اختراعات الكفار إن لم تكن من عمل الشيطان . هذا بالرغم من فوائدها الظاهرة . وحين أثبتت السيارة أنها أفضل من الجمل كوسيلة من وسائل النقل التجارى ، بوشر باستخدامهم على نطاق واسع . وقد أحرقت علنًا وفى السوق العام ، أول سيارة دخلت مدينة الحوطة المتعصبة ، وكاد سائقها يلقى مصيره ذاته .

اما فيما يتعلق بالطائرات ، وقد بدئ فى استعمالها بعد ذلك بكثير ، فكان الوهابيون المستقيمو الرأى يعتبرون ركابها أناسا يطيرون متحدى الأيدى إلا أنهم سرعان ما أدركوا الأمر على حقيقته وحينئذ وجدوا فيها أسرع وسيلة مناسبة للسفر من الرياض إلى مكة ، وحتى إلى سوريا ومصر .

ومن هذا القبيل نذكر أن أحد الفقهاء البارزين ألح على الحكومة المصرية بأن تعفيه من وضع صورته على جواز سفره وذلك عند إجراء الترتيبات الخاصة بزيارته للقاهرة جوًا .

غير أن جل اهتمام الوهابيين السلفيين والذين سارعوا للترحيب بمليكهم لدى وصوله من المدينة المنورة ، كان بالتليفون .. هذه الآلة التى سمعوا عنها الكثير ممن زاروا مكة بعد الاحتلال . لقد كان الجواب على اعتراضهم أن دعوا لتجربة هذه الآلة بأنفسهم . واندهشوا حين سمعوا صديقًا معروفًا لديهم يتلو بصوته آيات قرآنية كريمة .

ومن الغرابة بمكان أن يصدم هؤلاء الناس بفكرة استعمال التليفون للمكالمة عن بعد ، وهم الذين تعودوا طلية حياتهم استعمال المنظار الأجنبى فى رؤية الأشياء البعيدة .

أما الفوتوغراف والسينما فبقيت ممنوعة . وكان استيرادها للبلاد غير مشروع . غير أن الزمن أخد يخفف حدة كثير من هذه الصعوبات ، فكثر عدد الصناديق (الجرامافونات) والكشافات (البرجكتور) التى يملكها الأفراد . ومن الغريب أن يظهر الراديو فيطفى على الحجج التى سبق أن أخلت بها البدع الأخرى ، أما ابن سعود الذى كان شديد الشوق لسماع آخر الأخبار من أقصى بلاد العالم فأصبح من أعظم أنصار الراديو . وفى سنة ١٩٣١ أخذ يقيم شبكة محطات لاسلكية فى البلاد لإعطائه آخر التطورات والأخبار مهما كان نوعها ، فقد تكون سقوط المطر هنا ، أو حادثه قتل هناك ، أو موت رجل مشهور ، أو حتى مولد حفيد له.

أما محبته فى الرياض فلم تكن شديدة .. فإذا سمع بالانتقادات الصريحة توجة إلى البدع الموروثة من الحجاز والأجنبى القائم فيها .كانت مهارته تتجلى فى مخاطبة الحضور بفصاحته ، التى لم تترك مجالاً للشك فى أن سياسته ستلقى الموافقة عند المستمعين التواقين إلى حديثه (فقد كان يخطب بفصاحة كلما دعت الضرورة إلى ذلك) وكانت النتيجة الرئيسية لزيارته للرياض، أن طلب إليه ، كما طلب إلى أبيه من قبل أن يعلن نفسه ملكًا على نجد ، كى يرفع بلده إلى نفس مستوى الحجاز المحتلة . فوافق على الطلب بلطف ، وعاد إلى الحجاز مهللاً ليعلن ملكًا عليها وعلى نجد وتوابعها .

وتقدمت بريطانيا وعرضت على ابن سعود تسوية المشاكل البارزة ، وعينت مرة أخرى السير جلبرت كلايتون للقيام بالمفاوضات . وسارت المفاوضات رخية بهدوء . فوقعت معاهدة جدة فى العشرين من آيار عام ١٩٢٧ وتبادلوا الوثائق المصدقة فى السابع عشر من أيلول . وقد ألغت هذه المعاهدة التى كتب لها أن تدوم سبع سنوات أتفاقية سنة ١٩٠٥ بكاملها . كما اعترفت بالاستقلال الكامل لبلاد الملك الذى تعهد أن يسهل الحج لرعايا الحكومة البريطانية المسلمين ونصت على احترام كافة المعاهدات المعقودة مع إمارات الخليج الفارسى وعلى التعاون مع بريطانيا فى سبيل منع تجارة الرقيق .

كان هذا التطورمرضيًا لجميع الأطراف المعنية . غير أنه ما كاد الطرفان يتبادلان الوثائق المصدقة ، حتى وقعت حادثة عند الحدود العراقية القصية ، حادثة كان من نتيجتها أن تعكرت العلاقات بين البلدين لعدة سنوات قادمة .

لقد كان من النتائج العامة لمعاهدة الحمرة المعقودة سنة ١٩٢١مع بروتوكول العقير فى السنة التالية ، أن قررت تحديد الخط الفاصل بين العراق والدولة الوهابية بشرط أن لا تقام حصون أو أية منشآت عسكرية فى الأراضى المتاخمة للحدود .

ومع ذلك ففى الوقت الذى كانت تدور فيه المفاوضات من أجل معاهدة جدة ، قام السير هنرى دبس Sir Henry Dobbs المندوب السامى البريطانى فى العراق بالموافقة على إقامة سلسلة من الحصون على طول الحدود العراقية النجدية فخرجت جماعة من العمال إلى آبار بسية Busaiya للمباشرة فى بناء حصن بالقرب منها . وهناك ظهرت جماعة من قبيلة مطير فى ذلك المكان فذبحت الذين كانوا يقومون بالمشروع . وكان ابن سعود قد أكد للقبائل النجدية وقت عقد المعاهدات ، أن حقوقهن فى الرعى على الجانبين من الحدود مكفولة تمامًا. كما أعلمهم عن منع الطرفين المتعاقدين من إقامة أية أبنية على الحدود أو القرب منها . إن البدو اخطأوا عندما أخلو بالقانون بهذا الشكل المريع . فقامت طائرات السلاح الجوى الملكى البريطانى بمطاردة القبيلة البدوية عبر الحدود وألقت القنابل على تحشداتهم ومخيماتهم أينما وجدتها ، متجاوزة بذلك على حقوق الطرف الذى لحقه الاذى .

واشتعلت النار على الحدود .. ونشب القتال واستمر قرابة الشهرين . وكان قتالاً بالفعل لا بالاسم ، بين الدولتين الموقعتين على معاهدة صداقة مدتها سبع سنوات ، مع أنه قد صُدِّق عليها منذ عهد قريب .

وقد ردت القبائل النجدية على القصف الجوى البريطانى بالإغارة على الأراضى العراقية والكويتية يقتلون وينهبون أثناء زحفهم .

وحين وُجهِّت الأسئلة فى مجلس العموم البريطانى عن الأسباب التى دعت إلى قصف الطائرات للأراضى السعودية ، ذلك القصف الذى لا مبرر له على الإطلاق ، كان رد وزير المستعمرات غير صحيح . لقد ادعى أن ابن سعود أعلن بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه . والواقع أن كل ما قاله ابن سعود لا يعدو أنه إذا أغارت الحكومة البريطانية على أرضه ، فإنه لن يكون مسؤولاً عن العواقب التى قد تترتب على ذلك .

وفى هذا الوقت عاد الملك إلى الرياض ليكون على صلة قريبة بتطورات الوضع . وكان الذى اقترح على الحكومة البريطانية إيقاف جميع العمليات العسكرية على الجانبين ، وتحويل الأمر إلى مجلس استشارى .. فاتفق على هذا الطلب وعاد السير جلبرت كلايتون مرة أخرى فزار جدة للتشاور مع ابن سعود .

وصادف وصوله إخلال البريطانيين باتفاقية الهدنة وقيام بعض طائراتهم بغارة جوية على البدو النازلين عن آبار الهازل Hazil ، فاضطرت أحداها إلى الهبوط وحرقت ، بعد أن أنقذت طائرة أخرى ملاحيها .

وكان كلايتون مفوضًا للبحث الشامل فى جميع القضايا التى تمس علاقات المملكة العربية السعودية مع جارتيها العراق والأردن ، وكان يرافقه فى هذه المرة الكولونيل ك . كرانواليس والميجرج . ب . جلوب ، والسيد جورج أنطونيوس . غير أن موسم الحج الذى كان قريبًا لم يترك له وقتًا كافيًا لإتمام مهمته .

وبعد أن أصبح الاتفاق على جميع القضايا المتعددة الصغيرة المختلف عليها سهلا ، بأن من الواضح أن تسوية النزاع حول حصن البسية Busaiyaبشكل يرضى ابن سعود شرط لابد منه فى أية اتفاقية . وبالنظر لعدم إحراز أى تقدم فى هذه النقطة فى ذلك الحين ، اتفق على تأجيل المحادثات إلى ما بعد الحج ، ليتمكن كلايتون من العودة إلى لندن وإجراء مشاورات كافية مع حكومته .

وقد عاد كلايتون إلى جدة فى آب وعقد اجتماعًا فاشلاً مع الملك الذى رفض الموافقة على أية اتفاقية بهذا الشأن ، رادّ بذلك على رفض الجانب البريطانى تدمير الحصون التى أقاموها بصورة مخلة بالاتفاقيات المعقودة فرجع كلايتون إلى بلاده ليبلغ حكومته فشل مهمته. وعاد ابن سعود إلى نجد فى عدد من السيارات السريعة ليعالج هذ الوضع المستهجن والباعث على اليأس .

لقد كان ابن سعود على أتم اتفاق مع رعاياه فى التنديد بمسلك الحكومة البريطانية أما رعاياه الذين زاد فى استعار تعصبهم ماوجهه إليهم الكفار من الإهانات والأضرار ، فكانوا على استعداد للقتال حتى الموت غير أن ابن سعود كان يعلم أكثر منهم ، بأن الدخول فى

حرب مع العراق فى تلك الظروف معناه الكارثة ولقد قرر بألا تكون مثل هذه الحرب مهما كان الثمن . فقد كان يعلم أن الصحراء تتمخض عن ثورة تتحدى سياسة التسوية التى اتبعها مع الكفار ، ولتأكيد حقها فى الدفاع عن عقيدتها ضد أعدائها . أماقادة هذه الحركة التى قام بها الإخوان فكانوا فيصل الدويش زعيم قبائل مطير ، وسلطان بن بجاد زعيم عتيبة ، وزعماء أرطاوية وغطغط على التوالى ، الذين كانوا يعتمدون على مساعدة قبائل العجمان وزعيمها ضيدان بن هذلين Dhaidan، كما يعتمدون على الإخوان من قبائل دولة بزعامة فرحان بن مشهور.

ومن أجل أن يعالج القضية ، وفقًا لطريقة الشورى التقليدية ،عقد ابن سعود مؤتمرًا فى الرياض . ولم يحضره زعماء الثورة بأنفسهم ، وإن كانوا قد أرسلوا أبناءهم أو أقرباءهم ليمثلوهم فيه وبحثوا كثيرًا من البدع التى كان الوهابيون يزدرونها وينظرون إليها شزرًا فساند الزعماء مليكهم فى جميع القضايا الرئيسية التى أثيرت فى المؤتمر . ذلك لأنهم كانوا يدركون مسؤولياتهم نحو الله ونحوه .

وقد عضدوه ودافعوا عن سياسته السلمية مع جميع جيرانه .وكان فى مقدوره الآن أن يعمل وضميره مرتاح ، على أساس القرارات التى توصلوا إليها بالطرق الديمقراطية الصحراوية فى المؤتمر .

أما زعماء المعارضة فقد ثاروا الآن علانية على مليكهم ، فما كان منه إلا أن حشد قواته لمواجهة تحديهم ، وسارت العمليات الحربية سيرها المعتاد فى الحروب البدوية غير المنظمة ، فكان يتخللها مداولات بين الطرفين . ولقد استمرت مدة أربعة أشهر (ربيع عام ١٩٢٩) ، وكلفت خزانة الدولة أربعين ألفًا من الجنيهات . أما زعماء الثورة فرفضوا طلب الملك إليهم الاستسلام دون قيد أو شرط كى يحاكموا أمام محكمة الشرع ، التى يمكن أن تدينهم بالخيانة العظمى وتصدرحكمها عليهم بالأعدام . وإن كانوا فى هذه الحالة يستطيعون أن يطلبوا رأفة الملك الذى سيمنحهم إياها بكل تأكيد .

وربما كان هؤلاء الزعماء يدركون أنهم أمعنوا فى ثورتهم إلى درجة لا يستطيعون معها المراجعة .. فاستمر القتال بكل قوة وتمركزت القوات الثائرة فى مراكز محصنة فى سهل سبيلة

Sibilaبين زلفى وأرطاوية Artawiya وكانت الجيوش الملكية مقسمة إلى عدة فرق ، يقود كلاً منها أحد أبناء الملك أو أشقاؤه .

وكانت هذه الفرق تتقارب ببطء وقوة ونظام . ولقد أصدر ابن سعود أمره بالهجوم بعد أن رفض الثوار طلبًا أخيرا للاستسلام . ولم يرد الثوار على النار بالمثل ، إلا بعد أن أصبح الجيش على مقربة منهم فكانت النهاية السريعة الفاصلة فقد كان الجيش الملكى يتفوق عدديًا على الثوار فى المعركة التى نشبت وجها لوجه فقتل منهم المئات .

وكان ابن فيصل بين القتلى بينما نقل فيصل الدويش نفسه إلى أرطاوية مصابًا بجرح مميت . أما سلطان بن بجاد ففر من ميدان المعركة ، إلا أنه استسلم ولاقى حتفه بعد مدة قصيرة فى زنزانته فى أحد سجون الرياض من شدة الوهن والضعف .

ودمر عبد الله شقيق الملك الأصغر ، مدينة غطغط تدميرًا تاما تشهد به خرائبها حتى اليوم . وسار الملك إلى أرطاوية ليطلب إلى فيصل الدويش أن يستسلم ، بعد أن رفض الملك طلب نساء فيصل أن يسمح له أن يموت بسلام . وجئ به أمام الملك على نقالة فنال عفو ابن سعود الذى خدمه فيصل طويلاً ، وبقوة ، فى سبيل دين الله ثم خان فى النهاية . وكان بإمكانه إذ ذاك أن يعش ويموت فى سلام بين أهله .

وقعت معركة سبيلاً فى آذار عام ١٩٢٩ .

وبعد ذلك سارع ابن سعود فى العودة إلى الحجاز ليقوم بتأدية فريضة الحج مرة أخرى وهناك اهتم شخصيًا بالقضايا الادارية العديدة إلا أنه قطع أقامته فى مكة بسبب حدوث تطور غير متوقع . ذلك أن فيصل الدويش لم يمت ، بل إنه ما كادت جراحه تلتئم حتى شرع يضع الخطة للهجوم على الحدود العراقية مرة أخرى ولما كانت قضية الحصون لم تحل بعد ، مع أن ابن سعود اقترح بأن تحال إلى التحكيم ، فقد اضطرته أخبار نشاط فيصل إلى أن يعود إلى نجد . وهكذا أنقلب ابن سعود إلى الرياض فى تموز فى رتل من السيارات يبلغ عددها المائتين.

وكان فى أثناء إقامته القصيرة فى الحجاز قد تعاقد على شراء أربع طائرات من د. هـ.٩بطياريها البريطانيين . وفى هذه الأثناء أيضًا تم تصميم مشروع إقامة شبكة من المحطات اللاسلكية لربط المراكز الرئيسية فى بلاده الواسعة القليلة السكان بمركز قيادته

حيثما كانت . إلا أن العقد الخاص بهذا المشروع لم يتحقق فعلاً إلا سنة ١٩٣٠ ، إذ وكَلَ أمر إنجازه إلى شركة ماركونى . أما الطائرات فقد كانت تصل فى أوقاتها المعينة إلى ساحل الإحساء قبل نهاية عام ١٩٢٩ ، مع أن الحاجة لم تكن ماسة لها لاستخدامها ضد الثوار.

وفى الوقت الذى وصل فيه الملك إلى عاصمته ، انتقل ثقل الثورة إلى الإحساء حيث قامت عشيرة العجمان بازعاج حاكمها عبد الله بن جلوى ، بينما كان فيصل الدويش يقوم بحشد عشائره للقيام بهجوم على الحدود العراقية . بيد أن فهدًا بن الحاكم أخذ يراقب قبيلة العجمان مراقبة تامة ، وكان لديه قوة صغيرة يستخدمها فى منع الغارات على الكويت أو الحدود العراقية .

وقام زعيم العجمان ، ضيدان بن هذلين بزيارة لفهد ليؤكد له حسن نواياه ، فاعتقله فهد بصورة مؤقته ، على سبيل الاحتياط ، وأرسل فى الوقت نفسه رسولاً يبلغ جماعته بأن كل شيء على ما يرام . وكان من سوء الحظ أن ضل الرسول الطريق . وحينئذ ساور رجال القبائل الشك فى تأخر زعيمهم لذا ساروا إلى معسكر فهد للوقوف على جلية الأمر . وارتاع فهد لدى رؤيته القوات الزاحفة عليه فقتل ضيفه فى الحال . وكان من نتائج هذا العمل البالغ الحمق ، أن أسخط فهد العناصر الموالية له فى القبيلة التى كانت فى خدمته ، فما كان منها إلا أن انضمت إلى عشيرتها ، وأطلقوا النار على المعسكر ، فقتل فهد برصاصة طائشة . وهكذا حلت النقمة على مرتكب الجريمة .

لقد كان من نتائج ثورة الدويش غير المباشرة ، أن تصالحت الأسرتان المتنافستان فى الجزيرة العربية ، ولو فى الظاهر فقط . ومنذ ذلك الحين أحترم كل من رئيسيها بلاد الآخر ، توصلا إلى تسوية جميع حوادث الحدود بالمفاوضات بدلاً من فض منازعاتها بالسلاح .

ولكن من العبث أن نفترض أن قادة الأشراف فى ذلك العصر ، كانوا راضين عن خسارة مواطنهم فى مكة . فبعد وفاة الملك فيصل ، ملك العراق ، أخذ ملك الأردن فيها بعد ، على عاتقه الدفاع عن حق أسرته . وكان من نتائج موت الملك عبد الله الذى اغتيل عام ١٩٥١ أن زالت آخر عقبة فى سبيل تأسيس العلاقات العادية بين البلدان المعنية .

أما فى الحجاز فقد نشأ جيل لم يكن يعرف شيئًا عن تاريخ عائلة الأشراف المغترب ، وكان هذ الجيل مشغولاً بالاستفادة من بحبوحة الثراء السعودى فلم يفكر فى السنوات العجاف التى عرفها أباؤهم .

لقد أوجدت المحادثات الودية ذات الطابع الرسمى التى جرت بين الملكين على ظهر سفينة صاحب الجلالة ، واسمها لوبن Lupim الأساس لمعاهدة صداقة . وحسن جوار بين بلديهما . ووقعها بالأحرف الأولى ممثلو الملكين فى العاشر من آذار سنة ١٩٣٠ ، وفى هذه السنة عاد ابن سعود إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج .

وبعد ذلك التاريخ كان حرًا فى أن يكرس وقته وجهده للمشاكل المحلية والدولية التى تركها جانبًا يوم كان يقوم بمعالجة القضية الضرورية الملحة . ألا وهى قضية الأمن الداخلى . لقد أخذ على عاتقه مهمة إخضاع شعبه .. هذه القضية التى كانت كريهة إلى نفسه . ومع ذلك فقد كان أسلوبه فى معالجتها مؤيدًا بما كان ابن سعود معروفًا به من دهاء صحراوى وطول باع فى السياسة .

كان قد قضى ثلاثين عامًا فى الميدان يقارع أعداءه إلى أن تمكن من إخضاعهم الواحد تلو الآخر . والآن هو فى ذروة النصر . ومن الغريب أنه اضطر إلى أن يخوض آخر معاركه ضد أصدقائه .. ولغرض واحد فقط وهو أن يبين لهؤلاء الأصدقاء والعالم جميعه ، أنه كان سيدًا على بيته ، وهو مصمم على أن يظل السيد المطاع فيه . ولم يذهب بعد ذلك إلى الميدان بنفسه ، لا لعدم الحاجة إلى معارك فهذه يمكن تركها للجيل الصاعد الذى تمرس فى العمليات العسكرية فى العشر سنوات الماضية بل لأن انتصارات السلام أخذت تشير إليه من عالم جديد غير مألوف لديه .

لقد كانت معركة سبيلة نهاية عهد أو حقبة من الزمن . فالعربية السعودية (لم يطلق عليها هذا الاسم إلا عام ١٩٣٤) قد وصلت إلى شكل من الاستقرار النهائى نتيجة للحروب المستمرة ضد المشركين . ومن ثم أصبح المشركون الآن حلفاء لهم قيمتهم فى قضايا التطور العامة . لقد كان قتل المشركين والكفار فى سبيل الله من قبل يعتبر فضيلة سامية . إلا أن فيصل الدويش لقن فى معركة سبيلة أن عليه ألا يمارس هذه الفضيلة دون موافقة السلطة

العليا . ولذا أصبحت ممارستها ممنوعة منعًا باتًا لقد انتزعت الشركة من حركة الإخوان الذين لعبوا دورًا بارزًا فى خلق النظام الجديد ، ولم يعد بإمكانهم تأدية أية خدمة نافعة أخرى . لقد أخذ الناس يتناسون هذه الحركة شيئًا فشيئًا حتى هوت أخيرًا فى مجاهل النسيان التام . أما هذه التحولات فقد جلبت تلك العناصر غير المتجانسة فى الدولة الوهابية وحولتها إلى مجتمع يستند على الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية . لأن هذا المجتمع كان أقل إدراكًا من ذى قبل . لاهتمام الله العلى القدير بأعمال مخلوقاته اليومية . لقد كان خلق ابن سعود لحركة الأخوان فى سنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقرى لا يوازنها غير تصفية لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عامًا ، حينما ثبت لديه أنها لم تعد إلا عقبة فى سبيل استقرار الأوضاع التى بناها بطول صبره وجهده فقد كان يمكن لهذه الحركة التى أوجدها ابن سعود من العدم ، أن تدمره وتهلكه إن لم يبادر هو إلى تدميرها بنفسه .

وفى عام ١٩٢٩ كانت الحكومة الروسية مره أخرى فى الميدان .. فرفعت تمثيلها اليساسى فى جدة من قنصلية عامة إلى درجة مفوضية . وكان كريم خان خاكموف المعررف ، أول سفير لها . فتبعتها الحكومة البريطانية بعد ذلك بمدة وجيزة بالرغم من التوتر الذى كان يسود الحدود العراقية . وكان السير أندرو ريان Andrew Ryan أول سفير لها . ووصل فى الوقت المناسب إلى جدة لاستلام منصبه فى أوائل شهر آيار .

كان ابن سعود يزداد سروره للمركز الذى أخذ يحظى به فى المجالات الدولية كلما ازداد عدد الممثلين السياسيين ، فى جدة ، المدينة التى حُدِّدت لإقامة جميع ممثلى الدول الأجنبية . غير أن شعور الملك بمسؤولية تسيير دفة علاقاته مع الدول الأجنبية بالإضافة إلى كره طبيعى فى نفسه لقضاء أكثر من الوقت اللازم فى جدة ، جعلت مركز الممثلين الأجانب صعبًا بعض الشئ .

وقد كان هنالك شيء من الحق فى قول السير اندرو ريان على سبيل النكتة أن جميع الدول الكبرى ممثلة فى جدة إلا العربية السعودية !. غير أنه كان يتم اتخاذ الترتيبات الضرورية من حين لآخر . للاتصال بالمبعوثين الأجانب عند وجود قضايا هامة تستوجب البحث . هذا على الرغم من أنه لم يتم تأسيس ما يشبه وزارة الخارجية فى جدة إلا بعد مرور عدة سنوات فعين آنذاك موظف دائم للإشراف على القضايا السياسية الروتينية ، وكان الأمير فيصل يقوم

بزيارة جدة بصفته وزيرًا للخارجية مرات عديدة ليقوم بتصريف الشؤون الهامة نيابة عن والده أما والده ، فقد كان يحضر فى كل مناسبة يزور فيها الميناء . وهكذا نجد أنه فى السنوات الأولى وقع عبء الاتصالات السياسية على عاتقى عبد الله الدمارجى وفؤاد حمزة .

وكان من سوء حظ ابن سعود أن الانتهاء من تغيير أسس حكومته تم فى بداية سنوات الجفاف التى خلقت تدهورًا اقتصاديا شعرت به الجزيرة العربية ، على شكل تناقص مريع فى عدد الحجاج من وراء البحار فمنذ إحتلال الحجاز ، كان حضور الحجاج مرضيًا . وقد سجل فى احدى المرات رقمًا قياسيًا . وأن فى ذلك مكسب للحكومة .. كانت واردات الماضى الضئيلة قد تضخمت فأصبحت ملايين . ولم تكن هذه الملايين مع ذلك كبيرة بالنسبة لحاجات الدولة . أما الآن فقد توقفت فيض الذهب .. هذا بالإضافة إلى توقع سنوات طويلة من الجفاف دون وجود أى احتياطى من سنوات الخير يكفى لمواجهة مصاريف الدولة التى زادت عن حاجات البلاد ، ولم يكن من السهل إنقاذها . لقد كانت العملية تدريجية ولكن بشكل متراكم ، أما عبد الله سليمان وزير المالية ، الذى شغل هذا النصب زهاء ربع قرن ، فقد استخدم جميع مواهبه ومهاراته فى الإبقاء على مستوى المصروفات المالى الذى بلغه فى السابق مع أن موارد البلاد الان نقصت كثيرا .

أما كيف استطاع أن يحصل على الكيل من نصف الكيل فبأعجوبة وسر نجده فى عالم الخيال لافى التاريخ الجدى .

لقد وقع جزء من هذا العبء على عاتق موظفى الحكومة ذوى الرواتب القليلة إذ أسهموا فى فرض إجبارى يضاف إلى مبلغ شهرى كبير . مرت فترة من الزمن تأخرت فيها رواتب هؤلاء الموظفين فلم تدفع لهم مدة ثمانية أشهر ، خصوصًا فى الأقاليم البعيدة حيث اضطر الموظفون إلى أن يشاركوا التجار فى مصيبتهم إذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب ، واعدين إياهم أن يدفعوا لهم عند تناول رواتبهم . وهكذا أستندت موجة الضيق الاقتصادى واتسعت دائرته حتى شملت البلاد كلها وبالطبع لم يكن الضغط على الفقراء أعظم المزايا الإدارية المالية سحرًا .

واتجهت الأنظار إلى الأغنياء كمساهمين أقوياء فى تأمين حاجات الدولة . إذ كانت جميع ديون الحكومة الناتجة عن العقود والمشتريات تمثل ربحًا وفيرًا لحسابهم فأجل دفع هذه الديون وتوقفت حتى وصلت إلى الحد الأقصى . ولم يكن بد من إعلان تأجيل الديون كى يتسنى للحكومة ابتياع الحاجات الضرورية بما لديها من مال ، دون اللجوء الكريه إلى إنقاص ميزان المصروفات . ولابد من القول بأن الترتيبات التى وضعت بموجب تأجيل الديون وتصفيتها ودفع خمسة بالمائة لأكثر من بضع سنوات قد احترمتها الحكومة ودفعت فى حينها.

كل هذه التطورات التى أوضحناها بإيجاز فى الفقرة السابقة طالت وامتدت عدة سنوات أى من سنة ١٩٣٠ وما بعدها.

وبعد أن انتهى ابن سعود من الحج فى شهر آيار ، نقل مركزه من مكة إلى الطائف لقضاء فصل الصيف . وهناك تمكن لأول مرة منذ تسلمه عرش الحجاز من أن يكرس نفسه للتفكير فى حل جميع المشاكل المحلية والأجنبية التى تراكمت أثناء غيابه ، وكان يقضى بعض الوقت فى الاستجمام فى صحراء رغبة ، حيث ينصب خيامه لعدة أيام ، وينطلق من مخيمه فى السيارات السريعة لمطاردة الغزلان وصيدها فى السهول . وكان معدل ما يصطاده منها يتراوح بين مائتى رأس وثلاثمائة كل يوم وهذه كارثة لثروة البلاد الحيوانية والغريب أنه من ذلك العهد حتى الآن ، لم تبد الحكومة السعودية أى شعور بالمسئولية للمحافظة على حيوانات البلاد البرية فلم تسن تشريعات تنظم الصيد فى مدى ربع القرن الماضى . وكذلك الأمر فيما بعد بسن قوانين خاصة بالمحافظة على الأماكن الأثرية ، مع هذه المواقع التى كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها فيما عدا الامتياز الذى منح سنة ١٩٥١ (بإذن خاص من الملك) لبعثة لوفان الأثرية التى يرأسها البرفسور ج ركمانز C. Riekmans والتى تضم عددًا قليلاً من الخبراء البلجيكيين ويبدو أن دراسة الماضى الذى أدى إلى قيام العربية السعودية كانت تعتبر غير جديرة بالاهتمام فى أعين شعب عملى يتطلع إلى المستقبل أما الفضل فى معلوماتنا عن ماضى الجزيرة العربية السحيق فيعود إلى البعثات الخاصة التى كانت تهدف إلى هذه وغيرها من الغايات.

وقد تكررت إقامة الملك فى الطائف أربع مرات ، الحق أنها أسهمت فى إرساء القواعد التى ستقوم عليها المملكة فى المستقبل . إذ كان اهتمامه آنذاك منصرفًا إلى تحسين المواصلات فى بلاده .

وفى نهاية السنة وقعت اتفاقية مع شركة ماركونى لإقامة محطة لاسلكية فى مكة والرياض ، قوتها خمسة كيلو واط ، هذا بالاضافة إلى محطات تقام فى عواصم الأقاليم قوتها نصف كيلو واط وأخيرًا أربعة أجهزة متنقلة مع الملك وحاشيته فى أثناء سفرهم بقوة نصف كيلو واط ، ولم يأت عام ١٩٣٢ حتى كانت هذه الشبكة اللاسلكية العظيمة قد ظهرت إلى الوجود .

ولا مجال للشك فى الدور العظيم الهام الذى لعبته هذه الشبكة فى سيطرة الملك على شؤون البلاد وإدارتها وتوجيهها .. لقد امتدت كثيرًا وتطورت منذ تلك الأيام حتى أن العربية السعودية اليوم يمكن مقارنتها من حيث التطور اللاسلكى مع أى من جاراتها فى الشرق الأوسط إن لم أقل مع كثير من الدول الأوروبية نفسها .

فلقد إستمتع الملك منذ زمن طويل باستعمال تليفون لاسلكى عبر مسافات طويلة وقد وقعت إتفاقية منذ عهد قريب مع شركة ألمانية تعهدت بإنشاء شبكة من هذه التليفونات اللاسلكية تربط المراكز المهمة فى البلاد بأقصى أنحاء الأرض . وقد كان هنالك محطة إذاعة تعمل منذ عدة سنوات فى جدة .. وكانت تربط مكة وأماكن الحج الرئيسية مع محطات الإرسال . وهناك تفكير فى مشروع أضخم لتوسيع نطاق العمل إلى أن يشمل جميع البلدان الإسلامية .

وفى العربية السعودية كذلك عدد من الأمراء والأعضاء الآخرين يعملون كهواة فى حقل اللاسلكى ، أما مسألة تحسين الخطوط التليفونية والبرقية فى المناطق التى يناسب استعمالها فيها ، واقتراح إدخال الخدمات التليفونية الأتوماتيكية وتعميمها ، فيعود الفضل فيها إلى الأهمية التى يعلقونها فى الجزيرة العربية على وسائل المواصلات الحديثة وفوائدها . وهنالك فرق شاسع جدًا نسبيًا بين أيامنا الحاضرة وبين الزمن الماضى الذى كان يعتبر رفع الصوت البشرى مكيدةً شيطانية يقصد منها إلى فساد عقيدة البشر وإزعاجهم وإقلاق راحتهم .

أما فى الحقل الطبى ، الذى ذكرنا أثره عند الكلام على خدمات الحجاج ، فقد كان لاهتمام الملك الشخصى ولتشجيعه نتائج لا يكاد يتصور تحقيقها بين الوهابيين أولئك الذين

ورثوا النظام الصحى الذى أوجده الأتراك ، ثم حسَّنوه خلال القرون الماضية فى كفاحهم عديم الفائدة ضد المرض وسوء التنفيذ . ولقد كان ابن سعود يفاخر دائمًا بميله الغريزى للطب وما شابهه من العلوم ، هذا الميل الذى ورثه عن أبيه الذى كانت معلوماته فى أمراض العرب وعلاجها واسعة جدًا ، والتى ورثها بدوره (حسب قول الناس) عن مقدرة جده تركى بن عبد الله الفائقة فى هذا المجال ، لكن التقاليد الشائعة فى الطب المحلى، لم تحمل ابن سعود على أن يقاوم الأساليب الطبية الأوروبية ، وإن كان بعض الوقت قد انقضى قبل أن يدرك الناس هناك أن الطب يلائم المرأة أيضًا .

ومع الزمن تحطمت الحواجز الاجتماعية التى عزلت المرأة وحجبتها ليتمكن الأطباء الذكور من معالجة الأسرة الملكية والعائلات الأخرى التى استفادت كثيرًا من تشخيص الأخصائيين وطرق معالجتهم . ولم يكن هذا مقصورًا على الأطباء العرب فقط ، بل شمل الأخصائيين الأوروبيين وطبيبات البلاد الأخرى أيضًا . أما هيئة أطباء الدولة فقد نمت وكبرت منذ أوائل حكم ابن سعود . وكانت تضم عددًا من السعوديين والأوروبيين ، غير أن الميل فى الأيام الأخيرة أخذ يتجه نحو استخدام الأطباء الألمان ، وكانت النتائج مرضية .

أما المستشفيات القديمة القليلة العدد ، والتى كانت فيها معالجة المرضى سيئة للغاية ، فقد أصبحت الآن مستشفيات حديثة لقد زودتها الحكومة وبعض الأفراد بأجهزة طبية حديثة، وبالأكفاء من الأطباء والممرضين والممرضات ، وكان بعضها يتميز بطابع الاختصاص ، وهى ممتازة لا تكاد تقل عن مثيلاتها فى البلدان الغربية . وقبل بضع سنوات كانت الرياض تفخر بحيازتها أفضل جهاز لأشعة إكس فى الشرق الأوسط ، مع أن هذه التجهيزات الطبية أصبحت واسعة الانتشار الآن .

ولقد كانت البلاد السعودية منجمًا حقيقيًا من الذهب بالنسبة لمهنة الطب . ومع ذلك ، ورغمًا عن عزم الملك على تعميم الخدمات الصحية فى كل أنحاء الدولة حتى مضارب البدو ومخيماتهم ، فإنه من المؤسف حقًا أن نجد هذا المشروع جاء مخيبًا للآمال ، ويعود السبب فى ذلك إلى إحجام الأطباء عن العمل فى المناطق الريفية ، وتفضيلهم العمل فى المدن الكبيرة ، حيث فرص العمل الذهبية للأطباء الخصوصيين ، وحيث يتوفر الوسط الاجتماعى الراقى

لهم ولعائلاتهم . وكان من ذلك أنه ازداد ضغط طالبى العلاج القادمين من الأقاليم على المراكز الطبية فى المدن ، وخاصة أن سيارات النقل متوفرة . كما كان لتوفر المعالجة الطبية فى المدن أثره فى إغراء البدو الرحل والعناصر الأخرى ، ودفعهم إلى الإقامة فى المناطق الحضرية أو ضواحيها .

إن الزيادة الهائلة فى سكان المدن خلال الثلاثين سنة الماضية ، والتى تعود فى أكثرها إلى الشعور بالأمن والاستقرار، كانت من أبرز مزايا حكم ابن سعود . فقد إزداد عدد سكان كل من الرياض وجدة ، أربعة أضعاف على الأقل ، فأصبح مائة ألف وخمسين ألف نسمة ، أما سكان الطائف البالغ عددهم خمسة آلاف فى السابق ، فقد تضاعفت عشر مرات . وأما مكان المدينة المنورة الذين قل عددهم من ثمانين ألف ، زمن الآتراك ، إلى عشرين ألف نتيجةً للدمار الناتج عن الحرب العالمية الأولى ، فقد عوضوا النقص ، حتى بدون إعادة وسائل النقل الحديدية ، والهفوف ضاعفت عدد سكانها الثلاثين ألفا مرتين ، وأصبحت موانى خيبر Khubar والدمام مدنًا كبيرة بعد أن كانت قرى صغيرة لصيد الأسماك ، وذلك بسبب مجاورتها للظهران ، المدينة الصناعية التى لم يكن يسكنها أى مخلوق ، أما مكة التى كان عدد سكانها فى الماضى يبلغ مائة ألف فلا بد أنهم إزدادوا بنسبة خمسين بالمائة على الأقل ، ولابد أن نذكر بأن جزءًا كبيرًا من الزيادة فى عدد السكان قد جاء من بلاد أخرى خارج الحدود السعودية ، مثل مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، ومن حضر موت واليمن ، ولم يُعرَف أن المملكة السعودية حاولت إحصاء عدد سكانها ، إلا أن التقدير المعقول لعدد السكان ، هو ستة ملايين تقريبًا .

وكانت المشكلة الخطيرة الأخرى الناتجة عن ازدياد سكان المناطق الحضرية هى تزويدهم بالماء، لقد كانت جدة بسكانها البالغ عددهم الثلاثين ألفًا تعتمد على جهاز لتقطير ماء البحر ، ذى طاقة غير كافية يشتغل بتكاليف باهظة ، كما كانت تعتمد على عدد من الآبار التى تم حفرها لتخزين مياه السيول المنحدرة عبر السهل الساحلى من سفوح التلال . هذا بالإضافة إلى بعض الآبار الآسنة مالحة المياه التى كانت الطبقات الفقيرة تستقى منها ، أما مكة فقد كانت تستقر منذ زمن طويل من ساقية عين زبيدة ، كما تستقى المدينة المنورة من عين الزرقاء وكانت كذلك تستقيان من آبار عدة لتزويد مواطنيها وزوارهما بما يحتاجون إليه من الماء .

وكانت موارد المياه تعجز فى جميع هذه المناطق عند ازدياد عدد الحجاج ، وكان هم الملك العظيم أن يزود السكان والحجاج بمزيد من المياه بقدر المستطاع ، فى مثل هذه الظروف عُقدت اتفاقية لتزويد مدينة جدة بآلة تقطير جديدة أكبر بكثير من الآلة القديمة . بينما بدأ المختصون يتتبعون مجرى عين زبيدة حتى وصلوا إلى سفح الجبال .. فأزيلت المواد التى كانت تسد المجرى. وكانت النتيجة مرضية للمستقبل القريب . وقد اتخذت الخطوات المماثلة فى المدينة المنورة حيث انتشر استعمال المضخات القديمة لرى الأراضى الزراعية ، وقد شجع الملك نفسه والأمراء السعوديون استعمال هذه المضخات فى الرياض والأراضى الزراعية الواسعة وبدأوا هم أنفسهم باستعمالها.

هكذا أعد المسرح للتطورات الفعّالة بعد أن عولجت المشكلة جزئيًا بشكل اختبارى، فربطت مكة بينبوع عين جديدة غزيرة المياه ، بفضل خط من الأنابيب من مدخل وادى فاطمة . بينما أقيمت مشاريع مماثلة ، ولا تزال تقام باستمرار ، لتفى بحاجات السكان والحجاج المتزايدة ، وبعد الفيضان العظيم الذى حدث فى تموز سنة ١٩٥٠ عام يوبيل الملك الذهبى، اتخذت الإجراءات لإنقاذ المدينة من مثل هذه الكوارث فى المستقبل (فقد وصلت مياه الفيضان إلى الحرم وأصبح ارتفاع المياه سبعة أقدام حول الكعبة) ، فبنى سد فى وادى إبراهيم ، المصدر الرئيسى لمثل هذه الأخطار ، كما بُنى سد آخر فى وادى الزاهر الذى كانت مياه فيضانه تهدد ضاحية الشهداء ، والطريق الرئيسى لجدة ، ولقد أُنجزت هذه الأعمال قبل نهاية سنة ١٩٥٢ .

وعندما هبت العاصفة العظيمة فى السنة التالية ، فى شهر تشرين الثانى، لم تسبب أية أضرار على الإطلاق فى منطقة العاصمة ، وفى عام ١٩٤٧ جمعت مياه مجموعة من الينابيع ، بالقرب من أبى أروى، فى أواسط وادى فاطمة ، ومُدَّ خط أنابيب ذات قطر كبير طوله أربعين ميلاً لنقل كمية وافرة من المياه إلى جدة . غير أن اتساع المدينة المستمر واستعمال المياه فى رى البساتين ، أوضح بجلاء أنه لا بد من زيادة كمية المياه التى كانت تعتبر أكثر من كافية آنذاك ، فتم منذ عهد قريب ، مد خط آخر من الأنابيب .

أما فى الرياض ، التى لم تصل فيها مشكلة المياه إلى درجة الخطورة إلا عند استمرار الجفاف سنوات عديدة ، فازداد استعمال المضخات الميكانيكية ، والمضخات الكهربائية التى

كانت تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة فى اليوم ، وكانت النتيجة أن هبط مستوى المياه الجوفيه التى جعلت من الواحة أغنى واحة فى الجزيرة العربية فى الأيام السالفة ، فعمد المسئولون إلى جلب كميات أخرى من المياه إلى المدينة بواسطة أنابب تنقلها من منابع أخرى فى وادى حنيفة شمال وجنوب العاصمة . بينما استخدموا عددًا من الصهاريج ، سعتها خمسة آلاف جالون لنقل المياه من عدة آبار قريبة ، لتفى بحاجات السكان وحاجة بساتينهم .وهناك فى الواقع مياه وافرة فى الجزيرة العربية ، إلا أنه لا تزال هنالك مسألة تستوجب البحث على ضوء الاختبارات : وهى مسألة ما إذا كانت موارد المياه المائية تستطيع أن تصمد فى وجه الإفراط فى استعمال الماء فى الوقت الحاضر.

كانت المواصلات والأمور الصحية والمياه ، المشاكل الرئيسية المهمة التى واجهت ابن سعود خلال سنوات السلم الحقيقى فى الطائف ، ولكن كان واضحًا منذ البداية أن هذه جميعها تشكل عاملاً حيويًا بالنسبة لحكومة ترغب مخلصةً فى تأمين رفاهية رعيتها وراحة الوافدين إليها من الحجاج من فجاج الأرض . وكانت جميع هذه المشاريع باهظة النفقات . وقد اتضح من سجلات مكاتب الحج ، ومن البلدان الزراعية الفقيرة على الخصوص . مثل جاوة والملايو والهند، أن الأمل ضئيل فى الحصول على المبالغ الضرورية الكافية . وكان هذا تحديًا لشخص خَبَرَ فى حياته تَقلُّبَ الزمن والأقدار .. فلم تكن هذه أول مرة يحتاج فيها إلى المال .. لم يعد بإمكانيته الاستيلاء على خزائن أعدائه كما كان يفعل فى السابق ، كلما اقتضت الحاجة ، الآن لم يبق له أعداء ينهبهم ، فيما عدا جهة واحدة ، كان مترددًا فى الاتجاه إليها .. كانت اليمن هى البلد الوحيد المستقل فى الجزيرة العربية بالرغم من اهتمام الإيطاليين بمستقبلها الاقتصادى، وبالرغم من قلق البريطانيين الغامض عليها خشية أن تدعى محمية عدن للاتحاد مع الدولة السعودية القوية ، وكانت جميع البلدان الواقعة خارج الحدود الوهابية آمنة وراء حدود قوية لا يمكن اختراقها ، بسبب وقوعها تحت الحماية البريطانية ، أما الحدود بين اليمن ومملكة ابن سعود فقد كانت غامضة وغير مخططة ، وكان كلٌّ من الجانبين يدعى ملكية واحة نجران ويطالب بها ، ولكن ، دون أن يعمد أى منهما إلى احتلالها ، أو الاستحواذ على إمارة أشراف « أبو عريش » فى جنوب عسير فعليًا . ولم يكن ابن سعود هو الذى طلب تحديد المنطقة الحيادية ، فقد كان راضيًا عن أن تظل تتمتع باستقلالها الفعلى غير

المشروع ، كما كان الحال بالنسبة للقسم الشمالى من واحة تيماء التى كانت ضمن حدوده حقًا ، إلا أنها تركت فى استقلالها الشاذ ، تحت حكم أسرة ابن رمان ، إلى أن اضطر ابن سعود لاستلام زمام السلطة فيها عند استفحال الطغيان فيها ، واغتيال آخر أمرائها عام ١٩٥٠ .

وكان الإمام يحيى هو الذى سعى إلى تسوية المشاكل القائمة بينه وبين الملك الوهابى حين دفع بجيوشه إلى المناطق التى كان يدعى ملكيتها بمساعدة عناصر فى كلا المنطقتين ، كانت تفضل السلطة الزيدية الضعيفة على التقرب من الملك السعودى القوى، تمامًا كما كانت الحال بالنسبة للنزاع حول ملكية واحة خُرمة ، عندما بدأ الملك حسين وأخذ زمام المبادرة فى إجراء عسكرى وفقًا لسياسة الأمر الواقع .

ووقع الصدام الذى كان لابد منه بين حرس الحدود عند قرية تسمى عرو Aru ١٩٣١ . ولم يكن من السهل معرفة الجانب المعتدى ، بسبب عدم وجود خرائط يُعتمد عليها ، إلا أنه اتضح بعد فترة وجيزة أن اللوم يقع على القائد الوهابى الذى اعتدى سهوًا على الأراضى اليمنية .

أما فى شتاء سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢ فقد وقعت حادثة أكثر خطورة . وذلك عندما احتلت قوة يمنية نجران ، ودمرت ممتلكات بعض العناصر العادية للإمام . وإضطر ابن سعود للعمل تحت ضغط شكاوى أهلها . وفى خلال ربيع سنة ١٩٣٢ قاد خالد بن لؤى زعيم خرمة ، جيشًا قويًا من الإخوان إلى نجران ، ولم يجد صعوبة فى طرد الحامية اليمنية من الواحة واحتلالها باسم ابن سعود ، وهكذا سويت مشكلة نجران بصورة نهائية .

غير أن مشكلة عسير الجبلية التى كانت آنذاك مسرحًا لعمليات حربية متفرقة وغير منظمة ، لم يكن حلّها سهلاً ، لهذا أرسل ابن سعود وفدًا إلى صنعاء، للبحث فى المشكلة برمتها، على أمل التوصل إلى حل ودى لجميع المشاكل القائمة بين الدولتين ، غير أن الإمام لم يكن مستعدًا للاعتراف بمطالب ابن سعود .

وقد عقدت عدة مؤتمرات فى السعودية وفى اليمن بين الحين والآخر، إلا أنها أدت إلى مجرد إطالة المفاوضات حتى ربيع سنة ١٩٣٤ ، وحينئذ نفذ صبر ابن سعود من عناد جاره ، فأرسل إليه إنذارًا نهائيًا ، ونفذ تهديده بحشد قواته لغزو اليمن ، أما الوقت الذى حدد لقبول الإمام ، فكان اليوم الخامس من نيسان سنة ١٩٣٤ .

وأصدرت التعليمات للطابورين الوهابيين بعبور الحدود فى التاريخ المحدد فى حالة عدم صدور أوامر مخالفة . وثارت عاصفة رملية استمرت ثلاثة أيام متوالية ، وكان من جرائها أن تعطلت المواصلات الاسلكية بين القائدين ، ولذ بدأ غزو اليمن فى التاريخ المقرر .

كان الأمير سعود يقود جيش الصحراء المتمركز فى أبها ونجران ، وكان عليه أن يشق طريقه فى الجبال الواقعة فى قلب مرتفعات اليمن ، غير أن تقدمه كان بطيئًا بسبب طبيعة البلاد الوعرة ، وضرورة السير مع قوافل التموين ، التى كانت سيارات نقلها تُدلى بالجبال من فوق الصخور العالية فى أكثر من مناسبة .

ولقد كانت مقاومة العدو طفيفةً ، حتى عند البوابة الحديدية التى كانت تحمى قرية باقم أول قرية يمنية كبيرة على الطريق الرئيسى إلى صنعاء .

أما جيش تهامة الذى كان بقيادة الأمير فيصل ، فقد واجه مقاومة شديدة فى الأودية التى تربط ميناء ميدى Maidi بحصن حَرَضَ Haradh الجبلى. واستطاعت شدة الهجوم الوهابى أن تقذف بالعدو من طريقهم إلى البحر أو باتجاه الجبال ، وكان الزحف التالى سهلاً .. فقد حُطمت الجهود الضعيفة التى بذلت لصد هجمات الجيش الوهابى وإيقاف تقدمه ، فاحتل لُحيه Luhaiya أولاً ، ثم سقطت الحديدة نفسها فى يده بعد انتصار باهر.

ووصل الجيش حتى المشارف الواقعة جنوب الحديدة ، وأصبح فيصل آنئذ فى مركز قوى لاستمرار زحفه باتجاه تهامة ، على الحدود العدنية ، أو الزحف من خلال الجبال على صنعاء نفسها ، أو القيام بكلتا العمليتين معًا ، لعدم قدرة الإمام على إبداء أية مقاومة فعالة بسبب انهيار معنويات قواته . فيما عدا الوقفة الأخيرة أمام العاصمة .

ولقد استغرق احتلال الحديدة ومنطقة تهامة الواقعة شمالها ثلاثة أسابيع فقط ، وكانت ثلاثة أسابيع أخرى كافية لإضافة اليمن إلى الممتلكات الوهابية ، غير أن ابن سعود اعتاد التزام الحذر فى السير فى بقية مشروعه . وصدرت الأوامر التى أسخطت فيصل بألا يتقدم فى أية حالة إلى ما وراء الحديدة ، بينما أمر سعود بأن يبقى فى المكان الذى اتفق عليه سابقًا كى يكون حدًا بين السعودية واليمن .

وفى أثناء ذلك سارعت السفن الحربية الإنجليزية والإيطالية والفرنسية إلى الحديدة ، منتحلة أعذارًا مختلفة ، إلا أنها لم تكن تهدف إلى تهنئة القائد الوهابى المنتصر على فوزه ، أو جعل مهام السلطة المحتلة أسهل من ذى قبل . وربما كان لهذا الاهتمام المفاجئ باليمن من جانب الدول الكبرى أثر كبير فى منع الملك من انتهاج سياسة مريحة ، غير أنه أصر على أن يستمر احتلال قواته للمناطق التى استولت عليها إلى أن تجرى مفاوضات أخرى فى الطائف، تحت حمايته وإشرافه ، فأعلنت الهدنة للتمكن من البدء فى هذه الحادثات ، وعين الإمام يحيى أحد موظفيه البارزين السيد عبد الله ابن الوزير ليمثله فيها .

بدأ المؤتمر بلا إبطاء ، بينما شكلت لجنة للصلح ، تمثل الدول العربية المختلفة برئاسة هاشم باشا الأتاسى ممثل سوريا ، ومحمد على علوبة باشا ممثل مصر، فقامت بزيارة الطائف لمراقبة خطوات المفاوضة .وعقدت معاهدة الطائف ، بالرغم من ممانعة الإمام وتردده فى الموافقة على المسودة التى توصل إليها الطرفان المتفاوضان ، حتى آخر لحظة ، وصدرت الإشارة إلى القوات المحتلة بالإجلاء عن جميع المناطق التى احتلتها ، على أن يدفع مبلغ مائة ألف جنيه ذهبًا كتعويض لابن سعود عن تكاليف هذه الحملة الكبيرة .

ومن ثم وضعت الترتيبات الفورية لاجتماع لجنة الحدود المشتركة ، التى كانت مهمتها تخطيط الحدود بين البلدين على التو. وقد أنجزت اللجنة مهمتها هذه فى السنة التالية ، بينما رسم الخط المتفق عليه على الخريطة سنة ١٩٣٦ . ومنذ ذلك الحين لم يقع أية حوادث تعجز السلطات المحلية عن تسويتها على الفور. والواقع أن المشكلة الوحيدة المحتمل قيامها بين الطرفين هى إمكانية إنشاء تحصينات عسكرية ، منعت إقامتها ، فى مساحة الخمس كيلو مترات على كلا الجانبين . وقد حال دون أى سوء تفاهم ، ما كان قائمًا منذ البداية ، من علاقات ممتازة بين محمد بن مهدى حاكم جيزان والسيد عبد الله بن الوزير الذى وقع المعاهدة باسم اليمن ، والذى عين فى منصب حاكم تهامة فجعل مركز إدارته فى الحديدة .

والآن وقد زالت جميع أسباب الاحتكاك بين البلدين ، ونفذت بنود معاهدة الصداقة والأخوة خلال السنوات التى تلت . ولم تتوتر العلاقات ، حتى بعد وقوع حادثة مفجعة أثناء الحج فى السنة التالية . وذلك عندما قام ثلاثة من اليمنيين بمحاولة اغتيال ابن سعود

بالخناجر، أثناء طوافه بالكعبة . وكانوا قد وضعوا خطتهم هذه بإحكام ، مدفوعين إما بتعصبهم الدينى أو من قبل شخص غير معروف . أما الملك فلم يصب بأذى بالغ . وأما الأمير سعود الذى حماه من المهاجمين ، فقد أصيب بعدة جراح فى ظهره وكتفه سببت له ألمًا وإزعاجًا لمدة طويلة . أما المعتدون الثلاثة فقد أطلق الحرس الملكى النار عليهم ، فقتلوا فى الحال . ومن ثم اتخذت إجراءات أعظم لحماية شخص الملك من تكرار مثل تلك المغامرات المدفوعة.

قبل أن نعود إلى الوضع الذى واجهه الملك فى الطائف سنة ١٩٣٠ يجب أن نذكر أن الأمير سعودًا عين وريثًا للعرش فى عام ١٩٣٣ . وقد تقبل ولاء الشعب وخضوعه كولى عهدهم وملكهم فى المستقبل . وهكذا وضع ابن سعود حدًا لجميع التكهنات المختلفة بشأن ولاية العرش.

وفى السنة التالية أصدر الملك مرسومًا بتغير اسم الدولة . وأصبح اسمها المملكة العربية السعودية . ولم يكن هذا التطور اسميًا فقط ، بل إنه كان يعكس عزم ابن سعود على وضع جميع ممتلكاته تحت نظام إدارى موحد متناسق ، وعلى الأخص فى الحقل المالى ومراقبة الواردات . فقد كانت هذه حتى ذلك الحين تحت رحمة حكام الأقاليم ، مثل عبد الله بن جلوى حاكم الإحساء .

وقد استنكر الحكام تقييد سلطاتهم بإقامة دوائر حكومية مستقلة ، كما استنكروا أيضًا مراقبة حساباتهم . ولكن ، سرعان ما أخذت النظم القديمة تخضع للنظم الجديدة غير أن ابن سعود كان عاقلاً وذكيًا ، إذ عين مبالغ لزملائه القدامى المخلصين طوال مدة خدمتهم . وقد توفى عبد الله بن جلوى سنة ١٩٣٨ فخلفه ابنه سعود الذى أقتنع بالحجج التى بررت إقامة نظام إدارى موحد وصمم على أن يقبلها أما الذى كان يحمل المرء على إيثار النظم القديمة البدائية ، فهو أنه لم يسمع عنها أى فساد أو سوء استعمال . فقد كان الحكام وموظفوهم يحيون حياة مكشوفة للعموم ، ولم يكن هنالك مجال للتلاعب فى الخفاء .

وكان الكلام بسيطًا للغاية ، فالحاكم مسؤول عن جباية الضرائب فى إقليمه . ومنها كان يخصص نسبة محددة للخزانه المركزية . أما الباقى ، فيخصصه لدفع راتبه والنفقات الأخرى. ومن هذه كانت جميع مصاريف إدارته .

ومن ناحية أخرى كان النظام الإدارى الذى قام عليه النظام السعودى الجديد فى أول الأمر نظامًا فاسدًا عقيمًا من أساسه ، فلا يمكن القول بأن أخطاءه استؤصلت على أيدى العرب .

ومع ذلك وبالنسبة للدور الجديد الذى ستلعبه المملكة السعودية فى المجالات الدولية والاقتصادية ، كان من الواضح وجوب إصلاح نظمها الإدارية كى تفى بحاجات العصر الحديث .

وكان من الواضح أيضًا أنه : لتزويد البلاد بالموظفين الأكفاء لتنفيذ النظم الجديدة ، لابد من تعديل النظم التعليمية المعمول بها لسد حاجات البلاد . وهكذا كان لابد من نشوب النزاع بين النظم القديمة والحديثة ، وعلى أسس جد دقيقة بين الدين والمدنية . فحسب المفهوم القديم كان التعليم يهتم بالعلوم الشرعية والآداب العربية بالطبع .

وكان الدين هو الذى تتفرع منه جميع فروع المعرفة الواردة فى القرآن والحديث . ثم تطورت هذه حتى باتت تشمل الآثار الأدبية الضخمة التى تركها المفسرون والمؤرخون وعلماء الجغرافية والفلاسفة والعلماء وغيرهم ، والتى طرقها شعراء ما قبل الإسلام فى عصر العرب الذهبى . ولا شك فى أن الشخص المسلم يلم إلمامًا جيدًا بكل هذه الآثار الأدبية العربية ، وجميع شروحها ومعانيها . ومثل هذا يعتر الرجل المثقف ثقافة عالية جدًا، وإن كان لايعرف أية لغة ولم يدرس أية مؤلفات مترجمة عن مصادر أجنبية ، وليس له إطلاع فنى على الإطلاق . كان هذا الرجل خبيرًا فى مجاله ، ويطلق عليه البدو اسم العالم ، أو طالب العلم . وتاريخ نجد فى القرون الخمسة الماضية ملئ بمئات من هؤلاء الناس ، الذين كرسوا حياتهم كلها للعلم والتعليم والكتابة .. غير أن موظفى الخدمات المدنية لم يكونوا من مثل هؤلاء . وقد أصبحت كلمة التمدن تعنى فى الجزيرة العربية ، ثقافة الغرب العلمانية التى كانت مهمتها إعداد الشباب للقيام بدورهم فى معركة الحياة المضطربة .

والواقع أنه لم يكن هناك شعور بالحاجة إلى الثقافة العصرية فى الدولة السعودية قبل احتلال الحجاز. فقد كانت معارضة الرغبة فى إدخالها إلى البلاد وشرعيتها شديدة للغاية . ذلك على أساس أنها تحول أفكار الإنسان عن الغرض الأساسى من الحياة .. أى إعداده

للحياة الأخرى. غير أن احتلال الحجاز قد وضع حدًا لمثل هذه الآراء الانطوائية المتشككة . وتم بعد ذلك اعتراف بالحاجة الماسة إلى إدخال الثقافة العلمانية كنتيجة حتمية تتطلبها مهمة إنشاء الدولة . وكان من سوء الحظ ، أن اضطر المتعلمون أن يبحثوا عنها فى الخارج بسبب قلة التسهيلات فى الجزيرة العربية . ولم يقيموا وزنًا كبيرًا إلى التأثر المعنوى للبيئات المستنيرة على الأولاد الذين تخلصوا من الروابط التى تربطهم بمنازلهم ، كما شجعت هذه العملية بمنحها الطلاب منحًا دراسية حكومية (ومنحًا شخصية للمتفوقين) ، تمكنهم من تلقى العلم فى المدارس السورية والمصرية بادئ الأمر ، ثم يؤمون المعاهد العلمية فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا والبلدان الأخرى، مثل أميركا بعد الحرب العالمية الثانية .

كان الشيخ حافظ وهبة (وهو أول مدير معارف عينه الملك) قد بدأ بداية صحيحة فى هذا النهج ، وعمل جاهدًا على إدخال النظم التعليمية المدنية إلى المراكز الرئيسية فى البلاد . وذلك بتزويدها بالأدوات المدرسية والأساتذة الأكفاء الذين استقدمهم من بلدان الشرق الأوسط المختلفة .

وقد كان فى قصر الملك فى الرياض مدرسة خاصة بالأمراء منذ سنوات عدة . كما ضرب الأمير سعود (الذى أصبح ملكًا الآن) أروع الأمثلة بالقيام ببناء مدرسة قرب قصره فى الرياض ، جعلها على غرار المدارس الإنجليزية العامة تقريبًا ، فهى داخلية تضم أبناءه ، وأبناء الخدم والعبيد الذين هم فى سنهم وفيها يتلقون تعليمهم على أيدى هيئة خاصة من المعلمين المصريين . ثم حذا حذوه ، الامير عبد الله (شقيق الملك) ببناء مدرسة العائلة فى الرياض. وكذلك قام الأمير فيصل ببناء مدرسة فى الطائف لتعليم أبنائه وأبناء المواطنين الآخرين.

ولاشك فى أن الثقافة العلمانية فى نمو مطرد فى المملكة السعودية . فقد كان عدد المنح الدراسية فى بداية الأمر ، يتراوح بين المائتين والخمسين والثلاثمائة . وفى سنة ١٩٢٥ كان عددهم (٧٠٥) فى مصر و(٢٥٩) إلى سوريا و(٤٦) إلى أميركا والبلدان الأخرى، ومن ضمنها انجلترا .

ولما طلب إلى حافظ وهبة أن يقبل منصب سفير لبلاده فى انكلترا سنة ١٩٣٠ خلفه الشيخ طاهر الدباغ مديرًا للمعارف ، وظل يشغل منصبه إلى أن عين الشيخ محمد بن مانع ، المدير الحالى ، وأحد علماء مكة ، وإن كان نجديًا فى الأصل.

ويمكن الحكم على أن السياسة التعلمية فى البلاد اليوم تسير فى الطريق المرسوم لها على ضوء الإحصاءات التى أجريت عام ١٩٥٢ - ١٩٥٣ . فقد كان عدد المدارس القروية ١٥٩ وعدد معلميها ٢٢١، وعدد طلابها ١٠٣٠١ طالب ، بمعدل ٦٥ طالبًا لكل مدرسة و٤٦ طالبًا لكل صف . أما المدارس الحكومية الابتدائية فقد كان عددها ١٧٠ مدرسة وعدد معلميها ١٢٤٠ معلمًا ، وتلاميذها ٣٠٨٤٦ طالبًا (٨١ طالبًا فى كل مدرسة و٢٥ طالبًا كل صف) . وكان هنالك إحدى عشرة مدرسة خاصة تقوم بتعليم ٣٥٦٨ طالبًا ، على أيدى ١٤٩ معلمًا (بمعدل ٣٢٤ طالبًا لكل مدرسة و٢٤ طالبًا لكل صف) . أما المدارس الحكومية الثانوية فكان عددها إحدى عشر ، وعدد معلميها ١٥٠ معلمًا ، وعدد طلابها ١١٠٥٠ ، (بمعدل ١٠٠٠ طالب لكل مدرسة و٧٣ لكل صف) . وكان هنالك ثلاث مدارس ثانوية خاصة عدد طلابها ٤٣٨ طالبًا وأساتذتها ٢٦ أستاذًا (بمعدل ١٤٦ طالبًا لكل مدرسة و١٧ طالبًا لكل صف) . وهنالك هيئات مسئولة عن ١٣ معهدًا ، عدد أساتذتها ١٠٠ ، وطلابها ١١٠٠ طالب . كما أن هنالك ثمانية معاهد أخرى عدد معلميها ١٥ ، وتعد ٢٦٣ مرشحًا لمهنة التدريس، و٦ معاهد أخرى عدد معلميها ٤٠ معلمًا لإعطاء دروس مسائية فى تعليم اللغة الإنجليزية.

وبالاضافة إلى هذا ، قامت المدارس المختلفة التى افتتحتها شركة أرامكو فى الظهران بتدريب عدد من مستخدميها على المهن المختلفة ، وإعطاء دروس عامة فى المحاسبة ومسك الدفاتر والأعمال الكتابية بمعدل ١٣٧٤ طالبًا فى الشهر. وهكذا .. من الوجهة الثقافية ، يبدو الوضع اليوم مدهشًا للغاية ، إذا ما قورن بمثيله قبل عشرين عامًا فقط .

غير أن هذه كلها كانت باهظة التكاليف . فيجب أن نعود الأن إلى حيث تركنا ابن سعود فى الطائف ، يتساءل كيف يمكن أن يتدبر أمره بالموارد الضئيلة التى فى متناول يده ، فيسد بها الحاجات الماسة على الأقل - ودون الحاجة إلى ذكر المشاريع التحسينية والإنشائية

التى أخذ على نفسه رعايتها- إذا ما أراد أن يبرر احتلاله للديار المقدسة فى عيون جيرانه ، ويدفع الانتقاد الذى كانوا يوجهونه إليه .

وكما رأينا ، كان عليه أن ينتظر عدة سنوات ، قبل أن تساهم الحرب اليمنية ، الأمر الذى حاول جهده أن يتجنبه ، مساهمة متواضعة فى زيادة موارده . ولكنه فى ذلك الحين ، استطاع الحصول على خير بسيط غير منتظر ولم يكن يفكر فيه مطلقًا عندما كان يبحث ميزانيته فى الطائف . لقد كان الوضع المالى مؤسف بالرغم من غزواته واحتلاله السابق لعدة بلدان ، وكان واضحًا أن الملك أمسى مغمومًا .

ونفس الوقت كانت هناك شائعات بين السكان عامة ، حتى فى الدوائر المسؤولة ، عن موارد البلاد الهائلة التى تنتظر البحث والتنقيب والكشف عنها على الأقل . وكانت المعارضة الأساسية لها أنه لابد من استخدام الأجانب وتعاونهم ، فإنهم هم الذين يملكون الخبرة اللازمة والمال الكافى لهذا الغرض مع العلم بأن جميع طبقات الشعب ستمانع فى وجودهم فى البلاد .

وقد اختبر ابن سعود نفسه نتائج مغامرة من هذا النوع ، فأدى فشلها الذريع إلى تطبيق فكرة القيام بمغامرة أخرى . ففى سنة ١٩٢٣ وبتشجيع من السير برسى كوكس ، منح امتيازًا للشركة العامة الشرقية للتنقيب عن البترول فى جميع المناطق الشرقية ، بشروط سهلة للغاية . وكانت شروطه الوحيدة هى أن تدفع الشركة مقدمًا مبلغ ألفى جنيه أجرة سنوية ، وأن تتابع التنقيب إلى أن تعثر على الزيت ، وإلا فإن امتيازها يعتبر لاغيًا . إلا أن السير برسى كوكس كان يفضل أن يبيع الامتياز إلى شركة نصف حكومية فى بلادها ، خوفًا من ردود فعل سياسية .

وقد حصلت نفس الشركة التى يمثلها فى كلتا الحالتين ، الميجر فرانك هولمز ، على امتياز مماثل فى جزر البحرين ، فحولته إلى شركة الخليج المكسيكية ، والتى بدورها تنازلت عنه لأسباب فنية لشركة فنية لشركات ستاندرد أويل كومبانى اف كالفورنيا Standard Oil Company of California بعد أن عرضته على شركة البترول الأنجلو إيرانية ولكنها رفضته .

أما بالنسبت لابن سعود فإن كل ماحصل عليه من هذا لايتعدى مبلغ أربعة آلاف جنيه على حساب أجرة سنتين ، لأن الشركة توقفت عن التنقيب فى المنطقة بعد فشل مجموعتين من علماء طبقات الأرض البلجيكيين . فألغى الامتياز رسميًا سنة ١٩٢٨ بعد تبليغ الشركة الحائزة عليه وعدم ردها .

ومع ذلك ، بعد تغير الأحوال سنة ١٩٣٠ ، بدا أن فى إمكان إحدى الشركات أن تدفع بعض الأموال مقابل الحق فى إعادة التنقيب فى شرق الجزيرة العربية . وخاصة بعد أن ظهر الزيت فى البحرين . وكانت حاجة الملك الرئيسية ماسة إلى مبلغ حاضر، ليتمكن من مواجهة العاصفة الاقتصادية ، إلى أن يجرى تنظيم الحج على أسس مريحة . ولم يكن ابن سعود يتطلع إلى أكثر من ذلك . ولم تشعل أى شرارة تفاؤل حماسته لاحتمال تحقيق مثل هذا المشروع . أما وزير ماليته ، فقد كان أكثر تفاؤلاً فى مشاريعه ، بشىء من اليأس الشديد وافق الملك على اتخاذ الخطوة الأولى فى الاتجاه المرسوم .

وصدف أن حضر للقاهرة المليونير والمحسن الأمريكى المستر شارلز كرين ، الذى كان قد أبدى عطفه على القضايا العربية قبل عشر سنوات . وذلك عندما شرع الحلفاء فى تنفيذ مشروعهم الرامى إلى وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسى ضد رغبة أهلها . وكان قد قام قبل ذلك بزيارة لليمن ، حيث قدم هبة سخية كمساعدة لحكومة الإمام ، لتحسين الميناء وإنشاء الطرق . كما أنه قام سابقًا بزيارة جدة (سنة ١٩٢٦) على أمل التعرف على الملك ابن سعود الذى كان موجودًا آنذاك فى المدينة المنورة . ولكنه لم يستطع مقابلته . وكان المستر كرين على استعداد الآن لزيارة جدة مرة أخرى إذا تأكد له وجود الملك فيها . فوافق الملك على الاجتماع به بعد انتهاء الحج . الذى يصادف فى آخر نيسان سنة ١٩٣١ إذ كان مقررًا أن يمضى فيها زهاء أسبوعين.

وتم الاجتماع فى الوقت المحدد فى جو ودى للغاية . وقد بحثت الإمكانيات الاقتصادية السعودية فى عدة اجتماعات ، كان من نتيجتها أن عرض المستر كرين على الملك خدمات السيد كارل .س. توتشل Karl S. Twitchell لمدة ستة أشهر بدون أجر. وكان هذا مهندسَ مناجم ذا كفاءة . وكان يعمل لحسابه فى الحبشة واليمن.

وصل السيد توتشل إلى جدة فى صيف سنة ١٩٣١ ، ولم يحل ربيع سنة ١٩٣٢ حتى قدم إلى الملك تقريرًا مفاده أن طبيعة تلال الظهران توحى بوجود الزيت ، فمن الخير التنقيب فيها. كما أعلن منجم مهد القديم للذهب ، الواقع فى منتصف الطريق بين جدة والمدينة المنورة ، لم يستفذ من قبل القدماء. وكان تقريره يشير إلى مناطق أخرى تبشر بالنتائج الحسنة . ولقد رفع ذلك التقرير ثم عاد إلى أميركا على أمل أن يغرى عدة شركات باستثمار المعادن العربية . وكان عليه أن يقضى عدة سنوات بعد ذلك فى العربية السعودية حيث عمل بجد ونشاط فى مشاريع حكومية عديدة . وهو لايزال يقوم بزيارات متكررة للبلاد .

واسترعى ذلك التقرير أنظار شركات ستاندرد اويل كومبانى اف كالفورنيا فأرسلت هذه ممثلها المستر لود هملتن Loyd Homultin مع السيد توتشل كمستشار فنى لإجراء مفاوضات مع ابن سعود بالنيابة عنها . وذلك بعد أن أجرت اتصالات تمهيدية عرفت بها مدى استعداد الحكومة السعودية لمنحها امتيازًا للتنقيب . وقد أبدت الحكومة عزمها على بحث منح امتياز التنقيب عن مصادرها المعدنية بصراحة . ولكن بشئ من الحذر. وتبع المستر هملتن إلى جدة كل من المستر س .هـ. لو نجرج ممثلاً لشركة بترول العراق ، والميجر فرانك هولمز ممثلاً لشركة استرن جنرال سنديكيت East. Gen. Syndicate التى كانت ، كما ذكرنا ، قد نالت امتياز التنقيب فى السابق بثمن بخس.

أما شرط الحكومة الرئيسى فكان دفع مبلغ مائة ألف جنيه ذهبًا عند توقيع الإتفاقية . وقد نصت هذه على التنقيب المستمر.

وكان من جراء انسحاب ايسترن سنديكيت ، ورفض شركة بترول العراق دفع هذا المبلغ وبعد أخذ ورد ومساومات ، وقع على عقد الامتياز فى الثالث من آيار سنة ١٩٣٣ : عبد الله سليمان وزير المالية عن السعوديين ، ولويد هملتن الشركة . وبعد مدة وجيزة قام المستر توتشل بالمفاوضات بشأن امتياز التنقيب عن الذهب نيابة عن شركة أنجلو أمريكية .

أما بشأن التنقيب عن الذهب فقد اقتصر هذا ، على منجم مهد الذهب . وذلك بعد القيام ببحث واسع . غير أن إنتاجه نفذ سنة ١٩٥٣ بعد أن ساهم مساهمة متواضعة فى واردات الدولة ، إذ عاد عليها بربح صاف مبلغ العشرة ملايين من الدولارات . وقد امتدح

الخبراء منجمًا آخر يدعى الظلم قرب مويح ، فكلف الحكومة تكاليف باهظة ، لكنه فشل فشلاً ذريعًا . إذ كان مجموع إنتاج هذا المشروع ما يساوى التسعمائة ليرة إنجليزية (١٨٠ اونس من الذهب أو ٣٦٠٠٠ ريال) مقابل نفقات بلغت ثلاثين مليون ريال .

والواقع أن سلسلة الجبال على الحدود الحجازية والمناطق الواقعة على جانبيها مليئة بمناجم الذهب القديمة . ولكن يبدو أن الباحثين القدامى عن الذهب فى عهد الملك سليمان والخلفاء العباسين ، قد التقطوا كل عرق من المعدن الثمين ولم يتركوا شيئًا لمن أتى بعدهم . وحتى الربح الناتج عن منجم مهد الذهب تم الحصول عليه بفضل الأساليب الحديثة فى التعدين ، فقد أخذت العروق من بين ركام وحفريات هائلة لم يستطع الأقدمون استخراج كل الذهب منها .

أما قصة البترول فكانت حكاية مختلفة : إنها قصة خيالية واقعية تفوق أعظم القصص الخرافية فى ألف ليلة وليلة فى تطورها المدهش ، من الخطوات الأمريكية الجيولوجية الأولى المضنية فى الصحراء إلى اكتشاف واستخراج سائل مروج الذهب بعيدًا فى باطن الأرض . ويمكن من هذه الناحية تلخيصها بإيجاز، فنقول : «لقد طلب منها ماء فأعطته حليبًا وقدمت له زبدًا فى طبق ملكى».

كان الملك راضيًا عن الخير الذى لم يكن ينتظره. ولم يكن يبالغ فى مشاريعه المستقبلة . غير أن الشركة خرجت بعيد أعظم . إنها أخرجت كلابها للبحث عن الكنز الدفين .. ففى سنة ١٩٣٥ ثبت وجود البترول فى الظهران للأغراض التجارية ، وتدفق البترول من إحدى الآبار الأولى بكثرة . وكان من جراء ذلك شئ يفوق خيال المتفائلين ، فقد بدأ الإنتاج سنة ١٩٣٨، وفى غضون السنة التالية وصل إلى معدل مليون طن فى السنة ! وكان معنى ذلك واردات سنوية تقدر بمائتى ألف جنيه ذهبًا (أى مليون جنيه إسترلينى حسب السوق الحرة)

ولكن هذا الحظ السعيد لم يكتب له أن يدوم . فقد قرر الحلفاء الغربيون ، بسبب نشوب الحرب ، تجميد الإنتاج وإيقافه عند الحد الذى وصل إليه سابقًا . هذا كما لحقت أضرار أخرى بمصالح المملكة السعودية من جراء التفوق الذى حدث فى قدوم الحجاج ، عندما دخلت إيطاليا الحرب جانب الأعداء. صحيح أن الخسارة التى تكبدتها حكومة ابن سعود بسبب

استراتيجية الحلفاء ، قد عوضتها بسخاء كل من الحكومتين : البريطانية والأمريكية (بقطع النظر عن المساعدات الفنية الأمريكية فى تطوير المشاريع المختلفة ذات النفع فيما عدا أمريكا نفسها) ولكن المملكة العربية السعودية بالطبع ، كانت تمانع فى قرار قطع مواردها ما دام قد اتخذه طرف واحد. غير أن إنسحاب إيطاليا من الحرب ، ثم محاصرة ألمانيا فى الغرب جعلا استئناف الحج وإزالة الحجر على انتاج البترول عام ١٩٤٤ ممكنًا .

وكانت النتيجة باهرة ومدهشة : فقد ازداد الإنتاج بصورة مبهجة . وفى سنة ١٩٥٢ أصبح المليون الذى كان ينتج زمن الحرب أربعين مليونًا . وحسب شروط الامتياز الأساسية، كان هذ يعنى دخلاً سنويًا مقداره أربعون مليون جنيه استرلينى. ولكن قانون ضريبة الدخل، والاتفاقية التى عقدت حديثًا ، والمعمول بها فى جميع بلدان الشرق الأوسط ، (وهى تنص على اقتسام عائدات البترول مناصفة بين الحكومة والشركة على أساس خمسين بالمائة) قد أضاعت هذه القيمة . وقد يظل الانتاج على هذه الصورة فى السنوات القادمة ، وإن كان لابد من الأخذ بعين الاعتبار أمورًا أخرى، منها مقدرة السوق على شراء هذه الكميات ، ووضع العملة المعقد فى العالم ، الأمر الذى جرد زيت العربية السعودية من ميزة كونه سلعة تشترى بالدولار.

وبالإضافة إلى هذا ، فإن الإنتاج فى العراق والكويت (وقد أصبحت الأخيرة منتجة للبترول بصورة خيالية بالنسبة لحجمها) قد أخذ ينافس نفط السعودية . وكذلك إيران ، وكانت خارجة عن سوق البترول بصورة مؤقته ، فإنها ستعمل على نطاق واسع عما قريب وستنافس السعودية فى الأسواق . وقد أصبحت قطر أيضًا بلدًا منتجًا للزيت ، بينما أخذت البحرين هى الأخرى تحافظ على مركزها كمنتجة للزيت ومكررة له .

لقد عاش الوهابى العظيم حتى رأى مبلغ الخمسين ألف جنيه الضئيل فى أوائل عمره فى الرياض (من سنة ١٩٠٢ - ١٩١٢) يتضاعف حتى يصبح مائة ألف جنيه بعد احتلال الإحساء (١٩١٣-١٩٢٥) ويرتفع هذا المبلغ كثيرًا حتى يصبح من ٤ ملايين إلى ٥ ملايين ، بعد احتلال الحجاز سنة (١٩٢٦ - ١٩٢٧) . وقد ازداد هذا المبلغ مليونًا آخر من عوائد الزيت (١٩٣٨ - ١٩٤٤) دون اعتبار الهبات المالية الأميركية والبريطانية زمن الحرب .

ومن ذلك الوقت فصاعدًا أصبح التقدم واسع الخطر جدًا .. بات ابن سعود قرير العين في آخر سنة من حكمه ، وذلك لدى رؤيته الدخل الذى بدأ به حياته كملك مطلق ، يتضاعف ألفى مرة فيصبح مائة مليون جنية سنويًا .

ولم يكن دخله هذا يكفى فى أول حياته ولا آخرها ، لمواجهة مسؤوليات الحكم وأعيانه، حسب رأيه . ولكنه كان دائمًا يذكر العقد الأول من حكمه كأحسن أيام حياته . أما فى آخرها فقد تآزر الضعف الجسمانى وهموم الثروة على إحناء أكتافه العريضة .. تلك التى حملت عبء المسؤولية الثقيل خفيفًا فى سنوات الضيق والجهد.

كان التحول الاقتصادى والسياسى فى الجزيرة العربية فى خلال نصف قرن عملاً فذًا ، يفخر به أى إنسان . أما هو .. فقد كان يكره الأبهة والرسميات التى جعلته بمعزل عن الأيام الحلوة الماضية ، وعن رفاق الصبا . وكذلك كان يكره الأصول الحديثة والرسميات الكثيرة التى اضطر أن يخضع لها ، ثمنًا لعظمته .

كان العالم انذاك يسير بخطى ثابتة نحو الحرب العالية الثانية .. وشهدت أيام الطائف مفاوضات بين السعودية وألمانيا من أجل عقد معاهدة صلح . فعين سفير ألمانيا فى بغداد سفيرًا لها لدى البلاط السعودى أيضًا وقدم طلبًا لعقد معاهدات مع إيطاليا وفرنسا . وكان ينتظر التوقيع عليها فى روما وباريس خلال رحلة الأمير فيصل إلى أوربا سنة ١٩٣١ ، وكانت هذه رحلته الثالثة إلى دول الغرب . وقد شملت سفراته هذه بولونيا والاتحاد السوفيتى وتركيا . وكانت قد جاءت قبل ذلك بعثة بولونية يرأسها الكونت راكزينسكى، ومن أعضائها المفتى الأكبر لسكان البلاد المسلمين .

وفى شهر أيلول قام ابن سعود بنفسه من الطائف لاستقبال السفينة البولونية التى أحضرت معها شحنة من الأسلحة كانت الحكومة السعودية قد أوصت عليها . وكانت هذه إحدى الصفقات التى تناولها قانون تأجيل الديون الحكومية . واستمر الامتناع عن دفع ثمن هذه الشحنة بسبب نشوب الحرب والتغير الذى طرأ على كيان بولونيا السياسى . وآخر الأمر لم يدفع الثمن مطلقًا .

أما روسيا فقد نشطت فى الثلاثين سنة الأولى، فى إقامة علاقات تجارية مع البلاد العربية، ومع السعودية العربية واليمن على الخصوص . وهبت لإنقاذ حكومة ابن سعود عندما تأخرت بسداد ديونها فأرسلت إليها شحنة من البترول وبضائع أخرى. وحين احتجت الهيئات التجارية فى جدة على تخفيض أسعار البضائع فى الأسواق من جراء ذلك ، اضطرت الحكومة إلى العمل على وضع حد لمثل هذه الأعمال فى المستقبل.

وفى سنة ١٩٣٨ تحقق لدى السلطات السوفيتية أن آمالها فى تأسيس قاعدة لها للدعاية السياسية وعن طريق العلاقات التجارية الخاسرة عبء ثقيل . فاستدعت موسكو هيئتها السياسية العامة فى الجزيرة العربية ، لتقديم حساب عن أسباب الفشل . وطرد جميع الموظفين من وظائفهم لدى وصولهم إلى روسيا . وكان من جملتهم حكيموف، وخلفه فى سفارة جدة تيموميثوف ، مع نفر من سيدات كثيرات كن مستخدمات فى البعثتين التجارية والسياسية ، فيما عدا طبيب السفارة الذى عصى الأمر وأسلم ليبقى طبيبًا فى خدمة ابن سعود .

وكانت تركيا فى هذا الوقت قد أسست علاقات سياسية لها مع المملكة السعودية بالرغم من تحاملها الدفين الذى خلفته نظرتها الجديدة إلى الدين . وكانت زيارة فيصل لتلك البلاد زيارة مجاملة . إلا أن العلاقات بين البلدين عادت فأصبحت عادية بعد موت كمال أتاتورك سنة ١٩٣٨ .

وكان من نتائج الحرب الإيطالية الحبشية سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ أن بدأ ابن سعود يعتقد بمبدأ سياسة القوى، وكان يرفض بعناد وشدة الاعتقاد السائد بين الكثيرين بأن بريطانيا ستقف جانبًا وتسمح بإنهاء فصول المأساة الدامية فى الحبشة دون معارضة ، حتى بعد سقوط أديس أبابا وضم الحبشة إلى إيطاليا.

أما من ناحية هيئة الأمم التى لم تكن المملكة السعودية عضوًا فيها ، فلم يكن ابن سعود ليعتقد بقدرتها على حماية حقوق الدول الصغرى، أو حتى الحيلولة دون الحرب ، التى كان يعتبرها جزءًا طبيعيًا من أنه كان يصل إلى المملكة السعودية كثير من نشرات هيئة الأمم (تبحث مواضيع الرق وحقوق المرأة وغيرها) .

ولقد تعلم العرب من اختباراتهم أثناء الحرب أن خلافات الدول الكبيرة قد تعود بالفائدة على الدول الضعيفة . ولم تضعف الحرب الثانية شيئًا من قوة هذا الاعتقاد ، بل كان من نتيجتها اقتناع ابن سعود بأنه لابد من وقوع الحرب الثالثة . وكان ينتقد الحلفاء لتأخيرهم فى إتخاذ الإجراءات ضد العدو، خشية أن يصبح قويًا لدرجة يتعذر عليهم معها أن يهاجموه بلا نتائج وخيمة .

أما ابن سعود نفسه فكان يؤمن بالسياسة المثلى التى يجب اتباعها بالنسبة لمصالحه ومصالح رعاياه فى المجال الدولى، مع أن الكثيرين من مستشاريه لم يوافقوه على آرائه هذه ، لأنهم كانوا يرمقون باهتمام ، اضطراد النمو فى قوة دول المحور. ولم تكن بريطانيا فى نظره أعظم دول العالم فحسب ، بل كانت الدولة الوحيدة التى تلتقى مصالحها ومصالحه فى أكثر من نقطة واحدة . ولذا كانت مصادقة بريطانيا حجر الزاوية فى سياسته . ولم يكن هنالك مجال لزعزعة اعتقاده هذا ، فلم يؤثر فيه ما كان يعتقد الآخرون . وعلى الأخص أولئك الذين خرجوا ولو مثقال ذرة عن خط السير الذى رسم لهم فى مختلف مجالات نشاطهم.

وبالطبع لم تكن أميركا قد بدأت علاقاتها وأعمالها السياسية فى السعودية العربية ، فلم يؤسف لانسحاب البعثة السياسية السوفيتية من جدة . أما رفض ابن سعود لأن يسمح ، أو يسهل لأى دين غير الإسلام أن يمارس أى نشاط فى أرض الجزيرة ، فكان يقابله كرهه الشديد الظاهر للتعامل مع أية دولة تصرح بعدائها لاى دين من الأديان السماوية . ويمكننا القول بهذه المناسبة : بأن معظم ممثلى السوفييت فى جدة ، إن لم يكن كلهم ، كانوا من المسلمين.

وقد كان ابن سعود ينظر شزرًا لتركيا تحت حكم أتاتورك من جراء السبب نفسه . أما تفضيله لبريطانيا فلم يكن ليؤثر بأى شكل من الأشكال على استقلاله التام فى إقامة علاقات ودية ومتينة مع الدول الغربية الأخرى: مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا ، ولم تكن الأخيره (هولندا) أقلها شأنًا .. وذلك لأنها كانت تسيطر على الهند الشرقية التى يجيء منها (أو كان يجيء) معظم الحجاج قبل التدهور الاقتصادى.

أما من ناحية العالم العربى، فقد عادت العلاقات مع مصر على أسس ودية منذ سنة ١٩٣٦ ، بينما كان مبدأ عدم التدخل فى شؤون البلدان المنتدبة ، العامل الأساسى فى تعامل الملك مع الدول صاحبة الانتداب . وينطبق هذا بشكل خاص على شؤون فلسطين ، وإن كان ابن سعود قد أعلن بالاشتراك مع قادة العرب الآخرين ، أنه يعطف على هذه القضية العربية .

والواقع أنه كان يشعر بالأسى من ناحية قيادة الثورة وأساليبها فى سنة ١٩٣٥، كما رفض الاشتراك مع العرب الآخرين فى اعتبار مقترحات لجنة بيل Peel ، القاضية بتقسيم فلسطين . وكذلك رفض الكتاب الأبيض البريطانى سنة ١٩٣٩ .

ويبدو أنه لم يُرد أن يكون البادئ فى الدعوة إلى حل لمشكلة فلسطين ، إلا إذا طلبت إليه ذلك الحكومة صاحبة الانتداب بشكل خاص ، أما بريطانيا فلم توجه مثل هذه الدعوة إلى الرجل الذى، كان بحكم مركزه ، يستطيع أن يتوصل إلى حل معقول لهذه المشكلة الشائكة العويصة : هذه المشكلة التى سُويّت فيما بعد بوسائل أخرى. بعد أن تخلت بريطانيا عن انتدابها لتفسح المجال إلى تقسيمها.

كان ابن سعود فى هذه المشكلة وغيرها كثيرًا ما يختار فى مسلك بريطانيا نحوه ونحو حكومته ، وكثيرًا ما كان يصرح عن عدم اشتراكه مع الآخرين فى الكراهية الاجتماعية لبريطانيا ، كما يصرح بتفضيله إياها على جميع الدول الكبرى الأجنبية . ولقد أثبت مشاعره هذه بمنح إياها امتيازات مادية فى نواح عديدة . فوافق على احترام الحدود الفعلية القائمة بين بلاده وبين الأردن دون أن يتخلى عن مطالبته بمعان والعقبة . ووافق كذلك على الحدود الفاصلة بين بلاده والعراق ، هذه الحدود التى لم تكن مضرّة بمصلحة رعاياه. ولم يتقدم بأية مطالب فى منطقة الخليج الفارسى التى كانت تعتبرها بريطانيا داخله فى منطقة نفوذها وتحت سلطتها . كما عقد معاهدة مع بريطانيا واتفق معها على التعاون فى منع تجارة العبيد - الأمر الذى رفض أن تتضمنه المعاملات التى عقدها مع إيطاليا وفرنسا. ولم يتوخ أن يجنى ثمار انتصاره فى اليمن . إلا أن بريطانيا فيما يبدوكانت دائمًا تظهرله عدم الاكتراث ، ولم يعرف لذلك سببًا ! ولم يدر كيف إن إصراره على تحقيق السيادة المطلقة فى الحقلين : الداخلى والخارجى، يمكن أن يشكل حاجزًا لم تستطع عواطف بريطانيا التغلب عليه .

ومع هذا ، فعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ، لم يتردد ابن سعود لحظة فى عطفه على بريطانيا فى هذا النزاع ، بالرغم من إعلانه الحياد ، وقد كان بإمكانه أن يستفيد أكثر لو أنه أظهر مسلكًا مبْهمًا ذا وجهين . وكان حياده لا غبار عليه من الوجهة الرسمية ، ولم يسمح للسفير الألمانى الذى كان غائبًا عن جدة حينما أعلنت الحرب ، أن يعود إليها ، خوفًا من حدوث مضاعفات مع عناصر السلك السياسى الأخرى الموجودة هناك .

وعندما دخلت إيطاليا الحرب ، نَقل ممثليها وأعضاء بعثتها إلى أماكن مريحة فى إحدى الجزر المخصصة للحجر الصحى لنفس السبب ، إلا أنهم عوملوا بالاحترام اللائق بهم ، وعندما لجأت بعض المدمرات إلى الشواطئ السعودية هربًا من هجوم الأسطول البريطانى عليها ، اعتقل ابن سعود بحارتها فى الطائف ولم يسلمهم إلى أعدائهم وكذلك فعل حين لجأ رشيد عالى الكيلانى بعد الحرب ، إلى الأراضى السعودية .. لقد استقبله مظاهر الحفاوة ، كضيف محترم ، بالرغم من المساعى التى بذلتها بريطانيا لتسليمه إليها كمجرم حربٍ صدر بحقه حكم بالإعدام من محكمة عسكرية عراقية لقيادته ثورة سنة ١٩٤١ .

كان ابن سعود فى جميع هذه الأمور يتصرف وفقًا لشعور غريزى يدفعه للسير فى أفضل السبل ، وكان يعمل بهذا الشعور دونما خوف أو تحيز أو محاباة . ولا شك فى أنه كان يرجو طوال سنى الحرب أن يكون النصر حليف حلفائه ، وكم أزعجته وأرقت مضجعه الكوارث التى ألمت بهم سنة ١٩٤٠ والسنة التى تلتها !

فى هذا الوقت بالذات ، أخذت أميركا تهتم بالجزيرة العربية ، وبعد أن أسست لها مفوضية فى جدة ، أرسل روزفلت ممثلين شخصيين عنه لزيارة ابن سعود فى الرياض ، وبحث بعض الأمور معه ودراسة ما تحتاجه بلاده ، وقد سبق أن ذكرنا المساعدات المالية النقدية التى قدمتها الحكومتان : الأمريكية والبريطانية لابن سعود ، فكان توطيد العلاقات الأمريكية مع الجزيرة العربية هو التطور البارز الذى حدث خلال سنوات الحرب ، وكانت النتائج باهرة للغاية ، فقد غيّرت البناءَ الاقتصادى والاجتماعى فى البلاد تغييرًا كليًا فى غضون سنوات عشر فقط.

لقد احترم الحلفاء حياد ابن سعود تمامًا ، وكان واضحًا لهم أنهم لن يستفيدوا شيئًا من تغير موقفه ، حتى لو كان ابن سعود على إستعداد للقيام بذلك ، وكان روزفلت يدرك تمامًا ذلك الدور الهام الذى ستلعبه السعودية فى عالم ما بعد الحرب ، وبعد أن بدأ الحلفاء يحققون انتصاراتهم لم يكن هنالك من سبب يحمل ابن سعود على إخفاء مشاعره بالنسبة للصراع العالمى.

وكان الملك فاروق قد قام بزيارة له بالقرب من المدينة المنورة فى نهاية الحرب تقريبًا ، ودعاه لزيارة مصر عندما تصبح الأمور ملائمة ، إلا أن القدر كان يخبىء مفاجئات أخرى للوهابى العظيم ، فقد ذهب إلى مصر سنة ١٩٤٥، لا ليزور فرعون الشاب ، بل لمقابلة مهندس النصر المؤزّر. لقد زار الرئيس روزفلت على ظهر طراد أمريكى فى البحيرات المرّة ، ومن هناك سافر بالسيارة إلى الفيوم ليزور ونستن تشرشل ، الذى حياه ، واستقبله كصديق فى وقت الضيق ، وذلك لوقوفه بجانب القضية البريطانية فى أحلك أيام الحرب.

كانت هذه لحظة هائلة من لحظات حياته ، وكانت أول سفرة له إلى خارج بلاده منذ ذهابه البصرة قبل ثلاثين سنة .. وكان أول لقاء له مع عظماء العالم الحقيقيين ، وكان هذا أول اختباراته للعالم الحديث وأساليبه . وكان عمره آنذاك خمسة وستين عامًا ، وقد بدأ يشعر بوطأة الآلام العصبية فى ركبته التى أصيبت بجرح فى معركة جرت منذ زمن طويل ، ولكنه عاد إلى البلاد يحمل هدية من الرئيس روزفلت ، هى عبارة عن كرسى للمقعدين مثل الكرسى الذى يستعمله الرئيس نفسه . ومن ذلك اليوم فصاعدًا تمسك ابن سعود بالكرسى .. فقد وجد راحة كبيرة فى استعماله.

وفى خلال الاجتماعين اللذين عقدهما ابن سعود مع زعماء الحرب ، بحث معهما المسائل المتعلقة بمستقبل بلاده ، ونظرته إلى مشاكل العالم بصورة عامة . ثم عاد إلى الجزيرة العربية .. وطُلب إليه أن يبحث أمرًا بالغ الخطورة وأن يتخذ قرارًا بشأنه . فقد رغبت بريطانيا وأمريكا إليه أن يلعب دوره فى العالم الذى غيرته الحرب . وذلك بانضمامه إلى منظمة تهدف إلى المحافظة على السلم العالمى. كما دُعيت الدول العربية الأخرى للمساهمة فيها أيضًا ، أما الشرط السابق الذى يجب توفرهُ فى العضو المؤسس لمنظمة الأمم المتحدة فهو : أن يكون

عضوًا فى التحالف الأكبر المشترك فى المراحل الأخيرة من إخضاع العدو. وحتى تنضم الدولة لذلك التحالف ، ما عليها إلا أن تعلن الحرب على ألمانيا واليابان ، العضوين الباقيين من المحور بصورة رسمية .

إلا أن ابن سعود أحجم عن إعلان الحرب بهذه الصورة الشائنة السخيفة على دول أصبحت فى حكم المنتهية ، وليس بينه وبينها أى خلاف أو منازعة . لكنه خضع أخيرًا للضغط السياسى من جانب أصدقائه ، وانضمت المملكة السعودية إلى صفوف الدول المحاربة ، بالإسم إن لم يكن بالفعل ، فحضرت مؤتمر سان فرنسسكو كعضو مؤسس لهيئة الأمم المتحدة . وتفضل الأمير فيصل فحضر جلساتها بصفته وزير الخارجية وفى مناسبات أخرى كان يمثل ابن سعود فى حضور هذه الجلسات وزير السعودية العربية المفوض (السفير فيما بعد) فى واشنطن ، الشيخ أسعد الفقيه ، الذى كان فى السابق ممثلا لحكومته فى بغداد.

ولا سبيل إلى أن يدعى أى إنسان أن الدولة السعودية وجاراتها من الدول العربية لعبت دورًا مؤثرا فعالاً فى بحث ، أو تسوية المشاكل الرئيسية التى شغلت بال عالم ما بعد الحرب . ولكن تشكيل الجامعة العربية على صورة الهيئة الدولية العامة . جعل أعضاءها ومنها المملكة السعودية بالطبع ، فى مركز قوى يمكنهم من التأثير فى الرأى العام العالمى ، فى جميع المشاكل التى تمس مصالح الشرق الأوسط والعالم الإسلامى فيما بعد .

هذا دون الحاجة إلى ذكر المجموعة الكبرى من الدول العربية والأسيوية التى كثيرًا ما تعاونت فى نيويورك على حماية مصالح بلدان عدة كانت سابقًا ، ولا تزال فى بعض الحالات ، تحت حكم الدول الغربية أو نفوذها . وليس هناك أدنى شك فى أن هذة الأمم التى ثبت عدم تمكنها من إنجاز الغايات الرئيسية التى أسست من أجلها ، لسبب الشقاق الذى ذر قرنه بين الدول الكبرى - كانت مسرحًا استطاعت الدول الأسيوية والأفريقية أن تبارز عليه ، على قدم المساواة ، عمالقة الغرب الأمر الذى ربما أزعج بعض أعضائها .

لم تكن تلك المشكلة تهم السعودية العربية بصورة مباشرة ، وإن كان صوتها سيظل دائمًا فى خدمة الجناح الأسيوى من هيئة الأمم فى أية قضية تمس مصالح الإسلام . أما الجامعة العربية نفسها فقد كانت فى بدء تأسيسها منقسمة إلى كتلتين ، بسبب التنافس المحلى. وكانت

المملكة السعودية بجانب مصر وسورية ضد دول الأشراف غير أن الزمن والأحداث أزالت الخلافات التى نشبت بين الجموعتين فرضى ابن سعود وارتاح ضميره أخيرًا لأن يرى أن الدول العربية قد توصلت إلى شىء من التناسق والتوافق يبرر مساهمته بهبة ملكية مناسبة للدفاع عن الأردن ضد اعتداء إسرائيل . ومع ذلك يمكننا القول بصورة عامة : أن ابن سعود لم يتطلع قط إلى مركز القيادة فى الجامعة العربية ، ولا إلى رئاسة ممثلى دولها فى منظمة الأمم المتحدة ، أو الحصول على مقعد فى مجلس الأمن . وكان من طبعه أن يتردد فى رفع الأيدى إلى جانب الغرب لهدم أى مشروع يتناول إحدى القضايا التى تمسه . لقد ترك هذه الظاهر للأيدى الأخرى المتمرسة أكثر منه بالأساليب الغريبة فى العالم الجديد ! وكان فى وسعه أن ينظر اليها من قمة طموحه العالمية ومجده الرفيع : ذلك المجد الذى بلغه بجهوده الخاصة دون أية معونة من أحد ، ودون أية رغبة فى الفتح أو النهب والسلب .

وكانت هنالك أمور أخرى تشغل تفكيره ، أمور حيوية تهم دولته التى أوجدها ثم أصبح يحكمها بمفرده وسط تطورات غريبة لم يألفها من قبل . وقد لمس فى سنه المتقدمة حقيقة آلمته . فقد أدرك أنه يعوزه الوقت الكافى لإنجاز كل ما تبقى ، وإقامة الإدارة فى بلاده على أسس ثابته تمكنها من مقاومة العواصف والشدائد فى المستقبل : تلك العواصف التى كان سيواجهها عالم ما كاد يتغلب على الطوفان (الحرب الثانية) الذى لم يعرف له مثيلا ، حتى بدأ يواجه انشقاقا أكثر خطورة . فلم يكن ابن سعود ذلك الرجل الذى ترعبه المصاعب ، بل واجهها بكل هدوء .. الهدوء الذى تميز به فى جميع المعارك التى خاضها فى السابق . أما الآن فقد أصبح متقدمًا فى السن ومتعبا أنهكه الألم . إلا أن الشعور بالواجب ، هذا الشعور الذى حذقه ابن سعود لطول ما تم تلقينه إياه ، كان يدفعه دائمًا إلى الأمام : وكم كان يرفض ويزدرى مساعدة أبنائه له ، أولئك الأبناء الذين خبر معظمهم العالم ، كما يرفض مساعدة العدد الكبير من الموظفين الذين خدموه طويلاً بإخلاص.

صحيح أن الأمير سعودا ، الذى كان وليًا للعهد لأكثر من عشر سنوات ، كان يده اليمنى فى إدارة نجد ، وأن الأمير فيصل كان قد عين فى الحجاز بالإضافة إلى مسؤوليات وزارة الخارجية - إلا أن ابن سعود لم يترك أيا من ولديه حرًا فى إنجاز المهام الموكولة إليه . وربما كان وزير المالية عبد الله السليمان الموظف الوحيد بين موظفى الحكومة الذى كان يتمتع

بسلطة مستقلة (خاضعة بالطبع لسلطة جلالته) فى إدارة شؤون البلاد المالية . وكان عبد الله هو المشرف على نفقات معظم الدوائر الحكومية .

أما جميع موظفى الدولة الكبار عدا هؤلاء الثلاثة فكانوا يلتفون حول الملك بصفة مستشارين له . بينما كان مجلس الشورى الذى استقر فى مكة هو الهيئة الوحيدة التى تعمل خارج دائرة البلاط السحرية . ويتألف هذا المجلس من أشخاص عينهم الملك ليمثلوا مناطق الحجاز ومدنها . وكانت هذه الهيئة كما يدل عليها اسمها استشارية فقط . غير أنها ظلت تقوم بأعمال جد نافعة ، طوال السنوات التى وجدت فيها . فقد كانت تعبر عن رأيها فى مختلف المشاريع والمقترحات المقدمة من وزير المالية والمصادر الأخرى.

ولقد قام الموظفون بأعمال باهرة فى الظروف التى سبقت الحرب والبسيطة نسبيًا إذا كان بإمكان الملك نفسه أن يهتم بأية مشكلة تعذر حلها فى دوائر الحكومة الدنيا. ويعود الفضل فى ذلك بالطبع لابن سعود ، إذ أنه لم يقطع الاتصال برعاياه مهما سبب له ذلك من إزعاج ، لافرق بين الكبير والصغير والغنى والفقير.وكان يستمع إلى شكواهم ويساعدهم فى التغلب على مصاعبهم . وكان هذا طبيعة فيه تلازمه .

وإنه لمن المدهش حقا انه استطاع ، بالرغم من مشاغله العظيمة والمزعجة أن يجد متسعا من الوقت يقوم فيه بتأدية هذه الآلاف المؤلفة من المساعدات البسيطة أو يفكر فيها - هذه المساعدات التى حملت الكثيرين من الناس بعد وفاته على أن يمجدوا ذكراه ويترحموا عليه - فلقد كرس حياته لخدمة الآخرين . وربما كان هذا هو السبب الذى جعله لا يَكِل جزءًا من هذه الأعباء التى حملها على عاتقه طول حياته لأخلص مستخدميه وموظفيه .

لقد تغيرت الأحوال فى بلاده بسرعة مخربة . ولقد ثبت عقم جميع الإجراءات التى اتخذت بموجب النظم القديمة لحماية الشعب من الطغيان والفساد وطوفان الثراء الذى غمر البلاد فجأة، وأخذ يضغط بصورة متزايدة على كل ناحية من نواحى الحياة فى الجزيرة العربية. ومن الباطل أن يدعى المرء بأنه لم يكن هنالك ظلم أو فساد فى ظل النظم القديمة . - فقد كان عدد المغامرين الأجانب من مثل السواقين والميكانيكيين وحتى الكتبة والتراجمة الذين تقاطرو على الحجاز بحثًا وراء الثروة والحظ قد تم احتلالهم من قبل الوهابيين - كافيًا لدحض مثل

هذه الادعاءات . إلا أن مفاسد الفترة السابقة كانت بسيطة نسبيا . وكثيرًا ما كان يتم إصلاحها بالشدة الملائمة عندما تبلغ مسامع الملك.

أما فترة ما بعد الحرب فكانت شيئًا آخرًا . وقد آن الأوان لأن تنتقد بشيء من التفصيل، دون الإساءة إلى الكثيرين من الذين وقع عليهم عبء إعادة الثقة العالمية إلى العربية السعودية التى ظل اسمها ساميا فى أعين الأمم . فليس فى المملكة السعودية وحدها من دول العالم العربى أوجه الثراء توأمى الشر (الفساد والتبذير) وهما الشران اللذان أثار نقمة زعماء الثورة فى بعض البلدان العربية لأن ثوراتهم قد رافقها التطهير العنيف وأظهرت مفاسد الحكومات السابقة.

أما فيما يتعلق بالمملكة السعودية ، فنستطيع أن نتلمس العذر فى ذلك فنقول : كان السبب هو هبوط هذا الثراء الخيالى الفجائى على جهاز إدارى بدائى جل مهمته ايجاد التوازن بين موارد البلاد الضئيلة وحاجات الحكومة المتزايدة خصوصًا وأنها حكومة برزت إلى الوجود فى هذا العالم عن طريق الفتح والتوسع لقد كانت مستويات معيشتها وخدماتها العامة تختلف كثيرًا عن أى مستوى آخر خَبرتَه الجزيرة العربية قبل ذلك الزمن . وكان الفضل لحكم ابن سعود ونظامه فى رفع مستوى ازدهار البلاد وفعاليتها حتى نهاية الحرب . وكان ذلك على حساب عجز بسيط فى الميزانية ، وعلى صورة دَيْن عام يمكن دفعه متى شاء ابن سعود عن سبيل الاقتصاد فى مصروفات سنة واحدة من الواردات العادية .

إلا أن الثروة جاءت ومعها المغريات ، سرعان ما أبدت ضعف النظام الذى يعتمد كليةً على إرادة سلطان مطلق يفتقر كثيرًا إلى أنظمة المحاسبة ، والمراقبة الفنية ، والاحتفاظ بالاحتياطى ، وما شابه ذلك من الأنظمة التى تمكّن الحكومات الوطنية المستقرة والشركات التجارية الكبرى ، وحتى الأغنياء من أبناء الشعب أن يتحملوا أعباء الديون المادية ، دون إلحاق الضرر بسمعتهم فى العالم ، فسرعان ما تحولت الدائرة المالية التى يشرف عليها عبد الله السليمان ، إلى وكالة مهمتها إيجاد الأمور اللازمة لهذا المشروع أو ذاك ، دون أخذ حسنات المشاريع نفسها بعين الاعتبار أو وجود المال اللازم لها.

كان رئيس كل دائرة آنذاك قائمًا بنفسه ، خاضعًا لمشيئة الملك وسلطته فلم تكـن هنالـك حكومة تنسق عمل الدوائر واحتياجاتها فيما عدا الملك نفسه الذى كان كما يبدو يحمـل فـوق طاقته أعباء شؤون أخرى . فلم يكن حقًا فى وضع يمكنه من تقدير إمكانيات الخزينة وقدرتها على دفع جميع المطالب من وارداتها . وهكذا أخذت الدائرة المالية تبرز شيئًا فشيئًا ، كـصاحبة السلطة فى مراقبة جميع دوائر الدولة التى لم تكن تحت إشرافـه المبـاشر . فقـد كانـت لمطالبـه الأولوية على جميع المطالب الأخرى .

أما بقية الواردات فكانت فى متناول يد وزير المالية ، ينفق منها كما يـشاء عـلى المـشاريع والحاجات الأخرى التى نادرًا ما كانت المالية كافية لسدها . ولا عجـب فى هـذه الظـروف ، وبعد عشر سنوات من الازدهار المدهش ، أن لا يكون لدى الحكومة السعودية مال احتياطى على الإطلاق ، وأن نجدها تتحمل ديونا تبلـغ عـشرات الملايـين مـن الجنيهـات . إن أصـل المعضلة يكمن لا ريب فى موجة الإسراف والتبذير التى غمرت البلاد بعد ارتفاع مد عوائـد الزيت هذا الإسراف الذى تسرب بدون أية مقاومة ، إلى كـل طبقـة مـن طبقـات المجتمـع ، هادما جميع الاقتصادى . وقد رافقـه رد فعـل طبيعـى لـه ، ظهـرت فى ارتفـاع أسـعار جميـع الحاجيات الحياتية الضرورية ومطالب الترف والبذخ . فالتربة المشبعة ليس بوسعها إلا أن تنز ماء الفساد الأجاج الذى تطرّق إلى كل ناحية من نواحى الحياة العامة فى الـبلاد محـوِّلاً جميـع آمال الناس الدينية التى عمرت بها قلوبهم إلى رماد .. وذلك الرزائل القديمـة الـضارة تنمـو مرة أخرى وتزدهر - بعد أن داسها المتعصبون من أهل الـصحراء واستأصـلوها - فى نفـس المكان الذى شهد انتصاراتهم فيما وراء بـضعة الأفدنـة مـن الأراضى التـى آلـت إلـيهم مـن أجدادهـم .

ومن المدهش وربما من المهم أيضًا ، أن نعرف أن انتشار هذه المفاسد والـشرور فى بـلاد قاومت أى شكل من أشكال التغلغل الأجنبى بعناد - وخلال الأربعة أو الخمسة آلاف سنة فى تاريخها - يوافق ظهور الثورة الاجتماعية الشاملة المستندة إلى النماذج والمثل الغربية ظـاهرًا والأميريكية فعلاً ، والتى أوحى بها التعاون الأميريكى الفنى والاقتصادى إلى تطوير مـوارد البلاد الطبيعية . ومهما كانت الآراء فى حسنات هذا التبدل الذى أدى إلى هجر حـضارة مـن أقدم الحضارات فى العالم فى سبيل تجسيد نـاموس دنيـوى آلى فقـط وإن كـان العـرب اليـوم

لايشكون فى أفضلية الحضارة الأخيرة على الحضارة السابقة فلا سبيل إلى الإنكار بأن روح الانقلاب قد ازدهرت بسرعة وامتصت معها أكثر من مجرد امتصاص سطحى معظم التقاليد الحضارية الثمينة القديمة ، حيث نبذت هذه وألقى بها فى وادى النسيان.

وإذا كان ازدياد سكان المدن ، وتطور الطبقة الصناعية الصغيرة ، وتحقيق المشاريع العامة مثل السكك الحديدية والطرق وتزويد السكان بالماء ، والكهرباء للإنارة ، وتكييف الهواء ، والطبخ وما إلى ذلك دلائل الازدهار فلا شك إذن فى أن السعودية كانت فى نهاية حكم ابن سعود العظيم أعظم ازدهارًا منها فى أى عصر آخر منذ بدء العالم . ولكن هذا التقدم ليس المقياس الوحيد ، وليس المقياس الرئيسى أيضا بالرغم من عظمته كما تعرف ذلك أميريكا جيدًا . إلا أن العرب لم ينسوا أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام أعظم منهم فى الزمن الماضى الذى ناضلوا فيه بإخلاص فى هذه المجالات ، فأوجدوا للعالم ما يسمى الآن بالابجدية الرومانية الإنسانية ، وعقيدة التوحيد التى انتشرت فى معظم أقطار العالم.

والواقع أنه ليس من الصعب تشخيص أسباب خيبة الأمل العريضة التى كانت معلقة على دولة ابن سعود خلال العشر سنوات الأخيرة . ويمكننا تلخيصها بقولنا : أن هناك مزايا رجل عظيم لا يضاهيه أحد فى منطقته ، مخلص فى دينه وصادق وغيور على سمعته واسمه وخير شعبه . لهذا فإنه لم يثق بأىٍّ من موظفيه ورغبته فى أن يخدمه بالغيرة والكفاءة اللتين أظهرهما هو فى خدمتهم . وكثيرًا ما كان يردد القول المعروف : (كبير القوم خادمهم) .

لقد كان هو نفسه خبيرًا فى كل ناحية من نواحى الحياة فى الصحراء ، فلم يكن يضاهيه فى هذه الناحية أى متفقه من علماء الدين . وقد تناول مشاكل الساعة كهاو لم ترهبه مسئولياته الضخمة ، ودون وجود أى إدارى خبير واحد بين أفراد الهيئة التى كانت تساعده فى حمل أعباء الدولة فى غضون الأعوام الماضية الأخيرة . وقد اضطر مع الأيام إلى الاعتماد على نفسه فقط . فلم يشعر بتسرب علل الشيخوخة إلى جسمه ، تلك العلل التى جعلت من التعذر عليه تحمل أعباء المسؤولية فى بعض الأحيان . وقلما خطر له أنه سيجئ اليوم الذى يصبح فيه غير قادر على الاحتمال . وكانت غريزته تمنعه عن المجازفة بتحويل هذه الأعباء عن كاهله إلى عاتق غيره.

كان الشيء الوحيد الذى تحتاج اليه البلاد منذ بَدَأ الثراء يزعزع أركانها ، حكومة مستقرة تؤمن بالإخلاص فى الإدارة المالية ، واستمرار السياسة الداخلية والخارجية فى الفترة الجديدة ريثما تتسلم الدفة أيد أخرى إلا أنه لم تشكل مثل هذه الحكومة مطلقًا حتى اللحظة التى وقف فيها الموت على بابه يدعوه للمثول بين يدى ربه فى تلك الساعة الرهيبة . وصحيح أن الأمير سعود ولى العهد والأمير فيصل نائب أبيه فى الحجاز ووزير خارجيته ، كانا فى السنوات الأخيرة يتحملان قسطًا كبيرًا من المسئولية وأعباء الإدارة فى مختلف المجالات إلا أن المشاكل الرئيسية التى كانت تتطلب سياسة فعالة ، ومسؤولية تعود بالخير على الدولة كانت من اختصاص الملك وحده . كان تشكيل الحكومة فى اللحظة الأخيرة وتعيين ولى العهد رئيسًا للوزراء ، والأمير فيصل وزيرا للخارجية ونائبًا للرئيس ، مثالاً يحتذى فى المستقبل إلا أن الوقت كان قد فات على معالجة الأمور فى حياة الملك ، وتخفيف العناء والإجهاد اللذين فرضهما الزمن على الجهاز الذى شكله بمفرده فى كفاحه طوال نصف قرن .

ولنعد من بحث الوضع الإدارى العام فى السنوات العشر الأخيرة من حياة ابن سعود إلى فترة ما بعد الحرب :

لقد كانت أهم مشاغل الملك – بعد أن أصبح العالم متحررًا مرة أخرى من كابوس الحرب – زيارته الموعودة إلى مصر ، ردًا على دعوة الملك فاروق له بمناسبة الزيارة التى قام بها للمدينة المنورة وينبع وتمت تلك الزيارة فى كانون الثانى من سنة ١٩٤٦ ، وسط مظاهرات الحماس والحب التى مست أوتار قلب أسد الصحراء وهو لا يزال ينبض بالحرارة . أما العلاقات الطيبة التى قامت بينه وبين الفرعون الشاب ووزرائه ، فقد عادت على مملكة ابن سعود بالخير والنفع . لقد أخذت بلاده تعتمد منذ ذلك الحين على المساعدات الفنية والمادية التى تقدمها جارتها مصر ، لتطوير خيرات الحجاز وتنمية اقتصاده فى سبيل مصلحة الحجاج بالأماكن المقدسة . وكان اغتيال رئيس وزراء مصر النقراشى باشا ، خسارة شخصية لابن سعود . إلا أن ثورة تموز ١٩٥٢ وسقوط فاروق غير المتوقع ، باعثًا للأسى والأسف فى نفسه لأسباب شخصية أكثر منها لأى رد فعل خاص بميزات هذا العهد . وفى خلال الحج سنة ١٩٥٣، استقبل الملك وولى عهده رئيس جمهورية مصر اللواء محمد نجيب بكل مظاهر الحفاوة والإجلال اللائقة بحاكم أجنبى .

وبغض النظر عن المساعدات الفعلية القيمة التى قدمتها السلطات المصرية ، فقد تركت الحدائق الخضراء والأبنية الضخمة الشاهقة فى القاهرة والتى لم يشاهد ابن سعود مثلها فى حياته أثرًا بالغًا فى نفسه . هذا بالإضافة إلى أنه كان قد عاد منذ عهد قريب ، كل من الأمير فيصل وإخوته الأمراء الآخرون ، من حفل افتتاح هيئة الأمم المتحدة فى سان فرنسيسكو ، يملأ نفوسهم الإعجاب والدهشة بما رأوه فى العالم الجديد . وجاء دور الأمير سعود ليقوم بعد مدة وجيزة بزيارة طويلة إلى أمريكا . فعاد منها بأحلام عريضة عما يمكن عمله فى بلاده من ناحية الخبرة الزراعية والمشاريع الكهربائية ووسائل النقل وما إلى ذلك.

ولم يكد يمضى وقت طويل حتى أخذت هذه الانطباعات تترك أثرها فى الجزيرة العربية حالما بدأت عوائد البترول تجرى بقوة واستمرار فأنشأت الحدائق الغناء ، وشيدت القصور والديار فى الرياض ، وزودت بكل مظاهر الترف والبذخ التى تميزت بها قصور الأثرياء من مواطنى الولايات المتحدة . وقد جُلبت الغراس والبذور من العالم الجديد ، فغُرست فى رمال الصحراء القديمة لتزيين البيوت الريفية . كما استخدمت مضخات الديزل والكهرباء على نطاق واسع لتزويد البلاد بالمياه اللازمة للمشاريع الزراعية الناشطة . وكانت المزرعة النموذجية التى أنشأ فى إقليم الخرج ، والتى كان يشرف عليها ويديرها الخبراء الأمريكيون مثالاً بارزا على ذلك . كما أنشأ فى عسير تهامة مشروع للرى والزراعة ، وإن كان لايزال فى مراحل تطوره الأولى . وأصبحت الطائف وإقليم الخرج مراكز مهمة للتدريب العسكرى الذى يشرف عليه مدربون أمريكيون حلوا محل بعثة بريطانية سابقة . وأقيم مصنع جديد للذخيرة فى إقليم الخرج تديره شركة فرنسية.

أما حُلم الملك الأكبر فى ربط ساحل الخليج الفارسى بالرياض فقد تحقق فى أواخر سنة ١٩٥١ . فأُصدرت التعليمات للمنهدسين الأمريكيين بأن يقوموا بمسح وتخطيط الأراضى لتمديد هذا الخط ، عن طريق إقليم القصيم والمدينة المنورة ومكة . أما المدينة المنورة ومكة فقد كانتا مرتبطتين بطرق معبدة وأكلمت كذلك شركة إنجليزية المائة كيلو متر الأولى من طريق يعتبر من الدرجة الأولى بين جدة والمدينة المنورة ، لمصلحة الحجاج ولتأمين المنقولات الثقيلة المعتادة بين المدينتين .

وبالاختصار ، يمكننا القول بأن الاتصال الوثيق بالعالم المتمدن واكتشاف الوسائل الضرورية للتقدم ، تعاونا فى أثناء السنوات العشر الأخيرة من حكم ابن سعود على خلق ثورة اجتماعية واقتصادية تفوق بكثير أحلام أولئك الذين شهدوا الجيوش الوهابية تزحف على جدة قبل أكثر من ربع قرن بقليل . وبعد ذلك بعدة سنوات لم يشهد الناس الناحية العسكرية للاحتلال ، وأخذ الرأى العام والموظفون يساندون إنشاء جيش ثابت على النظام الأوروبى ليحل محل جيش ابن عبد الوهاب الثائر الذى سار بعلم آل سعود من نصر إلى نصر حتى أقصى أنحاء البلاد .

وفى الواقع لم يُحَلْ هذا الجيش بالكلية ، بل تُرك جانبًا مؤقتًا ليستجم ، حتى أُعيد إلى الحياة على صورة فرقة صغيرة من الهجانة أطلق عليها اسم الجهاد ، تضم المجندين من مدن نجد ومقاطعاتها كلما احتاجت الحكومة إلى ذلك . وتُشاهد مخيماتُها هنا وهنالك ، منتشرة فى الأماكن الملائمة حيث الكلا والماء لجمالهم . ثم أضيف إلى هذه الفرقة قسم لنقل المؤن والذخائر والعتاد . ويقود هذه الفرقة البدوية ماجد بن خثيلة فى الوقت الحاضر . والمشهور عنه بأنه من الغطغط . وكان جسمه رخوًا وسمينًا بسبب العيش المترف الذى حظى به نتيجةً لازدهار البلاد العام . غير أنه كان رجلاً جبارًا ذا شجاعة وخبرة بالصحراء فبالإمكان الاستفادة منه ومن خدماته وخدمات أمثاله فى بعض المناسبات .

كان هذا ما سيقع فى السنوات الأخيرة لو لم يحجم الملك فى شيخوخته عن العودة إلى الأساليب القديمة التى أدت له أعظم الخدمات فى شبابه . لهذا وكل إلى قواته النظامية أمر حراسة حدوده المتاخمة للعالم المتحضر ، بطوابيرها الأليه وسياراتها المصفحة ومدفعيتها . وفى الواقع لم يكن لهؤلاء من العمل ما يكفيهم فواجباتهم بوليسية صرفة ، ومهمتم ضبط المهربين. أما حاميات المدن الكبيرة والمناطق المأهولة ، فقد أخذت تكرس معظم وقتها للتدريب والقيام بالواجبات الرسمية ، بينما انتشرت الموسيقى العذبة التى تعزفها الفرق العسكرية لإزالة متاعب التمرينات والاستعراضات العسكرية ولاجتذاب المجندين وتسلية السكان وإطرابهم .

أما المناسبة الوحيدة التى استخدمت فيها هذه القوة التى قيل بأنها تتألف من اثنى عشرة فرقة فكانت خلال الحرب الفلسطينية سنة ١٩٤٨ . إذ انضم طابور واحد منها إلى القطاع المصرى من الجيش عربونًا على المساهمة فى القوات العربية خلال العمليات الحربية ضد اليهود . وكان لهذا الطابور الشرف فى المساهمة فى مسيرة النصر فى شوارع القاهرة ، احتفاءً بالمناسبة التى كلما ذُكرت ارتعد الناس فى مكاتبهم رعبًا وخوفًا ، واحمرت وجوههم خجلا من الخزى والعار اللذين لحقا بهم.

أما إخفاق الجيوش العربية فى استرجاع فلسطين من أيدى اليهود فيعزوه العرب ، وهم يريدون أن يرثوا أنفسهم إلى مكائد بريطانيا التى تخلت فى الواقع عن جميع مسؤوليات الدولة المنتدبة على البلاد قبل بدء الصراع فيها ، وغادرتها كى تخلى الميدان لتسوية القضية بالاحتكام إلى الحرب . ولكن السبب الحقيقى لفشل العرب وانهيار معركتهم التى بدأ فيها نصرهم النهائى نتيجة محتومة ، فإنه مع الأسف يعود جزئيًا إلى انقسام آراء الدول المعنية، ويعود بصورة رئيسية إلى الأطماع والرشوات وفساد السلطات المسئولة عن تزويد الجيوش بالأسلحة والذخائر اللازمة للقوات المشتبكة فى القتال . أما الثورات التى وقعت حديثًا فى كل من سوريا ومصر ، فتعود إلى اعتراف العرب بعدالة حكم السيف فى قضية فلسطين ، ذلك الحكم الكريه إلى النفس.

وإذا كان لا يزال هنالك شك فى هذا الموضوع ، فالعبارات التالية المقتبسة من خطاب ألقاه أحد قادة الثورة المصرية ، يكفى لإزالة هذه الشكوك التى تساور بعض العقول غير المتحيزة . فقد ذكر رئيس الجمهورية المصرية فى خطاب ألقاه فى الإسكندرية سنة ١٩٥٣ ونقلته صحافة البلاد العربية ومن جملتها الصحف السعودية ، ما معناه (إننا وحدنا المسؤولون عن ضياع فلسطين . وكان قادتنا هم العامل الرئيسى فى ضياعها . إننا لم نقم بأى عمل سوى إلقاء الخطب وعقد الاجتماعات والمؤتمرات . لقد كنا نقول بأنا سنلقى باليهود إلى البحر غير أننا لم نفعل ذلك) .

أما بالنسة للمملكة السعودية فيمكننا القول بأنه : مهما كان السكان سليمى النية فى عداوتهم لليهود ، وتقديسهم لفلسطين واستمساكهم بها كجزء من إرثهم العربى ، فإن نظرة

الحكومة كانت أفلاطونية فلسفية . وكثيرًا ما انتقد الملك نفسه ، سياسة وقيادة للحركة العربية فى فترة الانتداب ، وفى فترة اللهو التى أدت إلى خلق دولة إسرائيل . وهو لم يطمئن إلى إخلاص أحد للقضية الفلسطينية ، غير أنه لم يتخل عن سياسته التى كانت تحتم عليه الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يوقعه فى متاعب مع الدول المنتدبة التى برزت بعد الحرب العالمية الأولى .

وفى الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية ، كانت علاقات الملك مع اليمن وإمامها دائمًا ودية ومفيدة ، منذ التوقيع على معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ . وهنا أيضًا نجده ينفى أية إمكانية لحدوث النزاع على الأراضى والحدود المختلف عليها ، هذه الخلافات التى كثيرًا ما عكرت صفو العلاقات الطيبة القائمة بين الإمام يحيى والسلطات البريطانية فى عدن .

ومن ناحية أخرى لم يُكِنّ ابن سعود أى عطف على الحركات الديمقراطية الموجهة ضد حكم الإمام الاستبدادى بقيادة الأمير إبرهيم ابن الإمام . هذا الأمير الذى ملأ قلب والده بالحقد والكراهية والخوف بسبب ما يُحِيكهُ من مؤامرات ودسائس من ملجأه فى عدن . ونتيجة لذلك أخذ يتباهى بكفاءة الاستخبارات الإمامية ومقدرتها بشكل مسرحى . وذلك عندما اكتشفت الاستخبارات فى السادس عشر من كانون الثانى سنة ١٩٤٨ ، تقريرًا مكذوبًا صادرًا من عدن ، عن طريق بغداد والقاهرة ، يتحدث عن اغتيال الإمام يحيى وتأليف حكومة ديمقراطية برئاسة عبد الله بن الوزير والأمير إبراهيم كرئيس للجمهورية .

أما بالنسبة للحوادث الأخيرة ، فقد ثبت فشل مؤامرة كان مقدرًا تنفيذها فى هذا التاريخ ، وادعى المتآمرون فى عدن بأنها نجحت .

إلا أن الإمام يحيى ، ورئيس وزرائه عبد الله العمرى اغتيلا فى السابع عشر من شباط من نفس السنة وهما يقومان بنزهة فى السيارة . وعلم ابن سعود بالحادث المفجع بعد ساعة واحدة من حدوثه ، وقبل أية وكالة أخبار عالمية بيوم واحد . ولقد كان رد الفعل فى نفسه ذا سكوت مُطْبِق بالنسبة للبرقية التى وصلته فى اليوم التالى من عبد الله بن الوزيريعلمه فيها بموت الإمام وإنتخابه إمامًا وملكًا دستوريًا على اليمن . وقد طلب ابن الوزير فى هذه الرسالة ، التى وُجهت كذلك إلى جميع الدول العربية ، إرسال طائرات للمساعدة على حفظ

النظام . أما الجامعة العربية فسارعت إلى إرسال لجنة للبحث فى أسباب ونتائج الاضطرابات التى عمت البلاد . فطارت بعثتها عن طريق جدة ولكنها قطعت رحلتها لتقوم بزيارة الملك فى الرياض فى نفس الوقت الذى كان يقوم فيه بزيارته ، وفد يمثل الغاصب اليمنى ، ويتألف من ابن أخته عبد الله ابن على ، والشيخ فاضل الورتلانى المراكشى الأصل وغيرهما .

ووصل فى هذا الوقت بالذات وارث العرش الشرعى إلى حجة من مركزه الإدارى فى تعز ، ونجح فى إثارة القبائل وسكان المدن لمناصرته ، فأصبح مركز الغاصب حرجًا ويائسًا ، كما دل على ذلك استنجاده اليائس بعدن والرياض والجامعة العربية وأمريكا وبريطانيا وحتى روسيا .

قد لاقت نداءات عبد الله بن الوزير والأمير إبراهيم ومحمد الكبسى أُذنًا صمّاءَ عند ابن سعود . فقد أبدى ابن الصحراء رأيه الصريح إلى الوفد الذى قوبل فى الرياض بكل حفاوة . فكان يشير إليهم بأصبعه ويقول (أنتم قتلة . كيف تطلبون منى أن أوافق على جريمتكم أو أصفح عنكم ؟) وانتهى كل شئ فى الثانى عشر من آذار ، عندما دخل الأمير عباس إلى صنعاء على رأس قواته وأجبر عبد الله بن الوزير وأصدقاءه على الاستسلام .

وقد غادر وفد الغاصب الرياض مطأطئ الرأس ذليلاً ، ولم يعد لليمن . أما ممثلو الجامعة العربية ، فلم يعد هناك حاجة لأن يذهبوا إلى اليمن ، فرجعوا إلى مصر .

وفى الحادى والعشرين من آذار نُقل عبد الله بن الوزير والمتآمرون معه ، مقيدين إلى حجة مركز قيادة الملك الجديد وزج بهم فى السجون ، فى انتظار حكم المحكمة الشرعية وتنفيذ حكم الإعدام الذى لابد منه . فانتهت بذلك أزمة اليمن المؤسية فى الثامن من نيسان سنة ١٩٤٨ .

أما ابن سعود ، الذى كان بمقدوره انتهاز فرصة الاضطرابات وإحلال اليمن لمصلحة السلام ، فقد أسرع إلى مد يد العطف والصداقة للملك الجديد . ولهذا رأينا أبنه ووريثه محمد البدر ، يقوم بزيارة للسعودية فى أواخر سنة١٩٥٣ ، ليقدم تعازى والده وبلاده بوفاة الملك والصديق العظيم ، وكان اسم محمد البدر هذا قد زج فى المؤامرة التى قامت ضد جده .

كان ابن سعود فى هذا الوقت ، مقتنعًا تمامًا بأن الدول الكبرى تسير بخطى واسعة نحو حرب عالمية ثالثة ، فكان هو نفسه يرى ذلك واضحًا ويرحب به كنتيجة حتمية للعداوة التى تكنها الدول الغربية للعالم الشيوعى . ومرة أخرى لم يخف التزامه جانب الغرب وعلى الأخص أمريكا وبريطانيا ، وإن كان لم يعرف سببًا لترددهما فى محاربة العدو فى الوقت الذى تفوقان فيه تفوقًا ساحقا فى الأسلحة الذرية . ولم يجد فى استخدام هذه الأسلحة الفتاكة فى قتل كافة السكان أمرًا يخالف الأخلاق . فقد قام الإنسان بمثل هذه الأعمال والإجراءات الضرورية فى كافة عصور المدنية . واعتبر ظهور الشيوعية وأدوات التدمير الجماعية دليلاً على نهاية المدنية وتحذيرًا إلهيًا على اقتراب يوم الدينونة .

وقد عبر عن رغبته فى أن تقوم الساعة فى حياته فى مناسبة أخرى جرت سنة ١٩٤٨ إذ كان يقول (من كان يظن بأنى سأعيش حتى أرى انتشار المشروبات والعلاجات فى الرياض فى الوقت الذى كنا نحرم فيه التدخين) ثم قال بحرارة : (ليس خطأ الآخرين بل خطأى . لو قدر لى أن أختار ، لاخترت قيام الساعة فى هذه اللحظة).

صحيح أن صرامة وخشونة طبع السلف وتزمتهم فى بعض النواهى أصبحت خفيفة ، إلا أن عددًا كبيرًا من المراكز الخطيرة فى الأوساط العليا ، قد اضطرت الحكومة لأن تأخذ بالوضع الذى لا تكاد تحمده الدولة الوهابية فى بداية حكمها عليه .. كان المجتمع الأوروبى يتمتع بالامتيازات التى منحته إياها ديانته ، فسمحت له الحكومة باستيراد المشروبات الروحية بكميات معقولة لاستعمالها . إلا أن استيراد المسلمين لها كان ممنوعا منعًا باتا .

والواقع أن إجراءات المنع هذه كانت حبرًا على ورق منذ زمن طويل . أما الإجراءات التى اتخذتها الحكومة فى سنة ١٩٥٢ لإعادة شرعية القانون الرسمية فى هذا الموضوع فلا يمكن اعتبارها معقولة أو فعالة . ذلك أن منع استيراد جميع أنواع المشروبات الروحية ، بدون سابق إنذار ، لم يكد يؤثر على أوساط المجتمع المحلى التى اعتادت . منذ زمن طويل ، الحصول على المكيفات بطرق منحرفة .

ولم تجرد المجتمع الأوروبى أو تمنعه من الانغماس المشروع فيما تعوده . ومن الصعب أن نعتقد أن الداعين الأولين إلى التحرر ، لم يدفعوا إلا بعوامل واعتبارات كره الأجانب ، بينما

نجد أن المشروبات الروحية لايزال يمكن الحصول عليها فى مدن الدولة الرئيسية بأسعار خيالية . وهذا دليل قاطع على أن المستوردين المحليين لهذه البضاعة الممنوعة لهم وسائلهم وطرقهم الخاصة للحصول على الكميات التى تؤمن لهم المكاسب الطائلة .

ولاريب فى أن الحكومة لم تعمد إلى التسامح مع المسلمين فى السعودية فى استهلاك المشروبات الروحية ، لأنه من غير المناسب أن تسمح لهم بذلك .

وبغض النظر عن بعض المشاكل المحلية - مثل انصراف (الآمرين بالمعروف) من حين لآخر إلى تنفيذ الأوامر المتعلقة بانتظام حضور الناس إلى الصلاة - وخصومات الدول الكبرى كان ابن سعود مهتما بصورة رئيسية بمتاعب جاراته .

ففى أوائل سنة ١٩٤٨ نشأ وضع دقيق فى العراق ، حيث قام الطلاب والعمال بمظاهرات صاخبة ضد المعاهدة الجديدة المقترحة مع بريطانيا العظمى ، أدت إلى خسائر فادحة ، وسقوط رئيس الوزراء السيد صالح جبر وهروبه . واختفى كذلك نورى السعيد باشا عن انظار عامة الناس . إلا أنه عاد بعد بضعة أشهر إلى العراق بعد أن هدأت العاصفة . وكان الأمير عبد الاله ، الوصى على عرش العراق هو الذى أخذ يهدىء من روع الناس بأن أعلن أنه لن يصادق على المعاهدة . التى وقعت على ظهر سفينة صاحب الجلالة (فكتورى) فى السادس عشر من كانون الثانى فى بورتسموث - مادام المواطنون لا يرغبون فى ذلك ، أو أنه لن يصادق على الفقرات التى تنص على استمرار الترتيبات السابقة التى تمنح البريطانيين الحق فى احتلال مختلف قواعد الطيران فى العراق.

وما دمنا قد أشرنا فى السابق إلى الاضطرابات التى وقعت فى فلسطين ، فإنه يحسن بنا أن نذكر أن الملك أمر بجمع التبرعات للقضية الفلسطينية خلافًا لمبدأ «اتفاق كلمة العرب» فى مثل هذه الأمور . وقد عين ابنه محمد ليرأس اللجنة التى أنيط بها هذا الواجب ، كما بدأ الحملة بالاكتتاب بمبلغ خمسة آلاف جنيه تبرعت بها سيدات القصر.

ومما يدل على الثروات الطائلة التى جمعها التجار المحليون فى الأيام الأولى من تدفق الزيت ، ثم فى فترة الحرب العالمية الثانية ، أن تاجرين من تجار جدة ، دفع كل منهما مبلغ خمسة وعشرين ألف جنيه . بينما دفع تاجر آخر مبلغ عشرة آلاف جنيه .

وبالاضافة إلى المساعدات المالية للحرب الفلسطينية فقد أشار الملك كثيرًا إلى وجوب التجنيد للخدمة الفعلية فى فلسطين . وذلك عندما أصدر فى كانون الأول سنة ١٩٤٧ تعلياته إلى جميع حكام الأقاليم النجدية - مستثنيًا الديار الحجازية المقدسة من مفعول هذا المشروع - أن يفتحوا السجلات للمتطوعين بين سن العشرين والخمسين وأن يدعوا زعيمين من كل قبيلة لزيارة الرياض لتنسيق الجهود اللازمة .

وقد كان متوقعًا أن تتألف بفضل هذا الإجراء قوة قوامها ثلاثمائة ألف جندى ولكن كما ذكرنا آنفًا كانت القوات السعودية الوحيدة التى قامت بالخدمة الفعلية فى فلسطين ، هى الطابور من الجند النظامى الذى انضم إلى القوات المصرية . أما نظرة أمريكا وبريطانيا للمشكلة بكاملها ، ومحاولات الحصول على أصوات الدول أثناء القضية فى الأمم المتحدة ، وإصرار الملك عبد الله ، الذى أصبح بعد حين مَلِكًا على الاردن ، على أن يتزعم القضية العربية ، وأن يحتل من فلسطين ما يمكنه احتلاله ويضمه إلى مملكته فقد بحثت بشىء من التذمر فى البلاط الملكى فى الرياض.

وكانت نظرة الملك تختلف باختلاف مزاجه آنذاك : بين اعتقاده الراسخ بأن البريطانيين لن يغادروا فلسطين فى نهاية الأمر، وذلك بسبب مصالحهم البترولية واستراتيجيتهم الحربية فى الشرق الأوسط ، وخشيته من أن يعمدوا إلى تسليم الجزء العربى من فلسطين إلى الملك عبد الله ، أو أن يرسلوا حاميتهم فى فلسطين إلى الأردن ، للحيلولة دون هجوم عربى على اليهود . إلا أن وضعه لم يتغير قط ، وكان يقول بأنه (ما لم يدع على مستوى دولى عال) ويعنى بذلك أن تدعوه بريطانيا ، لأن يتدخل فى النزاع الفلسطينى ، فلن يأخذ بزمام المبادرة ، وإن كان يبارك كل حركة عربية ضد اليهود ، على شرط ألا تكون إعلان حرب على بريطانيا أو أمريكا .

وفى هذه الظروف الدولية المضطربة ، احتفل ابن سعود فى الثامن عشر من تموز ١٩٥٠ باليوبيل الذهبى القمرى لحكمه كملك مسيطر . ولقد جرى الاحتفال بهذه المناسبة فى جميع البلدان التى كان للمملكة السعودية علاقات سياسية معها ، وذلك بإقامة حفلات الاستقبال اللائقة والثناء والإطراء من محطات الإذاعة . وكانت هذه الاحتفالات تعكس الود

والإعجاب اللذين فرضهما جهاد رجل فذ قاد شعبه من الصحراء إلى المجتمع الدولى . وقامت فى الجزيرة العربية استعدادات رائعة للاحتفال باليوبيل الذهبى للحكم الباهر. ومظاهر لائقة تعبر عن الولاء والإخلاص والعرفان بالجميل . أما الملك نفسه فقد كان حريصًا على ألا يفسد على شعبه بهجته ، إلا أنه كان قلقا من ناحية شرعية هذه الاحتفالات من الوجهة الدينية . ولذا عمد ابن سعود إلى استشارة مفتى الرياض الأكبر ، الشيخ محمد بن إبراهيم وزملائه من الأئمة وعلماء الدين.

لقد كانت الفتوى واضحة وفاصلة : أى أن فكرة اليوبيل الذهبى غير مشروعة حسب تعاليم النبى وسنته ، وأنها من وضع اليهود والمسيحيين واختراعهم ، ولذا فإن الاحتفال بمثل هذه المناسبة مخالفة للشرع . لقد صدرت هذه الفتوى فى الثالث عشر من تموز وسمعها الملك وهو مجتمع مع وزرائه حسب عادته من كل يوم خميس . غير أن الاستعدادات كانت قد تمت منذ مدة طويلة ، ومنها إقامة حفلة كبرى فى جدة ، دُعى إليها أعضاء السلك السياسى وموظفو الحكومة البارزون والأعيان . لكن الأوامر صدرت بإلغاء الاحتفالات المتفق عليها وتوزيع الطعام المخصص للحفلة على الفقراء والمعوزين فى جدة وما جاورها .

ويجدر بنا أن نذكر أن اليوبيل الذهبى الذى صادف فى الرابع عشر من كانون الثانى سنة ١٩٥٢ الشمسية قد أهمل ، لا فى السعودية وحدها بل فى جميع أنحاء العالم .

كان قد مضى آنذاك على الحرب الكورية قرابة الثمانية عشر شهرًا ، وكان الوضع فى منطقة القتال فى مصر آخذا فى التأزم ، مع أن الثورة العسكرية التى حدثت فى ٢٣ تموز ، وسقوط الملك فاروق وقعا بعد ذلك بستة أشهر . أما المملكة السعودية فلم تتأثر قط بأى من هذه الثورات ، مع أن علاقاتها الودية الوطيدة مع مصر ، والتى دامت زمنًا طويلاً أحدثت فى بادىء الأمر رد فعل بسيط يتمثل فى العطف على الأسرة المالكة المطرودة وعلى أعضائها البارزين الذين كانوا على صلة وثيقة بالملك وحكومته . غير أن استقرار الثورة العسكرية ورسوخ أقدامها وتعبيرها عن حسن نواياها نحو الجزيرة العربية ، اكتسبت موافقة السعوديين واعترافهم بسياسة الأمر الواقع .

وكانت المملكة السعودية على اتفاق مع الدول العربية الأخرى لمساندة مصر في طلبها إخلاء منطقة القنال . أما الاعتداءات التي حدثت في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ والنواحي الأخرى في سياسة حكومة الوفد ، فأثارت النقد والاستنكار اللطيف. وأما من ناحية كوريا فقد اعتبرت الحرب فيها مجرد مقدمة للصراع الأكبر الذي لن يحدث في حياة الملك . لذا لم يحظ باهتمام لديه ، وخصوصًا بعد الوقوف عند خط عرض ٣٨ ، الذي حدث بعد الاندفاع الشيوعي ورد الأمريكيين عليه . أما الدول العربية الأخرى فلم تساهم في طلب الأمم المتحدة التعاون مع القوات الأمريكية المشتبكة في القتال الدائر في كوريا ، والذي كان بمثابة اختبار للثبات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي.

وحدث تطور بالغ الخطورة بسبب اتفاقية التعويضات المعقودة بين ألمانيا الاتحادية وإسرائيل . فقبل هذا الحدث ، كان هنالك ميل ظاهر من جانب المملكة السعودية للتفاهم والتعاون في المجال الاقتصادي مع الحكومة الألمانية ، يكفل لها مصالحها فيما إذا وجد توازن فعلي مع الامتيازات الأمريكية . وكان للأسعار والاعتبارات السياسية وبعض المشاريع غير الناجحة التي أنيطت بالشركات البريطانية ، أثرها الوقتي في إخراج التعاون البريطاني من الميدان .

وكانت الدائرة المالية التي يسيطر عليها عبد الله السليمان وعائلته قد قطعت شوطًا بعيدًا في طريق التفاهم مع عدة شركات ألمانية ، منها شركة فيلي هولتزمان المعروفة باسم شركة السكة الحديدية البرلينية البغدادية بخصوص عدد من المشاريع الهامة . ونشأت عند ذلك عقبة عقد المعاهدة . وكانت هذه الشركة المذكورة قد أعدت دراسات مستفيضة لتحسين مرفأ الدمام ، كما كانت آنذاك تقوم بدراسة مشاريع أخرى بالخطوط الحديدية والطرق . وعندما قررت الجامعة العربية مقاطعة ألمانيا تجاريًا وصناعيًا ، تجاوبت المملكة السعودية مع الجامعة في قرارها ، على الرغم من عدم اعتقادها بفائدته أو فعاليته.

أما حكومة بون فقد صادقت على اتفاقية التعويضات مع إسرائيل واستطاعت أن تخفف من نقمة العرب بالكلمات المعسولة والاستقبالات الباهرة التي كانت تحظى بها الوفود العربية الموفَدة للاحتجاج لدى الحكومة الألمانية ، وشيئًا فشيئًا بدا أن مقاطعة ألمانيا قد فقدت فعاليتها .

وفى نهاية سنة ١٩٥٢ ، كانت المملكة السعودية مرة أخرى تمد يدها للترحيب بالصناعيين والأطباء والطبيبات وغيرهم من أخصائيي الألمان . وكان بعض الوقت قد ضاع فى إعداد المشاريع . إلا أنه كان أمام الجزيرة العربية متسع من الوقت للوصول إلى وضع ثابت من الاستقرار والتطور. لقد كان فى بعض الأمور كثير من العجلة وعدم الرَّوية فى معالجة مشاكل الحاضر والمستقبل . ولقد أحدثت وفاة الملك توقفا فى نشاط الحكومة ، هذا النشاط الذى كان سيساعد الحكومة الجديدة على تقييم الوضع الذى ورثته عن الماضى، وعلى أن تضع خططها للمستقبل ، وا ثقةً من أنها ستستقبل فترة طويلة من السلم والازدهار . فلم يكن هنالك أى ميل للصلح مع إسرائيل ولا يمكن أن يكون فى المستقبل كذلك أى ميل للصلح أو تسوية أية مشكلة ، سياسية كانت أم اقتصادية فالقائمة السوداء التى تسجل فيها جميع الشركات اليهودية فى جميع أنحاء العالم والتى يمنع الاتجار معها منعا باتًا فى السعودية العربية قد وصلت إلى نسبة مؤثرة . ومن غير المحتمل أن ينجح بن غوريون بآخر أغنياته السلمية وبغصن الزيتون ، فى التخفيف من العداوة المريرة التى تفصل إسرائيل عن جيرانها العرب .

وبغض النظر عن كون ابن سعود قد اختار لبلاده بشكل عام ، سياسة الود والتعاون مع الجامعة العربية منذ تأسيسها ، وفى جميع الأمور ذات الأهمية الدولية العامة منها والخاصة بالنسبة للدول العربية مجتمعة ومنفردة فإنه يصعب علينا تقدير مدى اهتمامه ونشاطه فى مثل هذه الأمور خلال السنوات الأخيرة التى وجه اهتمامه فيها إلى أمور بلاده الداخلية . ففى كل الأمور المتعلقة بالمحافظة على الأمن والنظام والحقوق الشخصية والمخالفات والمشاريع التى تهمه بشكل خاص من مثل بناء خط حديد الدمام الرياض ، لم يتأخر ابن سعود عن ممارسة الإشراف الحاسم على إدارة شؤون البلاد ، بالرغم من جميع الاعتراضات التى قدمها الاقتصاديون الكثيرو الحذر . ويمكن الاعتراف الأن دون الدخول فى التفاصيل بأنه كان مصيبًا وأن له ما يبرره فى الازدهار الاقتصادى المدهش الذى ترتع فيه المدن والمناطق المستفيدة من الخط الحديدى أما فى مجال مصالح البلاد المتعددة الأنواع ، فقد أصبح قانعا جدًا بأن يترك توجيه جميع الأمور الخاصة بها ، لولى عهده النشيط الذى ازداد قوة وطولاً فى

السنوات الأخيرة ، خصوصًا بعد عودته من زيارته الطويلة للولايات المتحدة ، وأصبح عاملاً فعالاً فى حكم البلاد .

وقد كان ظل والده يلازمه فيرشده ويشجعه ويساعده فى الأزمات كما حد الأشرار ومنعهم من القيام بأى عمل شرير فكروا فيه . وكان واضحا منذ سنوات عديدة قبل النهاية بأن آمال السنين قد أوشكت على النهاية بالنسبة لرجل قضى حياته فى الانتصار على الشدائد ، وليس بوسعه الآن أن يفعل شيئا غير أن يرقب بقلق بالغ عميق الغيومَ السوداء التى أخذت تتجمع فى أفق العالم المضطرب والذى أصبح مستقبل بلاده المحبوبة منوطًا فيها بأيد غير يديه: أيد تقل خبرة ومهارة إلا أنه دربها على المهنة التى ورثها عن أسلافه ومارسها بامتياز تام. وكان هنالك خطر وحيد لم يستطع خلال السنوات الخمسين من الجهد الكثير أن يطرد شبحه وذلك بإقناع أقدم أصدقائه أنه مخلص فى صداقته . ففى أقصى الجنوب الشرقى من بلاده تقع واحة البريمى الصغيرة التى اجتذبت أنظار البريطانيين الطامعين فقد قضت حامية. ابن سعود الصغيرة السيئة التسليح بقيادة حاكمها المحلى تركى بن عطيشان قرابة الإثنى عشر شهرًا فى حصار فرضته عليها بريطانيا مستخدمة فى ذلك جميع فرسان المملكة ، تسندها الطائرات والمصفحات . وقد برز اسم البريمى فى هذا الكتاب كوحدة من الدولة الوهابية ، ولسنا نهدف فى كتابنا هذا إلى الدخول فى تفاصيل النزاع الحالى الذى ما كان لينشأ لولا إمكانية ظهور البترول فى رمال تلك الصحراء . فالحكومة البريطانية تدعى ملكية المنطقة باسم سلطان مسقط وشيخ أبو ظبى ، فكلاهما يمتلك بساتين نخيل فى الواحة ، ولا خلاف بينهما وبين ابن سعود فى ملكيتها . أما الحقيقة التاريخية التى لا تقبل الشك فهى أن أحدًا منهما ما مارس السلطة والسيادة على الأراضى المتنازع عليها ، كما يتضح ذلك من أحدث مرجع موثوق فى هذا الموضوع كما أشرنا إليه فى مقدمة هذا الكتاب . ومن المؤسف حقا أن يكون السير ونستن تشرشل ، بنفسه دون جميع الناس ، الداعى إلى الاعتداء الذى لامبرر له على رجل رحب به واستقبله فى الأيام الخوالى ، كأعظم صديق فى وقت الضيق خلال أحلك أيام الحرب .

لقد أظلمَ هذا النزاعَ أيَام الملكِ الشيخِ . فقد عاش فى عزلة وراحة فى الرياض منذ آخر حج قام به ، تحت وطأة حر صيف مكة سنة ١٩٥١ . فلقد أخذت الشيخوخة وسوء الصحة تظهران عليه . فاضطر بسبب عاهة ركبته أن يستعمل الكرسى ذا العجلات فى انتقاله . وأصر بقدر استطاعته على الاحتفاظ بالنظام الذى درسه ووضعه طوال حياته فى أمر الاتصال بمرؤسيه فى الوقت المعين . ولكنه قلما غادر دائرة قصر المربع ، وإن قضى جزءًا من صيف سنة ١٩٥٢ فى قصر البديعه Al Badia قصر ولى العهد الريفى الواقع فى وادى حنيفه . وكان آخر أعماله العامة العظيمة فى الرياض ، كظهوره ليفتتح الخط الحديدى فى تشرين الأول من سنة ١٩٥١ ، كما حضر بعض الحفلات الرسمية فى الطائف ، فى أواخر صيف سنة ١٩٥٣ وكان قد سافر إليها فى طائرة (سكاى ماستر) طائرته الخاصة لقضاء آخر شهور من حياته . وفى النصف من تشرين الأول أصيب بنوبة قلبية خطيرة أحدثت قلقا بالغًا بين صفوف شعبه. وتواردت عليه البرقيات الكثيرة التى يتمنى له مرسلوها فيها الشفاء. وكانت إحداها مُرسَلَة من ملكة انجلترا . وعندما شُفِى ألح على حضور الاجتماعات العامة المعتادة بنفسه ، وإن كانت هذه قد حددت واقتصرت على واحدةٍ بعد الظهر لاجتماعه بأبناء شعبه . غير أن عودة المرض اضطرته أن يلازم غرفته . وهناك فى الساعة العاشرة والنصف صباحًا وفى التاسع من تشرين الثانى سنة ١٩٥٣ وفى حضور عدد من أفراد عائلته الكبيرة أسلم الملك العظيم الروح. فقرئت الصلاة على روح الفقيد فى عصر ذلك اليوم فى مصلى الطائف الكبير بحضور جمهور عظيم من الشعب المحزون . ونُقِل جثمانه إلى الرياض على متن طائرة ، يرافقه الأمير فيصل وبعض أبنائه . وفى تلك الأمسية بالذت وبعد قراءة الصلوات المعتادة على جثمانه ، دفن فى الرياض ليخلد إلى الراحة بجانب أبيه . لقد انتهى حُكْمٌ عظيم .. وبانتهائه ينتهى تاريخ هذه الأعمال العظيمة والمنجزات الباهرة التى قامت بها هذه الأسرة المالكة العظيمة التى حكمت الجزيرة العربية خمسة قرون . يبدو أن الحكم سيستتب لها أجيالاً عديدة أخرى. لقد قضى الملك العظيم نحبه ، ولكن اسمه سيظل خالدًا على الدهر.

المحتــــويات

الموضــــــــوع	الصفحة

تاريخ نجد

ودعوة محمد بن عبدالوهاب (السلفية)

لم يكن قد مضى على وفاة تيمور لنك إلا أقل من نصف قرن، وكان لا يزال مقدراً للعرب أن يبقوا فى أسبانيا نصف قرن آخر، وقبل أن يكتشف كولومبس أمريكا بنصف قرن أيضاً حين توجه سنة ١٤٤٦ مواطناً من عامة أهل القطيف، ومن ضاحية هناك تسمى الدرعية ليزور ابن عمه، ابن الدروع الذى كان قد استقر منذ زمن بعيد فى منفوحة. وهى قرية بقرب الرياض فى أواسط الجزيرة العربية. وكان ابن عمه هذا زعيم عشيرة الدروع الذين كانوا يقطنون فى القرى المهجورة من جزع وهدر اليمامة فى الوقت الحاضر. وكان رجلاً موسراً ذا ممتلكات واسعة تحتاج إلى عناية وتطوير. فأقطع ضيفه قطعتين من الأرض تبعدان اثنى عشر ميلاً فى أعالى الوادى عن أراضيه، إحداهما تدعى الغصيبة والثانية المليبد. وعلى هذه الصورة البسيطة بدأت هجرة الدروع إلى ذلك الوادى واستقرارهم فيه.

ثم تقادم العهد حتى صارت تعرف باسم الدرعية تخليداً لذكرى القرية الأم التى نشأ فيها أجداد سكانها، قرب الخليج الفارسى العربى.

ولا يمكن الجزم، بشخصية من أغدقت عليه هذه الأملاك، أهو مانع المريدى نفسه، وهو الذى ابتدر بالاتصال مع ذلك الغريب على التحقيق، أم أنه أبوه ربيعة.

وعلى كل حال فقد كان ربيعة هو الذى وضع أساسات تنمية رقعة ذلك المهجر وتوسيعه العدوانى على حساب جيرانه، إلا أن الفضل يعو
وابنه ربيعة فى كونهما أسبق الأسلاف المعروفين للبيت السعودى
الذى سيطر على مسرح السياسة فى الجزيرة العربية طوال ال
الأخيرة.

